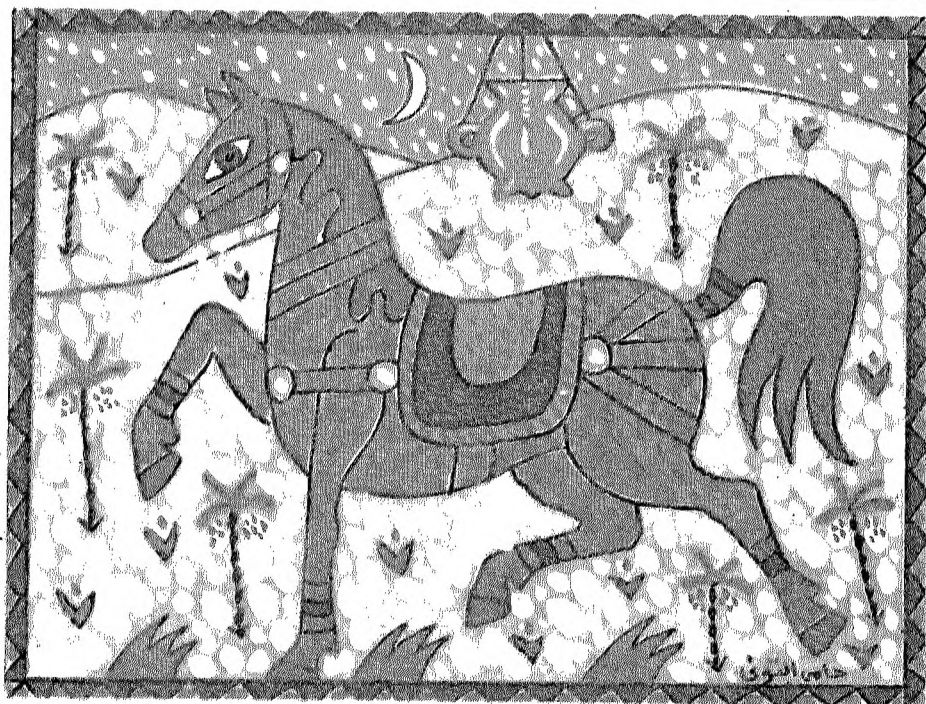


دكتور سليمان بن حنين

الارض العروبة

رحمة حمزة البشير في الملك كان في النوا



دار الشروق

أَرْضُ الْعُرُوبَةِ
رُؤْيَا يَحْمَدُ رَبِّهِ فِي الْمَكَارِفِ وَالْمَوَاقِفِ

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسن - هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس: ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) - تلکس: 93091 SHROK UN
بيروت: ص.ب. ٨١٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
بريتانيا: فاكس: 20175 LE - تلکس: SHOROK

سُلَيْمَانُ بْنُ جَزِينٍ

أَرْضُ الْعُرُقَةِ
رُؤْيَا حَضْرَاتِي فِي الْمَكَازِي وَالزَّمَانِ

دار الشروق —

إهداء

إلى من أحبها العربي
حباً له الله، يوطن مكاناً منبت حمض الرات لله ونساق منزل كما نمت
وأنزل فوق أرضنا رسالات السما وبشرة بعقيدة الشوم والتوحييد
وأقامنا على موقع جعفر في رباط بين شعوب الأرض وسلاسل البشر
وأفادوا حلياً من البجايا ما جعل منكم رسول الخير والسلام في العالمين.
هذا الكتاب منكم وإليكم.

سليمان أحمد عز الدين

المحتوى

الصفحة

٩	١ - هذا الكتاب والظرف الذى ينشر فيها
٢٥	٢ - المناطق الحضارية فى العالم القديم (قبل العهد العربى)
٨٧	٣ - المشرق العربى بين الماضى والحاضر
١١٥	٤ - المغرب العربى : صلاته بالمشرق العربى القديم والحديث
	٥ - العرب وانتشار الإسلام (أثر العوامل الطبيعية والبشرية
١٢٩	فى حركة الانتشار)
١٧٣	٦ - العروبة ومصر : تأصيل العلاقات بينهما فى المكان والزمان
١٩٥	٧ - الشرق الأوسط والحروب العالمية فى التاريخ
٢١٣	٨ - الأمة الوسط والبيت العربى الكبير
٢٣٣	٩ - تكامل العروبة والاتصالات العالمية فى التاريخ
٢٥٣	١٠ - مقومات الثقافة العربية ودورها فى حياتنا القديمة والمعاصرة
٢٦٩	١١ - مقومات الحضارة الإسلامية وسماتها فى التطبيق العربى
	١٢ - خطط الإصلاح الإجتماعى والأوضاع التاريخية والثقافية
٢٨٧	فى المشرق العربى
٣٠١	١٣ - تاريخ يعيد نفسه فى منطقة شرق نهر الأردن
٣١٥	١٤ - الكويت واخواتها الخليجيات : مطل العروبة على البحار الجنوبية
٣٢٧	١٥ - بين الجغرافيا والتاريخ فى أرض العراق وما جاورها
٣٤١	١٦ - أزمة الخليج (١٩٩٠ - ١٩٩١) : رؤية جغرافية تحليلية
٣٥٥	١٧ - فى بلاد اليمن السعيد
	١٨ - بعثة الجامعة المصرية إلى اليمن وحضرموت (١٩٣٦)
٣٦٩	(تقرير عن دراسة ميدانية رائدة)

« ١ »

**هذا الكتاب
والظروف الذي ينشر فيه**

هذا الكتاب والظروف الذي ينشر فيها

حديث الوحدة العربية والقومية العربية حديث قديم متجدد ، وهو جزء من أحاديث أصحاب ما نسميه « بالجغرافيا السياسية » منذ بدأ الناس في عصرنا الحديث يذكرون شئون « الوحدة والقومية » بين مجموعات من شعوب العالم ، يقطنون جهات أو أوطاناً معينة من العالم ، وترتبط جماعاتهم بالأرض والبيئة ، وبالتاريخ البشري ارتباطاً جعل منهم وحدة بشرية لها مكانها في التاريخ ، ولها دورها الخاص في بناء الحياة والحضارة ، وصياغة مجرى الأحداث في العصر الذي تعيش فيه . ولقد تزايد الحديث عن وحدات معينة كثيرة أطلق على بعضها في التاريخ السياسي اسم « الأمم » كما أطلق عليها في التاريخ الاجتماعي اسم « الجماعات » . ويهمننا في هذا المقام حديث أمتنا العربية التي تفردت بحضارة معينة هي حضارة العرب أو حضارة الأمة العربية الإسلامية ، بعد أن جاء الإسلام وفتح عصرًا جديدًا في حياة هذه الأمة التي اتسع تعريفها ليشمل جماعات إسلامية قريبة منها ولم تكن عربية النشأة ، لكن الإسلام جمع بينها كما جمعت معالم لغة القرآن الكريم ، تؤلف بينها على نحو اتسع وزاد عمقاً وتجلياً على مر الزمن ، حتى تداخلت الحضارة العربية والحضارة الإسلامية ، تداخلاً جعل من الصعب أن نفرق بينهما ، أو حتى أن نفهم إحدى الحضارتين دون فهم كاف للحضارة الأخرى ، حتى اختلط الحديث عن الأمة العربية بالحديث عن الأمة الإسلامية ، منذ تطرق بعض الناس إلى الحديث عن « الأمة الوسط » التي قد تكون هي التي جعلها الله « خير أمة أخرجت للناس » .

ذلك كان حديث أمتنا الأولى ، التي قامت في قلب العالم القديم ، وتوسّطت

الشرق والغرب ، بل الشمال والجنوب . ولكن هذا الحديث اتخذ صفة جديدة في عصرنا الحديث والمعاد . حين جاءت فكرة « الأمة » وفكرة « القومية » بصورة جديدة من أوروبا المعاصرة التي عرفت هاتين التسميتين عندما ظهرت في أوروبا أمم أو قوميات ذات « أوطان » استقلت عن كيانات سياسية سابقة انقسمت إلى دول أو دويلات لكل منها كيانه السياسى المستقل ، وسعت كل منها لأن تضع نفسها على الخريطة ، وتلمس بعض أصولها القديمة في التاريخ ، فكانت لكل منها لغتها وثقافتها وأصولها القبلية أو العنصرية في بعض الأحيان . فلما جاء القرن التاسع عشر والقرن العشرون وامتدت ظلال الاستعمار من أوروبا إلى المشرق وما وراءه ، جاءت فكرة القومية ومعها مفهوم التبعية ، فلما دخلت إلى مشرقنا القريب بدأت الفكرة أولاً منسوبة إلى تركيا العثمانية ، التي كانت لا تزال تسيطر على أغلب بلدان المشرق العربى ، ومنها مصر بالذات . وأخذ الناس يتحدثون عن قوميات جديدة . ولكن فكرة القومية العربية بالذات لم تظهر على السطح إلا متأخراً ، وإنما اتجه المفكرون السياسيون في المشرق العربى إلى الحديث عن القومية العثمانية أو التركية المتوارثة عن امبراطورية آل عثمان ، لدرجة أن بعض أولئك المفكرين والقادة في مصر ذاتها فضلوا أن ينسبوا أنفسهم إلى تلك القومية العثمانية ، لأنها كانت أقرب إلى سلطان المسلمين ، ولم يجد بعض أولئك الزعماء - ومنهم مصطفى كامل الرائد المصرى المسلم - بداً من أن يستمسكوا بركب الأمة العثمانية ، التي كانت تقوم على الإسلام وشئونه ، وتتحكم في العروبة وأبنائها في مختلف « الولايات » في مصر وما جاورها إلى الشرق وإلى الغرب في آسيا وإفريقية . واستمرت الحال على ذلك حتى قويت شوكة العروبة واشتد ساعدها ، وتجلت ثقافتها « العربية » ، وبرزت شخصية بعض الأقطار العربية ذات الحضارة القديمة التي تجددت في العصر العربى ، ومنها مصر وسورية ولبنان وغيرها من أقطار المشرق العربى والمغرب العربى ، فظهرت فكرة « القومية العربية » واضحة متميزة وكان ظهورها على شكل « وحدات » عربية أول الأمر ، برزت فكرة « الوطنية » لارتباطها بأوطان صغيرة محددة ، ثم تطورت الفكرة فجمعت بين أوطان عربية متجاورة ، وجاءت آخر الأمر فكرة « القومية العربية » التي تشمل أكثر من قطر واحد ، وأصبحت هذه « القومية » هى ما بدأ المفكرون العرب يعربون عنه بأن القومية هى في

الواقع « عقيدة وحركة » ، أى إنها ظهرت أول الأمر على أنها عقيدة تتصل بباطى الأمة العربية والإيمان به والاستمسك بذاته وأصوله القديمة . . . ثم إنها فوق ذلك « عمل » أو « حركة » ، لأن العقيدة ان وقفت عند حد الإيمان بها ، فإنها لا تنتقل إلى مرحلة « العمل السياسى » الذى يؤدى إلى السعى الخيى إلى تحويل العقيدة الفكرية إلى عمل سياسى ملموس ، هو الذى اضطرت به حياة العرب ووطنيتهم وقوميتهم التى ميزت تاريخ الأمة العربية الحديث والمعاصر .

وأول اتصال لصاحبكم بمفهوم « الوحدة العربية » ثم « القومية العربية » يرجع إلى أوائل الثلاثينيات من هذا القرن ، حين ذهب صاحبكم إلى أوروبا فى بعثة علمية والتمس طريقه إلى اختيار موضوع يتصل بباطى الأمة العربية من جهة ، ثم بمستقبلها المأمول من جهة أخرى . وكنا قد نشأنا فى عهد « الوطنية » المصرية ثم بدأت بشائر « القومية العربية » عن طريق ما كنا نسعى إليه من إقامة « الوحدة العربية » ، لتحل محل ما سبق إليه مفكرون فى أوائل هذا القرن العشرين ، وعلى أيام زعيمنا مصطفى كامل ، الذى كان يسعى على طريق الوحدة العثمانية ثم تدرج إلى الوحدة الإسلامية (على أيام الزعيم الإسلامى جمال الدين الأفغانى والمفكر الأزهرى محمد عبده) ، حتى جاءت الوحدة المصرية على أيام زعيمنا الوطنى اللاحق سعد زغلول . ولكن مصر لم تلبث أن لمست طريقها إلى العروبة والوحدة العربية . . . ثم القومية العربية التى ترعّمها بعض المفكرين من العرب ، فى المشرق العربى (ونذكر منهم عبد الرحمن البزاز فى العراق) ، وهكذا بدأ الحديث عن الوحدة العربية يتسع إلى خارج نطاق الوحدة والوطنية المصرية . . . وكان عهد صاحبكم بحركة التطور والتغيير هذه أن سعى فى أول عهده بأوروبا (أول الثلاثينيات من هذا القرن) حين بدأ يوجه دراساته إلى أرض العرب بعمامة (وأرض مصر منها بخاصة) فوجد نفسه فى مواجهة الفكر الأوروبى الداعى إلى نوع ضيق من « الوطنية » الأوربية ، ما لبث بعضه أن اتجه إلى نوع خطير من التوسع الاستعمارى ، فأنشأ لكل أمة من أممه الصغيرة إمبراطورية استعمارية كبيرة خارج أوروبا فيما وراء البحار ، أو (فى حالة روسيا) فيما وراء جبال الأورال من أرض آسيا وسيبيريا . . . وكنا قد استشعرنا لمس اتساع بعض أفكار ووطنيات أوروبا وقومياتها الصغيرة إلى بلاد المشرق العربى وما حوله ، فاستشعرنا

الظلم فيما نَحَت إليه أوروبا ووطنياتها وقومياتها من طغيان ينافى قواعد الوحدة الإنسانية التي عرفناها في بلادنا التي قامت على التأخى والتكامل الحضارى . ولنا أن نتصور ما استشعره صاحبكم من خروج صارخ عن الخط الإنسانى الذى اعتاده في بلاد العقائد السماوية السمحة ، لاسيا عقيدة الإسلام ، التى لم تكد تعرف ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، والتى جمعت بين الناس جميعاً تحت مظلة إنسانية وروحية واحدة ، وعرفت المساواة والإنصاف بها لم تعرفه حضارة الغرب الحديث . وهكذا أصيب صاحبكم فيما نشأ عليه من قيم الحق والخير والتكافل بين الناس بل هكذا تجسدت أمامه في أوروبا فلسفة الأثانية التى أثارت مشاعر التنافس غير العادل ولا المتكافئ بين الأمم والشعوب ، وتنان من آثار ذلك كله أن أعرض صاحبكم عن أن تبهره مظاهر الوطنية أو القومية الأوربية ، والتى تكاد تخلو من قيم الإنسانية التى اعتاد أن يراها في بلاده . . . مصر ، التى كانت تباهى في ثورتها الوطنية الأولى بأن تنادى بشعار «أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا » وهو شعار كاد أن يؤدى بنا إلى أن نفضل أن نعطى الأجنبى من خيرات بلادنا بعض ما كان من الأولى أن نحتفظ به لأنفسنا . وما أبشع الصورة التى لم تلبث أن تكشف لصاحبكم حين رأى أهل أوروبا المعاصرة يتعمون بخيرات بلاد غيرهم من أهل المستعمرات ولا يكادون يتركون من هذا الخير فضلة لأهله الأصليين .

وهكذا بدأت نزعة الخير التى توارثناها عن ثقافتنا وعقيدتنا تتجه بأمثالى ممن سافروا في سبيل العلم الحديث . نحو الاستمساك بترائنا الحضارى في وجه المدنية والقومية الزائفة في بلاد الغرب . وعند ذلك نقول إن الخير والأصالة إنما قاما في المشرق وبقياً في ربوعه ، وإن القومية التى عرفتها أوروبا إنما هى قومية استعمارية قد تكون جذورها الروحية في بلاد المشرق ولكن تطبيقاتها في الغرب خرجت بها عن أصول الخير والإيثار والمساواة بين الناس ، حتى عرفت الظلم الإنسانى في أبشع صوره ، وهو ما لا يجوز لشباب المشرق الخارج إلى بلاد العلم في أوروبا أن ينهر به إلى حد النقل والمحاكاة في مسيرته السياسية المعاصرة .

ثم عاد أمثالى من شباب المشرق الساعى إلى العلم في المغرب . . . عادوا إلى موطن حضارتهم في المشرق في أواسط الثلاثينيات من القرن ، فوجدوا حركات القومية

العربية (بعد القومية الإسلامية) وقد نزعَت بأبنائها في طريق آخر هو طريق الموارِيث القومية العريقة التي تمتد جذورها في التاريخ ، والتي تحاول أن تستعيد أمجادها ، فوجدنا الوحدة التي تربطنا بالأرض ، والعقيدة التي تربطنا بالسماء ، والأجداد الوطنية التي تشدنا إلى أصلاب الحضارة والتاريخ . وبدأنا نشعر بالتالي أن حضارة الغرب إنما هي حضارة مغتربة عن أصولها ، سطحية في ارتباطها بالأرض ، غير عميقة الإيمان في اتصالها بالسماء ، وغير منصفة ولا مخلصَة في استمساكها بنواميس الحق أو العدل أو حتى بأواصر المساواة أو الرحمة والمعروف بين الناس أو بين الشعوب ، لاسيما إذا خرجنا عن حدود القارة الأوربية التي تعرف « القوة » ولا تكاد تعرف « الحق » . وكان طبعياً أن ينتهي هذا الموقف إلى متناقضات نفسية انتهت بشباب المشرق إلى أنه بدأ يبحث عن فكر وطني وقومي يناسب بلاده ، ويختلف عن فكر أوربا الحديثة كل الاختلاف .

في هذا الموقف عاد كثيرون من أبناء العروبة من أوربا إلى بلادهم ، فوجدوا حركة الوطنية العربية والقومية العربية تصعد نحو أوجها . وكان الحديث أول الأمر عن «الوحدة» العربية ، ولكنه ما لبث أن اتخذ صورة « القومية » العربية ، وهي التي تجمع بين عدة « وحدات » وطنية ، بعد أن شعر العرب أن الوحدات الصغيرة لا مستقبل لها في خضم التجمعات القوية بمساحتها أو بعدد سكانها أو بقدراتها المادية والاقتصادية ، أو بأدوارها السياسية والعسكرية التي تساندها التحالفات التي بدأت تظهر إلى الوجود . وكان صاحبكم قد عاد في أواسط الثلاثينيات من بعثته في الخارج ، ودخل إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة بعيد منتصف العقد ، وكان تلاميذه مجموعة كبيرة من الطلاب المصريين والعرب من مختلف البلاد العربية ، وكان عليه أن يدرّس لهم مادة الجغرافيا ، ولكنه توسع في مفهوم هذه المادة التي تطورت كثيراً في تلك السنوات ، ودرسها هو على مفهوم جديد في كل من إنجلترا وفرنسا والنمسا وألمانيا ودخل من دراساته إلى أن الجغرافيا لم تعد علم « المعلومات » المتصلة بالطبيعة والبيئة أو بالإنسان والحياة البشرية ، بقدر ما أصبحت علم « التأمل » في صلة الإنسان بالطبيعة ، وصلة التاريخ بالجغرافيا ، وصلة الجغرافيا بالسياسة . وقد طبق صاحبكم ما تعلم في الخارج على ما يعلمه لتلاميذه في كلية الآداب ، والحق إنه قامت

زوبعة طارئة في الكلية والجامعة حين أفصح لتلاميذه عن آرائه ، حتى انتهى الأمر إلى السفارة البريطانية التي كانت تتابع ما يدرّس مما يمس السياسة العربية ، ولكن عميد كلية الآداب إذ ذاك - وكان أستاذنا طه حسين - حسم الأمر حين وقف إلى جانب الحرية الأكاديمية وحق عضو هيئة التدريس في أن يعلم ما يشاء على مسئوليته . وكان ذلك اختباراً لكل من المدرس الناشئ والكلية العتيقة . وما أجدر مادة الجغرافيا بمفهومها الجديد أن تكون ميداناً لمثل هذا الاختبار . والحق أن هذه السبيل الجديدة لعلم الجغرافيا هي التي سار عليها صاحبكم لنصف قرن كامل ، حتى جاء وقت إخراج كتابه الأخير عن « حضارة مصر أرض الكنانة » وهو صنو هذا الكتاب عن « أرض العروبة » ، وكلاهما كتاب فكر « وتأمل » قبل أن يكون كتاب بيان « معلومات » . والأمل كبير في أن يجد قارئهما بغيته من المادة الجغرافية وتأملاتها الجارية في دراسات كثيرة سبقت إلى بعضها كتب « دراسية » أخرى عن جغرافيا العالم العربى .

الواقع أن هذا الكتاب كسابقه ، ليس من كتب الجغرافيا المألوفة ، وإنما هو مجموعة من التأملات عن منطقة هامة من العالم القديم ، تختلف بدورها عن بقية مناطق العالم ، ولعلها أن تكون فريدة بينها ، فليس كمثلهما منطقة أخرى ، لا من حيث اتساع نطاقها بين هضاب آسيا الغربية في إيران وبين المحيط الأطلسي ، ولا من حيث تنوع مواردها الطبيعية والبشرية ، ولا من حيث توسّط موقعها الفريد بين أهل المشرق وأهل المغرب وبين أهل الجنوب وأهل الشمال ، ولا من حيث اتصالاتها العريقة بين حضارات العالم القديم في العهود السابقة ، وحضارات العالم الحديث في عهدنا المعاصر ، ولا من حيث الدور التاريخي الذي كان لها ، حين كانت أقرب مناطق العالم إلى بدايات الحياة البشرية وظهور سلالات البشر المختلفة ، التي امتدت منها السلالات الصفراء والمغولية إلى مشرق آسيا ، والسلالات الشقراء إلى أوروبا في الشمال ، وسلالات البحر المتوسط إلى مغارب العالم القديم ، والسلالات السمراء والسوداء إلى جنوب المشرق العربى وإلى أطراف الهند وما وراءها حتى أستراليا من جهة ، ثم إلى داخلية القارة الإفريقية من جهة أخرى . كذلك فإن « وسطية » هذه المنطقة الفريدة جعلتها همزة وصل بين الشعوب والحضارات القديمة ، فهناك إلى

الشرق البعيد حضارة الصين المميزة ، وإلى الشمال من منطقتنا حضارة اليونان والبيزنطيين ومن سبقوهم في تلك الاصقاع ، وفي داخليتها حضارة البادية والساميين والحاميين القدماء ، ثم هناك حضارة مصر الراسخة على جنبات نهر النيل ، وإلى الجنوب منها حضارات شرق إفريقية وداخلية القارة ، ثم إلى الغرب والشمال الغربى حضارات البحر المتوسط التى امتد نشاط أهلها مع السواحل إلى غرب أوروبا وإلى شواطئ الأطلنطى ، ثم أخيراً هناك إلى أقصى الغرب والجنوب الغربى حضارات إفريقية الصحراوية والسودانية وامتداداتها إلى المناطق المدارية والاستوائية . . . وهكذا تفردت تلك « المنطقة الوسيطة » فى آسيا وإفريقية بأنها كانت بحق قلب العالم القديم كله . . . أرضاً وسكاناً وحضارة وتاريخاً . . . فكانت ميراً إنسانياً خالداً « للعروبة » ، التى ظهرت قبل العهد الإسلامى ، واستمرت على الزمن كله ، حين أصبحت بحق همزة الوصل فى تبادل السلع والأفكار بين أهل العالم القديم جميعاً ، وتناوبت تلك الاتصالات بين الاتصال السلمى والحضارى الإنسانى حيناً ، وبين النزاع والتشاحن والحروب المحلية أو العالمية حيناً أو أحياناً أخرى . حتى إذا ما جاء العهد الحديث تجددت تلك الاتصالات والاحتكاكات فى منطقة كان مصيرها أن يختارها الله مهبطاً للأديان السماوية الكبرى جميعاً ، فيها انزلت ، ومنها انتشرت ، وأن تكون فوق ذلك وفى عهدنا الحديث محك الحضارات الحديثة التى تشابكت فيها المصالح والأهداف ، وامتد ذلك التشابك حتى اجتذب العالم الأمريكى الحديث من وراء المحيط ، وانفرد الشرق الأوسط بمعناه الأوسع الأعم لجعل من « الأرض الوسطى » نقطة التقاء العالم كله ، سلماً وتجارة أو حرباً وشحناء . وهذه هى الصورة التى ورثها أبناء العروبة فى زمننا هذا العصيب ! .

ولنعد الآن إلى موضوع « الوحدة » العربية أو « القومية » العربية الذى اخترناه لهذا الكتاب عن « أرض العروبة » ، والذى اخترنا أن نعالجه وفق منهج ما أسميناه « بالجغرافيا الحضارية » . وهو منهج يختلف عن المنهج الجغرافى المعتاد والذى تسلكه كتب الجغرافيا بصفة عامة ، حين تسير وفق منهج المعلومات والبيانات الجغرافية التى تتناول البيئة الطبيعية ، من أرض ومناخ ونبات وموارد طبيعية متنوعة ، ثم تتناول الإنسان وحياته وعمله واستخدامه للأرض والموقع الجغرافى ونحو ذلك . أما منهج

الجغرافيا الحضارية فهو امتداد لمنهج ما نسميه أحياناً «بالجغرافيا التاريخية» ، والذي يدرس النشاط البشرى على نحو ما تدرسه الجغرافيا البشرية العامة ، مع فارق بسيط وهو أن الجغرافيا البشرية تدرس العلاقة بين الإنسان والبيئة في ظرف وزمن واحد معين ، وتكون الصورة التى تخرج بها عن تلك العلاقة صورة « ثابتة » أو « جامدة » تشبه الصورة الفوتوغرافية غير المتحركة . أما الجغرافيا التاريخية فإنها تدرس «العلاقة المتطورة » بين الإنسان والبيئة . وبذلك فإنها تشبه « الفيلم » المتحرك المكون من مجموعة من الصور المتلاحقة فى سرعة زمنية معينة ، تجعلها تشبه صور الخيالة المتحركة (السينما) ، ويكون تتابع الأحداث فيها هو فى حقيقته تتابعاً يصور العلاقة بين الإنسان وبيئته . ولعل الجغرافيا الحضارية أن تكون لوناً خاصاً من ألوان الجغرافيا التاريخية . . تخصص بتصوير حضارة الإنسان فى تتبعها الزمنى ، وتشمل الحضارة بها فيها من جانب « المدنية » ، وهو الجانب « المادى » من مظاهر النشاط البشرى وإبداع الإنسان المادى فى استغلال موارد الطبيعة ، كما تشمل جانب « الثقافة » الذى يمثل الإبداع الفكرى والثقافى والأدبى والفنى الخالص للقرينة البشرية . ومن مجموع العاملين « المدنى » « والثقافى » يأتلف العمل الحضارى العام .

على هذا النحو سندرس « أرض العروبة » فى هذا الكتاب ، فتتابع المكونات الإقليمية لهذه الأرض المميزة من هضاب إيران إلى شواطئ المحيط الأطلنطى ، بكل امتداداتها إلى شواطئ البحر المتوسط من جهة وإلى داخلية إفريقية السودانية والشرقية من جهة أخرى ، وقد نشير من وقت لآخر إلى امتدادات تلك الأرض وحضارتها (أو ثقافتها على الأقل) إلى بعض المهاجر وراء المحيطات الشمالية والجنوبية .

وسنرى فى فصول هذا الكتاب أن لكل بقعة من هذه الأرض الطيبة دورها الخاص فى بناء القومية العربية والثقافة العربية والتاريخ العربى . فالصحراء والبادية مثلاً كانت « ضمير » الأمة العربية خلال التاريخ . ففى البادية تشكلت السجايا العربية بين الأعراب والبدو وظهرت الشيم والسائل التى امتاز بها العرب على مر العصور ، كالشهامه والنخوة والكرم والتضحية من أجل المجموع ، وغير ذلك مما عُرف عن العرب منذ قديم . والمناطق الجبلية مثلاً أضفت على أهلها صفاتهم وطبائعهم التى ورثوها عن البيئة الجبلية القاسية . . . وأهل السهول والأراضى المنبسطة كانت لهم

صفة الاستقرار والمدنية والنزوع إلى طلب الرفاه والعافية وأهل السواحل كانت لهم صفة الجمع بين نشاط البر ونشاط البحر ، وكانت تغورهم مطلقاً على العالم الخارجى وراء البحار ومناطق الحدود كانت مناطق دفاع في مواجهة حضارات أخرى وثقافات وانتماءات سياسية مختلطة . ومع ذلك فإن تنوع مصادر الثروة في الأمة العربية كان مصدر خير وقوة . وقد عرفت الأمة العربية دائماً أن تنتقل من « التنوع » إلى « الوحدة » ، وكانت اللغة والثقافة والتعارف والتكامل والتراحم سبيل هذه الأمة إلى تلك الوحدة . وينفعنا في هذا المقام أن نحاول دائماً أن نتعرف على « من هو العربى ؟ » وماذا نقصد بالعروبة ؟ والجواب على ذلك بسيط بساطة الكيان العربى التاريخى نفسه ، فالعربى لا تكتمل له عروبه إلا إذا كانت « اللغة العربية » وعاء فكره وثقافته ، وكانت « العروبة » محط « انتباهه » الوطنى والقومى . وإن « اللغة والثقافة والانتماء القومى » لهى منارات القومية العربية التى يزجى إليها هذا الكتاب ! .

ولكن مداخل الناس إلى تلمس الطريق إلى « القومية العربية » قد اختلفت وتشعبت من حين إلى حين ولا تزال الطرق تختلف وتشعب بنا خلال تاريخنا المعاصر وحتى أيامنا الحاضرة ، مما هز الثقة في مفهومنا الأصيل والعديد للوحدة العربية والقومية العربية . ونلاحظ في هذا الشأن أن مدخلنا إلى مفهوم القومية منذ العقود الأولى من هذا القرن كان هو المدخل السياسى . فكان الزعماء يسعون إلى تحديد مفهوم القومية العربية بل ومفهوم الوطنية أيضاً - على أساس سياسى ، هو الذى صاحب استقلال بعض الأقطار العربية وانحسار ظل الاستعمار عنها . . . ومن هنا فقد كان الاعتزاز باستقلال الوطن ثم ترابط الأوطان المتجاورة بعضها مع بعض في صورة وطنيات تناظر تلك التى عرفت أوروباً الحديثة والمعاصرة ، ثم انتشار تلك الأفكار السياسية نتيجة للاحتكاكات والمشاحنات العالمية التى بدأت تعم العالم (بما فيه عالمنا العربى) كل ذلك جعل فكرة الوطنية والقومية تتبلور في العالم العربى إقليماً بعد إقليم ، وبدأت الحركات السياسية وما يأتى في أثرها أو يدفع إليها من ثورات محلية أو إقليمية بدأت كلها تصب في تيار القوميات الناهضة . وهذا دفع إلى ظهور فكرة الأحزاب السياسية التى يضع كل منها برنامجاً للعمل الوطنى

وبناء القوميات ، ثم التصدى للدفاع عنها ، حتى ولو انتهى الأمر إلى قيام المنازعات السياسية بين الإخوة والجيران . وفي خضم هذا التسابق إلى بناء القوميات ظهر اتجاه إلى أن القومية لا يمكن أن يكتفى في إقامتها بالحوار السياسي ، وإنما ينبغي لأن يساندها جدل مادي اقتصادي أو حتى عسكري . وهنا انتقلنا من فكرة « الزعامة السياسية » إلى فكرة « القيادة العسكرية » ، وقامت مشاحنات انقلب بعضها ، كما رأينا أخيراً في حدودنا الشرقية ، وعلى أعتاب مشرقنا العربي ، من محاولة فرض « الوحدة » على رأس الخليج العربي ، منطلقة من أرض العراق التي لم تكن في تاريخها تمثل نقطة انبعاث « للوحدة » العربية بمفهومها في العهد الوسيط أو العهد الحديث أو المعاصر ، بقدر ما كانت تمثل « أرض الاحتكاك » ، بل تمثل « طرف » العروبة أو « كتفها » حيث تصطك العروبة مع جيرانها ، بل وغرمائها التاريخيين في أرض إيران ، وحيث تناوب التاريخ بين النجاح في صد العدوان أو الانهيار أمامه ، مما أدى إلى طغيان الفرس الأقدمين على أرض العراق ورضوخ هذا الركن من الأرض العربية إلى طغيان الآشوريين وأخلافهم . . . ثم تكرر ذلك في عهد التتر والمغول ، وعهد تحريق بغداد في القرن الثالث عشر الميلادي (عام ١٢٥٨) حتى شاء الله لمشرق عالمنا العربي آنذاك أن ينقذه خير أجناد الأرض من مصر ، وهزيمة التتر عند عين جالوت وانقاذ يوم الإسلام كله . . . ومع ذلك فقد استبدت فكرة الزعامة والقيادة العسكرية ببعض قادة العراق المحدثين ، فأرادوا أن يفرضوا الوحدة من جانبهم على أرض الكويت ورأس الخليج . . . ومن هناك إلى مشرق السعودية وأرض البترول ! .

هذه هي الصورة التي تواجهنا في أيامنا الجارية . . . وهي صورة ترتبت على اعتماد مفهوم « الزعامة » « والقيادة » في توجيه مسيرة الوحدة والقومية العربية ، حتى ولو تم ذلك عن طريق القوة والقسر . . . وهو مفهوم خطير لا يمكن أن يأخذ به أهل « الفكر » السليم وأهل « الانتباه » الصادق للقومية العربية في عهدنا المعاصر . وما ذلك إلا لسببين أساسيين وحاكمين : أولهما أن العربي بصفة عامة ، والبدوي من أبنائه بصفة خاصة ، لم يعرف في تاريخه الفكري والثقافي الممتد على القرون غير « الحرية » « والفردية » . فابن البادية بطبيعته يعرف الانتباه للقبيلة ولكنه لا يحب أن « يقاد » ولا يقبل أن « ينقاد » . وواقع الأمر أن كل بدوي في باديته « سلطان زمانه »

وهو مستعد كل الاستعداد أن يضحي بحياته وبكل ما يملك من نفس وولد ومال من أجل « قبيلته » ، ولكنه لا يكاد يعرف « سلطان الحكومة وسلطانها » وسلطتها إلا في أضيق الحدود، بل ولا يكاد يعترف « بالحكومة » بمفهومها المدني الحديث ، وأمثلة ذلك كثيرة في أرجاء دولنا العربية ، وحتى في بعض البلاد التي قد تغلب عليها فكرة « الحضرية » (كما هي الحال في مصر) فإن الشعب يحب دائماً أن يحتفظ بحريته الفردية ولو اضطر إلى أن ينزع في نقده للسلطان إلى « النكتة » يطلقها على الحاكمين ، لاسيما إذا كانوا من غير أبناء جلدته (كما حدث في العهد التركي) .

أما العامل الثاني - وهو ما لم يدركه دعاة القوة في فرض الوحدة من بعض الزعماء المعاصرين . هذا العامل الثاني هو أن العرب بحكم موقعهم الجغرافي ، لا ينفردون بأمور مشرقهم العربي أو موقعهم الجغرافي أو حتى مواردهم البترولية الحاكمة في اقتصاديات العالم . وإنما شاء قدرنا أن يسعى إلينا الطامعون من أدنى الأرض أو من أقصاها ليشاركونا في تصريف أمورنا . حتى وإن كرهننا ذلك . ومن هنا فإن الخطر لم يلبث أن تفاقم عندما طمع العراق في أرض الكويت وما وراءها ، حيث أدى ذلك إلى تدخل أجنبي اتخذ صورة تحالف دولي ضد العدوان ، حتى انتهى أمر ذلك كله إلى حرب خاطفة ، لعلنا نكون قد وعينا درسها التاريخي ، مما لا داعي لأن نستطرد فيه .

ولكن الدرس الكبير لا يقتصر على ما انتهى إليه العدوان من خسارة وهزيمة . . . وإنما هو درس ينبغي أن نعيه ، فنصحح مسارنا على طريق الوحدة والقومية العربية الحق ، فندرك أن طريق الوحدة السياسية المفروضة بالضغط هو ذاته سبيل « القوة » التي يرفضها الرأي العام العربي ، وتآبها الطبيعة العربية التي تقدر الحرية الفردية . . . بل كذلك لا يقبلها الرأي العام الدولي والعالمي . . . وذلك الرأي هو الذي ينزع بحكم مقتضيات التضامن الدولي واحترام الشرعية الدولية في علاقات الدول بعضها ببعض التماساً للسلامة والسلام العالمي قبل أي اعتبار آخر . . . وهو أسلم الطرق للحفاظ على توازن القوى في العالم ، خصوصاً بعد انقضاء عهد الحرب الباردة ، وهبوب رياح التغيير والمهادنة بين شعوب القوى الكبرى في العالم . ومع ذلك ينبغي أن نذكر أن تجربة عدوان العراق غير المبرر قد مست إيمان بعض المثيبين

بين ظهرانينا ، فخشوا أن يفقد العرب ثقتهم بأنفسهم ، وبأنهم ورثة أخطر موقع جغرافي في العالم بين قوى الشرق والغرب ، وبذلك يمين الضعفاء منهم فتغلبهم «مظاهر» الضعف في حياتهم ، فينسوا أن أرض العروبة فيها رغم الظرف الطارئ «مكامن» للقوة هي التي تحدد مصير الأمة العربية ، بل هي التي ترسم طريقها إلى المستقبل . ولعل هذا أن يكون وراء ما استشعره صاحبكم من أن هذا الوقت ، وهذا الظرف بالذات ، قد يكون أنسب الأوقات وأدعى الظروف إلى أن نكشف الطريق ونحذر من هذا الخطر الذي يثير «أزمة الثقة» بالنفس العربية ، خصوصاً بعد أن تحاذت بعض العناصر العربية ، ودعت إلى تلمس العافية ومحاولة تسوية هذه الأزمة التاريخية الخطيرة عن طريق ما أسمى «بالحلل العربية - العربية» التي لم تخرج في أهدافها المستورة عن أن تكون تسوية على حساب «المجنى عليه» ل«صالح» «الجانى» . وهو أمر لا يتفق وتقاليد العروبة منذ يومها القديم الأول ، وخلال تاريخها الطويل المستمر ، والتي تجعل نصرة الحق على الباطل مبدأً أساسياً من مبادئ التقليد العربى والعرف الإسلامى فى آن واحد .

لعل هذا الظرف هو الذى حفز صاحبكم على أن ينشر هذا الكتاب فى هذا الوقت بالذات . فقد سبق له أن نشر بعض جوانبه فى صورة بحوث عربية تتناول بعض المسائل فى اتصالها بالقومية العربية والوحدة العربية الإقليمية أو الشاملة . ولكنه وقد أحس خطورة الأزمة التى أثارها العراق عند رأس الخليج العربى . . . وخطورتها على الرأى العام المستنير فى عالمنا العربى بصفة خاصة . . . سعى إلى أن ينشر على الناس قصة أرض العروبة كاملة فى صورة هذا الكتاب الشامل ، لعله بذلك أن يقوم ببعض ما يوجب عليه علمه بنبا هذه الأرض خلال التاريخ ، وانقطاعه لدراسة هذا النبأ وكشف بعض أسرارهِ وخوافيه خلال نصف قرن كامل من الزمان أو ما يزيد . أن يقضى بعض ما يفرضه عليه هذا العلم من زكاة واجبة فى وقتها ، وذلك بأن يعرض هذا النبأ وملابساته والتزاماته بالنسبة لكل من انتهى إليه علمه . . وبذلك وحده يمكن أن يعرئ ذمته ، وأن يقول كلمة الحق خالصة لوجه الله ووجه العلم ووجه الوطن .

وقد تكون صفوة القول فى هذا المقام وفى سبيل بناء «الوحدة العربية» التى دعونا

إليها بصدق منذ أوائل الثلاثينيات من هذا القرن العشرين . . . والتي نادى بها بعض أسلافنا من أهل الفكر والوطنية قبل ذلك . . . إنما هو بالتواضع على أن تكون سبيلنا إلى ذلك هي سبيل تلمس « الريادة » الفكرية ، فيكون كل عارف منا بأسرار القوة العربية في أرض العرب ، وكل قادر على أن يلتمس ريادة فكر الناس وينير السبيل إلى بعث الروح العربية في أرض العرب وبين جماهير المتعلمين منهم بصفة خاصة . . . على هؤلاء جميعاً أن يسعوا على طريق « الريادة » بدلاً من السعى على طريق ما تعارف عليه غيرنا من أن « الوحدة » إنما تقام بالدعوة السياسية الدائبة والدائمة ، أو عن طريق « القوة » التي تفرض الوحدة والقومية على الناس ، حتى ولو كان ذلك بحد السيف ! فتلك طريق عفى عليها الزمن ، وجربناها وكانت نتيجتها أن جرتنا إلى حافة الهاوية ، أو كادت أن تنتهي بنا إلى ذلك . وقد انتهى عهد الإغراء بالسياسة والإثارة السياسية ، وعهد القسر والدفع بالقوة والسلطان . . . ولم يبق أمامنا إلا أن نبذل أسلوب « الزعامة » وأسلوب « القيادة » وأسلوب « العسكرية » وأن نعود إلى الطريق الحق . . . طريق « ريادة » الناس إلى الوحدة وإلى القومية وإلى النور .

« وعلى الله قصد السبيل »

سليمان أحمد حزين

« ٢ »

المناطق الحضارية في العالم القديم (قبل العهد العربي)

المناطق الحضارية فى العالم القديم (قبل العهد العربى)

كان بطليموس الجغرافى المصرى فى النصف الأول من القرن الثانى الميلادى ، أول من قسم العالم القديم إلى أقاليم جغرافية تمتد من الغرب إلى الشرق . بادئاً من الإقليم الاستوائى فى الجنوب وهو الإقليم الأول ومتجهاً إلى الأقاليم الثانى والثالث وما بعدهما إلى الشمال . كما أن بطليموس قد قسم هذه الأقاليم إلى مناطق متتابعة من الغرب إلى الشرق ، فجعل العالم الذى يعرفه فى ذلك الوقت منقسماً إلى ما يشبه المربعات التى يفصل بعضها عن بعض خطوط العرض والطول . وهو تقسيم هندسى استطاع به ذلك الجغرافى القديم أن يبسط خريطة العالم وأقاليمه إلى مناطق فى صورة سمحت للجغرافيين الذين جاءوا بعده باتباع منهجه الهندسى الذى قام فى أساسه على قياس مبسط من حيث الاتجاه من خط الاستواء جنوباً (وهو الذى اعتبره بطليموس الحافة الجنوبية « للأراضى المعروفة » ، وعلى أساس مكانى بحسب تتابع المناطق من المحيط فى الغرب متجهين إلى أقصى الأراضى والبحار المعروفة فى أقصى المشرق .

ولقد تطور هذا النظام فى تقسيم العالم إلى أقاليمه ومناطقه حتى جاءت الجغرافيا الحديثة ، فى القرن الماضى وهذا القرن العشرين ، فلجأت إلى تحديد الأقاليم والمناطق على أساس يستند إلى عناصر أصبحنا نسميها بالجغرافيا الطبيعية التى تشمل التضاريس والمناخ وتوزيع اليابس والماء ، وتوزيع الغطاء النباتى والغطاء الحيوانى على سطح الأرض . وأصبحت بذلك حدود الأقاليم والمناطق متداخلة وبعيدة عن النظام الهندسى الذى وضعه بطليموس ، بل إن الحدود بين الأقاليم

والمناطق أصبحت معقدة أشد التعقيد ، وتكاد تختلف في تفاصيلها من جغرافي إلى آخر ، بل وتكاد لا يربط بينها التوزيع القائم بين ما أصبحنا نعرفه بالمناطق الجغرافية الكبرى ، مثل المنطقة الاستوائية والمنطقة المدارية والمنطقة شبه المدارية والمنطقة المعتدلة والمنطقة المعتدلة الباردة والمنطقة الباردة والمنطقة القطبية . كذلك ظهرت الأقاليم الجغرافية الكبرى أو الصغرى ، بحسب ما يستهدفه الجغرافي من العناية بالتفاصيل الجغرافية .

ولكننا في هذا البحث سننحى منحى جغرافياً خاصاً ، أو هو في الحقيقة يجمع بين الأصول الجغرافية الطبيعية والبشرية معاً ، بل ونحى أحياناً إلى الربط بين قواعد الجغرافيا ومقتضيات التاريخ وأصدائه ، أو هو يستند بصفة أساسية إلى ما يمكن أن نسميه بالمنحى الحضارى لحياة الإنسان على الأرض .

وبذلك فإننا سنقسم العالم القديم إلى مناطق « حضارية » امتازت كل منها بلون معين من حضارة الإنسان ، استمر في تلك المنطقة خلال مجموعة كبيرة وطويلة من القرون ، تبلورت فيها حياة الإنسان في تلك المنطقة حتى اتخذت طابعها الحضارى المميز ، وإن كان هذا الطابع قد تنوعت مظاهره تنوعاً شديداً بحسب ما حققه الإنسان من ألوان الفكر والتطبيق العملى بمرور الزمن ، كما تنوعت أيضاً تنوعاً متشابكاً من منطقة صغيرة إلى منطقة صغيرة مجاورة داخل المنطقة الحضارية الكبرى . ومعنى هذا بعبارة أخرى أننا سنحاول في هذا البحث أن نسير على درب ما أصبحنا نسميه بالجغرافيا التاريخية من الدراسات الجغرافية المعاصرة . وسنحاول بصفة خاصة أن نبرز مكانة هذه الجغرافيا التاريخية بين علوم الجغرافيا ، بعد أن أصبحت الجغرافيا علماً مركباً غاية التركيب ، فهو يجمع في أصوله بين علوم وأساليب علمية مختلفة ، يتصل بعضها بعلوم دراسة البيئة الطبيعية ، من جيولوجيا وجيومرفولوجيا وعلم المناخ وعلوم النبات والحيوان بل وعلم البيئة الجديد وبغيرها مما يتصل بدراسة المكان الذى هو مسرح الحياة البشرية . كما تتصل الجغرافيا الحديثة من ناحية أخرى بالعلوم التى تدرس الإنسان من حيث إنه كائن حى (مثل علم الانثروبولوجيا وعلم السلالات البشرية وعلم الاجتماع والمجتمعات البشرية وغيرها) أو من حيث إنه إنسان يمتاز على كل ما سواه من

سائر الحيوان في أن له حياة فكرية وروحية ودينية وسلوكية عالية . وحياة أخلاقية واجتماعية (هى أعلى من حياته المجتمعية الفطرية) ، وحياة اقتصادية وسياسية عالمية وإنسانية عامة ، إلى غير ذلك مما جعل الله به الإنسان سيد الخليقة على الأرض في هذه الحياة الدنيا ، والمسئول الأول عن أمانة هذه الحياة يوم أن يقوم الحساب .

وإذن فإننا نأمل أن يكون هذا التوزيع الجديد للمناطق الحضارية للعالم القديم مختلفاً بعض الشيء عما درج عليه الجغرافيون المحدثون من تقسيمات طبيعية للمناطق والأقاليم كما وضع أسسها الأولى الجغرافى المصرى الأول بطليموس القديم . وإننا لنأمل أيضاً أن يجد الجغرافيون المحدثون في مصر والمشرق في هذا الأسلوب الجديد لتقسيم المناطق الحضارية في العالم ما يتفق ومنحانا الحضارى في فهم تاريخنا ، بل وتاريخ مناطقنا الكبيرة ، وما يحكم صلاتها الإنسانية من عوامل بشرية وإنسانية ، فهما يجعلنا ندرك الرباط الإنسانى بين بنى البشر في عالمنا المعاصر الذى اتسعت فيه الاتصالات وتمكنت أسبابها ، بحيث لم يعد ممكناً لكائن من البشر أن يعيش منعزلاً في موطنه الصغير المحدد ، أو في منطقته الجغرافية القريبة ، أو في منطقته الجغرافية الواسعة ، أو حتى في إقليمه الجغرافى الكبير الممتد ، وإنما هو مضطر إلى أن يعيش بعض حياته كمواطن عالمى تفرض عليه ظروف المعيشة أن يعايش العالم كله ، وأن ترتبط حياته ، بقدر صغير أو كبير ، بحياة سائر الخلق من البشر على سطح هذا الكوكب .

ولنعد الآن إلى ما نتصور نحن أنه يمثل المناطق الحضارية على سطح الأرض ، وذلك بصورة مبسطة تجعلنا ندمج التفاصيل بعضها في بعض ، ونخرج بالشكل العام لكل منطقة من تلك المناطق ، وما يميزها من معالم حضارية كبرى ، يتميز بها تاريخها خلال حقبة ممتدة من الزمان .

وبيان هذه المناطق الكبرى في العالم القديم كما يأتى بادئين بقلب العالم القديم :

- ١ - منطقة حوض النيل وشرق إفريقية .
- ٢ - منطقة شمال غرب إفريقية .
- ٣ - منطقة اليونان وجنوب شرق أوروبا .

- ٤ - منطقة أرض العروبة في جنوب غرب آسيا .
- ٥ - منطقة الهضبة الإيرانية .
- ٦ - منطقة آسيا الداخلية الوسطى والشمالية .
- ٧ - منطقة شبه القارة الهندية .
- ٨ - منطقة الصين الكبرى .
- ٩ - منطقة الملايو وجنوب شرق آسيا .
- ١٠ - منطقة جزر المحيط الهندي .
- ١١ - منطقة جزر المحيط الهادى .
- ١٢ - منطقة أستراليا البعيدة .

وظاهر أن هذه المناطق الحضارية لا تغطى سطح الكرة في نصفها الشرقى القديم كله ، وظاهر أيضاً أن العالم الجديد في الأمريكتين له مناطقه الحضارية التى شملت أجزاء واسعة من أمريكا الوسطى ثم أمريكا الجنوبية . ولكننا لم نقصد في هذا المبحث أن نغطى العالم كله ، وإنما هى مناطق مختارة تركزت فيها بعض الحضارات القديمة ، التى امتد بعضها خلال فترات طويلة من التاريخ البشرى ، وعرف بعضها الحضارة منذ بدأ استقرار الإنسان العاقل الأول الذى اختلف علماء ما قبل التاريخ وعلم الآثار القديمة الأولى في تحديد عصر بداية « استقراره » أو حياته في جماعات « مستقرة » في « أوطان » محددة من سطح البسيطة ، ولكننا في دراسات لنا حددنا هذا التاريخ بأنه يعادل العصر الذى يعرف اصطلاحاً بأنه « العصر الحجري القديم الأعلى » ، وهو العصر الذى عثرنا فيه على « مواطن » استقرار للجماعات البشرية الأولى من بنى الإنسان العاقل أو « البشر » ، وهم إن كانوا لم يعرفوا « الزراعة » أو استنبات النبات ، كما لم يعرفوا « الرعى » أو استئناس الحيوان ، إلا أنهم عاشوا في جماعات كبيرة نسبياً من بنى البشر وحذقوا صناعة الآلات الحجرية الشظوية وطوروها ، وتجمعت لهم منها مجموعات مع الآلات المخصصة من الأسلحة الصوانية المصنوعة من الصوان أو من العظام المهذبة مما يدل على معرفتهم لبعض الصناعات من تهذيب العيدان والعظام وصناعة الكساء من الجلود وصيد الأسماك (كذلك بالطبع صيد الحيوان وقنصه) وذلك إلى جانب الالتقاط وجمع

النبات والثمار ، إلى غير ذلك من مظاهر حياة « الحضارة » البدائية الأولى . كذلك فإن بعض تلك الجماعات القديمة اهتمت فيما بعد إلى التدرج في الإلمام بحرفتي الزراعة والرعى ، خلال ما يعرفه علماء آثار ما قبل التاريخ بالعصر « الحجري الحديث » ، حتى بلغ بعضها قمة الاستقرار في مطالع العصر التاريخي .

ولقد كانت هناك محاولات سابقة منذ النصف الأول من هذا القرن العشرين لتحديد ما أسماه الجغرافيون الألمان بالدائرة أو النظام أو المنطقة الثقافية -Kulturkreis. ولكن تلك المحاولات تأثرت بالمعنى الضيق « للثقافة » (التى هى جزء من الحضارة بمفهومها الأوسع) ، فى حين أننا فى تقسيمنا الجديد لما نسميه الآن « بالمناطق الحضارية الكبرى » إنما نرجع إلى مفاهيمنا فى اللغة العربية لثلاثة مصطلحات تعكس ثراء لغتنا بالمفاهيم والألفاظ المعبرة عنها . ولدينا فى لغتنا ثلاثة مصطلحات هى « المدنية » « والثقافة » « والحضارة » . ونرى أن من الخير أن نتفق (ولو على سبيل الاصطلاح فى ألفاظ الحضارة) على أن مفهوم « المدنية » إنما يقصد به الجانب « المادى » من بناء الحضارة البشرية ، أى جانب الماديات من « العمران » (وهذا الأخير هو المصطلح الذى توارثناه عن ابن خلدون) . أما « الثقافة » فيقصد بها الجانب المعنوى مما يتصل بالتعبير اللغوى أو الفكرى أو الروحى أو الفنى أو الوجدانى أو السلوكى أو نحو ذلك من معنويات الحضارة الإنسانية . وأما لفظ « الحضارة » فهو رباط ذلك كله وهو اللفظ الأعم الأشمل من مظاهر الحياة البشرية والإنسانية فى هذه الحياة الدنيا .

وبهذا المفهوم الاصطلاحي فى لغتنا العربية وهذا التطبيق الجغرافى والتاريخى الخاص فقد قسمنا العالم القديم إلى مناطق حضارية كبرى اخترنا منها المجموعة التى سبق ذكرها لتناولها فى هذا المبحث الذى نعرضه على الناس . وسنعنى فى استعراض المناطق الحضارية المشار إليها عناية تتفاوت من منطقة إلى أخرى ، بحسب أهميتها فى التاريخ الحضارى بعامة ، وفى علاقتها بموضوع هذا المبحث بصفة خاصة .

أولاً - منطقة حوض النيل وشرق افريقية :

وقد اخترنا حوض النيل وما جاوره ليمثل المنطقة الحضارية الأولى لسببين :

أولها جغرافى ، وهو أن هذا الحوض يقع فى قلب العالم القديم ، فى ركن خطير من القارة الافريقية ، ويطل على جنوب غرب آسيا ويتصل به عن طريق باب المندب وبرزخ السويس من جهة ، كما يطل على شرق البحر المتوسط وما وراءه من القارة الأوربية من جهة أخرى . ومعنى هذا أن حوض النيل ، وطرفه الشمالى فى مصر بصفة خاصة ، يمثل « أرض الزاوية » ، حيث « مفرق » العالم القديم ، وحيث « مفرق » بحار ذلك العالم ، فى اتجاه الجنوب عن طريق البحر الأحمر والمحيط الهندى وما وراءه ، وفى اتجاه الشمال فى البحر المتوسط وما وراءه . بل إن ذلك الحوض يكاد أن يقع فى المركز الهندسى للعالم القديم بين المناطق الدفيئة والمدارية الممتدة إلى الجنوب ، والمناطق المعتدلة والباردة إلى الشمال منه . فهو فى منطقة تقارب المناطق المناخية وتداخلها . والسبب الثانى هو أن هذا الحوض وما جاوره إلى الشرق والغرب والجنوب ربما كان مركز نشأة الجماعات البشرية الأولى ومركز استقرار الكثير منها فى عهد الحضارات القديمة والسابقة للتاريخ بآماد بعيدة . بل إننا إذا نظرنا إلى التوزيع المبسط للسلاسل البشرية الحالية نجد أنها تتقارب فى أطرافها جميعاً من هذا المركز الذى يتوسط العالم القديم ، فالسلاسل البيضاء (وهى سلالة البحر المتوسط والسلاسل القوقازية والسلاسل الشمالية شديدة البياض والاحمرار وغيرها) تقترب أطرافها جميعاً من جنوب غرب آسيا . والسلاسل التركيبية ذات الرأس العريض فى داخلية آسيا وما وراءها من السلاسل المغولية والصينية تمتد أيضاً على طول داخلية آسيا حتى تعمّر بلاد الصين كلها ، وحتى تنتشر منها فروع عبر المحيط الهادى وتعمّر الأمريكتين بسلاسل الهنود الحمر التى تفرعت عن المغولية ، أو تنتشر جنوباً نحو عالم أشباه الجزر والجزر الأرخيلية فى جنوب شرق القارة الآسيوية . فإذا ما عدنا إلى وسط العالم مرة أخرى وجدنا السلاسل السوداء والزنجية تنتشر من هناك بل ومن أطراف الجزيرة العربية إلى إفريقية الداخلية كلها حتى أطرافها الجنوبية ، كما تنتشر على شواطئ المحيط الهندى والطرف الجنوبى من شبه جزيرة الهند وتدور مع أطراف ذلك المحيط إلى بعض الجزر القصوى فى جنوب شرق آسيا والمحيط الهادى ، حتى تصل إلى قارة استراليا ، حيث استقرت عناصر زنجية بعيدة القدم . هم القبائل

الأسترالية الأولى ، وهم الذين احتفظوا بمعالمهم السلالية الزنجية وحضارتهم الأولى التي توقف تطورها عندما يعادل العصر الحجري القديم الأعلى ، فلم يعرفوا استئناس الحيوان ولا استنبات النبات ، اللذين جاء بهما العصر الحجري الحديث ، ولقد بقوا على تلك الحال من الحضارة حتى وصل إليهم المستعمرون البيض في القرون الحديثة .

فإذا ما نحن استرجعنا خريطة توزيع السلالات التي استمر إنشاؤها عهداً طويلة قديمة ، فإننا نستنتج منها أنه إذا ما نحن حاولنا أن نتصور مركزاً مشتركاً انتشرت منه سلالات الإنسان الحالية (وهى جميعاً من أصل آدمى واحد إذ أنها تستطيع أن تتزاوج وتنجب سلالات مختلطة من بنى آدم الجدد الواحد للجميع) . . . فإننا نستطيع أن نتصور أن المنطقة التي نحن بصدددها (وما جاورها) ربما ، كانت أقرب موطن لنشأة بنى آدم على الأرض .

ولكن الشيء الطريف هو أننا إذا ما انتقلنا إلى نشأة الحضارات فإننا نجد منطقتنا هذه قد امتازت حضارتها بالقدم والاستمرار . فأما عن القدم فإن أول استقرار في الحياة البشرية المتمدينة وذات المدنية المادية والمستقرة في الأرض ، والثقافة الفكرية وما صاحبها من فن أو فنون تمثل طفولة الفن الإنسانى في صناعة الآلات الحجرية الدقيقة المصقولة . كان ذلك الاستقرار فيما نسميه العصر الحجري القديم الأعلى ، أى في عصر حضارة سمينها في مصر بالحضارة « السبيلية » نسبة إلى قرية « السبيل » في حوض (كوم أمبو في مصر العليا) التي يقدر البعض أنها بلغت ذروتها منذ حوالى ١٢,٠٠٠ سنة) والتي نشأت في بقاع مختلفة من وادى النيل الأدنى تمتد من حوض كوم أمبو جنوباً إلى أطراف الدلتا وبعض مشارف صحراء سيناء من جهة أخرى . وقد عادت مظاهر الاستقرار إلى وادى النيل الأدنى مع العصر الحجري الحديث الذى ظهرت فيه الزراعة المستقرة وما صاحبها من تربية الحيوان . ومن المعروف أن أقدم مواقع الاستقرار الزراعى في أرض مصر ترجع إلى منتصف الألف السادسة قبل الميلاد . ولكن تلك الحضارة كما نعرفها في أطراف الدلتا والفيوم وبعض مواقع الصحراء حيث استقر الناس حول بعض البحيرات الضحلة التي تتجمع فيها مياه أمطار فترة تميزت بالمناخ الممطر (المعتدل المطر) في العصر

الحجرى الحديث . . . تلك الحضارات كانت مكتملة النمو من حيث الاقتصاد الزراعى الذى يجمع بين الزراعة والرعى وشىء من صيد الأسماك (حول بحيرة الفيوم القديمة والتي كانت أعلا من مستواها الحالى (- ٤٤ متراً تحت سطح البحر) بنحو ستين متراً أو أكثر . ومن هنا فإننا نستنتج أن تلك الحضارات الحجرية الحديثة لابد أن تكون قد سبقتها فترة طويلة من التطور (ربما تكون قد بلغت بضعة آلاف قليلة من السنين) . ولقد كانت البيئة والظروف الطبيعية فى شمال شرق إفريقيا بعامة ، وفى وادى النيل الأدنى بخاصة ، صالحة كل الصلاحية لنشأة مثل تلك الزراعة الأولى . ففى هذا الإقليم هناك مناطق لا يزال ينمو بها نبات الشعير البرى ، ومنها بعض منحدرات الجبال الإثيوبية ، ومنها كذلك بعض الأودية الصغيرة على ساحل مربوط وليبيا وتلك أدلة على أن نبات الشعير المزروع يرجح كل الترجيح أن يكون موطنه الأصل فى شمال شرق إفريقيا . كذلك فإن حبوب الشعير التى عثر عليها فى مواقع الاستقرار من العصر الحجرى الحديث وأواخر عصر ما قبل التاريخ فى الفيوم قد تبين من فحصها أنه لابد وأن تكون قد انقضت على استنباتها وانتقالها من مرحلة « البرية » إلى مرحلة « الزراعة » فترة طويلة تطورت فيها حبوب الشعير تحت ظروف « الزراعة » التى يعتنى بها الزارع ولا يتركها لظروف الطبيعة البرية . والواقع أن كل الأدلة تشير إلى انتشار زراعة الشعير فى العالم القديم إنما جاء من هذه المنطقة الحضارية الأولى .

وأما عن استئناس الحيوان فإن منطقنا هذه كانت المقر الذى تم فيه استئناس البقر ذى القرون الكبيرة والعنق الذى يعلوه سنام صغيرة . كذلك ففى هذه المنطقة تم استئناس « الحمار » الذى أصبح فى العهد التاريخى القديم حيوان النقل الذى ينقل الإنسان وسلع التجارة ، والذى امتاز على طول الزمن بأنه لم يكن فى يوم من الأيام حيواناً للفروسية أو الحرب ، كما كانت الحال بالنسبة للحصان الذى هو حيوان آسيوى النشأة وأصبح فيما بعد حيواناً من حيوانات الغزو والفتح وحروب الطغيان . والحقيقة أن منطقنا القديمة فى شمال شرق إفريقيا وحوض النيل قامت منها مبادئ الحضارات الأولى وتطورت فى العهد التاريخى على أنها حضارات عرفت بالسلم والعلاقات الإنسانية المسالمة . وهى حضارات عرفت عهد الاتصال

بالعالم الآسيوى فى مرحلة لاحقة من التاريخ القديم ، حين انتقلت إلى منطقتنا حرفة الغزو والفتح (ومعها الحصان) ، مما سنعود إلى تفصيله عندما نستعرض المراحل التالية للاتصالات الإنسانية والتاريخية فيما بعد من هذا المبحث . ويكفينا الآن أن نذكر أن مصر الفرعونية فى العالم القديم (خلال عصر الأهرام كله) كانت دولة إفريقية المدينة والحضارة والأسلوب فى الحياة ، فكانت صورة منعكسة من طبيعة هذه القارة المسالمة تقوم مدنيها المادية على أساس الزراعة الحبوبية (زراعة الشعير الإفريقى والقمح الذى أدخل إلينا من جنوب غرب آسيا) ، وحيوانها الأصيل هو الحمار الذى يصلح للنقل والانتقال ولا يكاد يصلح للغزو (خلال الدولة الفرعونية القديمة كلها على الأقل) وتلك ثقافة إفريقية تذكرنا بما لا يزال يسود القارة الإفريقية التى يقال عنها إنها القارة « الراقصة المغنية » التى عرف أهلها « رقصة الحرب » قبل أن يعرفوا الحرب التى تعلموها فيما بعد نقلاً عن الوافدين . . . بل القارة التى لم يعرف التاريخ عنها أنها قد خرجت منها أية غزوة كبرى لتكتسح العالم المجاور كتلك الغزوات التى خرج بها الرعاة الفرسان (راكبو الخيل) من داخلية آسيا خلال عدة موجات من التاريخ القديم . . . بل إن إفريقية كذلك لم تخرج منها أية « غزوة بحرية » لفتح السواحل فيما وراء البحار ، كالغزوات التى خرجت فيما بعد من قارة صغيرة كأوروبا ، حيث خرج المستعمرون بالبحر إلى كل بلاد الدنيا ، وأقام بعضهم الامبراطوريات التى لا تغيب عنها الشمس . بل إن أبناء القارة الإفريقية المسلمين من الزنوج لم تعرف عنهم روح الغزو والفتح وإنما هم قد أكرهوا إكراهًا على النزوح إلى أمريكا وغيرها كعبيد مأسورين . وإذا عدنا إلى مصر الفرعونية فى دولتها القديمة فإننا نجد أن أهلها القدامى قد فضلوا أن ينفقوا طاقاتهم الفائضة فى بناء الأهرام بدلاً من حشد الجيوش للغزو والفتح فيما وراء الحدود . ولقد بقيت الدولة المصرية القديمة أقوى بلاد العالم كله خلال ثمانية قرون لم تخرج خلالها جيوش غازية إلى البلاد المجاورة . وقد بقيت الحال كذلك حتى جاءت الدولة الحديثة التى سبقها غزوة الهكسوس (حوالى ١٧٠٠ قبل الميلاد) فأدخلوا الحصان الآسيوى إلى مصر ، وعلموا أهلها فنون الفروسية ، حتى غلبهم المصريون آخر الأمر بسلاحهم الذى أدخلوه وابتكر

المصريون عجلة رمسيس ذات الخيل العاتية ، وخرجوا إلى آسيا التي فرضت عليهم أن يتعلموا الحرب على عكس سجيتهم الإفريقية .
ولكن قصة العلاقات الخارجية لهذه المنطقة الجغرافية الكبرى في وادي النيل وشمال شرق أفريقية لم تنتهى فصولها بالعصر التاريخي القديم ، وإنما لها فصول لاحقة في العهد الإغريقى الرومانى ثم في العهد العربى ، وهى فصول جديدة لها قصتها الخاصة .

ثانيًا - منطقة شمال غرب افريقية :

وهذه منطقة ثانية كان لها دورها في بناء الحضارة المستقرة الأولى ، وإن كان هذا الدور أقل بروزاً وأثراً من دور المنطقة الأولى . بل إنها يمكن أن تعتبر من بعض النواحي امتداداً للمنطقة الأولى ، سواء من الناحية البشرية أم من الناحية التاريخية ، كما أنها تشترك مع المنطقة الأولى في أنها تقع على حافة الصحراء الافريقية الكبرى ، وهى الصحراء التى اعترها تغير كبير وبعيد الأثر من الناحية المناخية خلال ما نسميه بالعصر المطير وما جاء فى أعقابه . وقد شغل هذا العصر المطير معظم الزمن الجيولوجى الرابع (أو ما نسميه بالبلايستوسين) ونهاية الزمن الذى سبقه . ذلك أن أوربا الواقعة إلى الشمال كان قد اعترها فى ذلك الزمن الرابع (وما قبله) ما نسميه بالعصر الجليدى ، فكان شهاها وجانب كبير من قطاعها الجبلى الأوسط (جبال الألب) يغطيها الجليد فيما يطلق عليه أحياناً (لاسيما فى الشمال) اسم « الغطاء الجليدى » . ويبدو أن هذا الغطاء قد أدى إلى ارتفاع كبير فى الضغط الجوى بسبب وجود كتلة متسعة النطاق من الهواء البارد الثقيل . وبذلك فقد انحرفت الرياح الغربية القادمة من المحيط الأطلنطى واتجهت نحو الجنوب إلى حوض البحر المتوسط وشمال افريقية وداخل الصحراء الكبرى ، فتسببت عنها زيادة كبيرة فى الأمطار الساقطة على شمال إفريقيا برمتة . وليس هذا مجال الدخول فى تفاصيل العصر الجليدى ، وصنوه العصر المطير ، ولا فيما حدث خلاهما من أدوار جليدية وفترات غير جليدية أو من أدوار مطيرة اكتنفتها فترة أو فترات غير مطيرة . ولكن يكفينا فيما نحن بسبيله من تتبع أدوار الحضارة البشرية وتعمير

الإنسان للصحراء الكبرى أن نذكر أن هذه الصحراء الفسيحة كانت بمثابة قطعة الأسفنج ، ففي الأدوار المطيرة كانت هذه القطعة تشرب المياه وتزدهر فيها الحياة النباتية والحيوانية وتعمرها الجماعات البشرية المتكاثرة خلال ما يعرف بالعصر الحجري القديم ، وفي فترات الجفاف كانت الصحراء تقصر مياهها ، وكانت الجماعات البشرية تخرج منها لتستقر في الأراضي المجاورة ، ومنها وادي النيل ، حيث المياه الجارية من المصادر الاستوائية أو الحبشية ، أو إلى المنطقة الجبلية المرتفعة من شمال غرب إفريقيا حيث يسمح الارتفاع باجتذاب السحب والمطر وتساقط المياه وتكاثفها فوق القمم ، وحيث كانت بعض البحيرات الصغيرة « والشطوط » تجمع المياه مما يسمح بقيام الحياة على شواطئها . وكانت مجموعات صغيرة من سكان الصحراء تلجأ إلى ما فيها من الواحات ، حيث الينابيع ، أو تهاجر إلى سهول السودان وأطراف المنطقة الاستوائية . ولكن الذي يعنينا الآن هو منطقة شمال غرب افريقية المرتفعة حيث كان الاستقرار البشري الواضح لأول مرة خلال فترة العصر الحجري القديم الأعلى وهو العصر الذي امتاز بحضارة عرفت في وسطها وأواخرها باسم الحضارة « الجفصية » نسبة إلى « جفصة » في أرض تونس الوسطى . وهذه الحضارة تذكرنا في بعض مظاهرها بما حدث في مصر أيام الحضارة « السبيلية » التي عرضنا لها من قبل . وقد كانت حضارة متخصصة فيها شيء كثير من التخصص (في صناعة الآلات الحجرية) وهو الذي استمر في نهايته إلى أن جاءت بواخر العصر الحجري الحديث (الألف السادس قبل الميلاد أو قبلها) مما يذكرنا بما حدث في منطقة وادي النيل الأدنى . وعلى الرغم من قلة الأدلة المباشرة ، فإننا نستطيع أن نتصور أنه لا بد وإن كانت هناك في ذلك الوقت بعض الاتصالات عبر ساحل البحر المتوسط أو حتى عبر بعض المناطق شبه الصحراوية على طول ساحل افريقية الغربية أو عبر النطاق الجبل في هضبة « تبستي » إلى بعض مواقع الواحات المستقرة داخل الصحراء ، أو حتى إلى سهول السودان وعلى أطراف المنطقة المدارية والاستوائية الافريقية . . . ولا بد أن تكون تلك الهجرات والاتصالات القديمة قبل أن يبدأ التاريخ قد استمرت وأثمرت شيئاً من التأثير المتبادل بين الجماعات القديمة وحضاراتها .

ونحن نعرف أنه إلى جانب هجرات عناصر من سلالة البحر المتوسط على طول شواطئ شمال إفريقية (وفي الاتجاهين من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق) كانت هناك هجرة من « الحاميين » (أصحاب اللغة « الحامية ») الذين جاءوا في الأصل من جنوب غرب الجزيرة العربية ، وسارت عناصر منها إلى أرض مصر ووادي النيل الأدنى (بدليل أن اللغة المصرية القديمة متأثرة أشد التأثر باللغة الحامية) . وسارت عناصر أخرى على طول مرتفعات تبستى التي أشرنا إليها حتى بلغت جبال الأطلس في شمال غرب القارة ، وهناك استقرت عناصر « البربر » ذات اللغة الحامية وبقيت قبائلها هناك حتى الآن .

وإلى جانب هذه الأدلة « السلالية » هناك أدلة أخرى كثيرة ذات صفة « ثقافية » تدل على أن التبادل الفكري والثقافي كان ولا يزال مستمرًا بين المنطقتين اللتين عالجنهما حتى الآن ، مما قد نعود إليه في مرحلة لاحقة من هذا البحث الحضاري . وقد ينفعنا أن نشير إلى ظاهرة المؤثرات الثقافية المتبادلة بين مصر الفرعونية القديمة وبين شمال إفريقية بصفة عامة مما سار بعضه على طريق البحر وسار بعضه على سطح مياه الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط أيام الفينيقيين الذين أثروا في « قرطاجة » بتونس . وهو التأثير الذي عاد في العهد الإسلامي فارتد مع الفاطميين من تونس إلى أرض مصر ، حيث أقاموا الأزهر الشريف .

وما نريد من هذا الاستطراد المبكر في العلاقات الثقافية إلا أن نلمح إلى أن هذه الدراسات القديمة والتي ترجع بنا إلى عصر ما قبل التاريخ ليست بعيدة الشبه عن بعض ما سيليها في عهود التاريخ المتأخر نسبيًا من اتصال متبادل بين المناطق الحضارية الكبرى التي نحن بسبيل تتبع جذورها الأولى قبل أن يبدأ التاريخ .

ثالثاً - منطقة اليونان وجنوب شرق أوروبا :

وهذه منطقة صغيرة نسبيًا على قدر خاص من الأهمية بالنسبة لما قامت به من دور فريد يختلف عن المنطقتين السابقتين . وتعتبر أرض اليونان مركزاً لهذه المنطقة التي قامت فيها بالدور الأساسي . وتمتد من حول اليونان جنوباً إلى جزر شرق البحر المتوسط وبحر ايجه بالذات . واتجاه الانتشار في هذا الجزء الجنوبي كان

من محور شمالى جنوبى . وقد ساعد عليه شكل السواحل وأصابعها الممتدة في الاتجاه ذاته ، ثم جريان الرياح المعتدل فيما عدا فترات قصيرة من الأعاصير الخفيفة التى تنشأ عن مرور المنخفضات الجوية التى تدور حولها الرياح التى قد تعتدل فتساعد الملاحة الشراعية في كل الاتجاهات تقريباً . أما إلى الشمال من أرض اليونان فإن أرض البلقان تمتد حتى سهول الدانوب الوسطى . وقد جاءت الهجرات الأولى من هذا الاتجاه حتى عمرت اليونان القديمة وأمدتها بعناصر سكانية ذات خلفية حضارية ترجع في أرض الدانوب إلى العصر الحجري الحديث ، وإن كانت لا تمتد كثيراً قبل ذلك . ثم إن وجود سهول الدانوب إلى الشمال من البلقان قد حمت اليونان بعد ذلك حين امتصت غزوات البلقان وقبائل الميجار والصقالبة فحمت الطابع الحضارى والثقافى (بل الاجتماعى والسياسى) لليونان ذاتها .

فأما عن المحور الشرقى الغربى فإن اليونان انتشرت بحضارتها في العهد التاريخى القديم (وخلال الألف الأخيرة قبل الميلاد بصفة خاصة) في هذا الاتجاه ، حين انتقل الأفارقة فوق بحر ايجه وجزره إلى الأطراف الغربية لآسيا الصغرى وهى التى كان توجيهها الجغرافى يمتد في هذا الاتجاه ذاته ، فاستقبلت أهل اليونان وفكرهم وحضارتهم واتجاههم السياسى بل والعسكرى حتى اختلط فكر أوروبا الجنوبية والبحر المتوسط بفكر أهل شبه جزيرة آسيا الصغرى من خلفاء الحيثيين اختلاطاً مهد السبيل بعد ذلك ، وحين جاء الإسكندر الأكبر فحمل العسكرية اليونانية ليواجه أهل المنطقة الحضارية الرابعة (وهى منطقة إيران القديمة) ، فقابل الفرس وغلبيهم ، وانتقل من هناك جنوباً إلى بعض أطراف أرض سورية القديمة في فلسطين ، ثم اتجه إلى أرض منطقة النيل وشمال إفريقيا . وهكذا كان وصول اليونان إلى مصر في عهد الإسكندر وحملاته عن طريق البحر ، دوراً حول مياه البحر المتوسط الشرقى ، بخلاف ما كانت عليه الحال خلال العهد اليونانى القديم حين كان الاتصال عن طريق محور الشمال والجنوب راكباً البحر الذى أشرنا إليه من قبل . بل هكذا جمعت اليونان بين « المحورين » في التوسع والانتشار الحضارى . وهذا أمر له قيمته الخاصة في « تكامل » العوامل الجغرافية في تحديد مجرى الجغرافيا التاريخية في الاتصال والانتشار الحضارى .

ولكننا قبل أن ننهي هذه العجالة من منطقة اليونان في اتصالها وتوسعها نحو الجنوب ونحو الشرق يجمل بنا أن نؤكد كذلك المكانة الخاصة لأرض اليونان في تاريخ التوسع والانتشار الفكري نحو الغرب إلى بقية جنوب القارة الأوربية ، وهو التوسع الذى جاء متأخراً بعد ذلك حين أخذت الحضارة تأفل في أرض اليونان ذاتها ، ولكن الفكر انتقل إلى أرض الرومان ، وكان انتقاله مباشرة من اليونان أو بطريقة غير مباشرة عن طريق الإسكندرية والبحر المتوسط الشرقى . وقد أصبح الفكر اليونانى آخر الأمر أساساً للفكر الحضارى الأوروبى ، وبقيت آثار ذلك حتى جاء عصر النهضة الأوربية ، فاكشف الأوربيون جذورهم وأصولهم في أرض اليونان ، وإن كان قد فاتهم أن الفكر اليونانى ذاته قد تأثر أشد التأثر بفكر المنطقة الحضارية الأولى في وادى النيل وبفكر المنطقة السامية والعربية القديمة في شمال شبه جزيرة العرب .

رابعاً - منطقة الجزيرة العربية في جنوب غرب آسيا :

ولهذه المنطقة الرابعة أهميتها الخاصة في هذه الدراسة ، كما أن لها صفاتها الطبيعية التى تميزها عن غيرها من المناطق . فهى أولاً المنطقة التى تتوسط العالم القديم بحق ، فتتصل بالبر مع القارات الثلاث اتصالاً مباشراً أو شبه مباشر ، وتطل شواطئها على كل من بحار الجنوب وبحار الشمال ، ويتوغل إليها البحر المتوسط في الشمال كما يمتد نحو داخلها خليج عمان والخليج العربى في الشرق والجنوب الشرقى وخليج عدن والبحر الأحمر في الجنوب وعلى طول الساحل الغربى حتى أصبح يطلق على شبه الجزيرة العربية اسم « جزيرة العرب » في شىء من التساهل أو التسليم بنتيجة الواقع ، ولكن المهم بالنسبة للموقع الجغرافى أنه لم يكن مستطاعاً بالنسبة لأهل الجنوب البعيد أو أهل الشمال البعيد أن يدوروا بالبحر دوراً كاملاً بسفنهم أو جواربهم البحرية متجاهلين مراسى شواطئ بلاد العرب ، وإنما كان من الملائم بالنسبة للملاح أو التاجر البحرى القادم من الجنوب أن يتوقف عند الساحل وأن يعهد إلى وسيط عربى بنقل ما يحمل من بضائع الجنوب على ظهر بعير عربى ره حاد عربى من أبناء الجزيرة حتى يبلغ شواطئ الشمال . فيعود ليسلم ما حمل

إلى ملاح آخر هناك . وبهذا أوجدت طبيعة الجزيرة العربية وموقعها الجغرافى لأهلها مهمة تاريخية هى حمل أمانة التجارة والنقل والوساطة بين شواطئ الشمال ، ولحسن الحظ أن الحيوان الأصيل فى البيئة العربية القديمة كان هو « الجمل » الذى خلقه الله ليحمل الأثقال وليقطع الفيافى فى أشهر الشتاء القارص أو فى أشهر الصيف القاطظ . فكان الطبيعة فى بلاد العرب قد تكاملت فى عناصرها من البيئة الطبيعية أو من الحيوان ، بل كذلك من البشر الذى جعل الله منهم الأمة الوسط بين الناس ، فكانوا وسطاء اتصال مادية تجارى ، وحملة أمانة تعدلت فيما بعد إلى رسالة فى الفكر والثقافة والدين . ومن هنا فقد تكاملت أسباب الاتصال وعوامله ومظاهره فوق أرض العروبة التى هى أرض الوسط وأرض زاوية الاتصال بالمعنى الواسع العريض .

وفوق ذلك فإن هناك نوعاً آخر من أنواع تكامل البيئات فى بلاد العرب كان له الأثر الكبير فى تكوين تلك البلاد وإعدادها لحمل الرسالة التاريخية الكبرى التى كانت من نصيب العرب ، لاسيما فى عهد الإسلام . فإذا بدأنا بالجنوب الغربى نجد أنه مكون من هضبة بركانية فى أصلها وذات ارتفاع يصل فى منطقة صنعاء الوسطى من اليمن إلى أكثر من ألفى متر فوق البحر ، ويبلغ فى بعض القمم نحو ثلاثة آلاف متر ، والأرض فى معظم بقاعها بركانية الأصل ، تزيد أمطارها الموسمية الصيفية على نصف متر ، وتغطيها المزروعات المتنوعة من المحاصيل والأشجار التى أضفت على البلاد اسم « اليمن السعيد » ، فإذا ما توجهنا نحو وادى حضرموت الداخلى الذى تنصرف إليه بعض مياه الهضاب الغربية ويسير على السطح حيناً ويختفى متسرباً تحت الحصباء فى قاعه حيناً آخر . وقد كانت له فى العهود الغابرة بعض امتدادات الحضارات اليمنية من سبأ وحير التى ورثت مملكة معين فى داخلية اليمن ، كما كانت أرض حضرموت تغل بعض البخور الذى كان تجار اليونان وروما يشترونه للاستخدام فى معابد البحر المتوسط وكنائسه المسيحية . ثم إذا اتجهنا إلى سواحل ظفار وعمان إلى الشرق تجددت المرتفعات السداخلية وشواطئ المنطقة وموانئها والملاحة البحرية إلى شرق إفريقيا وإلى الهند . ومن الطريف أن نلاحظ أهمية الرياح الموسمية فى هذه المنطقة فهى التى سهلت الانتقال

البحرى بل هي التى كانت تدفع بسفن العرب القدماء وغيرهم من سواحل بلاد العرب إلى سواحل شرق إفريقيا والهند القديمة . ولقد قامت نتيجة لذلك - وبسبب الظروف الطبيعية - تجارة مزدهرة وتبادل للبيع وكذلك - بل أهم من ذلك - للأفكار والحضارة واللغة والدين مما أبرز دور العرب الجنوبيين على أنهم « فينيقيو الجنوب » . ومن الطريف بصفة خاصة أن يلحظ على الخرائط القديمة التى كان يرسمها العرب (ومنهم الادريسي فى القرن الثانى عشر الميلادى) أن شواطئ شرق إفريقيا كانت ترسم فى مقابلة شاطئ بلاد العرب الجنوبية ، ولعل السبب فى ذلك أن يكون ما يذكره بعض كتاب العرب القدامى من أن الملاح إذا أراد أن يتجه من بلاد العرب الجنوبية إلى شرق إفريقيا فإنه يحدد طريق مركبه وسكانها (دفنها) نحو الجنوب فإذا بالرياح الموسمية الجنوبية الشرقية والشرقية تدفع به إلى شواطئ زنجبار وشرق إفريقيا مباشرة . ومن هنا كان الأمر الظاهرى هو أن بلاد الزنج فى شرق إفريقيا لابد وأنها تقع فى مواجهة بلاد العرب إلى الجنوب مباشرة .

فإذا ما انتقلنا مع الشاطئ إلى الشرق أيضاً دخلنا إلى مياه الخليج العربى بين أرض العروبة وأرض فارس القديمة . وقد امتازت الشواطئ العربية بأنها ذات الكثير من الجزر والشواطئ الصالحة لحياة البدو ، فضلاً عن بعضها تكثر به الينابيع والمياه التى تأتى مياهها الجوفية المتسربة فى الأصل من داخلية الجزيرة العربية ، بل ومن مرتفعات نجد . تمر تحت السطح فى أرض الأحساء ذات المراعى حتى تعود لتبقى فى منطقة الساحل بل وفى بعض جزره لاسيما فى « البحرين » التى جمعت بين خيرات المياه المالحة (صيد اللؤلؤ) وبين خيرات المياه العذبة فى عيونها وآبارها (وهى التى تمر فى الطبقات تحت البحر آتية من ناحية البر العربى لتعود فتظهر على السطح فى البحرين) . وهكذا يستمر الجمع بين خيرات البحر والبر على طول الساحل الغربى للخليج ماراً بقطر الكويت ، وقد أضيف إلى هذا الجمع بين الخيرات ما ظهر فى العهد الحديث من بترول الخليج وشواطئه فجمع فى الجناح العربى من الخليج بين حسنات البحر وحسنات البر وحسنات باطن القشرة الأرضية . ومع ذلك فإن دور هذا الجانب العربى لم يكن فى أصوله القديمة قائماً بالموارد المحلية فحسب وإنما نجد أن البحث الأثرى قد أثبت قيام مواقع

للاستقرار الساحلى القديم فى هيئة حضارات يعود بعضها إلى ما قبل العهد الحجرى الحديث ، وتستمر إلى عهد المعدن وبدايات العهد التاريخى ، بل أن بعض الباحثين يرون أن هذه المنطقة هى الوطن الأصلى للفينيقيين الذين تعلموا حياة البحر فى شواطئ الخليج ثم عادوا فألفوا حياة الانتقال البرى إلى شواطئ البحر المتوسط حيث استقرت بهم الحياة فى المنطقة الساحلية وأقاموا الحضارة الفينيقية التى تأثرت بالحضارة المصرية القديمة ، ثم عاد أصحابها فركبوا البحر المتوسط إلى تونس الخضراء ، حيث أقاموا حضارة قرطاجة القديمة .

تلك صورة عامة من حياة أهل الجزيرة العربية القدماء التى تعلم فيها أهل الصحراء الربط بين حياة البحر وحياة البر . . . بل بين حضارة البحر وحضارة البر ، وأضافوا إلى ذلك حياة « الوساطة » بين الناس ، فنقلوا « السلع » ونقلوا « الفكر والحضارة » على محور يمتد من شواطئ الخليج العربى إلى شواطئ تونس الخضراء ، وهم فى ذلك قد نقلوا عناصر طيبة عن حضارة أرض الكنانة القديمة فى مصر ، لعل أبرزها أن يكون هو فن « الكتابة » وأصول الأبجدية التى تطورت من كتابات مصر القديمة . . . بل تلك كلها صورة وضاءة ينفعنا أن نذكرها فيما بعد عندما نعود إلى دور العروبة التى جعلها الله الأمة الوسط بين الناس ، بل الأمة الوسط فى كل شىء . . . فى الموقع والتجارة والفكر والسلوك والحضارة والدين . . . « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

ولنعد الآن مرة أخرى إلى شواطئ العرب على الخليج العربى وسنجد أن نشاطها الحضارى لم يقتصر على توجيهها نحو البر العربى ، وإنما هو قد انتشر مع الشاطئ إلى أرض العراق الأدنى حيث استقر الملاحون العرب الأقدمون مع التجار اليونانيين النازحين من بعيد ، فيما أصبح يطلق عليه ميناء « المحمرة » (شاراكس سبازينو القديمة) . وكان العرب أقدر من اليونانيين الغرباء النازحين، فلم يلبث الأمر أن استقر بهم فيما أصبح يعرف بعد ذلك باسم « عربستان » . ومن الطريف أن نذكر أنه فيما يتصل بالتسابق بين العرب والفرس الأقدمين كان العرب أسبق كثيراً من الفرس فى الاستقرار بمنطقة شط الفرس عربستان إلى الشرق من

الشاطىء . وفوق ذلك فقد استقر بعض الملاحين العرب في نقاط مختلفة على شاطئ فارس من الخليج . ومن أهم مواقع استقرارهم ميناء « سيراف » على ذلك الشاطىء وقد كان له دوره الكبير في التجارة القديمة ، لاسيما في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين . وكان نقطة ارتكاز للتجارة العربية مع شواطىء الهند بعيداً فيما وراء الخليج ، ولعلنا نستطيع أن نتابع دور العرب في تجارة الخليج ونشر الثقافة العربية والإسلام فيه وفيما وراءه حين نصل إلى دراسة الاتصالات الحضارية وانتشار الإسلام على يد العرب في غرب آسيا وأواسطها فيما وراء هضبة إيران ، ثم على طول السواحل الآسيوية الجنوبية إلى الهند وما وراءها إلى أقاصى جنوب شرق القارة الآسيوية .

ولنعد إلى الجزيرة العربية في حدودها الشرقية واتصالاتها بالعراق وأواسط إيران (إلى الشمال من مقاطعة فارس القديمة في القسم الجنوبي من أراضى الهضبة الإيرانية) . وكان العراق منذ أقدم العصور يمثل منطقة استقرار حضارى ترجع في أصولها (التى استمرت حتى الآن) إلى مرحلة الانتقال من العصر الحجري القديم إلى العصر الحجري الحديث ، وكانت تجرى على أراضيه مياه نهريْن من أعظم أنهار المنطقة ، وهما دجلة والفرات ، وكانت مياههما تأتي من ذوبان الثلوج على جبال زاغروس في إيران الغربية ، وجبال آسيا الصغرى الشرقية في فصلى الربيع والصيف . ولكننا نلاحظ أن الرياح الدائمة وشبه الدائمة في هذه المنطقة كانت تأتي كذلك من الاتجاه ذاته أى من الشمال بصفة عامة . ولذلك فإن الظروف هنا كانت تختلف عنها في أرض مصر ووادى النيل الأدنى ، حيث كان النهر يجرى من الجنوب إلى الشمال والرياح الدائمة وشبه الدائمة تجرى من الشمال إلى الجنوب . وبذلك فإن أرض الكنانة امتازت « بالتكامل » بين اتجاه جريان النهر من الجنوب واتجاه جريان الرياح من الشمال ، فتعلم المصريون منذ أقدم العصور ومنذ فجر التاريخ المكتوب (وربما قبله) استخدام مجرى النهر الواحد طريقاً للانتقال والنقل النهري من الاتجاهين ، مستعينين بدفع التيار المائى من الصعيد إلى الدلتا وبدفعه للشرع في الانتقال بين الدلتا والصعيد . ومن هنا كانت تلك « الوحدة » أرض الكنانة ، وكان نشوء « الدولة الواحدة » ذات الحضارة المتكاملة

التي تشمل مصر الموحدة ، بل كان قيام العاصمة الواحدة في الإدارة والاقتصاد والفكر والدين والسياسة ، وهي كلها أمور امتازت بها أرض مصر من القدم وعلى الدوام فيها عدا بدء فترات الانقطاع بل هي ميزة كانت أقل وضوحاً في العراق صاحب الحضارات القديمة المتعددة من سومرية وبابلية وآشورية ، وهي حضارات جعلت من أرض الرافدين أرض الملامح الحضارية المتعددة ، وحتى عندما جاء العهد الإسلامي بلغته ودينه الواحد لم تبلغ الوحدة الدينية ذلك المبلغ الذي تمتعت به مصر في أزهرها الذي أنشأه أهل الشيعة ولكنه لم يلبث أن أصبح (ومنذ أيامه الأولى) للإسلام كله ، بل ولكل العالم الإسلامي في جامعته العتيدة ، التي يروق لنا دائماً أن نسميها «بالجامعة الأمة» أو «الجامعة الإمام» للعالم الإسلامي كله .

من هنا فإنه لم يكن مستغرباً أن نجد في العراق عدة مراكز حضارية تاريخية ازدادت خلال عصور متلاحقة ، بدأت في الجنوب ثم انتقل مقرها نحو الشمال بصفة عامة . ففي الجنوب الأقصى قامت «أور» القديمة غرب شط العرب والفرات الأدنى ثم تلتها «سومر» القديمة ثم ظهرت «أكاو» ثم «بابل» في وسط العراق ، ثم جاءت «أشور» عند حافة زاجروس في شمال وسط العراق ، ثم عاد المركز فانتقل نحو الجنوب إلى موقع «المدائن» جنوب بغداد (وهي عاصمة بدأت على أيدي أصحاب مستعمرة من أصل يوناني ثم انتقلت إلى أيدي كسرى وأهله قبل أن تنتقل العاصمة في العهد العربي إلى بغداد) .

أما مراكز الكوفة والبصرة بين كربلاء (وكلها على الحافة الغربية لأرض «السواد») فهي مراكز من العهد الإسلامي . . . وحتى هذه أمست تعكس النوع الفقهي الذي قاسى منه العراق حتى جاء عهد بغداد كعاصمة واحدة . . على خلاف أرض مصر التي كانت لها كلها عاصمة أساسية في الصعيد (طينه ثم طيبة) وعاصمة أساسية وسطها هي منف ثم القاهرة ثم عاصمة غربية ساحلية واحدة في الإسكندرية ، ولكن كلا منها كانت عاصمة للبلاد كلها ، وقد احتفظت البلاد بوحدة التراب المصري كله .

وفي مجال الاتصال بين أرض السواد العراقي وما وراءه في هضبة إيران نجد أن سلسلة جبال زاغروس في غرب إيران تمتد من الجنوب إلى الشمال ، لا يخرقها إلا عدد محدود من الممرات ، استطاعت التجارة والثقافة والفكر والجيوش أن تنفذ خلالها من الغرب إلى الشرق في أغلب الأحيان . . . وكان هذا هو طريق نفاذ الحضارة العربية إلى المواقع الشمالية من الحضارة الإيرانية . . . بل إنه عن هذه الطرق والممرات استطاعت الحضارة الإسلامية فيما بعد أن تنفذ إلى قلب إيران وما وراءها من داخلية آسيا .

وإلى الشمال مباشرة من الجزيرة العربية نجد سلاسل جبال طوروس والأناضول ، وهى سلاسل تسير كلها في اتجاه شرقي غربي ، ولذلك فقد تعارض اتجاهها مع اتجاه توسع القبائل العربية إلى الجنوب منها ، وقد تسبب هذا الاتجاه المتعارض في توقف توسع العرب نحو الشمال مباشرة ، بل إنه لم يستطع أن يخرق السلاسل الجبلية العالية غير أعداد محدودة من التجار أو المغامرين بتجارهم وأفكارهم ، ولم يظهر هؤلاء جميعاً أثر حضارى ظاهر إلا في نفاذ المسيحية الأرمنية التي تركزت كنيسة في أرمينيا ذات الجبال والهضاب العالية . ولم تلحق بها في ذلك الاتجاه المتعامد مع السلاسل إلا بعض البعثات في العهد الإسلامي (لاسيما في القرن الحادى عشر) وهى التى بلغت بلاد البلقان على نهر الفلجا ، حيث احتك المسلمون بالروس الشقر وتجار البحر البلطى وبلاد اسكندناوه التى عثر بها على بعض العملات العربية من ذلك العهد .

وكذلك نلاحظ أن اتجاه السلاسل من الشرق إلى الغرب في هذا الجزء من آسيا الصغرى هو الذى أدى إلى أن الإسلام لم ينتشر هناك إلا على أيدى الأتراك السلاجقة ثم العثمانيين الذين أتوا وساروا في ذلك الاتجاه خلال القرون اللاحقة .

ونصل الآن إلى شمال غرب الجزيرة العربية ، وهو الشق الشامى (أو السورى) مما يسميه بعض الجغرافيين « بالهلال الخصيب » . وهذه منطقة تشبه الهلال الذى يفتح نحو الجنوب ، وله قرنان أحدهما هو أرض العراق التى عرضنا لها والثانى هو بلاد الشام التى تمتد في اتساع مماثل للعراق ، ولكنها تتنوع عنها في المظاهر الطبيعية ، فدخلها يتجه نحو بادية الشام ، ويصل في أطرافه الجنوبية إلى شرق

الأردن وشمال الحجاز ، ووسطها سلسلة من الجبال هي في حقيقتها تمثل حافة أخدود عميق يقع سهل البقاع والبحر الميت في قاعه ويمتد إلى خليج العقبة . وتلك الجبال العالية شرقها في سورية وغربها في لبنان ويتجه ساحلها على البحر المتوسط في هيئة سهل ساحلى ضيق به مجموعة كبيرة من الموانى التى ربطته بالبحر وما وراءه من حضارات قديمة سبقت العصر الحجري الحديث وعاشت فيه ، الخصب موطناً لحضارات قديمة سبقت العصر الحجري الحديث وعاشت فيه ، حيث بدأت به - على الأرجح - أقدم زراعات القمح الذى لا يزال ينمو برياً في سفوح جبل حرمون أو جبل الشيخ الذى تغطى قمته الثلوج الدائمة . ولقد كان القرن الشامى من الهلال أراض اتصال ثقافى قديم ويتصل مع العراق من جهة ومع البحر المتوسط من جهة ثم مع مصر وأرض النيل الأدنى من جهة ثالثة . ومن الخير أن نذكر في هذا المقام أن همزة الوصل بين أرض الشام وأرض مصر كانت عن طريق شبه جزيرة سيناء ، وهى فى ذاتها منطقة صغيرة قائمة بذاتها ، ولها سماتها الحضارية الأصيلة من ناحية أخرى . ولكن سيناء انقسمت من الناحية الطبيعية قسمين متميزين . القسم الأول هو الجنوب الجبلى المرتفع ، وتحد من الشمال صحراء التيه الجافة ، وهى التى تاه فيها موسى عليه السلام وبنو إسرائيل أربعين عاماً بقى أثرها معهم خلال أجيال طويلة ، حيث تميزت شخصيتهم عن غيرهم ، وحيث اعتادوا حياة العزلة ، وبحيث أصبحوا يتحدثون عن أنفسهم كشعب الله المختار . أما القسم الثانى من سيناء ، وهو القسم الأصغر ، فقد تمثل فى الشريط الساحلى ، وهو ذو طبيعة مختلفة تماماً ، فهو فى عمومته يمتاز بالسطح المستوى ، وتسقط عليه الأمطار فى الشتاء ، كما تغطى سطحه تلال الكثبان الرملية التى تشرب مياه المطر وتحتفظ بها ، لأن قسماً على الأقل من الساحل (لاسيما عند الطرف الغربى القريب من مصر ودلتا النيل البيلوزى القديم فى سهل « بالوطة » به طبقة سفلية-طينية صماء لا تتسرب فيها مياه الكثبان ، وإنما تحفظها من الضياع ، حتى إذا ما جاء المسافر وحفر « الجب » أو البئر فيها وصل إلى الماء الجوفى القريب والذى يستمر العام كله . لذلك فإن الطبيعة رسمت هذا الشريط الشمالى ليكون طريقاً سهلة ذات ماء وعشب وكلاً للعابرين والمسافرين والمتنقلين بأنعامهم أو

إيلهم أو الغزاة أو الجيوش (من الجانيين) بخيولهم أو وسائل نقلهم أيًا كانت . واستمرت هذه الظاهرة حتى عهدنا الحديث والحالي . فمر طريق السكة الحديدية ثم الطريق المرصوف على طول هذا الشريط .

ولم يكن هذا الشريط طريقًا للتجارة وحدها . وإنما هو كان أيضًا طريق الهجرات القديمة بين أرض الشام وأرض مصر . وكذلك كان طريق انتقال الحضارة ومظاهرها والربط بين المنطقتين الأساسيتين والكبيرتين في الحضارة منذ كان العصر الحجري القديم الأعلى ثم العصر الحجري الحديث ثم عصر المعادن ثم اكتمل العصر التاريخي بحضاراته الفرعونية وما يعادها في المشرق . . بل إننا نعرف أنه على الرغم من أن زراعة الشعير قد بدأت كما أسلفنا في شرق إفريقيا وشمالها إلا أن زراعة القمح إنما بدأت في أرض الشام وتلاله ثم انتقلت إلى مصر عن طريق شمال سيناء في العصر الحجري الحديث وما بعده ، كما نعرف أنه قبل أن يطلع التاريخ المكتوب كان أهل الشام ينتقلون إلى مصر . ومعهم الزيوت المعصورة من الزيتون والمحفوظة في جرار فخارية من نوع معين (هو الجرار ذات الأيدي «المتوجة») في الألف الرابعة قبل الميلاد فيبيعونها لأهل وادي النيل كما تشهد آثار « المعادى » من ضواحي القاهرة ، حتى إذا ما جاء العصر التاريخي استمر الاتصال السلمى بين مصر وجاراتها الشرقية ، إلى أن جاء الهكسوس ، وهم الرعاة الآسيويون الذين نشأوا في سهول آسيا واستأنسوا الحصان وركبوه ثم دخلوا به أرض مصر حوالى ١٧٠٠ قبل الميلاد ، فتعلم منهم المصريون فنون الحرب بهذا الحيوان العاتى ، وطوروا « عجلة رمسيس » وركبوها ، ثم ردوا الغزاة على أعقابهم وطاردوهم إلى أرض الشام ، حيث أقاموا أول امبراطورية في العهد القديم . وبعد ذلك استمر استخدام طريق الشريط بين المنطقتين ، وجاءت عنه رحلة يوسف وإخوته ، ورحلة العذراء وطفلها المسيح عليه السلام ، ثم جاءت بعد ذلك بستة قرون أو أكثر رحلات العرب القادمين مع الفتح الإسلامى . ثم خرجت من هذا الطريق ذاته غزوات مصر أيام التتر حيث صد المصريون غزوة المغول وحفظوا للمسلمين يومهم الخالد في « عين جالوت » ، بعد أن كان المغول قد خربوا بغداد قبيل ذلك .

وبعد ذلك جاءت العصور الحديثة ، فاستمر الشريط الساحلى طريقاً ، للانتقال والغزوات معاً ، فى الاتجاهين ، بل أصبح هذا الطريق مدخلاً إلى مصر ومنفذاً منها إلى المشرق العربى كله . فقد جاء الغزو التركى أيام العثمانيين الأوائل فى عام ١٥١٧ الميلادى عن هذا المدخل ، وعاد الأتراك فحاولوا العودة عن هذا الطريق بعد أربعمئة عام (١٩١٧) . وكان الأساس فى استخدام الطريق والعودة إليه أساساً جغرافياً يكشف لنا كيف أن عوامل المسرح الطبيعى هى التى تحدد مجال حركة التاريخ بل وترسمه . وقد أثبتت هذه العوامل ذاتها مرة ومرة فى أيامنا الحديثة الجارية ، حين خرجت حملة « السلطنة » البريطانية ففتحت أرض فلسطين برجال مصر وأبنائها ، أو حين تكررت حركة الجيوش مرة ومرة فى أيامنا المعاصرة فيما نسميه حروب فلسطين والكفاح ضد حركات الاستعمار الجديد على يد إسرائيل ، ولنتنقل الآن من الطرف الجنوبى فوق الهلال الخصيب فى الشمال إلى الأطراف الجنوبية لشرق الأردن وإلى شمال الحجاز فى الأرض التى يسميها المؤرخون أرض « النبط » أو أرض « الأنباط » . وقد كان ميناء العقبة وميناء « ايلات » القديم نهاية الطريق لخليج العقبة ، تماماً كما كان ميناء « القلزم » نهاية لطريق خليج السويس وما وراءه . وقد بدأ استخدام خليج العقبة كمخرج لجنوب غرب الهلال الخصيب أيام الملك سليمان . وقد كان ذلك الميناء مخرجاً لكل ما يقع شماله وإلى الشرق بل والجنوب الشرقى منه . وهذه هى الأرض التى أصبحت قاعدة للحضارة النبطية التى وضعت أساس الكتابة « العربية » الأولى التى اتخذت بعض جذورها متأثرة بالكتابات العبرانية وشقيقاتها التى عرفها سكان تلك المنطقة الأقدمون . وقد تركزت تلك الحضارة حول « البتراء » التى نحت أصحابها بيوتهم فى واجهات جبال الحجر الرملى الملون بأطراف وادى موسى . وقد بلغ من أهمية منطقة البتراء ، على صغرها بسبب موقعها الجغرافى الفريد والحصين . أن اهتم بها الرومان فاحتلوها مع سائر أرض الغساسنة وملوك العرب وأمراهم ، وكان ذلك أيام تراجان فى أوائل القرن الأول بعد الميلاد .

وإلى الجنوب من أرض النبط تمتد جبال مدين التى كانت فى مواقعها تمثل النهاية الشمالية لطريق الحجاز ومنطقته الحضارية المستقلة على طول الساحل حتى جنوب

بلاد العرب عند نجران وبدايات هضبة اليمن في أقصى الجنوب . وقد كان الحجاز منطقة انتقال للتجارة بين جنوب بلاد العرب وشمالها ، بل منطقة انتقال بين منطقتين حضارتين عريقتين في الجنوب والشمال ، وقد سارت على طولها تجارة «رحلة الشتاء والصيف» بين أقصى الجنوب وأقصى الشمال ، بل بين بيئة اليمن شبه الموسمية وبيئة البحر المتوسط ذات الشتاء الممطر . وقد قام في وسط الطرفين تقريباً مركز دين إبراهيم الحنيف وما أورثه من مركز للإسلام في مكة المكرمة ، أرض قریش صاحبة رحلة الشتاء والصيف ، ثم مركز المدينة المنورة ويشرب القديمة حتى أرض صالح في أقصى شمال الطرفين . وقد جمع الطرفان بين تراث الدين وعراقته وبين ثروة التجارة وعزها ومجدها ، وكان الجمع في ذلك كله بين الثقافة والتجارة كدعامتين أساسيتين في بناء الحضارة على طريق هذه المنطقة الحضارية العتيقة .

ونصل في أقصى الجنوب إلى أرض اليمن الذي يحتل هضبة تتدرج في الارتفاع من ساحل تهامه على البحر الأحمر إلى القمة في جبل النبی شعيب والهضاب والأودية العالية التي تحيط به في شرقه وغربه ، حيث يزيد أعلى سطحها على ألفى متر فوق مستوى البحر ، ثم تنتهي بأودية تنحدر شرقاً إلى ما أصبح يعرف الآن بفيافي «الجوف» . ومعظم صخور هذه الهضبة من اللابا البركانية التي هي في أصول تكوينها جزء متصل بهضبة الحبشة وجبالها ، ولكن هبوط البحر الأحمر وأخدوده قد فصل بينهما في الزمن الجيولوجي الثالث ، وإن كان ظهور البراكين وانتشار اللابا البركانية قد استمر على جانبي الأخدود بعد ذلك ، وقد نتج عن الموقع الجغرافي وارتفاع الأرض هطول الأمطار بكميات كافية (تزيد على خمسين سنتيمتراً في السنة في كثير من الجهات) وخلال فصل الصيف ، وهي أمطار موسمية أو شبه موسمية آتية من المحيط الهندي . . . وقد تسببت في تفكك الصخور البركانية وتكون تربة غنية تحتفظ بالرطوبة والمياه المتساقطة أو الجارية في البقاع والوديان . وقد قامت على الهضاب والسفوح حياة نباتية مزدهرة حتى أطلقت على اليمن تسمية «اليمن السعيد» ، وقامت زراعات أشجار البن (في ظلال أشجار أكبر منها) وفي الأودية ذات الضباب الذي يحجب ضوء الشمس

الساطعة ، كما قامت على « المدرجات » الصناعية (التى أقامها الإنسان) زراعات جيدة للحبوب والفاكهة كانت أساسها للحضارات التى تتابعت فوق السفوح . وأقدمها الحضارة « المعينية » ثم حضارة « سبأ » « وحير » ، ثم الحضارات الإسلامية فى أعلى المناطق الجبلية . وظهر أن الحضارة بدأت فى المناطق المنخفضة نسبياً ثم أخذت تنتقل تدريجياً نحو أعالي المناطق الجبلية ، وكان هذا دليلاً على الجفاف الذى حل بالبلاد تدريجياً . وهذا أمر له دلالاته المناخية والحضارية ، بل لعله كان السبب فى تيسر استمرار الحياة المستقرة فوق أرض اليمن إلى يومنا هذا .

كذلك فإنه يبدو أن هضبة اليمن كانت مهذاً قديماً من مهدات الحياة القبلية التى استمرت خلال فترة طويلة من التاريخ . وقد اضطرت تغير الأحوال الخاصة بعض قبائل السكان إلى الهجرة ، إما شرقاً إلى قاع وادى حضرموت (حيث تجرى بعض المياه المنصرفة من الهضاب اليمنية) ، وإما بعيداً عن اليمن كلها إلى أرض نجد ثم سواحل الخليج العربى وأرض العراق . وكان ذلك فيما يبدو من أسباب ما تقوله العرب من أن « اليمن مهد العرب والعراق لخدمهم » . وفوق ذلك فإن هضبة اليمن كانت نقطة اتصال ثقافى وحضارى مع الجهات المجاورة . ففى الشمال امتدت اتصالاتها الثقافية والحضارية إلى واحة نجران حيث تركزت المسيحية القديمة ، كما امتدت إلى أرض هضبة عسير . وفى الشرق امتدت إلى أرض الأودية التى كانت تمتد إلى الشرق والجنوب الشرقى ، ومنها وادى سبأ القديمة وأرض سد مأرب وجنتيه الوارفتين عن يمين وعن شمال ، ثم كذلك إلى أعالي الأودية الممتدة إلى الأحقاف وأرض حضرموت . وفى الجنوب تمتد المؤشرات الحضارية من الهضبة إلى شواطئ خليج عدن وسواحل الكلا والشجر ، بل وإلى جزيرة سومطره التى تكاد الآن أن تقع فى عزلة بحرية عما حولها ، مع أنها كانت فيما يبدو منطقة عبور بين أرض اليمن وأرض الصومال ، التى تغطى جزءاً من أرض بلاد « بنت » القديمة . ثم أخيراً إلى الغرب كانت الاتصالات القديمة وثيقة بين شقى الأرض فى اليمن وفى أرض الأحباش ، حيث كانت بنت القديمة والتى عرفها المصريون القدماء . ولقد عثر على بعض المؤشرات الفرعونية من أوائل الدولة الفرعونية الوسطى التى عرفت أرض اليمن القديمة ، ثم زاد الاتصال وتوسع فى الدولة

الفرعونية الحديثة (على أيام الملكة حتشبسوت) حين كانت الرحلات البحرية استمرراً لنشاط الملاح المصرى القديم الذى تحطمت سفنه على الشواطئ المرجانية القديمة على ساحل البحر الأحمر ، ولكن أغلبها وصل إلى أرض بُنت في بلاد البهار والبخور الذى عرفته معابد مصر القديمة ، حيث استمر الاتصال متقطعاً حتى عهد العابد المسيحى « فرومبوس » فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، حين انتقلت الكنيسة القبطية إلى أرض الأحباش . والواقع أن الاتصال الحضارى كان قديماً ومتصلاً (رغم بعض الانقطاع المؤقت من حين لآخر) فى مثلث رأسه فى مصر القديمة وزاويتي قاعدته فى اليمن وبلاد الصومال والأحباش . وتلك أصول جغرافية لأحداث الاتصالات التاريخية فى هذا الإقليم الواحد

على هذا النحو درنا حول منطقة الجزيرة العربية كلها ، وتبعنا مظاهر الاتصالات الثقافية والتوجيه الحضارى لبعض المناطق الصغرى داخل هذه المنطقة الحضارية الكبرى وعلى أطرافها . ولكن ينبغى لنا قبل أن نتقل إلى منطقة حضارية أخرى ، أن ننظر إلى « قلب » هذه المنطقة العربية الكبرى ، وسنجد أنه كانت لها نواة ظاهرة هى أرض نجد وامتدادها إلى الشرق نحو شواطئ الخليج (أرض الاحساء والهفوف) . وهذه الهضبة محصورة بين « الربع الخالى » فى الجنوب وصحراء « النفوذ » فى الشمال . وكانت نجد تمثل منطقة أساسية من مناطق البادية فى الجزيرة العربية . ونحن نعرف أن البادية كانت دائماً أصلاً من أصول البيئة العربية ، بل أصلاً من أصول الحياة العربية كلها . ففى البادية نشأت السجاياء الأصلية للعرب ، ذلك أن حياة أهل البادية قد تمثلت فيها طباع الكرم والضيافة والشهامة والنخوة والشجاعة والاعتداد بالنفس والاعتزاز بالنسب والتضحية من أجل القبيلة ورعاية الشرف ، وغير ذلك مما امتازت به حياة العرب ، والبدو منهم بصفة خاصة . بل إن أصول الحياة العربية احتفظت بطابعها البدوى رغم كل مظاهر المدنية التى وجدت فى مواقع الاستقرار أو « القوى » التى استندت إلى الزراعة أو التجارة أو الوساطة بين المناطق الحضارية والمتجاورة أو المتباعدة ، أو استندت إلى مواطن التجمع فى بيوت العبادة أو أسواق الفكر والأدب فى قلب البادية مما امتازت به بعض المواقع التى ميزت حياة العرب الروحية والدينية والفكرية والأدبية الوجدانية ، بل المواقع التى انبعث منها نور الدين منذ أقدم

العصور يغطي أرض العروبة الأولى ثم أرض الدنيا كلها من حول الجزيرة العربية في كل اتجاه .

ولقد كان أهل القرى المستقرة في الجزيرة العربية منذ أقدم أيامهم يبعثون بصغارهم إلى البادية حتى ينشأوا نشأة بدوية ، وحتى يتشربوا روح البادية ولبائها قبل أن يعودوا إلى أهلهم في « القرى » ذات المدنية وقد صقلت طفولتهم حياة البادية ذات الخشونة التي تبقى معهم ولا يغطيها طلاء الحياة المستقرة الناعمة ، وإن امتدت بهم الحياة .

وعلى هذا النحو كان لكل منطقة صغيرة في الجزيرة العربية دورها الخاص في حياة العرب وتطور حضارتهم منذ أقدم العصور ، وخلال العهد الجاهلي ثم الإسلامي بشكل خاص ، ولكن تلك الأدوار جميعاً كانت تتكامل أتم التكامل ، ومتراصة أحكم الترابط ، حتى خرج العرب مع تمام تاريخهم الحضارى القديم أمة وسطا بين الناس ، بل بين جيرانهم في البر والبحر فيما وراء الحدود في كل اتجاه .

خامساً - منطقة الهضبة الإيرانية :

وهذه منطقة خاصة لها دورها الحضارى الخاص في التاريخ ، ولكنه في حقيقته دور جاء متأخراً عن غيره في التاريخ الحضارى العام . وقد يكون من أسباب ذلك أن الجغرافيا قد حبت المنطقتين المجاورتين في الهند إلى الشرق وأرض الرافدين إلى الغرب بوجود مجموعتين من الأنهار الكبرى التي كانت قاعدة لحضارة مستقرة ، ترجع أصولها إلى ما قبل العصر الحجري الحديث ، وتمتد وتزدهر في العصر الحجري الحديث وما بعده . أما هضبة إيران فقد حرمت تقريباً من الأنهار الكبرى ، وليس بها إلا غدران صغيرة نسبياً أو روافد عليها تجرى إلى خارج المنطقة الإيرانية (لاسيما في الغرب) . ولعل هذا أن يكون من بين الأسباب في أن هضبة إيران لم تكن فيما بعد تعرف عادة إلى أى حد ظاهر بحضارات العصر القديم ، فضلاً عن أنها كانت تقع بين المنطقة الموسمية ذات الأمطار الصيفية الغزيرة في الهند وأطراف امتداد مناخ البحر الأبيض المتوسط ذى الأمطار الشتوية والأنهار الجارية من الناحية الغربية . كذلك فإن قلب الهضبة الإيرانية كان يشمل قسماً كبيراً من

صحراء لوط التي يبدو أنها بقيت شبه جافة خلال معظم عصر ما قبل التاريخ . ومع ذلك فإن هضبة إيران التي نحن بصدددها لم تكن هضبة مغلقة أو شبه مغلقة (كما كانت الحال في هضبة التبت مثلاً) لأن سلاسل الجبال المحيطة بها لم تكن كلها تمتد في اتجاه واحد متصل (شرقي - غربي بصفة عامة) ، وإنما كانت تتخللها الفتحات والممرات التي تسربت عنها الحضارة والمؤثرات الحضارية ، فعرفت هضبة إيران حضارات الهند وتأثرت بها ، كما عرفت حضارات المنطقة العربية بل والمنطقة اليونانية القريبة وتأثرت بها إلى حد كبير . ومن هنا فإن أهل إيران الأقدمين لم يكونوا بمعزل من الفكر المجاور في الشرق أو في الغرب ، وإن كانت سواحلهم الجنوبية المطلة على المحيط الهندي شواطئ شبه مغلقة ، يسودها مناخ شديد القسوة ، يجعلها بعيدة عن أن تكون شواطئ صحية أو حتى قابلة لأن تسير بقرىها قوافل الملاحة والتجارة ، وإنما كانت خطوط الملاحة هنا تبتعد من الشاطئ بقدر الإمكان حتى تستفيد من الرياح الموسمية بعيداً عن الشاطئ الذي تسوده الأخطار الطبيعية والمخاطر التي لا يتيسر معها العبور الآمن في المياه الإقليمية الساحلية . وقد يبدو غريباً كيف أن مقاطعة « فارس » في جنوب الهضبة الإيرانية والتي نشأت فيها حضارة فارس القديمة لا يعرف التاريخ بها أى مرفأ أو ميناء يقع على شاطئ المحيط في الساحل الجنوبي الذي نحن بصددده .

ونحن إذا ما انتقلنا إلى الشمال من الشاطئ فإننا نجد كما ذكرنا منطقة « فارس » إحدى المناطق الصغرى في الهضبة الإيرانية الكبيرة . وهي منطقة ظهرت بها مواقع بعض المدن الإيرانية القديمة ، وقامت بها حضارة الفرس القدماء (بالمعنى الضيق للكلمة) . وبها موقع « برزوبوليس » التي نشأ بها الأكاسرة وقام ملوكهم ، وامتد نحو الغرب حتى طغى على أطراف هامة من أرض العراق ، وامتد إلى الغرب حتى بلغ مشارف البحر المتوسط ، ودخل مصر القديمة واحتلها في أواخر أيامها الفرعونية ، كما احتك باليونان القديمة في بعض الأطراف الغربية لآسيا الصغرى .

أما على الحافة الغربية لهضبة إيران فقد كانت هناك جبال « زاجروس » التي تتجه من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي ، والتي كانت الممرات تقطعها وتسهل

التوغل خلالها من كل من الجانبين الشرقى والغربى . ولذلك فإن الحافة الغربية لهضبة إيران الكبيرة كانت تمثل منطقة عبور نفذت منها معالم الحضارة من الجانبين ، كما عبرتها الجيوش المتوغلة من كل من الاتجاهين . وقد أثمر ذلك الاتصال المتبادل كل ثماره في العهد العربى الإسلامى حين اختلط الفكر الإسلامى بل والمسيحى من قبله ، ببقايا الفكر « الزارواسترى » والفارسى القديم . وحتى عندما جاء الإسلام وتوغل إلى داخلية الهضبة الإيرانية القديمة اتخذ صورة غير تلك التى عرفها المسلمون فى الأرض العربية وفى المدينة المنورة بصفة خاصة ، وتعصب الإيرانيون وأبناء الفرس الأقدمون للمذهب الشيعى أشد التعصب ، وبصورة لا تزال تميزه عن مذهب أهل السنة حتى يومنا هذا .

ثم إلى الشمال من منطقة العبور العربى - الفارسى (أو الفارسى - العربى) فى غرب إيران ووسطها ، نجد شواطئ بحر قزوين وجبالها التى تطل على ذلك البحر المغلق ، والتى انطبعت حياة أهلها بطابع « محلى » صرف كان التوجيه الجغرافى فيه نحو ذلك البحر وفى حدوده ، وإن كان قد سار مع شواطئه وأقام شيئاً من الاتصال الحضارى المحدود بها إلى الغرب والشمال أو إلى أقصى الشرق والشمال من ذلك البحر .

أما فى الركن الشمالى الغربى من هضبة إيران الكبرى فقد كانت هناك أيضاً منطقة حددت الجبال العالية ذات الممرات القليلة طبيعتها ، فقامت بها جماعة الأكراد أصحاب الثقافة واللغة التى ميزتها عن كل من الفرس والعرب فى آن واحد ، ولا تزال هذه المنطقة الكردية الصغيرة قائمة بطبيعتها الخاصة حتى اليوم . ولها مشكلاتها الحضارية والسياسية التى تفرد لها مكانة مميزة ، خصوصاً بعد أن انتهت السياسة إلى تقسيمها ثلاثة أقسام بشرية بين إيران والعراق والأراضى التركية .

وأما عن الحافة الشمالية والشمالية الشرقية لهضبة إيران : فإننا نعود فنجد السلاسل الجبلية تتجه فى امتداد شرقى غربى ، ويقوم بها بعض مواقع الاستقرار الجبلى فى مدن قليلة ، منها مدينة مشهد ، ولكن الاتصال بسهولة تركستان كان ، ولا يزال ، محدوداً نسبياً ، بحيث أن المذهب الفارسى الشيعى لم ينتشر كثيراً إلى

سهول تركستان التى استوطن فيها الأتراك بلغتهم وثقافتهم . وحتى الإسلام الذى انتشر إلى تركستان إنما جاء إنتشاره على أيدي العرب لا الفرس . وكذلك فإن الفرس فى انتشارهم نحو الشرق على الحافة الشرقية لهضبتهم قد اصطدموا بعناصر أخرى غير فارسية فى أفغانستان ، وما أصبح يعرف فى العهد المعاصر بباكستان وبلوخستان ، وهى عناصر صمدت أمام المؤثرات الفارسية ، واحتفظت بطابعها الحضارى إلى يومنا هذا . والحقيقة أن إيران وأهلها من الفرس والإيرانيين قد كفاهما ما كانت تواجهه من لقاء حاد مع العرب فى الجبهة الغربية ، فأصبح التاريخ الحضارى كله كفاحاً بين الفرس والعرب أكثر بكثير مما كان مواجهة بين الفرس وأهل أفغانستان وباكستان وبلوخستان (والهند فى النهاية) على جبهتهم الشرقية .

سادساً - منطقة آسيا الداخلية (الوسطى والشمالية) :

تمتاز آسيا بأنها أكبر القارات وأوسعها ، وأن محورها يمتد من الشرق إلى الغرب ، وأن جنوبها تعزله عن وسطها سلاسل طويلة من الجبال والهضبات العالية ، تمتد أيضاً فى الاتجاه ذاته ، وتفصل محيطاتها الجنوبية والشرقية عن أن تتوغل برياحها ورطوبتها فى سر إلى قلب القارة ، الذى يمتاز بالجفاف واقتصاد غطاءه النباتى على الحشائش القصيرة نسبياً . ولذلك فإن داخلية القارة الكبيرة تمثل منطقة أساسية من مناطق الاستبس التى تعمرها الحيوانات المناسبة لها ، وربما كان أهمها هو الحصان الذى لا يزال يوجد فى حالة « برية » فى بعض المناطق ويعيش السكان على لحمه ولبنه . ولا يعرف بالضبط متى استؤنس الحصان فى داخلية آسيا ، ولكن الأرجح أن يكون ذلك قد تم حول منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد . ولا بد أن يكون استنبات بعض النباتات (لاسيما القمح) قد تم قبل ذلك ، خصوصاً على حافات أشباه الصحارى المجاورة لشمال الصين ، وفى الواحات الكثيرة المنتشرة فى سهوب وسط آسيا التى تتخللها بعض الأنهار القصيرة والنهيرات التى تنصرف انصرافاً داخلياً ، هو الذى يميز داخلية القارة الكبرى ، حيث تنتهى الأنهار عادة فى بحار أو بحيرات مغلقة (أمثال بحر آرال الذى ينتهى

إليه نهراً سيحون وجيحون) . ولا ينتهى إلى البحر من داخلية آسيا إلا عدد من الأنهار تقع على أطرافها الشرقية القصوى (في شمال الصين) والشالية القصوى (في سيبيريا) . وقد مكن انغلاق هذه المساحة الكبيرة والقارية من الأرض لسكانها وأصحابها في أواخر العصر الحجري القديم من أن ينفردوا بتطور حضارى خاص ، تمثل بصفة خاصة في تركيز حضارة تصنع آلاتها وأدواتها من العظام بصفة خاصة . وقد سادت العصر الحجري القديم الأعلى الذى رأينا أنه كان أول عصور « التخصص » في صناعة الآلات ، والذى يبدو كذلك أنه امتاز بشيء من الاستقرار النسبى ، ولا يعرف تاريخه بدقة ، ولكن يقال أنه معاصر كذلك للعصر الحجري القديم الأعلى في غرب أوربا وفي إفريقيا وفي بعض جهات من آسيا الجنوبية وربما في استراليا . وزامن هذا التخصص الأول في صناعات الآلات الحجرية والعظمية وما شاكلها حياة السكان في « محلات » لها شيء بين الثبات والاستقرار النسبى في الحركة يرجعه بعض الباحثين في آثار عصر ما قبل التاريخ في بعض الجهات إلى نحو خمسة عشر ألف سنة خلت ، وإن كانت بداية الاستقرار ونهايته تختلف من منطقة إلى أخرى . ولا بد أن بعض مناطق استقرار الحياة النسبى وتخصص صناعة الآلات لتلائم أغراضاً معقدة من حياة السكان وحاجاتهم في المسكن والعمل وكسب العيش ومحاربة الحيوان أو العدو من الإنسان . . . لا بد أن تكون بعض المناطق الحضارية في العالم القديم قد سبق بعضها الآخر في الزمن ، كما أن حلول حضارة العصر الحجري الحديث (الزراعة وتربية الحيوان) قد سبقت بعض المناطق قبل غيرها (ويبدو أن السبق كان في مناطق الشرق الأوسط القريب من قلب العالم القديم) ، إلا أنها قد تأخرت في بعض المناطق المنعزلة نسبياً . ومنها منطقة أواسط آسيا التى نحن بصدددها الآن . . . وازداد تأخرها في بعض المناطق البعيدة المنعزلة نسبياً ، مثل منطقة استراليا التى سنعرف فيما بعد أن المستعمرين الأوربيين قد وجدوا سكانها منذ ثلاثة قرون أو أربعة لا يزالون يعيشون فيما يناظر ذلك العصر الحجري القديم الأعلى .

كذلك فإن منطقة آسيا الداخلية قد تبادلت المؤثرات الحضارية مع ما حولها . ففي الغرب كان الامتداد الطبيعى للسهوب ومناطق الحشائش حافزاً على انتشار

القبائل فيما بعد في اتجاه أواسط القارة الأوربية وكذلك انتشرت بعض القبائل التي نشأت في الأصل في مناطق السهوب ، ومنهم الآريون القدماء ، إلى باقى آسيا بل وأطراف الهند . وأما في شرق آسيا الداخلية فقد احتكت قبائل الرحل مع سكان المنطقة الصينية من العناصر قديمة الاستقرار . . بل إنه يقال إن عناصر الرحل قد اختلطوا بالسلالة المغولية (أو المنغولية) وانتشرت في عصر متقدم عبر المنطقة الضيقة في شمال المحيط الهادى (وربما أيضاً عبر مضيق بهرنج) إلى أمريكا الشمالية ، حيث بدأ الهنود الحمر ، وهم « منغوليون » عمروا القارة الشالية ثم انتقلوا تدريجياً إلى أمريكا الوسطى ثم أمريكا الجنوبية وأنشأوا حضارات هناك ، بعضها من أواخر العصر الحجري القديم الأعلى ، وبعضها من العصر الحجري الحديث ، حيث اهتموا هناك - اهداء مستقلاً وقائماً بذاته - إلى زراعة الذرة الأمريكية البيضاء وبعض محاصيل الأمريكتين كالبطاطس والطماطم وغيرها . . . وهكذا كانت منطقة آسيا الداخلية منطقة لها امتدادها الخاص الذى نشر الحضارة بأسلوبه الخاص ، وتفرعت منه حضارة أو حضارات أخرى بعيداً في قارتى العالم الجديد .

وأما امتداد داخلية آسيا نحو الغرب فلا بد من أن نذكر فضل هذه المنطقة على استئناس حيوان « الحصان » وما ترتب على هذا الاستئناس من عواقب بالنسبة « لتحرك » الإنسان حركة سريعة تمثلت بصفة خاصة في حالة الحروب التى استخدم فيها هذا الحيوان . وقد أشرنا إلى أن استئناس الحصان قد تم على الأرجح حوالى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ، ونقله رعاة الهكسوس معهم إلى الشرق الأوسط ثم إلى مصر حوالى عام ١٧٠٠ ق.م . ويبدو كذلك أن « العجلة » التى تخفف الحركة في دورانها على سطح الأرض قد دخلت إلى مصر حيث طورها المصريون إلى « عجلة رمسيس » المعروفة في الحروب واستعملوا معها الحراب والنصال المعدنية ، فتعلم المصريون في وجود « الحصان » ما لم يقدروا عليه في وجود الحيوان الإفريقى البديل (وهو « الحمار ») ، خصوصاً وأن ركوب الحصان والزحف خلفه في عربة يعطى الراكب نوعاً من « الاستعلاء » الذى أخذه أهل مصر عن أهل آسيا . ولعل هذا أن يكون هو السبب الخلفى في أن مصر الفرعونية القديمة بقيت على سجيتهما الإفريقية الأصيلة من عدم « الاستعلاء » ومن الانتقال

البطىء والرتيب على ظهر الحمار أو سيراً خلفه إذا أثقلناه بالأحمال (كما يفعل فلاحو مصر حتى الآن) . ولقد فاخرت القارة الإفريقية وأبنائها بحيوانهم المسالم والصبور حتى عرفوا القارة الآسيوية (أو عرفتهم) بحيوانها الجموح . بل إن علينا أن نذكر أن ما أضافته منطقة آسيا الداخلية إلى الثروة الحيوانية لجنوب غرب آسيا ومصر ، قد مر بأهل المنطقة العربية خلال مرحلة من «تطوير» الحيوان الجديد وترويضه . بل « وتربيته » بعد أن أدخله الملك سليمان حوالى القرن العاشر قبل الميلاد إلى قلب الجزيرة العربية ، وهى بيئة أشد جفافاً وأقل فى عطائها النباتى وحشائشها بل أقل فى مواردها المائية الجارية والراكدة وفى أمطارها وتساقطها عن منطقة داخلية آسيا ، ومن هنا فقد وجبت « تربية » الحيوان الضيف الذى دخل على « الجمل » حيوان بلاد العرب الأصيل ، فقام نوع من « التخصص » بين الحيوانين . فاقصر الجمل على الحمل والنقل — أو على الانتقال البشرى فى حالة الراحلة أو البعير الهجين ، واقتصر كذلك على أن يكون مصدراً للطعام بلحمه ولبنه ، أما الحصان العربى « الضامر » فى بطنه والخفيف فى حركته ، فقد تخصص فى فن « الحرب » ، وأصبح أداة الحرب الأولى بالنسبة للفارس العربى الذى بدا من جانبه يضىء على الحياة العربية لوناً جديداً لم يألفه العرب فى جاهليتهم البعيدة فى التاريخ (وقبل أن يبدأ التاريخ) فأصبح بين العرب سادة فرسان بل ومغامرون يجوبون الفياضى ، وجاءت ظاهرة « الغزو » بين القبائل ، بل وبلغت الحال أن سميت بعض الحروب بأسماء الخيل فكانت حرب « داحس والغبراء » (فى حرب البسوس) وظهر فوارس ومغامرون من أمثال امرئ القيس ؛ وتغيرت العلاقات بين القبائل البدوية ودخلت فى « الحركة السريعة » ، بها يكاد يذكروننا فى عهدنا الحديث والمعاصر بحركات « الحرب الخاطفة » ووسائل الغزو الآلى الحديث الذى غير وجه الحرب فى هذه الأيام وتلك صورة قديمة ظهرت فى عهد الجاهلية فى بلاد العرب وأحدثت تطوراً بدأت أحداثه فى عهد سليمان الذى سبقها بنحو بضعة عشر قرناً ، وهى فترة تطوير الحصان العربى ، الضيف الجديد الذى غزا الجزيرة العربية وغير بعض ملامح وجه الحياة فيها .

ولنعد الآن مرة أخرى إلى منطقة آسيا الداخلية وسكانها ودورهم الحضارى .

وسنجد أن المنطقة تنقسم بطبيعتها قسمين أساسيين ، هما ما نسميه على سبيل التبسيط تركستان الغربية وتركستان الشرقية وتفصلها منطقة عالية من الجبال والهضاب في بامير . فأما تركستان الغربية فموطن « الأتراك » بقباثلهم المتعاقبة من التركمان والسلجوق والعثمانيين وغيرهم . وقد انتشروا من هناك . وتركزت حركتهم أساساً إلى الجنوب من بحر قزوين وعلى طول محور الجبال والأودية التي تجرى في الاتجاه ذاته حتى تمر بشبه جزيرة الأناضول وآسيا الصغرى ، وقليلًا ما كانوا ينحدرون إلى سهول شمال الجزيرة العربية وفيافيها . وإنما هم قد استطاعوا أن يستقروا في الأناضول وأن يمتد فريق منهم إلى الركن الجنوبي الشرقي من أوربا ، حيث توسع العثمانيون في أرض بيزنطة القديمة وأقاموا إمبراطوريتهم وخلافتهم التي شملت البلقان وامتدت جنوباً إلى أرض الشام وأرض مصر وأطراف من الجزيرة العربية حتى وصلت بعض طلائعها إلى أرض اليمن .

وقد دخل الأتراك في الإسلام دخولاً شاملاً ، ودانت لهم خلافة المسلمين ، وتأثرت لغتهم التركية باللغة العربية إلى حد بعيد ، فأصبح ما يجاوز ثلث ألفاظها من أصل عربي ، وغلبت الثقافة الإسلامية على حياتهم في كل شيء . وكذلك أصبح التشريع الإسلامى ونظام حكمه أساساً لحياتهم كلها . ويبدو أن افتقار اللغة التركية إلى أصول ثقافية في بلادها الأصلية قد جعل من الميسور على الإسلام ، وهو مغلوب من الناحية السياسية والعسكرية ، أن يغلب فاتحيه وأن يسميهم بميسمه فيما يشمل كل شيء .

وأما القسم الثانى (تركستان الشرقية) فهو يمتد من غرب بامير وشمالها إلى أطراف الصين وأرض منشوريا في أقصى الشرق . وهو يمتد من منطقة سور الصين العظيم (الذى أقيم لحماية الصين من أهل بادية المغول ومن وراءهم) إلى منطقة منغوليا الخازجية ، التى يفصلها عن منغوليا الداخلية صحراء جوبى القاحلة نسبياً . ونظراً لاتساع منطقة تركستان الشرقية فإنها تتخللها مناطق واسعة من الفيافي القاحلة ، ومنها صحراء تاريم التى تقع بين التبت وجبال تيان شان ، ومنها صحراء جوبى التى أشرنا إليها من قبل . وقد كان سكان السهوب في هذه المنطقة يتشكلون من قبائل قديمة كان يطلق عليها اسم « الهونج نو » ، وهم أصل

قبائل « الهون » التى هاجمت أوروبا والامبراطورية الرومانية القديمة ، وأصل قبائل « الويجور » التى كانت تهدد حدود الصين القديمة وغيرها . وقد جاءت بعدهم قبائل التتر التى توسعت فى ظروف خاصة إلى شمال بحر قزوين وجنوب الأراضى الروسية الحالية ، وكذلك قبائل المغول الذين جاءوا من شرق المنطقة وانتقلوا إلى شمال الصين من جهة ، وإلى منطقة الشرق الأوسط وشمال بلاد العرب من جهة أخرى (بعد أن مروا بأرض تركستان الغربية) . ولقد حاولنا أن ندرس أسباب الاضطراب الكبير فى حياة سكان تركستان الشرقية وكثرة تنقلهم وانتشارهم فى « موجات » متعاقبة انتهت بهم إلى غزو غيرهم فى الشرق أو فى الغرب على شكل هجرات واسعة النطاق كبيرة العدد كثيرة الأفواج ، مما انتهى بأغلبها إلى تخريب ما فتحوه من البلاد ، لولا أن الإسلام قد غلب آخر الأمر على معظمهم وفتح قلوب الكثيرين منهم - لاسيما من سار منهم نحو الغرب ونحو موطن الإسلام - فأنتهى ذلك بأن أهدأ نفوسهم ووسع قلوبهم وهذب سلوكهم ، فذابوا آخر الأمر فى أهل البلاد التى فتحوها وأخذوا من حضارتها واندمجوا فى سكانها ، على نحو ما حدث بصفة خاصة بالنسبة لمن وصل من جحافلهم إلى منطقة شمال الجزيرة العربية .

وفى رأينا أن السبب الأساسى فى انتشار الهجرات وجحافل الغزاة من هذه المنطقة الهونية التتية المغولية إنما هو ذبذبة الأحوال المناخية فى تلك المنطقة التى تقع فيها وراء الجبال والهضاب وتتوغل إليها الأمطار الخفيفة من ثلاثة مصادر متباعدة ، هى مصدر المحيط الهادى فى أقصى الشرق ، ومصدر المحيط الأطلسى وراء أوروبا كلها (ويتبعه مصدر ثانوى هو مصدر البحر المتوسط) ، ثم هناك مصدر ثالث لا يكاد يضيف شيئاً يذكر إلى المصدرين السابقين ، ولكننا نذكره هنا كاحتمال يمد ببعض الأمطار الشاردة والمتسربة ، وهو مصدر المحيط الهندى الذى يقتصر أثره على بعض ما يشرد من الرطوبة عبر بلاد التبت وجبالها ثم يتساقط على شكل ثلوج تذوب بعض مياهها وتنصرف شمالاً إلى بعض الأودية التى تجري فى حوض تاريم شديد الجفاف .

والذى يحدث هو أن مدى توغل التيارات الهوائية التى تنقل الأمطار كان متذبذباً غاية التذبذب . وقد تأتى سلسلة دورات من السنوات لا يصل فيها مطر

كاف إلى قلب المنطقة التي نحن بصدددها . ويترتب مع ذلك قحط شديد لا بد معه من أن القارة من جهة أخرى . وهكذا تمثلت صلة أهل الفيا في الداخلية بأهل الحضارة المستقرة في الصين أو في الغرب . . . تمثلت في سلسلة لا تنقطع من فترات الغزو وفترات الهدوء .

سابعاً - منطقة شبه القارة الهندية :

وللقارة الآسيوية ثلاث من أشباه الجزر الكبرى تقع كلها في جنوب القارة وتطل على المحيطين الهندي والهادي ، وهي شبه جزيرة العرب في أقصى الجنوب الغربي ، وشبه جزيرة الملايو والهند الصينية في أقصى الجنوب الشرقي ، ثم شبه جزيرة الهند الصينية في أقصى الجنوب الشرقي ، ثم شبه جزيرة الهند في الوسط ، وهي التي يطلق عليها بعض الجغرافيون شبه القارة ولكل من أشباه الجزر تلك صفاته ومميزاته الخاصة ، مما ترتب عليه أن كان له دور حضارى خاص ومميز . فشبه جزيرة العرب كانت كتلتها مربعة الشكل أو مستطيلة ، وكانت ترتبط مادياً بأرض قارتين هما آسيا وإفريقية ، كما كانت تحيط بها بحار على شكل خلجان كبيرة (البحر المتوسط) أو أذرع بحرية (البحر الأحمر والخليج العربي) أو خلجان تنفتح على المحيط (خليج عدن وبحر العرب) ولها فوق ذلك موقع جغرافي فريد . لا يكاد يضارعه أو يحاكيه موقع جغرافي آخر في العالم ، وهو قريب على ما يبدو من موطن البشرية الأولى ، وقد جرت على مسرحه ملاحم الهجرات الكبيرة والاتصالات البشرية التي حددت مجرى التاريخ ، وبلاد العرب في تاريخها الطويل كانت مستقراً أو معبراً للعناصر البشرية من جميع ألوان البشر ، ومن جميع الثقافات والحضارات والأديان ، ذلك أنها كانت كثيرة المداخل والمخارج من جميع الجهات ، وفي كل الاتجاهات تقريباً . بل من هنا كانت حياتها الحضارية كلها حركة ، لم تعرف الركود ، ولم تعرف الجمود ، ولم تعرف الاستقرار الساكن والوقوف عند وتيرة تاريخية واحدة ، وإنما كانت كلها حركة تطور ، وإن اختلفت سرعة الايقاع من وقت لآخر فكانت تشتد وتتسارع مع القيادة البشرية النشطة ، وتجمد أو تضعف في عهود الركود التاريخي أو الغزو الأجنبي الداهم الذي ينتزع المبادأة من

أيدى أبناء البلاد (كما حدث في عهدنا الأخير) .

وأما شبه جزيرة الهند الصينية والملايو في أقصى الجنوب الشرقى ، فإنها كانت مخرجاً آخر لقارة آسيا الكبيرة ، وهى شبه جزيرة بالمعنى الواضح ، فهى لا تتصل بآسيا إلا من جهة واحدة هى الشمال والشمال الشرقى ، وتحيط بها مياه المحيط من الشرق والجنوب والجنوب الغربى ، تجاور الجزر الواقعة إلى الجنوب والجنوب الشرقى منها ، وهى أرخبيل جزر الهند الشرقية التى يبلغ آلاف قليلة من الجزر التى يختلف بعضها عن بعض فى الحجم وعدد السكان . ولكن شبه جزيرة الهند الشرقية وملحقاتها الجزرية يعيش عليها خمسة أمثال سكان الجزيرة العربية وملحقاتها أو ما يزيد ، وأن كانوا مختلفين فى السلالة واللغة والدين وبعض ألوان الحضارة ، التى يغلب عليها الطابع المحلى فى بعض الأحيان ، وذلك كله بخلاف ما عليه الحال فى الجزيرة العربية ذات الطابع الواحد فى الدين واللغة والثقافة والحضارة بعمامة ، وإن كان هناك شىء من الاختلاف فى بعض معالم سلاسلهم الجنسية من إقليم لإقليم .

فأما شبه الجزيرة الثالثة فهى شبه جزيرة الهند فى وسط جنوب القارة . وهى مثلثة الشكل رأس مثلثها إلى الجنوب وقاعدته عند سفوح جبال الهمالايا . ولا يخلو التكوين الجيولوجى والفيزيوغرافى لشبه جزيرة الهند من دلالات بالنسبة لفهم طبيعة البيئة الجغرافية فى تلك البلاد ، ولتفسير بعض معالم التاريخ البشرى والحضارى لما جرى على تلك الأرض الهامة فى تاريخ القارة الآسيوية ، بل وتاريخ الحضارة البشرية بصفة عامة . ففى أقصى شمال شبه القارة الهندية (وتشمل الهند وباكستان وبنجلاديش وامتدادها فى اسام) توجد سلاسل جبال الهمالايا وما وراءها من هضبة التبت العالية ، وهذه كلها مناطق شديدة الارتفاع ، بل ربما كانت أعلا مناطق العالم كله فى الجملة والاتساع . والجبال ذاتها حديثة من الناحية الجيولوجية ، أى أنها ترجع إلى عصر السلاسل الألبية على امتداد آسيا وأوروبا ، وعصر سلاسل جبال الأمريكتين على سواحل المحيط الهادى الشرقية . وقد كان هذا العصر عصر اضطراب جبلى فى العالم كله ، ويطلق عليه الزمن الجيولوجى الثالث . وقد أثر وجود السلاسل الجبلية فى شمال الهند . فقام حد « مناخى »

تتوقف عنده التيارات الهوائية الموسمية التى تأتى محملة بالرطوبة والأمطار الغزيرة فى فصل صيفى معين وتأتى من المحيط الهندى (سيبيا خليج البنغال) ، وترتطم بالجبال فتسقط كل ما بها من رطوبة ومطر ، وتجرى المياه غزيرة جدًا إلى سهل الهند الشمالى ، وهو سهل عريض له ما يشبه السنام فى الوسط وينحدر سطحه فى الجملة شرقاً وجنوباً إلى خليج البنغال ، كما ينحدر غربه مع نهر السند وروافده الكثيرة نحو الجنوب والجنوب الغربى إلى البحر العربى الذى يمتد إلى سواحل باكستان وغرب الهند . وفى هذا السهل العظيم تراكمت الرواسب السميكة خلال بقية الزمن الجيولوجى الثالث والزمن الجيولوجى الرابع الذى تلاه إلى الوقت الحاضر . ويقال أن تراكم الرواسب قد أدى إلى زيادة حمولة السطح على ما تحته من طبقات الأرض ، كما يقال أنه نتيجة لذلك فإن جبال الهمالايا ذاتها (التى يخفف نحت الصخور وإزالتها من وزن كتلتها التى تندفع إلى أعلا) . . . هذه الكتلة الجبلية لاتزال فى ارتفاع مستمر ، وإن كان غير محسوس حتى اليوم . وقد استقرت الحياة على السهل الهندى الكبير منذ أقدم العصور ، وعلى الرغم من أننا لم نجد حتى الآن آثاراً للعصر الحجري القديم فى السهل ذاته فقد وجدت بعض آثار ذلك العهد فى المناطق التى تقع إلى الجنوب منه . أما السهل ذاته فقد عثر فيه على آثار من العصر الحجري الحديث وما تلاه خصوصاً عند طرفه الشمالى الغربى ، حيث عرفت آثار الاستقرار فى باكستان بآثار حضارة « موهنجودارو » التى استمرت من العصر الحجري الحديث إلى عصر بداية استخدام المعدن . وفوق ذلك فإنه لابد وإن تكون آثار كثيرة غيرها قد طمرت تحت طبقات الطمي المترسبة بوفرة على السهل الشمالى كله وهذا يذكرنا ببعض ما حدث فى دلتا النيل التى لم يعثر فيها على آثار من العصر الحجري الحديث إلا عند حافات الدلتا بخلاف وسطها الذى كساه الطمي بطبقة كثيفة . ومع ذلك فإن هناك ملاحظة عامة على هذا السهل الهندى العظيم فى الشمال ، ذلك أن سطحه يتجه إلى الشرق فى قسم منه وإلى الغرب فى قسم آخر . وقد ترتب على ذلك اختلاف فى « التوجيه الجغرافى البشرى » للسكان منذ أيامهم التاريخية القديمة الأولى وحتى اليوم . وقد انعكس ذلك فى صورة الحياة والحضارة على مر الزمن ، حتى إنه لم تقم هناك وحدة بين مختلف أقاليم

السهل الفيضى العظيم إلا فى أحوال نادرة . وكذلك لم تقم وحدة بين السهل وما يقع إلى جنوبه فى بقية الهند . وإنما قامت عدة وحدات حضارية وسياسية واختلفت التجمعات البشرية والحضارية والسياسية كما سنرى بعد قليل . ويكفى الآن أن نذكر أن شبه القارة الهندية لم يعرف الوحدة الشاملة إلا تحت تأثير العوامل الخارجية كما حدث أيام الاستعمار البريطانى للهند كلها ، حيث قامت وحدة الحكومة الاستعمارية مفروضة على سكان شبه القارة كله . وحتى من الناحية اللغوية لم يكن مستطاعاً لمجموعة اللغات التى يزيد عددها وعدد اللهجات الكبيرة منها على المائة . . . لم يكن مستطاعاً توحيد التفاهم بينها إلا بلغة أجنبية مشتركة واحدة هى لغة الاستعمار «الإنجليزية» . ولا تزال آثار الاختلاف ثابتة حتى الآن فى ذلك السهل الشمالى الخصيب الذى انقسم بعد استقلال الهند عام ١٩٤٧ إلى دولتين كبيرتين هما الهند وباكستان ، ولم تلبث باكستان الشرقية أن عادت فاستقلت فى هيئة دولة بنجلاديش .

وإلى الجنوب من السهل الشمالى الكبير تقوم مجموعة من الجبال المنقطعة ولكن التوغل فيها كان أمراً غير متيسر . ولذلك فلا تزال بعض القبائل القديمة تقيم فيها بعيدة من معالم الحضارة المزدهرة بين أهل السهل الشمالى . ثم إلى الجنوب من ذلك تقوم هضبة «الدكن» ، وهى هضبة تغطيها اللابا البركانية التى تشبه ما نشاهده فى هضبة الحبشة بأفريقية . وهذه اللابا بركانية تتفتت فى شكل تربة سوداء تحتفظ بالرطوبة وتوجد بها زراعة القطن الهندى (بخلاف الشمال حيث تقوم زراعات الأرز والقمح ، وهى الحبوب التى دخلت إلى الهند من الشرق (من الصين أو الهند الصينية بالنسبة للأرز) أو من الغرب بالنسبة للقمح . . . وقد كانت زراعة القطن وبعض المحاصيل المدارية الأخرى سبباً من أسباب الثروة والحياة الزراعية فى وسط الهند ، ولكن هضبة الدكن بقيت كذلك فى شبه عزلة حضارية عما يقع فى شمالها أو فى جنوبها البعيد .

ولقد كان المثلث الجنوبى من شبه القارة الهندية منطقة مميزة بذاتها اندفعت إليها بعض العناصر القديمة من السكان ، ومنهم «الدارفيديون» الأقدمون ، وهم سلالة من السمر السود وأشباه الزنوج ، يبدو أنهم يمثلون فريقاً من سلالة سوداء

البشرة ، انتشرت حول المحيط الهندي وامتد انتشارها إلى إفريقيا السوداء وإلى أطراف بلاد العرب الجنوبية وبعض سواحل إيران ثم الهند الجنوبية كلها ثم بعض جزر المحيط الهندي إلى جزر جنوب شرق آسيا في أطراف المحيط الهندي ثم أخيراً إلى أستراليا ، حيث لا تزال ذريتهم تتمثل في بعض قبائل تلك القارة في الفيا في الشمال والوسط ، وهم سكان أستراليا الأصليين الذين وجدهم المستعمرون البيض على حالهم الفطرية القديمة ، فطاردوهم وأجلوهم عن الأراضي المعتدلة والصالحة للزراعة لأنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن استنبات النبات .

ولا يشذ عن حالة جنوب الهند الدارفيدي الذي أشرنا إليه من حيث الانعزال النسبي واستمرار العناصر القديمة إلا سواحل ذلك الطرف الجنوبي في الغرب والشرق . فأما عن الساحل الغربي فقد انتقلت إليه وإلى شماله بصفة خاصة عناصر (البارسي) الفارسية وعناصر أخرى مختلفة من أحلاف البرتغاليين وغيرهم على ساحل ولاية « كيرالا » التي انتشرت فيها المسيحية وعرف سكانها بالنشاط والحركة والتقدم . وأما ساحل كرمانزل الشرقي فقد نزلت فيه عناصر ملاحية بحرية ونشطت فيه التجارة مع خليج البنغال وما وراءه وأصبح لأهله من سكان مدراس وما إلى الجنوب منها (وكذلك من بعض عناصر القبائل الساحلية) نشاطهم وانتشارهم إلى جزيرة « سرنديب » أو « سيلان » (سرى لانكا الآن) ، حيث كان ذلك مظهراً فريداً وشاذاً عن المؤلف بالنسبة للخروج من بلاد الهند إلى ماوراءها . . . ولا يعادل ذلك إلا خروج بعض العناصر الهندية من الشمال ومن أطراف السهل الشمالي عن طريق بنغالة ، وتوسع تلك العناصر مقتفين آثار بعض الملاحين القدماء في اتجاه سواحل بورما وما وراءها إلى بلاد الملايو وشبه جزيرة الهند الصينية التي تأثرت بالتيارات الكبيرة الوافدة من الهند وما وراءها مما سنشير إليه فيما بعد .

على هذا النحو تنوعت البيئات واختلفت في شبه القارة الهندية . وهو تنوع لم ينته بالهند إلى الوحدة الكاملة ، بل بقيت الهند في حياتها الحضارية كلها منقسمة قسمين كبيرين هما ما يمكن أن نسميه « الهند النهرية » أو الهند السهلية « في الشمال والهند الهضبية والساحلية » في المثلث الواقع إلى الجنوب من السهول الشمالية

ولكل منهما طبيعته الحضارية : الشمال قد انتقلت إليه وخرجت منه حضارات متعددة ، فجاءه الآريون الأقدمون من الشمال الغربى ، ثم العرب المسلمون من الشمال الغربى أيضاً ، ودخلت إليه أفواج جديدة ومختلطة من حضارة المغول وغيرهم من المسلمين ، وخرجت منه فى الشمال الديانة البوذية التى نشأت بعد البراهمية الهندوكية القديمة ، ولكنها لم تعمّر فى الهند الشمالية وإنما خرجت منها إلى التبت والصين والهند الصينية ، كما خرج فريق منها جنوب الهند ليستقر فى جزء من (سرى لانكا الحالية) ، فكان البوذية نشأت عقيدة هندية شمالية وانتهت إلى غير ذلك . أما القسم الجنوبى والهضبة والساحلى من الهند فإنه كان « مخزن » السلالات والحضارات ، اندفعت إليه أو بعارة أدق « دفعت » إليه العناصر القديمة من الشمال ومن السواحل إلى داخلته ، حيث عمرت وبقيت حتى اليوم ، ولم تخرج من الهند إلا خروجاً محدوداً جداً ، لأن جنوب الهند كان يشبه ما نسميه « الركن المغلق » أو بعارة دارجة « قاع الزكية » حيث تبقى متخلفات الحضارة وتعمّر على الزمن دون أن يزعجها شيء من دخيل الحضارة . والأمر الطريف أن الهند على الجملة لم تجد من الثروة الحيوانية فيها ما يساعد أهلها على التوسع والانتشار إلا ما أخذوه من حيوانات البلاد المجاورة ، مثل الحصان ، وقد دخل من وسط آسيا ، ومثل الجمل وقد جاء مع العرب والإسلام . أما حيوان الركوب والنقل الأصيل فى الهند فقد كان « الفيل الهندى » ، وهو يختلف فى طبيعته عن « الفيل الإفريقى » الذى لم يستأنس مطلقاً وكان شرساً غير قابل للترويض أو الاستئناس ، ولا يزال كذلك حتى الآن . أما الهند فقد أستأنس لها فيلها ، وكان صالحاً للترويض ، فاستخدم فى النقل وفى حمل الأثقال وجرها . . . واستخدم آخر الأمر فى المناسبات الاحتفالية ونحوها ثم فى الحرب ذاتها حيث كان يستخدم للتخويف ، ونقله الفرس والرومان ، من الهند ، ثم بعض سكان إفريقيا القديمة منهم والأحباش الذين ساقوا فيلهم المعروف فى اتجاه أرض مكة وبيت الله الحرام . ولكن الفيل تقاعس عن السير على طريق الغزو الذى سبق إليه قبيل الإسلام .

ثامناً - منطقة الصين الكبرى :

وهذه منطقة كبرى من مناطق القارة الآسيوية تكاد تشمل جميع شرق القارة .

بل إن الصين بمساحتها وسكانها تكاد تشغل مكانة قارة بذاتها ، فإذا نحن أخذنا قارة أوروبا على سبيل المثال ، وامتدنا من المحيط الأطلنطي حتى جبال أورال في الشرق ، وجدنا أن من الممكن أن تضع أوروبا التي تحدها سلسلة الأورال داخل القارة الصينية . وأما من ناحية السكان فالصين تشمل خمس سكان العالم برمته وإذا حسبنا امتداداتها إلى اليابان من جهة وإلى أطراف شبه جزيرة الهند الصينية التي تشغلها عناصر من أصل منغولي أو صيني والتي تأثرت بحضارة الصين بدرجات متفاوتة ، فإننا نجد أن هذه الحضارة بامتداداتها المتأثرة بها تغطي ما يقارب ربع الإنسانية . كذلك فإن ثقل المنطقة الصينية من الناحية الحضارية يزكيه أيضاً تاريخها الطويل ، واتصال حياتها خلال ذلك التاريخ ، وكل ما هناك أن ضخامة هذه المنطقة واتساعها وتنوع بيئاتها القارية والداخلية والشاطئية والبحرية قد مكنت لها قدراً كبيراً من الاكتفاء الذاتي ، بحيث إنها لم يخرج منها إلى الخارج غير العناصر الزائدة ، وغير «فيض» السكان والحضارة . كذلك فإن العالم الخارجى الذى استطاع فى بعض العصور أن « يترك » أبواب هذه المنطقة الضخمة لم يستطع أكثر من أن يقف عند هذه الأبواب دون التوغل الظاهر أو الذى يمس الكيان المتناسك للحضارة الصينية . ومن هنا فقد احتفظت تلك المنطقة بوحدتها الثقافية والحضارية ، خصوصاً وأن المنطقة لم تكن مفتوحة انفتاحاً كبيراً إلا من ناحية واحدة هى ناحية الرعاة فى شياها الغربى ، وهى الجهة الوحيدة التى جاءت إلى الصين منها غزوات أو هجرات كبيرة العدد . ولقد أحست الصين بأن هذا هو مصدر الخطر الذى لا تقدر عليه ، ومن هنا فقد أقامت سورها الكبير لترد موجات الغزاة ، ونجحت فى ذلك إلى حد كبير . أما شواطئ الصين فى الشرق والجنوب الشرقى فقد كانت « مخارج » للبشر وللحضارة أكثر منها « مداخل » . ومن هنا كان الانتشار من السواحل إلى أشباه الجزر الصغرى نسبياً ، ومنها شبه جزيرة كوريا التى كانت صغيرة جداً بالنسبة للكتلة الصينية والتى لم تهتم الصين بأن تضغط عليها بما يطغى عليها طغياناً كاسحاً أو يغطى على لون حضارتها الخاص فى مجال اللغة والتجارة . ولقد عرفت كوريا منذ القدم بأنها أرض « شيلا » التى طرق أبوابها تجار البحر مستغنين عن مداخل الصين وأبوابها الضيقة على شواطئ أرض

الصين ذاتها إلى الجنوب ، ومع ذلك فمن الجائز ، بل والأرجح ، أن تكون بعض العناصر المنتشرة من القارة قد مرت بأرض « شيلا » وما جاورها مروراً سريعاً إلى أرخبيل اليابان ، الذى لا نجد كل عناصر مكانه من العنصر المنغولى أو الصينى ، وإنما جاء بعضهم إلى شمال اليابان من « الأينو » من طوال الرجال ذوى السحنة غير المنغولية وغير الصينية ، ومن الجائز أنهم يمثلون هجرة قديمة من القارة (أو من الأرض الواقعة إلى الشمال من المنطقة الصينية المنغولية) إلى بلاد اليابان . وقد بقى الأينو متركزين فى شمال اليابان ، وإن كان بعضهم قد اختلط آخر الأمر بالعناصر المنغولية فى الكتلة الصينية .

وتظهر بعض التتوءات فى ساحل الصين إلى الجنوب من البحر الأصفر ، ومنها شبه جزيرة صغيرة هى « شاندونج » . ولكن هذه جميعاً لم تكن « مخارج » بشرية من الصين ، وإن كانت قد مثلت نقاط تركيز حضارى وثقافى جعل لها طابعها الخاص . ويكفى أن نذكر أن « شاندونج » كانت فى قسمها الغربى موطن نشأة «كونفوشيوس» حكيم الصين العظيم وصاحب المذهب الفكرى والمنحى الاجتماعى الذى طبع حياة أهل الصين حتى الآن ، بعد أن تبلورت آراؤه فى غرب شاندونج منذ خمسة عشر قرناً ، ولئن كانت الكونفوشية لم تبلغ مرتبة الدين بالمعنى المعروف فى شرق القارة الآسيوية ، فإنها مذهب فكرى وعقيدة إنسانية ومنحى اجتماعى له مزاياه التى استمسك بها شعب الصين وسار عليها خلال قرون طويلة . وحتى بعد أن جاءت البوذية من الهند والتبت نراها قد تركزت فى مناطق خاصة (لاسيما فى التبت ذاتها) وانتشرت لتضيف إلى شرائع الحياة الصينية دون أن تمحو أصول المذهب الاجتماعى الكونفوشى .

أما عن الساحل فى جنوب الصين فقد كان ساحلاً مفتوحاً على الخليج ، خرجت منه عناصر الملاحين الصينيين . واستقر فى بعض موانيه ملاحو غرب آسيا الذين جاءوا إلى الصين من بواباتها التى كان أغلبها يقع على السواحل الجنوبية فى منطقة «فوكيين» الساحلية وإلى الجنوب منها حتى مشارف الهند الصينية . وقد بدأت الصلات البعيدة مع هذه المناطق الساحلية منذ العهد الإغريقى الرومانى (بل ويقال إن بعضها بدأ أيام مصر الفرعونية) ولكنها ازدهرت خلال العهد العربى

الإسلامي ، مما كتب عنه الكتاب والملاحون العرب (مثل ابن بطوطة وغيره) ، بل وكتبت عنه أيضًا بعض المصادر الصينية (مثل نصوص تشاو - جو - كوا) .

ولابد لنا من أن نشير إلى بعض المعالم الجغرافية التي ميزت المنطقة الصينية الكبرى . ذلك أن الأنهار الكبرى التي تقطعها تسير كلها تقريبًا من الغرب إلى الشرق ، بما فيها النهر الأساسي الذي يعتبر الآن حدًا سياسيًا بين الصين وأراضي سيبيريا (الاتحاد السوفيتي سابقًا) ، وهو نهر عامور الذي لم تقم عليه حضارة مرتكزة نظرًا لقسوة مناخ الجهات التي يمر بها ، ولكن السياسة والتوسع الروسي الكبير فوق سهول سيبيريا وبحثًا عن الوصول إلى المحيط الهادئ . . . هذه الظروف السياسية والعسكرية جعلت منه حدًا بين بلدين كبيرين من بلاد آسيا الشرقية .

وإلى الجنوب منه هناك نهر « هوانج هو » أو النهر الأصفر الذي يجري من داخلية مناطق الشعوب الشمالية إلى أرض تربة « اللويس » الهوائية والتي كانت مركزًا لحضارة قديمة من أعرق حضارات العصر الحجري الحديث ، وقامت على زراعة القمح التي يبدو أنها انتشرت من غرب آسيا انتشارًا بطيئًا ولكنه كان انتشارًا ثابتًا ، طور الحياة الرعوية إلى حياة زراعية مستقرة ومتصلة في اتساعها ، خصوصًا وأن النهر الأصفر لم يكن حوضه مقسمًا إلى سلسلة من الأحواض كغيره من أنهار المنطقة الصينية ، وإنما كان كله سهلًا واحدًا كبيرًا امتد في اتساع مفتوح من الغرب إلى الشرق ومن المناطق السهوية الرعوية إلى مناطق الساحل الشرقي . فضلًا عن أن جريان هذا النهر كان دائم الأخطار بسبب الفيضان ، وتحول مجرى النهر تحولًا مفتوحًا فوق سهول « اللويس » المكشوفة . ولكن هذا الخطر لم يخل من الخير بالنسبة للصين ، فقد كان الفيضان الذي يمثل مصدر خطر مشترك بالنسبة لمجتمع الصين الشمالي قد جعل المجتمع يعرف كيف يتحد ويتضافر لدرء هذا الخطر المشترك ، أو على الأقل لتجديد الحياة بسرعة فائقة عقب كل فيضان ، خصوصًا وأن هذا الفيضان كان يتمثل في مجرد « انتقال » مجرى النهر نحو الجنوب أو نحو الشمال ، أكثر مما يتمثل في فيضان منتظم وشامل على « الجانبين » داخل منطقة تشبه « الوادي العريض » ، على نحو يقضي على الحرث كله على جانبي ذلك الوادي .

وإلى الجنوب من سهل النهر الأصفر في شمال الصين يوجد حوض نهر « يانج

تسى « وهو النهر الكبير الذى تتكون منه الصين الوسطى . . . وهو يجرى كذلك من الغرب (حيث منابعه فى أطراف التبت) إلى المحيط فى الشرق . وينقسم هذا المجرى إلى سلسلة من الخيضان ، وأشهرها حوض « تسشوان » فى قلب الصين ، وقد كان مركزاً لحضارة مزدهرة قامت على أساس زراعة الأرز زراعة ناجحة ، وعلى أساس أنه حوض تحيط به المرتفعات كانت لهذا الحوض مكانته التاريخية بين أحواض الصين .

وبعد أن يخرج اليانج تسى من حوض تسشوان يسير محدداً من حوض صغير إلى آخر حتى يصل إلى قرب المنطقة الشرقية فيتسع مجراه إلى أن يصب فى المحيط . وكان مجراه الأسفل مخرجاً ومدخلاً للاتصال بين الصين وما وراء المحيط .

وإلى الجنوب من هذا النهر الذى يتوسط الصين كان هناك نهر « كيانج » « أوسى كيانج » وهو نهر أقصر من سابقه ، ولكنه يصرف مياه جنوب الصين ، وقد قامت عليه حياة زراعية مزدهرة بمحصول الأرز . ولقد كان الاتجاه الجغرافى لهذا الحوض ، كنظيره اليانج تسى إنما هو من الغرب إلى الشرق ومن الجهات الداخلية إلى المحيط ، ولكن السكان لم يخرجوا للانتشار فى الطريق البحرى من البيئة الزراعية فى جنوب الصين ، حيث يتوافر الأرز وبعض المحاصيل شبه المدارية والمدارية ، مما جعلها بيئة قابضة بأبنائها ولا تطردهم نحو الخارج . ومن هنا فقد طال استقرار حياة أهل الصين الجنوبية فوق بلادهم التى أثمرت جهودهم فيها فأقاموا الحياة الزراعية الزاهرة .

تلك هى الحافة الجنوبية للمنطقة الصينية الكبرى ، ولكن الحدود هنا تستحق إشارة خاصة ، لاسيما فإن مجموعة أنهار الهند الصينية تبدأ من منطقة الصين ، وتتجه كلها نحو الجنوب أو الجنوب الشرقى . ومن هنا فإن خط تقسيم المياه بين المنطقتين يتداخل مع خط الحدود الجغرافى بين منطقتين حضاريتين متداخلتين فى شرق آسيا وجنوبها الشرقى ، ولكنه كان خط تقسيم مياه أكثر مما كان « خط تقسيم حضارة » ، ولذلك فإننا سنعود لنربط بين الحضارة فى كل من المنطقتين عندما نتكلم عن منطقة شبه جزيرة الهند الصينية .

ولنعد إلى نشأة الحضارة فى منطقة الصين الكبرى ، فإذا بدأنا بالشمال فإننا نجد

أن أقدم الحضارات المعروفة لنا من عهد ما قبل التاريخ هي حضارة منطقة « تشو - كو - تين » ، وهى حضارة ترجع إلى أوائل عهد معرفة الإنسان « بالنار » واستخدامها فى منطقة تشبه « العراء » المكشوف ، حيث توجد بها بعض واجهات الجبال المحمية التى تشبه الكهوف ، ولكنها لا تبلغ التكيف الكامل . وقد اتخذ الإنسان صناعاته الحجرية من حجر الكوارتسيتا الذى يصعب تهذيبه ، ولا يعرف تاريخها بشكل محدد ، ولكنها حضارة « رجل الصين » الذى يختلف عن الإنسان العاقل الذى عرفه غرب العالم القديم فى العصر الحجرى القديم الأعلى وفى العصر الحجرى الحديث . ولكن المهم أن صناعة رجل تشو - كو - تين كانت صناعة مميزة ، نشأت وتخصصت فى آثارها الحجرية ، واستقرت بعض الاستقرار فى منطقة تقع فى التلال إلى الغرب والشمال من موقع بكين الحالية .

وبعد أن جاءت حضارة العصر الحجرى الحديث وشملت شمال الصين ، قائمة على زراعة القمح ، وهى زراعة يبدو ، كما قلنا ، أنها جاءت فى الأصل من غرب آسيا وانتقلت انتقالاً بطيئاً عبر سهول آسيا الوسطى . وقد بقيت الصين الشمالية متميزة بزراعة القمح عن الصين الوسطى والجنوبية التى تميزت بزراعة الأرز الذى هو نبات جنوبى يبدو أنه استنبت لأول مرة فى جنوب شرق آسيا . وقد كان من الطريف أن شمال منطقة الصين الكبرى امتاز بزراعة « شتوية » هى القمح ، فى حين امتاز جنوبها بزراعة « صيفية » هى الأرز . ومن هنا فقد ظهر مجال طبيعى لقيام لون من « التبادل » بين أهل الشمال وأهل الجنوب . وعلى الرغم من أن أدلة هذا التبادل السحيق فى التاريخ لم تصل إلينا ، إلا أنها أدلة طبيعية يمكن تصور قيامها دون مشقة . وعلى هذا النحو فقد كانت هناك مقومات لبدائية شىء من التكامل ، وإن لم يكن الأمر « وحدة » بالمفهوم الحديث بين شقى المنطقة القارية الشاسعة ، وهو أمر أثبتته التاريخ البشرى الطويل الذى تأكدت أسبابه مع الزمن .

والحق أن المنطقة الصينية كلها كانت على أقسامها الكبيرة منطقة ذات وحدة حضارية ظاهرة . وحتى السكان فى الشمال والجنوب كانت لهم مساحة سلالية عامة ، فهم جميعاً من المنغوليين ذوى المسحة المعروفة بالقامة المتوسطة والرأس العريض والجلد المائل إلى الصفرة البنية والأعين « المشقوقة » ، حيث يميل الجفن

العلوى فوق حافة العين فيظهرها بمظهر مائل . وفوق ذلك فإن السكان لهم لغة مشتركة قد تكون ذات لهجات محلية متباينة ولكنها ذات « كتابة » واحدة (وإن كانت معقدة ومكونة من مجموعة من الأشكال وليس لها أبجدية من النوع المعروف في لغاتنا ، في غرب القارة) . والواقع أن الجريدة التى تصدر بكتابة « المندارين » فى الصين كلها يمكن أن يقرأها جميع أهل الصين (أو من يقرأ منهم) وهم مئات الملايين . وتلك ظاهرة تمتاز بها المنطقة الصينية عن منطقة كالهند حيث اللغات كثيرة والكتابات التاريخية شتى ، وحيث لم يكن للسكان وسيلة للاتصال اللغوى فى العصر الحديث إلا بلغة أجنبية دخيلة هى اللغة الإنجليزية .

كذلك الحال بالنسبة للديانات والعقائد . . . فهناك للصين مذهب اجتماعى واحد أو شبه واحد هو المذهب « الكونفوشى » . وهو الذى يقارب بين الصينيين بصرف النظر عن اختلاف العقيدة كالبودية المنتشرة فى كثير من المناطق أو حتى الإسلام الذى ينتشر فى بعض الجهات الداخلية أو بعض المدن الكبرى المنتشرة بين « كانتون » فى الجنوب « وبكين » أو « بايجنج » فى الشمال . والطريف أن أهل الصين لهم عادات اجتماعية مشتركة ، ومنها احترام الأسرة الذى نقلوه عن الكونفوشية التى كانت توصف أحياناً « بعبادة الأجداد » .

وحتى إذا نظرنا إلى الحضارة الصينية من منظور زمنى تاريخى ، فإننا نلاحظ إنها فى المنطقة كلها قد امتازت بالاستمرار وعدم التغير الظاهر من عصر إلى آخر . وكأن الحياة والحضارة تسير بطريقة « رتيبة » جداً لا تغيير فيها . ومن هنا فإننا نجد أن الأمر فى الصين يختلف تماماً عنه فى بلد حضارى قديم آخر مثل الهند أو مثل مصر . ففي الصين مثلما يدخل الزائر إلى أحد متاحف الحضارة والتاريخ فى أى بلد فيمر من قاعة تمثل عصراً أو أسرة من العصور أو الأسرات التاريخية إلى قاعة ثم قاعة أخرى فى المتحف . . وهكذا حتى يخرج من المتحف فى آخر قاعاته ، ذلك دون أن يحس تغيراً ظاهراً فى محتوى القاعات التى تمثل العصور المتتابعة . . . وكأن التاريخ كله كان فى الصين وحدة متماسكة ، مستمرة ، بل كأنه تاريخ أسرة واحدة لا تكاد حياتها تتطور من عصر لآخر إلا فى حدود ضيقة مرسومة ، أما فى الهند مثلاً فإن البلاد كلها متحف يعيش كل العصور دفعة واحدة . فهناك الأزمنة القديمة

والديانات القديمة ، ثم الألوان الوسطى من التاريخ ، والهند المغولية والإسلامية ، ثم هناك الهند الحديثة . وهكذا فإن الحياة في الهند وريفها ومدنها عبارة عن متحف حي لكل العصور والديانات واللغات والثقافات المتعاشية والمتعاصرة . وأما في مصر فإن الحضارة متجددة ، والسكان قد غيروا مظاهر حياتهم وحضارتهم من عصر لآخر فهناك العهد الفرعوني بأدواره المختلفة ، وهناك العصر الإغريقي الروماني ، ثم العصر القبطي والعصر الإسلامي ، ثم أخيراً هناك عصر الحضارة المعاصرة . ولا يسهل أن يمثل مظاهر الحضارة المصرية وآثارها بلون واحد في متحف كبير واحد لا تختلف «المعروضات» فيه من قاعة لأخرى . بل إن المصريين وإن كانوا قد احتفظوا بمصريتهم وفرضوها على مظاهر الحياة في مختلف العصور ، لم يجدوا حرجاً في أن يغيروا لغتهم من عصر لآخر . بل ولا في أن ينتقلوا من عقيدة إلى أخرى من عهد الفراعنة إلى المسيحية ثم الإسلام . . . وذلك رغم احتفاظهم بظاهرة مصرية مميزة واحدة هي « الندين » والتمسك بالدين وممارسته ، وإن اختلفت العقيدة من عصر لآخر . وهذا أمر لم تعرفه الصين ولا المنطقة الحضارية الصينية .

تاسعاً - منطقة الملايو وجنوب شرق آسيا :

وهذه منطقة شبه جزرية وجزرية ، تبدأ من جسم القارة الآسيوية ولكنها تمتد إلى البحر ويغطي جزء منها مياه المحيط . وقد كانت تمثل مخرجاً للقارة أكثر مما كانت تمثل مدخلاً إليها . وتمتد فيها السلاسل المقطعة في اتجاه الجنوب والجنوب الشرقي ، وتجرى أنهارها جنوب خط تقسيم المياه مع الكتلة الصينية ، وتجرى إلى البحار في الجنوب والجنوب الشرقي . ومن بينها نهر ميكونج وإيراوادي وغيرهما ، وتمتد منها أشباه جزر فرعية أهمها شبه جزيرة الهند الصينية وشبه جزيرة الملايو . أما الحدود الجنوبية للمنطقة فيحددها علماء الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا الحيوية بأنها تقع عندما يعرف « بخط والاس » ، وهو خط يقع عند مستوى مائة قامة تحت سطح البحر في شكل قوس كبير ، وقد لاحظ والاس أن ما يقع داخله من جزر الهند الشرقية تعيش فيه حيوانات ونباتات تتبع مجموعة الحياة على سطح القارة

الآسيوية في طرفيها الجنوبي الشرقي ، وأن ما يقع إلى خارج القوس يتبع منطقة حياة حيوانية ونباتية مختلفة . وهذا إن دل على شيء فإنها يدل على أن ما يدخل في الخط كان إلى عهد جيولوجي قريب نسبياً (ربما كان الزمن الجيولوجي الرابع) متصلاً اتصالاً برياً مباشراً بأرض القارة ، ثم حدث هبوط في اليابس أو ارتفاع في سطح البحر (أو الاثنان معاً) فتكون أرخبيل الهند الشرقية وبه آلاف الجزر (منها ثلاثة آلاف جزيرة فيما يعرف بأندونيسيا الحالية) وهي التي يمر بها خط الاستواء . وبذلك يقع الأرخبيل في المنطقة الاستوائية ، وتقع داخلية أشباه الجزر في منطقة موسمية ، وهي كلها غزيرة المطر وفيرة الغطاء النباتي والزراعي ، وتقوم حياة أهلها كلها على الزراعة الاستوائية وعلى موارد البحر وموارد ما تحت الأرض ، ثم على خيرات الموقع الجغرافي ، حيث تدور طرق الاتصال البحري حول الركن الجنوبي الشرقي للقارة الآسيوية وحيث يلتقى محيطان من أكبر المحيطات ، هما المحيط الهادئ والمحيط الهندي .

أما عن السكان فقد جاءت أصولهم من أرض القارة الآسيوية ووصل بعضهم على طول السواحل الجنوبية أو السواحل الشرقية ليستقروا في شواطئ الهند الصينية أو الملايو أو في بعض الجزر المتفرقة . وعلى كل حال فقد كان الاتجاه العام للهجرات من الشمال أو من الغرب . وقد زاد اختلاط عناصر السكان ، بل اختلطت الحياة في المنطقة كلها حتى اتخذت لها اسماً مركباً (الهند الصينية) من كل من الهند والصين . ويبدو أن المسحة الخارجية للاختلاط السلالي والحضاري جاء من الهند أكثر مما جاءت من الصين ، وهي الأكثر نقاء (والأقل اختلاطاً) ، ولذلك فقد غلبت النسبة إلى « الهند » (المعروفة بالاختلاط) على النسبة إلى « الصين » ، فأطلق على المنطقة كلها « الهند الصينية » ، لأن التيار الأغلب (أو الأقدم على الأقل) في الهجرة والتأثير الحضاري إنما جاء من ناحية الهند .

أما عن تكوين السكان فإن هناك نواة (في شبه جزيرة الملايو بصفة عامة) لمجموعة من السكان كانت لهم ، ولا تزال ، لغة قائمة بذاتها هي اللغة الملاوية (لغة الملايو) ، التي لا تزال عميقة الجذور في شبه الجزيرة ، ولم تستطع اللغات الجديدة (كالصينية الدخيلة أو لغات كمبوديا وكمبوتشيا وفيتنام وسيام القديمة

(تايلند) ولهجاتها) أن تقتلع الملاوية أو تطغى عليها . وقد عرف سكان الملايو منذ القدم بنشاطهم التجارى البحرى فركبوا البحر وانتشروا من شبه جزيرتهم ، فاتجهت أقلية منهم إلى جزر الأرخبيل المجاور ولكن التيار الأساسى والأنشط لهم توسع بالبحر نحو الغرب وقطع المحيط الهندى كله حتى وصل إلى شرق إفريقيا واختلط بالسكان ، لاسيما فى الشطر الشرقى لجزيرة مدغشقر ، حيث يستمر اختلاط عناصر الملايو مع السكان النازحين من إفريقيا إلى الجزيرة . ويبدو أن بعض عناصر الهند الصينية الأخرى ، لاسيما عناصر « الخمير » التى لا يزال خلفاؤها يقطنون كمبوديا (كمبودشيا) حتى الآن ، قد انتقلوا مع ركب الملايو ودخلوا جزر « القمر » (أو القمر) فى شرق إفريقيا . حتى إنه ليقال أن لفظ « لقمر » مشتق من لفظ « الخمير » المنقول من أقصى جنوب شرق القارة الآسيوية . على كل حال فإن هذه صورة تعكس الوجه « الحضارى » لمنطقة الملايو والهند الصينية ، وكيف أن أصول الحضارة واللغة والثقافة ، بل والسلالة ، فى الملايو كانت قوية ، وقادرة على التوسع والانتشار فى وقت سابق لتوسيع الحضارة من الجانبين الأكبر كثيرا ، وهما جانب الهند وجانب الصين (لاسيما هذا الأخير) . وظاهر أن التوسع من جانب الهند جاء أغلبه لاحقا بالتوسع الملاوى وسابقا على التوسع الصينى ، وأن هذا التوسع الأخير جاء آخر الأمر وخلال القرون الأخيرة ، ولكنه جاء توسعا قويا وشاملا ، بل طاغيا . وقد عاون على ذلك كثرة العدد الذى توسع من جانب الصين ، وجاء « فيضا » من منطقة أوسع كثيرا بل وأكثر تماسكا ووحدة ، وهو الفيض الصينى الذى يكاد أن يسمح بيده على منطقة الهند الصينية ومنطقة الملايو كلها ، بل ويمتد إلى ما وراء ذلك فى بعض جزر الأرخبيل الأندونيسى وما وراءه فى اتجاه جنوب غرب المحيط الهادى ، حتى أخذ يهدد المنطقة الاسترالية البعيدة حتى تطلق عليه الآن تسمية « الخطر الأصفر » .

عاشرًا - منطقة المحيط الهندى :

ولا نستطيع أن نترك منطقة الملايو والهند الصينية دون أن نتبعها بكلمة موجزة عن منطقة جزر المحيط الهندى . ذلك أن جزر هذا المحيط قد ارتبطت ، كما رأينا ،

أوثق الارتباط بالانتشار الحضارى من منطقة الملايو ومن شواطئ المحيط ذاته إلى الشمال منها ، كما ارتبطت في الوقت ذاته بتاريخ الاتصال الحضارى بشواطئ إفريقيا الشرقية ، التي ارتبطت بالتالى بالمحيط الهندى والنشاط البحرى القديم والوسيط ، بل والحديث ، فوق مياهه . ولا بد أن هذا النشاط والاتصال قد أفاد من وجود نظام الرياح الموسمية المنتظمة ، والتي كانت تسير في اتجاهين مختلفين بحسب الموسم ، ولكنها كانت تعاون الشراع في كل موسم . ولا بد أيضاً أن يكون الملاحون القدماء قد أتقنوا فن الاستفادة من الرياح مهما اختلف موسمها . وقد ترتب على رحلاتهم القديمة تلك أن اختلطت سلالتهم ولغاتهم وألوان حضارتهم ، مما انعكس كله في سكان الجزر الكثيرة المتناثرة في مجموعات متباعدة في المحيط ، وإن كان بعض مجموعات الجزر قد تأثر أكثر بسواحل الهند وسكانها ، ومنها جزر المالديف في خليج البنغال ، في حين جمع بعضها الآخر بين مؤثرات الملايو ومؤثرات الهند الصينية كجزر شيسيل وموريشيوس وغيرها حتى تصل إلى جزر القمر (أو القمر) التي أشرنا إلى أنها متأثرة بحضارة الملايو والخمير (كمبوديا أو كمبودشيا) ثم الشق الشرقى من جزيرة مدغشقر التي تنقسم طولياً (في اتجاه شمالي جنوبي) بين سلاسل آسيا وسلاسل إفريقيا . بل إنه يقال إن شاطئ شرق القارة الإفريقية ذاته قد تأثر كذلك بهجرات الملاحين من جنوب شرق آسيا ومن الهند ، فوق تأثره بالهجرات العربية من جهة الجزيرة العربية ، أى أن شاطئ إفريقيا الشرقى قد تأثر بالهجرات والمؤثرات الحضارية من كل من أشباه الجزر الممتدة من القارة الآسيوية . وقد يكون من الطريف أن نشير هنا إلى ما أصبح يسمى بحبال « القمر » في هضبة شرق إفريقيا (« رودنزورى » على الأرجح) وهى تسمية إما أن تكون مشتقة من أضواء القمر ونجوم السماء (مما يبرر نسبتها إلى القمر) ، وإما أن تكون كما يرى نفر قليل من الباحثين من اسم قبائل « الخمير » في كمبودشيا أو محرفة عن ذلك الاسم الذى اشتق منه على ما يبدو اسم جزر القمر ، كما أسلفنا من قبل .

والخلاصة أن المحيط الهندى في رأينا منطقة حضارية ، وإن كان خالياً من اليابس إلا من مجموعات متفرقة من الجزر . وقد ساعدت الظروف الطبيعية التى

ساداته ، خصوصاً نظام الرياح الموسمية ، على جعل المحيط مسرحاً لنشاط بشرى تقل الحضارة بين شواطئه ، وكان ذلك دليلاً على أن المحيطات (كالبهار) لانفصل بين الحضارات وإنما تصل بينها إذا ما توافرت العوامل الجغرافية الطبيعية الأخرى ، وأهمها نظام الرياح ، وإذا ما وجدت العناصر البشرية ذات الحيوية والنشاط ، والتي تخرج من اليابس فتركب البحر وتنقل الحضارة وتربط بين السلالات الشعوب ، ولو كان الرباط خفيفاً ، يركب خطوطاً متباعدة بين الجزر المتناثرة في بطن المحيط .

حادى عشر - منطقة جزر المحيط الهادى :

وهذه منطقة حضارية جزرية أخرى للمحيط الكبير الآخر في مطلع الشرق ، هو المحيط الهادى بين كتلتى العالم القديم والعالم الجديد . ولكن مبعث الحضارة في هذه الحالة كان من جانب واحد من المحيط هو جانب القارة الآسيوية ، لأن جانب العالم الأمريكى الجديد لم تكن تطل منه حضارات ذات انتشار بحرى كحضارة الصين أو الهند وما وراء ذلك من حضارات العالم القديم ذات الانتشار البحرى الواسع . كذلك كانت السواحل الشرقية للمحيط الهادى عبارة عن جبال التوائية عالية تحيط بالمحيط كله بما يشبه السور المرتفع فيما أصبح يعرف بأمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية حتى إنه ليبدو أن تلك السلاسل العالمية قد سورت المحيط وقفلت أبوابه الشرقية . ولقد كان الاتجاه الجغرافى لحضارات الهنود الحمر فى الأمريكتين نحو المشرق والداخل فى القارتين ، فلم يعرف أن حضارة الانكا أو الأستك مثلاً كان لها نشاط فى اتجاه المحيط الهادى . ومن هنا فإن مجموعات الجزر فى المحيط الهادى طورت هويتها الحضارية فيما يشبه العزلة ، إلا عما انتقل إليها بالبحر من ناحية الغرب . ونحن لا نعرف الكثير عن أصول الهجرات القديمة التى عمرت جزر المحيط الهادى ، ولكننا نعرف أنها مجموعات من الجزر لسكانها صفاتهم الجنسية والسلالية المميزة ، كما أن لهم لغاتهم الخاصة بهم . ولا بد أن الاتصال بين مجموعات الجزر كان بطيئاً وغير مضطرد ، ولكنه استمر أجيالاً طويلة طبع الحياة فى كل مجموعة من الجزر بطابعها الخاص المميز .

كذلك فإننا لا نعرف صلة واضحة بالسلالات التي تعمّر آسيا الشرقية الآن من ناحية الصفات السلالية التي تختص بها سلالة أهل الصين المميزة أو حتى الهند الصينية المختلطة بعض الشيء . وقد نستنتج من ذلك أن سكان مجموعات الجزر في المحيط الهادى لابد وأنهم وصلوا إلى المحيط وانتشروا فيه في وقت مبكر عن انتشار السلالة الصينية الحديث من الصين ذاتها نحو الجنوب ونحو جزر الأرخيل الأندونيسى . وعلى كل حال فإن منطقة المحيط الهادى ، التي قد تعتبر أوسع مناطق العالم كلها من حيث المساحة وسعة الانتشار ، تشمل مجموعات جزر ميلانيزيا وميكورونيزيا وبولينيزيا التي يمتاز كل منها بسلالة تختلف بعض الاختلاف عن المجموعتين الأخرين من حيث التكوين الطبيعي لجزر بعضها مرجاني ، وبعضها بركاني ، وكذلك من حيث التكوين السلالى ولون البشرة ومن حيث اللغة والثقافة وصفات الحضارة عامة ، رغم وجود بعض التشابه الذي لا نعرف الكثير عن ظروف قيامه ولا عصر حدوثه ، ولكننا نفترض على كل حال أنه يرجع على الأقل إلى ما يعادل ما نسميه في العالم القديم بالعصر الحجري الحديث من حضارة الإنسان وعمارته للأرض . ولقد استمرت مجموعات جزر المحيط الهادى فيما يشبه العزلة عن العالم ، وحتى عندما جاء عصر توسع العرب والمسلمين ، من الغرب فإنه يبدو أن هذا الانتشار في العهد الوسيط قد توقف عند أطراف آسيا الشرقية فيما أصبح يعرف بأنه بلاد « واق الواق » وهى آخر الجزر التي انتشر إليها العرب في عصرهم . أما ما وراء ذلك شرقاً فقد بقى مجهولاً حتى جاءت الاكتشافات البحرية الأوروبية الحديثة وجاء بعضها بالدوران حول أمريكا الجنوبية والدخول إلى المحيط الهادى من باب الخلفى البعيد ، وجاء بعضها الآخر من ناحية جزر المحيط ذاته في جنوبه الغربى ، ثم جاء بعضه الآخر بعد ذلك منتشراً إلى مجموعات الجزر الواقعة حتى شمال المحيط الهادى ، سواء من ناحية آسيا ، أم من ناحية أمريكا الشمالية .

ثانى عشر - منطقة استراليا البعيدة :

وهذه هى المنطقة الأخيرة من مناطق الحضارة الكبرى ، في العالم القديم ، كما

إنها في الوقت ذاته أحدث المناطق بالنسبة لمعرفتنا الجغرافية بتلك المناطق ، وإن كان عمران الإنسان لها قديماً ، بما يشبه قدم حياة الاستقرار وتخصيص لون الحضارة ونوعها في العصر الحجري القديم الأعلى ، الذي استعرضنا بعض معالمه حين بدأ البشر يمارسون حياة الاستقرار ، أو ما يشبهه ، وبدأت صناعاتهم الحجرية تعرف التخصص وأخذ السكان يعيشون فيما يشبه « المحلات » أو المقار التي يصنعون فيها آلاتهم الحجرية الدقيقة ، ويمارسون منها حرفة الصيد في نطاق محدد المعالم ومعروف للجماعة البشرية التي « تقطنه » وتمارس فيه حرف « الصيد والجمع والالتقاط . . . » أي جمع الحبوب أو الثمار من مناطق محددة يستقر السكان بجوارها « ويمارسون » نباتاتها من عدوان الحيوان عليها . . . حتى يتم نضجها ثم حصادها في مواسم معينة . وذلك دور من أدوار الحضارة البشرية سبق دور « العصر الحجري الحديث » الذي عرف فيه الإنسان « الاستقرار الكامل » فيما يشبه « المحلات الثابتة » أو « القرى » (مواقع الاستقرار) . والذي قامت فيه حياة البشر على « استنبات النبات » و«استئناس الحيوان» بعد أن مرت جماعات البشر بمرحلة انتقال جاءت في ختام مرحلة العصر الحجري القديم الأول .

وقارة أستراليا أصغر القارات حجماً ، بل هي في حقيقتها جزيرة كبيرة . وفوق ذلك فهي قارة منعزلة أو شبه منعزلة ، تقع في ركن بعيد من العالم القديم عند طرفه الأقصى من الجنوب والشرق . يفصلها عن ذلك العالم مجموعة من جزر المحيط التي لم تكن في طريق الهجرات المنتظمة ، وإنما مرت فوقها (أو عبرتها سريعاً) موجة قديمة من هجرات البشر في العصر الحجري القديم (أو في قسمه الأعلى على الأرجح) . ولقد كان هذا العصر الحجري القديم في جملته عصر هجرات بطيئة جداً يبدو أن مراحلها الأولى قد سبقت طغيان البحر وتكونها نطاق الجزر الكثيرة الواقعة في جنوب شرق آسيا ، والتي تبلغ بضعة آلاف من الجزر الواقعة في مناطق استوائية ومدارية يصعب على الإنسان استعمارها على نطاق واسع ، وإن كان بعض العناصر البشرية القديمة جداً قد استطاعت أن تستقر في بعضها (مثل جزيرة جاوة) وربما قبل أن تظهر على شكل جزر . ولكن عندما جاء القسم الأعلى (والأحدث) من العصر الحجري القديم كانت حياة البشر وحضارتهم قد تطورت

إلى درجة تسمح بالهجرات المغامرة لبعض العناصر التي استطاعت آخر الأمر أن تتخطى أطراف آسيا الجنوبية الشرقية ، وأن تصل في النهاية إلى القارة القصوى التي أصبحت الآن هي القارة التي نسميها استراليا (أو استراليا ، كما يجب البعض أن يسميها لتشمل الجزر القريبة منها) . وكانت تلك العناصر القديمة جماعات من الزوج الأوائل ذوى السحنة الزنجية الخالصة والتي لم تتأثر بغيرها من السلالات . وقد استطاعت تلك الجماعات أن تستعمر قارة أستراليا وأن تمتد إلى ما وراء الكتلة القارية إلى جزيرة تسمانيا . وليس من المعروف تمامًا كيف انتشرت تلك العناصر الزنجية العتيقة ولكن أهل البحث في أصول السلالات البشرية يستتجون أنهم جاءوا كفريق من الزوج القدامى الذين انتشروا على سواحل المحيط الهندي . أو بعبارة أدق هم الذين نشأوا على تلك السواحل وانطلق فريق آخر عبر جنوب شبه القارة الهندية (ومن بقاياهم « الدرافيديون » الذين اختلطوا بغيرهم في جنوب الهند) ، كما انتشرت بقيتهم حتى بلغت أستراليا التي لم يسبقهم إليها أحد ، ولم يلحق بهم أحد خلال قرون طويلة ، فتموا في عزلة وازدادت ملامحهم الزنجية الخالصة « تخصصًا » ، لأنهم لم يختلطوا بغيرهم كما حدث بالنسبة للعناصر الزنجية إفريقية أو في جنوب الهند ، وإنما ازدادت خصائصهم الجنسية والسلالية « وضوحًا » ، لاسيما بعض الصفات الزنجية الخالصة كالأنف شديد « الانفطاس » والشعر شديد « الفلفة » والملامح التي ليس فيها شيء من « القسامة » . وقد استمر أولئك الزوج القدامى منعزلين في أستراليا وتسمانيا ، لا يعرفهم أحد ولا يعرفون أحدًا حتى جاءت العناصر الأوروبية البيضاء منذ قرون قليلة ، فدخلوا القارة ولم يختلطوا بأحد من السكان « الأصليين » ، وإنما طاردوهم إلى الفياض ، والقفار ، وأخذوا منهم الأراضي الغنية والصالحة للزراعة أو الرعى فاحتلوها مع الشواطئ التي أقاموا فيها الموانئ للاتصال البحري بالخارج . ثم انتقلوا بعد ذلك إلى تسمانيا وطاردوا الزوج الأصليين الذين لم يجدوا لأنفسهم « مخرجًا » أو ملجأ يفرون إليه ، وانتهى أمرهم بالموت والانقراض أمام أسلحة الغزاة الأوروبيين الذين نظروا إلى الزوج الأصليين نظرة لا تختلف كثيرًا عن النظرة إلى حيوان آدمي يطارد حتى يقضى عليه !

لقد وصل الزوج الأصليون إلى أستراليا وهم في مرحلة حضارية تعادل حضارة العصر الحجري القديم الأعلى التى أشرنا إليها من قبل في بعض جهات العالم القديم . ولكنهم « وقفوا » عند هذا القدر من التطور الحضارى الذى وقف بهم عند صناعة الآلات الحجرية المتخصصة والتى تنفع في صيد الحيوان ومطاردته في مناطق المراعى الطبيعية ، وكذلك لم يعرف أولئك الأقدمون شيئاً عن « الزراعة » أو استنبات النبات وإنما وقفوا أيضاً عند حد « الالتقاط » من خيرات الطبيعة العادية التى شاركهم فيها بعض الحيوان الذى مارسوا اقتناصه وصيده . والشئ الطريف أن دخول العناصر الأوربية الأنجلو سكسونية (ومن جاء في أثرهم من بعض العناصر البيضاء الأخرى من أهل البحر المتوسط ، وكذلك من عناصر غير بيضاء من أهل آسيا الجنوبية الشرقية ، لم يؤثر في حياة الزوج الأصليين وحضارتهم ، بمعنى أنه لم ينقلهم من دورهم الحضارى القديم إلى وضع الحياة الجديدة في الزراعة والصناعة واستخراج المعادن وغير ذلك ، وإنما ترك الأوربيون سكان البلاد الأصليين على حالهم القديمة تلك ، بعد مطاردتهم في القرون الثلاثة الأخيرة ، من المناطق الصالحة لسكنى المستعمرين ، وإقامتهم وعملهم ، إلى الفيافي البعيدة في قلب قارة أستراليا . وهناك نقطة أخيرة نشير إليها على سبيل المفارقة عن المنطقة الحضارية الأسترالية التى وصلتها الحضارة الحجرية القديمة العليا ثم « توقفت » فيها عن التطور حتى جاء الأوربيون المستعمرون . وتلك المفارقة تتمثل في جزيرتي زيلنده الجديدة ، وهما تقعان على الطرف الجنوبى الشرقى من القارة ويكوّنان جزءاً جغرافياً من تلك القارة ولكن تاريخهما الحضارى يختلف بعض الشئ . ذلك أن العناصر الزنجية القديمة لم تصل إلى زيلنده الجديدة ، وإنما وصلت إليها عناصر شبه بولينيزيه - ميلانيزية هى عناصر « الماورى » ، وهى قبائل دخلت إلى زيلنده الجديدة في وقت متأخر كثيراً عن وصول الزوج إلى أستراليا ، بل إنهم جاءوا كجزء من موجة بشرية لاحقة كانت على اتصال ببعض الموجات البشرية التى وصلت منطقة جزر المحيط الهادى الجنوبى . واستقرت في الجزيرتين وطورت حياتها ونظمها الاجتماعية إلى درجة أهلتها لأن تقف في وجه الغزاة الأوربيين المحدثين وأن تعايشهم بل وتقاسمهم بعض معالم

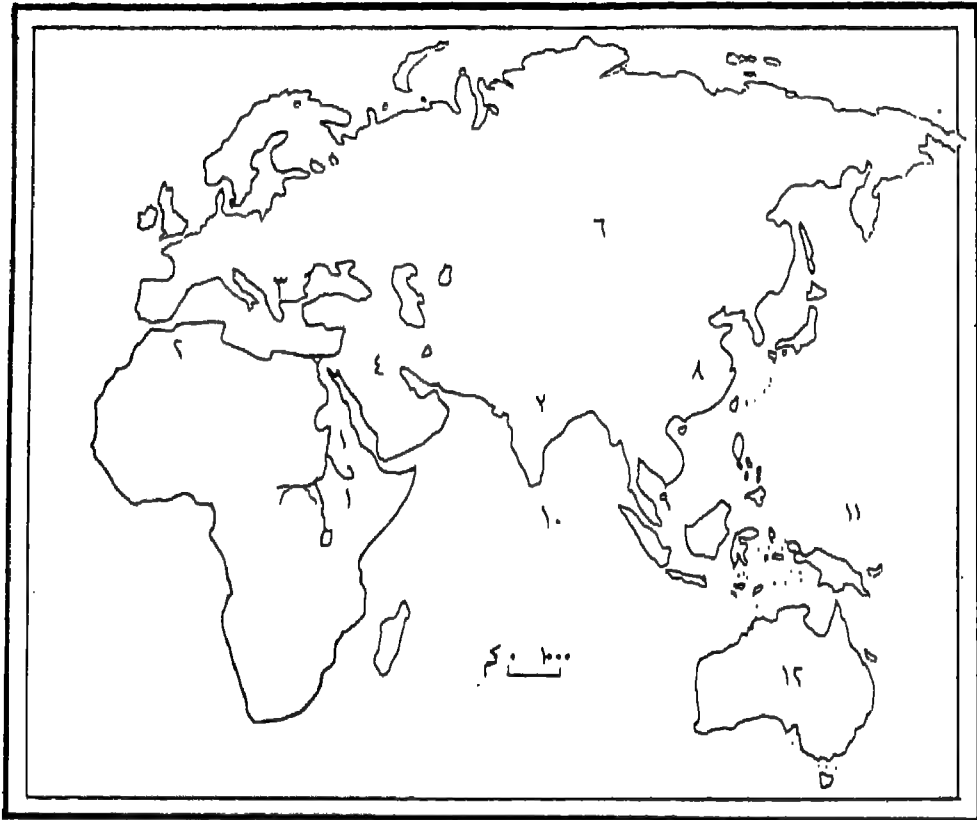
حضارتهم الحديثة ، وإن كان أغلب الماوري قد اضطر آخر الأمر لأن يستقر في مناطق محددة في الداخل وبعيداً من الموانئ التي دخل منها البيض وتوسعوا من حولها بانين حضارتهم الحديثة ومستغلين البيئة بالوسائل العلمية التي عرفتها الزراعة الحديثة والرعى الحديث والصناعة التي تتصل بكل منهما أو تنبني عليهما معاً .



ختام

على هذا النحو نكون قد انتهينا من استعراض المناطق الحضارية التي حاولنا في هذا المبحث أن نقسمها إلى اثنتي عشرة منطقة كبرى ، وأن نتابع هويتها الحضارية التي اختلفت من منطقة لأخرى اختلافاً شمل المكان والزمان ، أى شمل البيئة والتاريخ والحضارة جميعاً . كذلك فقد تبين لنا اختلاف الحال من منطقة إلى أخرى ، فبعضها بلغ قدراً كبيراً من الأهمية بالنسبة لتطور الحضارات البشرية ، وتطور الصلات الحضارية داخل كل منطقة على حدة ، وبين كل منطقة وأخرى من المناطق التي عرضنا لها . ولكن الشيء الهام أننا قد لمحنا في دراستنا أن هناك «وحدة حضارية» بالنسبة للإنسانية في مجملتها . وإن كانت هذه الوحدة إنما تتبين أهميتها وأثرها عبر الكرة الأرضية في مجملتها كلما تقدم الزمن وتقدمت المدنية المادية والثقافة البشرية والحضارة الإنسانية بصفة عامة . ولكن التداخل والتكامل بين تلك المناطق الحضارية الكبرى لم يتم إلا بعد أن تقدم التاريخ ، بعد أن كانت الإنسانية قد مرت بحقبة طويلة من عصور ما قبل التاريخ وعصور التاريخ القديم ، ولكن قصة التداخل والتكامل بين مناطق الحضارة الإنسانية تستحق أن نفرد لها مبحثاً خاصاً يكون أقرب إلى الدراسة التاريخية منه إلى الدراسة الجغرافية ، أو لعله في واقع الأمر يمثل ما نعرفه بالجغرافيا التاريخية ، مما نرجو أن يجد موضعه الحق ، من المعالجة في مبحث قائم بذاته نعننى فيه بصفة خاصة بالمنطقة العربية التي تمثل قلب العالم القديم . واتصالاتها بالمناطق الحضارية المجاورة والبعيدة إلى الشرق منها وإلى الغرب .

بيان تقريبي لمواقع المناطق الحضارية في العالم القديم (قبل العهد العربي)



- | | |
|---|-----------------------------------|
| ١- منطقة حوض النيل وشرق أفريقية | ٧- منطقة شبه القارة الهندية . |
| ٢- منطقة شمال غرب أفريقية . | ٨- منطقة الصين الكبرى . |
| ٣- منطقة اليونان وجنوب شرق أوروبا . | ٩- منطقة الملايو وجنوب شرق آسيا . |
| ٤- منطقة أرض العرب في جنوب غرب آسيا . | ١٠- منطقة جزر المحيط الهندي . |
| ٥- منطقة الهضبة الإيرانية . | ١١- منطقة جزر المحيط الهادي . |
| ٦- منطقة آسيا الداخلية (الوسطى والشمالية) . | ١٢- منطقة أستراليا البعيدة . |

« ٣ »

المشرق العربي بين الماضي والحاضر

المشرق العربى بين الماضى والحاضر

مقدمة - تعريف وتحديد للمشرق العربى :

يهتم الجغرافيون فى دراساتهم لبعض المناطق أو الأقاليم ، وتقويم دورها الحضارى والتاريخى ، بالموازنة أو المكاملة بين عاملين جغرافيين أساسيين ، هما البيئة الطبيعية ومواردها من جهة ، والموقع الجغرافى واتصالاته من جهة ثانية . وفى هذه الدراسة يحاول الجغرافيون دائماً أن يحددوا دور العمل البشرى فى بيئته وفى موقعه ، تحديداً يكشف عن التكامل بين البيئة والإنسان حيناً ، وعن التصارع والتغير أو المواءمة والتغير حيناً آخر . ولقد كان المشرق العربى نموذجاً لتلك الدراسات الجغرافية التى تناولته فى أوضاعه التاريخية أو أوضاعه المعاصرة ، وإن كان الجغرافيون قد اختلفوا بعض الاختلاف فيما بينهم . فمنهم من مال إلى الأخذ بقدر ظاهر من الحتم الجغرافى ، ومنهم من كان أكثر اعتدالاً فزاوج بين العاملين الطبيعى والبشرى على نحو استطاع أن يعمق مفهومنا للعامل الجغرافى بمعناه الذى يشمل البيئة والإنسان ، ويربط بين العمل البشرى والظروف التى تكتنفه من قريب أو بعيد ، خصوصاً وأن هذا العمل لا يجرى فى فراغ ، وإنما هو فى حالة المشرق العربى كان يجرى فى بيئة صالحة لإنبات الحضارة ورعايتها على النحو الذى يحقق لها النماء والتطور والاستمرار . وفى هذا كان المشرق العربى مشرق الحضارة حقاً ، وبقي كذلك منذ كان التاريخ ، فلم تغرب عنه الحضارة ، وإن كانت وتيرتها قد اعتراها الهدوء أو الانطواء بين حين وحين .

وفى هذا المقال سنحاول أن نعرض للمشرق العربى من ناحية الموقع الجغرافى والتفاعل بينه وبين العمل البشرى خلال التاريخ بصفة عامة ، وفى المرحلة المعاصرة على وجه الخصوص . ولكننا قبل ذلك لابد لنا من أن نحاول التعريف بهذا المشرق ، ورسم نطاقه ، والتعرف بقدر الإمكان على حدوده . ومثل هذا

التعريف ضرورى ، لأن إسم المشرق العربى يتداخل مع مسميات أخرى تشمله وتتعداه فى النطاق . منها « الشرق الأدنى » و « الشرق الأوسط » ، وهما تسميتان لهما شىء من الأساس الجغرافى العام ، ولكنها تستعملان فى كثير من الأحيان بمدلول سياسى مرن وغير دقيق إذا أخضعناه للمقاييس الجغرافية العلمية الضيقة . ولعل اصطلاح الشرق الأدنى أقدم الاصطلاحين استعمالاً ، حيث إنه يعادل فى جنوب غرب آسيا وما جاوره أو واجهه من أطراف أفريقية وأوربا ، ما يطلق عليه تسمية الشرق الأقصى فى شرق القارة الكبرى وجنوبها الشرقى . ومع ذلك فإن اصطلاح الشرق الأدنى ذاته لم يكن دقيق المدلول ، إذ لم يكن لهذه المنطقة حدود واضحة ومتعارف عليها بين الجغرافيين تعارفاً يمكن معه أن ترسم خطوط تلك الحدود (*) . وغاية ما هناك أن الجغرافيين قد درجوا على أن يجعلوا المنطقة الواقعة جنوب غرب آسيا والمطلية على البحر المتوسط نواة للشرق الأدنى لأنها كانت أقرب المناطق إلى أوربا ، وأدنى ما ينزل فيه القادم بالبحر فى اتجاه المشرق . ولكن حدود الشرق الأدنى من الناحية الشرقية يمكن أن ترسم بصفة عامة على أنها المنطقة الصحراوية الوسطى من إيران ، بحيث أن مرتفعات إيران الغربية والشمالية الغربية تقع ضمن الشرق الأدنى ، وكذلك هضاب آسيا الصغرى والشرق العربى فى الجزيرة العربية كلها وفى قرن أفريقية الشرقى وشمال شرق هذه القارة بامتداد إلى الصحراء الليبية . كما أن الحدود الغربية للشرق الأدنى كان لابد أن تمتد لتشمل شبه جزيرة اليونان وسواحل مقدونية الشرقية لأن هذا النطاق اليونانى المقدونى كان من الناحية التاريخية والبشرية العامة أكثر اتجاهاً نحو جنوب شرق البحر المتوسط وواجهته الآسيوية المقابلة منه إلى شمال البلقان .

تلك على وجه التقريب حدود منطقة الشرق الأدنى بمفهومه التاريخى والحضارى . وإن كان من العسير لمثل تلك الحدود أن ترسم بشكل دقيق يتمشى

(*) مناقشة حدود منطقة الشرق الأدنى أنظر المقدمة والفصل الأول من كتاب المؤلف S.A. Huzayyin .

. "Arabia and the Far East" Soc. Roy. de Géog, d'Egypte, Le Caire, 1942 . وهو الكتاب

الذى نشرته الجمعية الجغرافية المصرية عام ١٩٤٢ وأعيدت طباعته عام ١٩٨٢ .

مع معالم الجغرافيا الطبيعية . فليست هناك فواصل طبيعية بارزة وممتدة يمكن أن يركز إليها بصفة واضحة . كما أن البحار متقاربة ومتداخلة ، وظروف المناخ ممتدة إلى وراء أية حدود يمكن رسمها ، وكذلك الحال بالنسبة لظروف التوزيع النباتي في المنطقة وما جاورها شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً . ولذلك فإن أفضل ما يمكن أن يقال بالنسبة لاصطلاح الشرق الأدنى ، إنه يمثل تسمية تاريخية وحضارية أكثر مما يمثل تسمية جغرافية طبيعية متميزة تمييزاً واضحاً عما جاورها من هنا أو من هناك . وكذلك الحال بالنسبة لتسمية « الشرق الأوسط » . وهو اصطلاح لم يشع إلا منذ الحرب العالمية الثانية . وقد أطلقه العسكريون والسياسيون إذ ذاك ، لأن الأمر لم يكن أمراً قرب أو بعد بالنسبة لأوروبا ، بقدر ما كان أمراً توسط بالنسبة للاستراتيجية العالمية ، أى بالنسبة للعالم القديم كله . وبعبارة أخرى فإن التركيز في التسمية الجديدة إنما كان على لفظ « الأوسط » أكثر مما كان على لفظ « الشرق » . بل إن التسمية الجديدة . ترتب عليها أن أصبحت كلمة « الأوسط » مقابلة لكلمة « الأقصى » . وبقيت منطقة بين الشرقين (تشمل الهند وما جاورها وداخلية آسيا) ولكنها تخرج في التسمية عن نطاق أى منهما ، مع أنها من صميم الشرق بمدلوله التاريخي والحضاري العام (*) .

أما اصطلاح « المشرق العربي » فقد يكون أكثر تحديداً من الناحية الحضارية . ذلك أن الأمر في تعريفه لا يتوقف على المكانية والموقع ، وإنما يتصل بالطابع البشري . فهو المشرق الذي يرتبط بالعروبة ، وحدوده معروفة من الناحية الشرقية مع إيران ، ولكنه يشمل حوض الخليج العربي كله تقريباً . لأن العناصر العربية تطل على هذا الخليج من جوانبه الشمالية الشرقية (عربستان) والشمالية والغربية والجنوبية الغربية حتى بحر العرب ، كما أنها تعمر جزره وتؤثر بحضارتها العربية

(*) حاولنا في المرجع السابق أن نسمى هذه المنطقة الوسطى بالشرق المتوسط أو المركزي (بالإنجليزية Central East) . وفي هذه الحالة يمكن تسمية الشرق الأدنى بالشرق الوسيط (Middle East) . ولكن العرف جرى الآن على تسمية هذا الشرق الأدنى بالشرق الأوسط . وقد يكون من الأفضل ، منعاً للبس ، الاحتفاظ بالتسميات الشائعة ، فيبقى لفظا الأدنى والأوسط مترادفين ، ونترك الهند والباكستان ضمن « جنوب آسيا » ، وما يقع إلى الشمال منها ضمن « داخلية آسيا » .

والبحرية في أطراف إيران المطلة عليه . فمن الناحية التاريخية كان الطابع العربي هو الغالب على هذا الخليج ، أيام أن استقرت العناصر العربية في سيراها وغيرها من مرافئ الجانب الإيراني من الخليج . وحتى قبل أن تظهر الحضارة العربية بمدلولها المحدد ، كانت المؤثرات الحضارية تأتي من جانب الجزيرة العربية وما وراءها في البحر المتوسط . بل إن شواطئ الخليج العربية كانت منشأ الفينيقيين ، كما كانت جبال عمان متصلة أشد الاتصال وأقواء بالحضارة الأولى في أدنى العراق . ولئن كانت السيطرة السياسية قد غلبت على الخليج من جانب إيران في بعض فترات محدودة ، فإن تلك السيطرة لم تستطع في يوم من الأيام أن تطمس الطابع الحضاري العربي الشامل للخليج . وما كانت تسمية « الخليج الفارسي » إلا انعكاساً أوروبياً لفترة كانت الحياة العربية على شواطئ الخليج قد ركدت فيها تحت سيطرة الحكم التركي ، حتى إذا ما عادت تلك الحياة إلى النبض من جديد حق على الجغرافيين العرب أن يحيو الوصف القديم والأصلي للخليج العربي . . . امتداداً طبيعياً لبحر العرب ، الذي ركبته سفنهم وسعت على صفحته بالسلع والتجارة والوساطة الحضارية منذ أقدم العصور .

ونحن حتى إذا ما وازنا بين شواطئ الطرف الجنوبي الشرقي لجزيرة العرب والشواطئ المقابلة لها من إيران عند مدخل الخليج ، فإننا لا نلبث أن نلاحظ الفرق الكبير في النشاط الحضاري في التجارة والنقل البحري ونشر الحضارة والثقافة إلى ما وراء البحار . ذلك أن الركن الجنوبي الغربي من إيران كان ركنًا مغلقًا ، لا تؤمن الملاحة على شواطئه ، ولا تقع عنده المداخل الصحيحة إلى أرض إيران ومراكز حضارتها القديمة . بل إن الأحوال الجوية والصحية فيه لا تساعد على شيء من البناء الحضاري أو الاتصال التجاري الناهض ، على نحو ما نرى في الطرف الجنوبي الشرقي من الجزيرة العربية . ومن هنا فإن مدخل خليج عمان وشواطئه العربية إنما كانت هي القاعدة لنشر الحضارة العربية الإسلامية إلى شرق أفريقية وبحار الهند من جهة ، والطريق إلى الطرف الشمالي للخليج وأرض العراق الأدنى وعربستان (ومنها إلى إيران) من جهة أخرى .

تلك إذن هي الحدود الشرقية للمشرق العربي في أصولها الحضارية والبشرية

وامتدادها الجغرافي الطبيعي . فإذا ما انتقلنا إلى حدوده الشمالية فإننا نجد أنها أكثر تحديداً ووضوحاً ، لأنها تسير الحافة الجبلية في آسيا الصغرى والأناضول إلى خليج اسكندرونة العربى . ومن الطريف أن نلاحظ أنه على الرغم من وجود بعض العناصر المتفرقة وغير ذات الأصل العربى إلى الجنوب من الحافة الجبلية فإنها كلها عناصر قد تأثرت إلى حد كبير جداً بالطابع الحضارى العربى ، وإن كان اتصال الجبال وامتداد سلاسلها من الشرق إلى الغرب قد واجه العرب في انتشارهم من الجنوب ، ولم يسمح لهم بالتأثير الواضح في داخلية الهضبة الجبلية من ناحية نشر العروبة أو حتى نشر الإسلام ذاته . ومن المفيد في هذا المجال أن نوازن بين الحافة الجبلية لإيران الغربية والحافة الجبلية لجنوب الأناضول ، فنرى كيف أن وجود بعض المسالك من سهول العراق إلى هضبة إيران قد سمح للمؤثرات السامية أن تنتشر إلى آشور القديمة ، كما سمح للإسلام أن ينتشر إلى هضبة إيران . أما هضبة الأناضول فإن حافتها كانت فقيرة في المنافذ من الناحية الجنوبية ، ولذلك فإن الإسلام لم ينتشر مع العرب القادمين إلى الأناضول من الجنوب ، وإنما جاء مع الأتراك السلجوقيين ثم العثمانيين الذين تقدموا من شمال إيران ومن الشرق إلى الغرب على طول خطوط الجبال إلى داخلية الأناضول وما وراء ذلك . ومن هنا فإن الأناضول لم تكن مجال التوسع العربى ، وإنما كانت مجال التوسع الآسيوى الداخلى . بل إن أرمينيا استطاعت أن تبقى على مسيحيتها كجزيرة منعزلة إلى شمال شرق الأناضول ، لأن الإسلام لم ينتشر إليها مع العرب الذين وقفوا عند مشارف الهضبة وسلاسلها الجنوبية ، ولم ينتشر مع العثمانيين الذين تقدموا بين سلاسل الجبال إلى الجنوب من تلك الجزيرة الأرمينية .

أما في الغرب فإن الجانب البحرى من حدود المشرق العربى ظاهر محدد ، لأنه يطل على البحر المتوسط الذى لم يستخدمه العرب في العهد الإسلامى كمخرج للهجرات من سواحل الشام في سورية ولبنان وفلسطين إلا بقدر محدود في العصر الحديث إلى ما وراء البحر المتوسط كله والمحيط الأطلسى في المهاجر البعيدة . ولكننا إذا ما انتقلنا إلى شواطئ أفريقية الشمالية ، فإننا لانبث أن نلمس الحاجة إلى توقيع حد اصطلاحى للمشرق العربى ومدى امتداده في شمال القارة إلى الجهة

الغربية . وليس من جدال في أن حوض النيل الأدنى والأوسط في مصر والسودان يقع كله ضمن نطاق المشرق العربي . ولكن توقيع فاصل بين المشرق العربي والمغرب العربي أمر يستحق النظر ، خصوصاً وأن السياسيين والمتأثرين بالمنطق السياسى الغربى يميلون أحياناً إلى اعتبار كل ما يقع إلى الغرب من مصر مغرباً عربياً ، في حين أن الربط الجغرافى السليم يجعل ليبيا عامة ، ولاسيما إقليم برقة بالذات ، أقرب اتصالاً بالمشرق العربى منها بالمغرب العربى . ولقد كانت كذلك منذ أقدم العصور ، بل منذ عصر ما قبل التاريخ . والحقيقة أن دلتا النيل وأطرافها الغربية في إقليم البحيرة وكذلك الفيوم كانت عريقة الاتصال وثيقته بداخلية الصحراء الليبية وما وراءها من مناطق الإستقرار الساحلى . كما أن بقية ليبيا في إقليم طرابلس وفزان كانت منطقة ربطت المشرق العربى بها وراءه في المغرب العربى وداخلية الصحراء وما وراءها من أقاليم إفريقية الغربية السودانية . ولذلك فإننا نميل إلى اعتبار ليبيا ضمن نطاق المشرق العربى ، بحيث يقتصر المغرب العربى على إقليم أفريقية الصغرى بمدلولها الطبيعى ، الذى يشمل تونس والجزائر والمغرب ، مع امتداد حضارى قوى في داخل الصحراء إلى إقليم موريتانيا والسواحل التى تسيطر عليها أسبانيا .

فإذا ما انتقلنا أخيراً إلى الحدود الجنوبية للمشرق العربى ، فإننا نجد صورة تشبه من بعض الوجوه ما رأيناه في حدوده الغربية ، ولكنها أكثر تدخلاً وتعقيداً من الناحيتين البشرية والحضارية ، خصوصاً وأن الحضارة العربية كانت في ملاصقة حضارات بحرية وبرية لا تفصلها عنها فواصل طبيعية بارزة ، كما هى الحال في المناطق الواقعة إلى الشمال أو حتى إلى الشرق من المشرق العربى . ففي بحر العرب انتشر الملاحون العرب ونزحوا إلى جزر ذلك البحر ثم إلى سواحل شرق أفريقية حيث أثروا فيها بالجنس والحضارة وبالعروبة والإسلام ، حتى إنه ليصعب وضع حد فاصل لما هو في نطاق المشرق العربى من القرن الإفريقى وسواحله في بلاد الصومال وما جاورها جنوباً وشمالاً . بل إن أرتيرية هى في الواقع الجغرافى والحضارى امتداد للمشرق العربى ، وهى في حياتها وتاريخها أقرب إلى شرق السودان والصحراء الشرقية منها إلى هضاب أثيوبيا العالية . فإذا ما انتقلنا إلى

السودان فإن شماله ووسطه يقع بلا جدال في صميم المشرق العربي . وحتى جنوبه فإنه من الناحية السلافية والحضارية أقرب إلى النيل الأدنى منه إلى داخلية أفريقية العليا أو حوض الكونغو المجاور إلى الجنوب الغربي . ولا نزال نجد تحت المؤثرات الزنجية في حوض الغزال ، طبقة سلافية متأثرة بالحامية التي تأثرت بها مصر القديمة وبقية السودان الشرقي . ولولا أن المد العربي الذي جاء إلى أرض وادي النيل الأدنى في مصر ثم انطلق في طريقه إلى السودان الشمالى والأوسط لاسيما بين القرنين الثانى عشر والسادس عشر . . . لولا أن هذا المد العربي قد انقطع عن جذوره حين جاء المد التركى في القرن السادس عشر وما بعده ، لاستطاع في يسر أن يتابع امتداده إلى أقصى جنوب السودان وإلى مشارف الهضبة الاستوائية ، ولأستطاع الإسلام أن يبلغ المشارف . وما ذلك كله إلا لأن السودان الجنوبي امتداد طبيعى للمنطقة الواقعة إلى الشمال منه في الوادى . بل امتداد طبيعى للمشرق العربي بمفهومه الحضارى والتاريخى العام .

الأصول الإنسانية والحضارية للمشرق العربى

ولكن ما تلك الأصول الإنسانية والحضارية التي نتحدث عنها في التعريف بالمشرق العربى وتحديد امتداده الجغرافى ؟ ليس من شك في أن هذه المنطقة كان لها دورها الخاص في مرحلة نشوء الحضارات البشرية المستقرة ، لاسيما بعد ظهور الزراعة والاستقرار في العصر الحجري الحديث وما بعده . أما قبل ذلك فهناك مرحلة طويلة جداً في العصر الحجري القديم وما قبله ، وهى تتصل بنشأة الإنسان الأول ومراكز انتشار السلالات وموضوع هذا البحث يثير خلافات بين أصحاب الرأى فيه . فمنهم من يرى أن آسيا هى الموطن الأصلي للإنسان . ومنهم من يرى أفريقية أحق منها في ذلك . ولكل من الرأىين مرجحاته ، وإن كانت أفريقية قد بدأت في السنوات الأخيرة تجتذب أعداداً متكاثرة من الباحثين وعلماء ما قبل التاريخ وحفريات عصر البليوسين والبلايستوسين الأدنى ، وهم يرجحون أن تكون أفريقية الموطن الذى تطور فيه الإنسان الأول ، وظهرت حضارته الأولى في العصر الحجري القديم الأسفل وما قبله . وإن كانت آسيا قد بدأت يكون لها

دورها الخاص خلال ذلك العصر ذاته ، وازداد هذا الدور ظهوراً خلال العصر الحجري القديم بصفة عامة ، لاسيما في عهوده الوسطى والمتأخرة ، وربما كذلك في مطلع العصر الحجري الحديث ، حين أصبحت لإقليم جنوب غرب آسيا مكانته الخاصة ، حتى ظهرت السلالات البشرية الحالية وهى التى تتقارب في توزيعها الجغرافى حتى تكاد تلتقى (فيما عدا السلالة الصفراء) عند جنوب غرب آسيا وشمال شرق أفريقية ومن الطريف حقاً أننا نجد السلالات البيضاء تبدأ عند القوقاز وتنتشر في شمال أوروبا ، والسلالة المعروفة بالسلالة الألبية تبدأ أيضاً غير بعيد من أطراف آسيا الصغرى ، وكذلك سلالة البحر المتوسط تبدأ من جنوب غرب آسيا وتنتشر في اتجاه حوض ذلك البحر بما في ذلك الركن الشمالى الشرقى من أفريقية . أما السلالة الزنجية فتبدأ مؤثراتها من شاطئ جنوب غرب آسيا إلى شرق أفريقية وداخل تلك القارة من جهة وإلى ما وراء المحيط الهندى في أقصى الشرق وأطراف المحيط الهادى من جهة أخرى . وقد دعا تقارب أطراف التوزيع الجغرافى للسلالات البشرية المعاصرة في الركن الجنوبي الغربى من آسيا إلى اعتبار هذا الإقليم أرجح الأقاليم لأن يكون الموطن الأصلى للإنسان المعاصر وسلالاته .

أما بالنسبة للحضارات المستقرة التى بدأت في العصر الحجري الحديث (حوالى النصف الثانى من الألف السادسة قبل الميلاد) وامتدت إلى مطلع العصر التاريخى (أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد) فإن إقليم الشرق العربى بامتداده الذى المحنا إليه يعتبر بحق أبعد أقاليم الأرض عراقاً في التاريخ الحضارى المستقر للإنسان على الأرض . فضلاً عن أن هذا الإقليم قد امتاز فوق ذلك باستمرار الحياة الحضارية فيه وتنوع مظاهرها واتساع اتصالاتها بحكم الموقع الجغرافى في وسط العالم القديم . فأما عن الاستمرار فإن الحياة المستقرة قد اتصلت أسبابها في هذا الإقليم - أو في بعض أجزائه على الأقل - خلال سبعة آلاف من السنين أو ما يزيد . وعلى الرغم من أن تلك الحياة قد اعتراها الجمود أو الاضطراب من وقت لآخر ومن منطقة لأخرى داخل هذا الإقليم ، فإن سكان الإقليم على الجملة قد وفقوا خلال أكثر من نصف الفترة التى استقرت فيها الحياة بهم في وطنهم الكبير . فازدهرت الحضارة ونمت المدنية وقامت النظم الاجتماعية التى أضفت على الإقليم وأهله

ضابعمهم الخاص ، كما اتصلت أسباب التبادل الحضارى بين الإقليم وما جاوره أو بعد عنه من أقاليم القارات الثلاث التى تتألف منها الكتلة القارية للعالم القديم . وأما عن تنوع الحضارة وأسبابها فإن الإقليم كان ظاهر التنوع فى بيئاته التى تبدأ بالصحراء وتتدرج إلى أرض المراعى وأرض السهول النهرية والواحات ومناطق الجبال والسواحل التى تطل على البحار المعتدلة أو البحار الدفيئة أو الحارة . وذلك كله تنوع انعكس فى أنماط البيئة وأنماط الحياة ومظاهر النشاط البشرى ، ولكنه تداخل فى ذلك كله وتكامل حتى أصبح لحضارة الشرق الأدنى عامة ثم المشرق العربى بصفة خاصة طابعه المعين من الحياة والمدنية والحضارة الإنسانية ، التى خرجت بأصحابها عن نطاقهم المحدود إلى النطاق العالمى فى اتصال ليس كمثله اتصال آخر لحضارة من الحضارات التى ظهرت فى أقاليم أخرى من العالم ، ولكنها انطوت على ذاتها ، أو لم يتعد تأثيرها وتأثيرها بالحضارات الأخرى ما جاورها مباشرة من أقاليم الأرض . وليس من شك فى أن الموقع الجغرافى الفريد الذى امتاز به الشرق الأدنى والمشرق العربى بصفة خاصة كان له الأثر الأصيل فى الدور الذى قام به سكان المنطقة فى الربط بين أطراف العالم القديم .

ولكن تنوع البيئات وتكاملها فى نطاق المشرق العربى يستحق شيئاً من الإفاضة لما له من أثر كبير فى البناء والاستمرار الحضارى فى هذه المنطقة ، بل فى العالم القديم فى جملة . ذلك أن هناك جهات أخرى من العالم قامت بها حضارات قديمة أو حديثة ، ولكن قليلاً من تلك الحضارات هى التى استطاعت الاستمرار على الزمن كما استمرت الحضارة فى المشرق العربى . ولا شك أن ظاهرة الاستمرار الحضارى هذه قد استمدت أصولها من البيئة الطبيعية التى امتازت بالتنوع والتكامل فى آن واحد . فالمشرق العربى وإن كان ذا بيئة صحراوية أو شبه صحراوية ، لاسيما فى نواته الداخلية ، إلا أنه كان يقع بين المناطق الحارة شبه الاستوائية والمناطق المعتدلة الدفيئة ومن هنا امتاز بوجود المراعى بنوعيتها من الاستبس والسافانا . وبذلك أصبحت البداوة فيه أصلاً من أصول الحياة والحضارة والتاريخ . ولكنه كان فى الوقت نفسه إقليم زراعة متنوعة النمط . فمنه الأرض التى تسقى بالمطر ، والتى تسقى من مياه الأنهار الجارية ، والتى تسقىها العيون المتفجرة فى الواحات ومن

حول الآبار . وفيه محاصيل المناطق الحارة وشبه الموسمية في الجنوب ، ومحاصيل المناطق المعتدلة في الشمال . وفيه محاصيل الحقل من حبوب وخضر ، وفيه محاصيل البساتين والأحراج من شجر مثمر وغير مثمر . ثم إنه فوق ذلك إقليم كان ولا يزال غنياً بالمعادن والثروة المعدنية . ففي العصور الأولى لاستخدام المعدن كان المشرق العربي من أول المناطق التي استخدم فيها النحاس ثم الحديد من بعده ، وفي العصور الوسيطة احتفظت مدنه بسمعتها في صناعة المعادن ، ثم في العصر الحديث جاء البترول فأظهر أن هذه المنطقة تعتبر أكبر خزان إقليمي لهذا السائل الأسود النفيس . وبالإضافة إلى كل هذه المقومات الطبيعية التي تضاف إليها في المستقبل مصادر طائلة من الطاقة الكهربائية والشمسية وغيرها كان الإقليم متنوعاً في حياته البشرية المستقرة وغير المستقرة . فبالإضافة إلى البداوة التي كانت أصل الحياة العربية وينبوعها الفياض والذي يغذيها من وقت لآخر بموجات من الهجرات التي تجدد دم أهل الحضر ، وتضيف إلى تنوع تراثهم الفكري والروحي والاجتماعي والثقافي . . . إلى جانب تلك البداوة التي رسمت بتراتها الأصل كثيرًا من معالم الحياة العربية وشيمها الإنسانية وقيمها الأخلاقية من الصفاء والنقاء ، ومن النخوة والنجدة ، ومن الكرم والسماحة ، ومن البذل والتضحية ، ومن الشمم والكبرياء . إلى آخر ما يمتاز به العربي القديم والعربي المعاصر . . . إلى جانب ذلك كله كانت هناك الحياة الحضرية التي عرفها المشرق العربي في قراه ومدنه ، التي يرجع تاريخها إلى أوائل العصر الحجري الحديث ، والتي استمرت الحياة في بعضها دون انقطاع خلال سبعة آلاف من السنين أو أكثر ، لم تنقطع فيها الصلة بين البدو والحضر ، ولا بين أهل الداخل وأهل الساحل ، ولا أهل الجبال وأهل السهول ، وإنما تكاملت الصلة بين أنماط الحياة العربية في تنوع واتساع واتصال واستمرار لا يكاد يكون لها مضارع في أي إقليم آخر من أقاليم العالم القديم .

الإقليمية والاتصالات العالمية في المشرق العربي :

ولكن أثر الموقع الجغرافي إنما يتضح مداه ، حين نوازن بين ظاهرتي الإقليمية

والعالمية في التاريخ الحضارى للمشرق العربى بالذات . والواقع أنه يصعب أن نجد إقليماً آخر من مواطن الحضارة في العالم استطاع أن يوائم بين الظاهرتين كما فعل هذا الإقليم وأهله . ولقد كان طبيعياً حين نشأت الحضارة المستقرة الأولى ثم الحضارة التاريخية أن تكون نشأتها إقليمية محدودة ، بل أن تكون تلك النشأة على نطاق محلي ، قبل أن تتسع الاتصالات والتبادل الحضارى إلى النطاق العالمى بمعناه المعروف . وذلك ما حدث فعلاً حين نشأت حضارات ذات طابع محلي في أجزاء مختلفة من المشرق العربى . فكانت الحضارة الفرعونية في أرض النيل الأدنى ، وكانت مجموعة الحضارات الأوربية والسومرية والأكدية والبابلية والآشورية وغيرها في أرض العراق التى كان يصعب الربط فيما بينها بالنسبة لأرض وادى النيل الموحدة . وكذلك نشأت حضارات أخرى في أرض الشام وفلسطين ولبنان ، أو على شواطئ الخليج العربى ، أو في أرض عمان ، أو في وادى حضرموت ، أو فوق هضبة اليمن ، أو في نقاط مختلفة من شمال الحجاز . ولكن تلك الحضارات كلها بقيت محلية الطابع نسبياً رغم ما قام بينها من اتصالات ، بحيث أن المشرق العربى مر في عهد طويل يمكن أن نسميه عصر المحلية الحضارية ، حتى جاء العهد العربى ، وكان التطور والاتصال الحضارى الداخلى في الإقليم قد بلغ مرحلة النضوج ، فظهرت الوحدة الثقافية والحضارية الشاملة ، وانتهى عهد الجاهلية السياسية ، وظهرت الوحدة القومية في أولى صورها الشاملة مع ظهور الإسلام في العهد العربى . فكانت العربية وكانت العروبة وكان الإسلام ، وبدأ عهد لا يزال حتى اليوم يظلمنا بظله ، وإن كانت الوحدة قد اعترها الخمود أو الانحلال بين حين وحين .

ولكن ظاهرة العالمية في حد ذاتها تستحق أن نتناولها بشيء من التقصى ، ذلك أنها لم تظهر بمعناها الصحيح في العالم القديم إلا مع النصف الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد . أما قبل ذلك فقد كانت هناك عدة مناطق حضارية في العالم القديم لكل منها طابعها المميز ، في الصين ، والهند ، وإيران ، والشرق الأدنى الآسيوى ، ومصر وبلاد الإغريق . وكانت كل من هذه المناطق تكون عالماً حضارياً محدداً ومتميزاً لا يكاد يتصل اتصالاً مباشراً إلا بالعالم المجاور

له . كاحتكاك مصر بالشرق الأدنى الآسيوى ، أو بلاد الأغريق بمصر ، أو الشرق الفارسى القديم باليونان القديمة . فلما جاء الإسكندر ، وقام بحملته التاريخية من بلاد الأغريق إلى الشرق الأدنى الآسيوى ، ثم مصر ، ثم حدود برقة ، ثم عاد إلى مصر ومنها إلى الشرق الأدنى الآسيوى وتركستان الغربية وحدود الصين ، ثم اتجه نحو الهند ، ثم عاد إلى غرب آسيا حيث قضى نحيبه . . . كانت هذه أول حملة احتكت فيها مناطق الحضارة المختلفة بعضها ببعض احتكاكاً مباشراً . فتقاربت أجزاء العالم القديم ، وظهرت فكرة « العالمية » (أو بعض بوادرها على الأقل) ، ووضعت أسس الاتصال العالمى ، ففتحت الطرق ، وسعى عليها التجار والملاحون فى البر والبحر ، وتبادل الناس السلع والأفكار بين مناطق لم يكن بعضها يعرف بعضاً قبل عهد الإسكندر إلا بطريقة طارئة وغير مباشرة .

وهكذا ظهر الفارق الكبير بين عهد ما قبل الإسكندر ، حين كانت الإقليمية هى الطابع الغالب على الاتصالات الحضارية ، وعهد ما بعد الإسكندر ، حين ظهرت العالمية بمعناها التاريخى المعروف . وترتب على ذلك أن برزت رسالة جديدة لسكان المشرق العربى القديم ، فلم يعد الأمر أمر اتصالات محلية لا يتعدى أثرها سكان الإقليم إلا إلى ما جاوره مباشرة من أرض آسيا أو أرض إفريقيا أو حوض البحر المتوسط ، وإنما أصبحت للإقليم رسالة فى الربط بين مختلف أجزاء العالم القديم ، من أقصى شرقه إلى أقصى غربه ، ومن جهاته الاستوائية إلى أطرافه الشمالية . وانعكست صورة ذلك فى دور « الوساطة » من الناحية التجارية ، ودور « الدعوة والبلاغ » من ناحية الصلات الفكرية والروحية والاجتماعية . وبذلك كله برز دور « الموقع الجغرافى » بمعناه العالمى ، من حيث إن المشرق العربى هو همزة الوصل من ناحية اليابس واقتران القارات ، ومن ناحية الماء واقتراب البحار على طول أذرعه البحرية الطويلة وخلجانه المتوغلة . وبمعنى آخر فإن المشرق العربى أصبح مقرن القارات ومفرق البحار . ومن الطريف أن جزيرة العرب لم تكن جزيرة بالمعنى الكامل وإلا لاستطاع الملاحون وركاب البحر العابرون من غير أهل المشرق العربى أن يدوروا بسفنهم حول الجزيرة دون أن يكون هناك لأهل سواحلها دور خاص فى الوساطة ، على نحو ما حدث حين جرى دوران أهل

غرب أوروبا حول الجزيرة الإفريقية الكبيرة في عهد الاكتشافات البحرية إلى الهند . أما جزيرة العرب فإن البحار تتقارب عندها ولا تقترن . ومن هنا فقد كان على العابرين أن يغيروا وسيلة النقل ، وأن يقفوا عند الموانئ ليلتمسوا وساطة حداثة الإبل وربانية القوافل ، فضلاً عن أن سكان شواطئ المشرق العربي المطل على البحر المتوسط من جهة ، والمطل على الخليج العربي وبحر العرب الجنوبي من جهة أخرى ، كانوا أصحاب سفن ونقل بحري إلى ما وراء بحارهم . ومن هنا فقد تكامل دور الوساطة بالنسبة للعرب الأقدمين وأسلافهم على شواطئ المشرق العربي وعلى طول طرقه البرية بين البحار . وقد علم ذلك أهل المشرق أن يكونوا تجاراً ينقلون السلع ويسعون بالخير بين أهل المشرق وأهل المغرب ، وبين سكان الجنوب وبحاره الدفيئة وسكان الشمال وبحاره المعتدلة أو الباردة . ومع تبادل السلع ونقلها كان تبادل الأفكار ، بل والمعاني والقيم الإنسانية على جميع مستوياتها الفكرية والروحية والدينية وعلى نحو تفرد به المشرق العربي بين أقاليم الأرض جميعاً .

ولقد امتاز المشرق العربي بأن كان مهبط الأديان السماوية الثلاثة الكبرى ، اليهودية والمسيحية والإسلام . وكانت لذلك دلالاته وحكمته من الناحية الجغرافية . فهذا المشرق يتوسط العالم القديم ، ويختلف مثلاً عن الصين التي كانت قارة ثقافية نائية عند طرف ذلك العالم ، وعن الهند التي كانت شبه قارة ثقافية متوسطة نسبياً ، ولكنها محصورة بالجبال ، وذات منفذ بشري أساسي وعريض واحد نحو البحار الجنوبية الشرقية وعالم الهند الصينية . أما بلاد العرب فقد كانت في موقع مثالي ، له منافذه التي تطل على كل اتجاه ، وله مسالكه التي تسمح بعبور كل شيء مادي أو معنوي ، وله سكانه الذين عرفوا شعوب الأرض وما وراء البحار ، وألفوا التجارة والتبادل معهم منذ قديم بل ألفوا العطاء والأخذ دون شعور بالخصاصة أو الأثرة حين العطاء ، أو بالحرج أو مركب النقص حين الأخذ عن غيرهم من الشعوب . وبذلك كله أصبح سكان المشرق العربي وأحسوا دائماً بأنهم أصحاب رسالة ، لأنهم كانوا في واقع الأمر مؤهلين بحكم موقع وطنهم وطبيعته لأن يحملوا عبء تلك الرسالة بين الأمم والشعوب . ولكن علينا في هذا المجال أن

نميز بين فئتين من سكان ذلك المشرق القديم في عهد انتقاله من مرحلته «الإقليمية» إلى مرحلته «العالمية» هما فئة اليهود من جهة ، وفئة المسيحيين والمسلمين من جهة أخرى . ذلك أن اليهودية إنما أنزلت تعاليمها في عهد الإقليمية قبل حروب الإسكندر العالمية ، وبذلك فقد نشأ اليهود وتبلورت تعاليمهم في عهد لم يكن فيه سكان المشرق العربي قد عرفوا العالمية ، وأغلب الظن أنه حتى ما جاء في التعاليم الأصلية لليهودية من معانى البر بالآخرين والإيثار والتضحية من أجل السلام الإنسانى ، تسامحاً ورحابة ، لم يفهم عنه اليهود الأوائل وأخلافهم ما كان ينبغى أن يفهموه ، وإنما اشتدت بهم الإقليمية والشعوبية إلى حد الشطط وظلم الأنبياء أنفسهم وقتيلهم حين يدعون إلى حسن الجوار والتآخى أو إقامة السلام على أساس من الساحة أو من العدل . وهكذا تطورت اليهودية في عهد الجاهلية الحضارية للمشرق العربى ، أى في عهد الفرقة والتناؤد القائم على الجفوة والقسوة والقطيعة بين الناس . ومن هنا فإن اليهود منذ نشأتهم الأولى في عهدهم القديم وفي ظروفهم التاريخية قبل أن تظهر فكرة العالمية ، قد انطوا على أنفسهم ، بل رأوا أنفسهم «الشعب المختار» الذى يجب أن يركز الخير ويوجهه كله لصالحه الخاص ، ولو ترتب على ذلك ظلم الآخرين . وحتى في مجال الروح حفظ اليهود عقيدتهم لأنفسهم ، لم يفهموا عن رسلهم وأنبيائهم أن الدين السماوى إنما أنزل ليعم أهل الأرض . ومن هنا فإن اليهودية كما مارسها اليهود لم تنطو على أى «بلاغ» أو رسالة بالنسبة للآخرين ، ولم يشعر اليهود ولم يستشعروا أى واجب بالنسبة لابلأغ رسالة اليهودية إلى الخلق من حولهم . وكان من نتيجة ذلك أن اليهود حين انتشروا جماعات متفرقة في الأرض كلها لم يبلغوا رسالتهم لأحد . ولم يعنوا بنشر دينهم بين غيرهم من الناس إلى أى قدر ظاهر . وهم في ذلك كله قد اختلفوا عن المسيحيين والمسلمين اختلافاً واضحاً ، فهؤلاء الأخيرين جميعاً قد فهموا روح المسيحية ثم روح الإسلام على النحو الصحيح الذى يجب أن يفهم عليه الدين السماوى ، بل دين الله الذى يجب أن يكون للخلق جميعاً . ذلك أن المسيحية والإسلام قد جاءوا بعد أن كانت فكرة «العالمية» قد ظهرت ، وانطبعت تعاليمها في أذهان أهل المشرق كحملة لرسالة التواصل بين أطراف الأرض . ولئن كان ذلك التواصل قد

ظهر أول ما ظهر أيام الإسكندر في صورة حروب وتوسع عسكري واصطدام مسلح ، فإنه مع ذلك قد ترك أثره الدائم على نفوس أهل المشرق وفي قلوبهم وعقولهم ، فأدركوا إلى غير نكوص أن العالم واحد ، وبالتالي فإن أية رسالة للتوحيد ينبغي أن تكون رسالة شاملة بالنسبة للعالم كله ، وينبغي أن تمارس مثل تلك الرسالة على أساس أن « البلاغ » فريضة على كل مؤمن ، بحيث أن الحقيقة الروحية لا يجوز أن يجبرها أصحابها في نفسه ، ولا أن يطويها على ذاته ، أثره منه وشحاً وتقاعساً أن يدع الناس يشاركونه ما أنزل الله من هداية . وبمعنى آخر فإن فكرة « الشعب المختار » قد اهتزت من أساسها في عهد المسيحية ، ثم اهتزت مرة أخرى حتى تقوضت أركانها تماماً في عهد الإسلام . ولقد قامت دعوة المسيحية كلها على أساس المحبة والتسامح حتى إلى حد التفريط في حق الذات ، وكان ذلك أمراً ضرورياً ليتمكن أن يرجع الناس من أقصى حدود الأثرة التي دعا إليها اليهود ومارسوها في إصرار عنيد ، إلى قدر من الإيثاري يعود به الفرد إلى حكمة الدعوة لإقامة الحق بين الناس . فلما جاء الإسلام دعا إلى الإخوة والعدل ، وإلى المساواة بين الناس كأسنان المشط تقف إلى مستواها الواحد ، وألغى الإسلام فكرة « الاختيار » إلغاء صارماً لم يعد معه فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، وظهرت إلى جانب ذلك فكرة الكيان الفردي والقيمة الإنسانية الذاتية لكل فرد ، سواء أكان من أبناء الشرق أم من أبناء غيره من أقاليم الأرض . وبذلك كله تألفت فكرة العالمية حتى سمت إلى مستوى فكرة « الإنسانية » . وكان ذلك في واقع الأمر تطبيقاً لدعوة فهمها أهلها ومارسوها في وقت برزت فيه قيمة موقع بلادهم الذي انطلقوا منه يبلغون الرسالة ، ويعلمون الناس ، ويبشرون بمبادئ المحبة والحق والعدل والمساواة .

ولكن هناك بضع نقاط تستحق شيئاً من الإفاضة فيما نحن بسبيله من تقصى مظاهر الإقليمية والعالمية في حياة المشرق العربي وحضارته وتاريخه . وأولى هذه النقاط أن الظروف التي تبلورت فيها الممارسة اليهودية للصلات الإنسانية في عهدها القديم كانت ظروف إقليمية وتفكك على وقطيعه داخل المشرق العربي ذاته ، فضلاً عن أن فكرة العالمية كما ذكرنا لم تكن قد برزت بعد ، بخلاف الحال

وقت ظهور المسيحية ثم الإسلام ، حين تفتحت عيون أهل الإقليم على العالم كله من حولهم ، بل وبعيداً عنهم ، وحين تطورت الصلات الإنسانية وقواعدها الروحية ، فكانت ممارسة الدين على أساس أنه لله وللناس جميعاً بل وللإنسانية كلها . والحق أن الفرق بين اليهودية من جهة ، وبين المسيحية والإسلام من جهة أخرى ، لم يكن فرقاً في رسالة التوحيد في صورتها الأصلية ، ولا في أصول عقيدة إبراهيم كما جاءت بها تلك الرسالة ، بقدر ما كان فرقاً في فهم الرسالة وتطبيق مفهومها في حياة الفرد وحياة الجماعة ، ثم في صلات تلك الجماعة مع من حولها من الجماعات داخل نطاق العقيدة أو خارجه .

والنقطة الثانية أن اليهود في المشرق قد تغيرت من حولهم الظروف ، حين انتقل الإقليم من منطقة أو مناطق حضارية محدودة الاتصال بالخارج نسبياً إلى منطقة وصل بين أطراف العالم ومختلف حضاراته . ولكن اليهود بقوا على انطوائهم ، واستمروا في ممارسة عقيدتهم على أنها عقيدة مغلقة على أصحابها ، تعادى الرسائل اللاحقة ، وتسعى بينها بالقطيعة وعدم التعايش ، كما ترفض فكرة (البلاغ) من أساسها ، وتؤمن بأن الرسالة هي إنما « للشعب المختار » دون سواه . وهذا نمط من الحياة وسلوك لا يطاوع العصر ولا يجاريه ، بعد أن أصبحت بيئة المشرق بيئة وصل بين الشعوب . ومن هنا برز التناقض بين الممارسة اليهودية وبين مقتضيات البيئة بعد أن تطورت ظروفها التاريخية ، وظهرت العالمية التي قضت بأن يتصل أهل المشرق اتصالاً مفتوحاً وسمحاً بغيرهم من الشعوب ، وأن تكون كل رسالة روحية فيه للإنسانية كلها ، وأن تزول آثار الانطوائية والاعتزال والأنانية والاستعلاء ، سواء في مجال الحياة والمعاملات المادية ، أم في مجال الروح وما يتصل به من فكر وفلسفة وعبادات . ولم يكن غريباً وقد عزل اليهود أنفسهم عن مقتضيات بيئتهم ، ولم يتجاوبوا مع التحول التاريخي الكبير الذي جاء في أعقاب عهد الإسكندر . . . لم يكن غريباً أن يجد اليهود أنفسهم غير موفقين في مطاوعة البيئة أو مواكبة الزمن ، فينحل عقدتهم وتضيع ريحهم في بيئة تقضى بالربط والاتصال . بل لم يكن غريباً آخر الأمر أن يضطروا إلى الارتحال ومنازمة حياة الاستقرار في منطقة لا تسمح بالانطواء الأناني ، حتى هاجروا آخر الأمر إلى

مناطق بعيدة ومتفرقة من العالم ، مارسوا فيها فلسفة الشعب المختار ، والعقيدة المغلقة ، فانتشر اليهود ، ولكن الديانة اليهودية لم تنتشر كما حدث في حالة الانتشار الواسع الذي كان للمسيحية ثم للإسلام .

ومن الخير هنا أن نذكر النقطة الثالثة ، وهى أن اليهود وقد شتوا أنفسهم ، فنزحوا عن المشرق ، وبقوا بعيدين عنه زهاء ألفى عام ، يحاولون الآن السيطرة على إقليم لا يصلحون بحكم فلسفتهم وستهم في ممارسة الحياة ، لأن يتجاوبوا مع مقتضياته ، ولا أن يحملوا فيه رسالة الوصل بين الأمم والشعوب ، وصلاً يقوم على العطاء قبل الأخذ ، وعلى البلاغ قبل الانطواء وعلى الإيثاردون الأثرة . ومهما طال الزمن فإن إقامة سلطة يهودية صهيونية للسيطرة على هذا الموقع الجغرافى الذى يربط العالم لن تتوافق مع مقتضيات البيئة والموقع الجغرافى ، ولن تكون إظهاراً مصطنعاً لا يكتب لها التاريخ امتداد البقاء لأنها ضد طبيعة الأشياء .

أما النقطة الرابعة التى يهمنى أن نسجلها هنا ، فهى أن نمط الحياة في هذا الإقليم خلال العهد العربى كان مما يسر « للعالمية » أن تتأصل وتجد لنفسها المقر والمعبر في أرض كان سكانها من المسيحيين ثم المسلمين أصحاب رسالة إنسانية ، مارسوا عقيدتهم على أساس أن إبلاغ الرسالة فريضة على المؤمن ، وأن الوصل بين الناس والتراحم بين الشعوب واجب والتزام يقتضيهما الوجود العربى المسيحى والإسلامى وسط العالم . ولقد كان تكوين السكان ذاته ، لاسيما في العهد العربى الإسلامى ، مما يجعل الاتصال بالناس والشعوب وتيرة الحياة المألوفة . فقد دخل الناس في دين الله أفواجا ، وانتفت «العنصرية» وكادت أن تصبح خروجاً على تعاليم الدين ، وغدا الاختلاط والمعاشرة بين سلالات البشر وذوى الألوان المتغايرة من سنن الحياة الجديدة ، ولم يستشعر النازح إلى الإقليم أنه غريب فيه مهما بعد أصله . وفوق ذلك فإن رباط العقيدة ، والثقافة العربية جب ما سواه من عناصر التفرقة والتفكك والتناهد ، وألف الناس أن يعيشوا جميعاً في بيئة مشتركة ، ليس فيها مكان لشعب منطو أو شعب مختار .

وفي هذه المنطقة ، كما ذكرنا ، كانت البحار تتقارب ولا تتلاقى . فكان من الضرورى لعبور السلع خلال المشرق العربى بين الشرق والغرب وبين الجنوب

والشمال ، أن تتغير وسيلة النقل من السفينة إلى دابة الصحراء . ومن التوفيق إلى الحيوان المميز للإقليم منذ قديم كان هو الجمل الناقل والجمل الراحل الهجين . وبذلك وجد العرب أصحاب البلاد وأضيافهم من عابري السبيل وسيلة الحمل والنقل والسفر ، وأصبحت قوافل الإبل « سفن الصحراء » الملائمة للبيئة والظروف كل الملاءمة . ونستطيع أن نتصور الحال لو أن الصحارى العربية كانت كمناطق السهوب الآسيوية التي ترح فوقها جحافل الخيول . إذن لما كان العرب حداة إبل في غالبيتهم ، ولأصبح الطابع الغالب في الحياة والحركة العربية هو طابع فرسان السهوب ، الذين يستشعرون الاستعلاء على الناس لمجرد أنهم فرسان يمتطون الخيل ولا يحدون الإبل . وإذن لكانت الجزيرة العربية مصدر هجرات من جحافل المخربين فوق خيولهم مثل التتر والمغول وغيرهم ، لا حداة الإبل الذين يسعون بالتجارة والفكر والفن والجمال الرقيق بين جيرانهم على الشواطئ ، وفي مواقع الحضارة المستقرة من حول الجزيرة . ولئن كان العرب قد عرفوا فصيلة الحصان العربى ، فإن هذه الفصيلة لم تظهر إلا في عهد متأخر نسبياً ، وبعد أن تم استئناس الحصان في قلب آسيا بنحو ألفى عام أو ما يزيد (*) . فضلاً عن أن الحصان العربى يعتبر حيواناً ضيقاً على البيئة العربية ، فهو لا يرفعى في داخلية الجزيرة على هيئة قطعان كما ترعى الإبل والأغنام ، وإنما يربى فرداً أو أفراداً ، وتضفى عليه العناية الفائقة كأداة مستحدثة من أدوات الزينة أو أدوات الفتح بين حين وحين .

والنقطة الخامسة التى نسجلها فى دراسة الأصول والاتصالات الحضارية فى المشرق العربى هى أن طبيعة الإقليم ذاته ومسالكه الداخلية ، ومطالاته الخارجية

(*) كانت داخلية آسيا الموطن الأصل للحصان ، ولا تزال بعض الخيول غير المستأنسة تعيش وتتكاثر هناك . وقد استؤنس الحصان فى تلك المناطق خلال الألف الثالثة قبل الميلاد . وأدخله الهكسوس كحيوان حرب إلى المشرق القريب ومصر حول المائة الثامنة عشرة قبل الميلاد . ويقال إن سليمان (القرن العاشر - م .) كان أول من استولد فصائل الخيل التى انحدرت منها الخيل العربية . ويبدو أن هذه الفصيلة الأخيرة لم تظهر بصورتها المعروفة إلا فى « أيام العرب » وحروبهم قبل الإسلام ، ومنها حرب داحس والغبراء ، وهما من أساء الخيل .

كانت مما جعل الاتصال أمراً سهلاً وميسوراً ، سواء أكان ذلك فيما بين مختلف أرجاء المشرق العربى ، أو بالنسبة للمواصلات العالمية البعيدة المدى . فمصر مرتبطة أيسر الارتباط بشمال الجزيرة العربية عن طريق شمال شبه جزيرة سيناء ، حيث الرمال الساحلية والكثبان الرملية المتفرقة على السهل الساحلى تحتزن مياه أمطار الشتاء وتجود بها على مدار العام فى هيئة آبار سطحية . ومن مصر يتجه الطريق الساحلى ذو المراعى والمياه إلى برقة وبقية ليبيا ، ويمتد طريق وادى النيل إلى داخلية السودان وأقاصيه ، كما تمتد أودية الصحراء الشرقية ومسالكها فى اتجاه شرق السودان وأريتية . أما الهلال الخصيب بقرنيه الشامى والعراقى فهناك أكثر من طريق يعبر البادية السورية بين القرنين ، بحيث إنه بعد أن بدأ الجفاف يحل تدريجياً بالمنطقة فى العهد التاريخى القديم وخلال العهد الرومانى ، فإن الاتصال تحول من المسالك الجنوبية فى تلك البادية إلى مسالكها الشمالية حيث المطر أغزر والنبات أوفر . وفيما بين الشام واليمن هناك طريق رحلة الشتاء والصيف عبر الحجاز ، وبين هذا الأخير وبين الخليج العربى هناك طريق نجد الذى يعبر الجزيرة العربية ، ثم أخيراً بين الركن الجنوبى الشرقى من الجزيرة وسائر أرجائها هناك طريق الساحل البحرى بين عمان وإمارات الخليج وشط العرب من جهة ، وبينها وبين سواحل ظفار وحضرموت واليمن من جهة أخرى ، وهو طريق طويل لا تخلو بعض أطرافه الجنوبية من مخاطر ، ولكنه كان وسيلة صالحة لاحكام الاتصال الحضارى والتجارى ، وهو من هذه الناحية كان مسرحاً للنشاط البحرى والساحلى ، تماماً كما كانت سواحل الشام وفلسطين ودلتا النيل ، التى ترابطت بين أهلها الصلات العريقة ، على الجانب الآخر من الجزيرة العربية .

فأما عن الاتصال بين المشرق العربى وما جاوره أو بعد عنه فى الشرق والغرب ، فإن المسالك البرية والبحرية قد تكاملت فى ذلك على نحو جعل من هذا المشرق حلقة اتصال تجارى وحضارى عام فى العالم القديم من حوله . فإلى الشرق والشمال الشرقى كانت جبال زاغروس لا تمثل حاجزاً حقيقياً ، لأن المسالك تخترقها فى يسر وترقى من سهل عربستان إلى إيران الجنوبية ، ومن سهل آشور إلى داخلية هضبة إيران الشمالية وما وراءها فى اتجاه تركستان وقلب آسيا وشرقها

البعيد، وإن كانت جبال كردستان والأناضول أكثر امتداداً وأصعب اختراقاً ، فلاتعبرها غير ممرات قليلة في اتجاه القوقاز ، كانت صالحة لمروور التجارة المتقطعة أكثر من صلاحيتها للتوسع والانتشار الحضارى بمعناه المعروف ، وهو التوسع الذى جاء أغلبه في اتجاه السلاسل من الشرق إلى الغرب . وأما مطل المشرق العربى على البحر المتوسط فقد كان منذ أقدم العصور نافذة حضارية مفتوحة على هذا البحر وما وراءه من بحار قريبة وبعيدة . فمنه انتشر الفينيقيون إلى الحوض الغربى للبحر المتوسط وما وراءه ، وفيه التقى المشرق مع الغرب الأوربي خلال التاريخ القديم والوسيط ، ومنه انتشر أخلاف الفينيقيين من غرب السواحل والجبال المطلة عليها إلى ما وراء المحيط الأطلسى وأرض المهاجر في العهد الحديث . كذلك كانت مراقي مصر الشمالية مطلاً على البحر المتوسط منذ أيام الإغريق وحتى قبل ذلك ، واستمرت تطل على البحر وتتصل به أو تتلقى منه سلع التجارة وأسباب الحضارة وتنقلها إلى داخلية المشرق العربى في اتجاه إفريقية أو جنوب غرب آسيا . وأما في الجنوب الغربى من المشرق العربى فقد كان معبر باب المندب على الدوام طريقاً للتجارة البحرية من جهة ، وللهجرات والانتشار الحضارى في اتجاه القرن الإفريقى من جهة أخرى ، وقد سبقت المؤثرات الحضارية الحامية والسامية مؤثرات العرب التى جاءت في العهد الإسلامى إلى بلاد أرتيرية والصومال ، حيث ألتقى التيار اليمنى بالتيار القادم من ناحية مسقط وعمان والخليج العربى في اتجاه شرق القارة الإفريقية وسواحل زنجبار . أما بقية السواحل العربية الجنوبية في حضرموت ، فقد كانت مطلاً آخر على بحار الهند ، ولكن نشاط أهلها الذين كثيراً ما يسمون بفينيقي الجنوب ، امتد إلى جنوب شرقى آسيا في الملايو وأندونيسيا ، أى إلى أبعد حتى مما امتد إليه نشاط العناصر البحرية التى خرجت من الخليج العربى إلى سواحل شبه الجزيرة الهندية .

وهكذا كان المشرق العربى منذ أقدم عصوره منطقة اتصال وربط جغرافى برى وبحرى بما جاوره وبعد عنه في مختلف الاتجاهات .

صفوة القول :

على هذا النحو تنتهى بنا هذه الدراسة العامة للجغرافية الحضارية للمشرق

العربي . ويتضح منها أننا بصدد إقليم يمتاز على معظم أقطار الأرض وأقاليمها بظواهرات ومعالم فذة في نوعها . فهو إقليم متنوع البيئات ، متكامل الموارد ، ذو موقع جغرافي فريد ، واتصالات طبيعية داخلية وخارجية تربطه بالعالم القديم كله أسهل الارتباط وأقواه . كما تقطنه عناصر عرفت العالم ، وعرف الناس حضارتها ورسالتها الحضارية منذ أقدم العصور . ولعل ذلك كله أن يكون من وراء امتداد التاريخ واتصال أسباب الحياة والحضارة في أرض العرب على مر الزمن . وإننا لنرجو أن نكون بهذه الدراسة العامة قد فتحنا الطريق إلى مزيد من الدراسات التفصيلية في هذا الضرب من « الجغرافيا الحضارية » ، بحيث تحفل الدراسات القادمة بحوث الجغرافيين ، قدامى وناشئين ، في بعض ما أوجزنا أو أشرنا إليه من نقاط . بل إننا لنرجو أن يكون موضوع الجغرافيا الحضارية للمشرق العربي من بين ما يعنى به الباحثون والدارسون والمعلمون فيما يبحثون أو يعلمون أو ينشرون بين الناس . فذلك باب أولى أن يلجج الجغرافيون العرب قبل سواهم ، لأنهم أقرب الدارسين إلى هذا الإقليم ، وأقدرهم على اكتشاف أسرارها ، وتصوير ما عاشوا ويعيشون فيه من تجارب ، وما يدققون وينعمون فيه من نظرات ، في بيئة من حقها عليهم أن تنال أو في قدر من اهتمامهم بالبحث والدراسة والتصوير .

وقد يكون من الخير في ختام هذه الدراسة أن نجمل القول في النقاط الأساسية الآتية ، والتي ينتهى إليها حديث المشرق العربي بين ماضيه وحاضره ومستقبله القريب . فذلك قد يزيد من تحديد الصورة ، أو هو على الأقل يضع النقط على بعض الحروف .

أولاً - إن المشرق العربي منطقة فريدة في تكوينها الجغرافي . فهي جزء من المنطقة المعتدلة الدفئية ، ولكنها تجاور المناطق شبه الموسمية وشبه الاستوائية من جهة ، والمناطق المعتدلة الباردة من جهة أخرى . وهى مفتوحة على تلك المناطق جميعاً . وبالإضافة إلى ذلك فإنها غنية الموارد ، ظاهرة التنوع في مجال الثروة النباتية الطبيعية ، والزراعية ، والثروة الحيوانية ، والثروة المعدنية . وكذلك في الموارد التي ترتب على النقل والتبادل التجارى في الطيبات . وقد كان هذا التنوع أساساً للتكامل في الحياة المادية للسكان منذ أقدم العصور . وذلك مقوم ضرورى في بناء

المدينة والحضارة ، وفى بقاءهما واتصال أسبابهما على مر الزمن .

ثانياً - كذلك فإن البيئات فى المشرق العربى كانت من النوع الذى يمكن أن نسميه « بيئات التحدى » . فهى بيئات فيها شىء من القسوة المعتدلة ، ولكن تلك القسوة لا تصل إلى حد التعجيز . وبعبارة أخرى فإن البيئات العربية الطبيعية كانت تدعو السكان بل تستفزهم إلى العمل الذى يتحدى الظروف الطبيعية ، ولكنها فى الوقت ذاته توحى إليهم بالأمل فى قهر الصعاب . فالصحراء تتحدى من يحاول أن يقطعها ، ولكنها تضم الواحات الطبيعية التى يعرف عابر الصحراء أنه يستطيع أن يفىء إليها كمراحل على الطريق . والأنهار الجارية فى المشرق العربى كثيراً ما تفيض وتغرق جوانبها مهددة كل حرث ونسل ، ولكن التجربة أثبتت أن الخير كان يجيء فى أعقاب الفيضان ، وإن هذا الفيضان ذاته كان يمكن فى كثير من الأحيان التحكم فيه عن طريق العمل فى ضبط مياه الأنهار . كذلك البحار العربية كانت فى بعضها الشعاب التى تزيد من خطورة الملاحة ، ولكن الرياح المنتظمة كانت على الدوام صديق كل مسافر فى البحر . ولئن كان الارتحال بالبر والبحر فى أقطار المشرق العربى قد انطوى على شىء من المشقة أو المغامرة بالنهار ، فإن الليل ونجومه الثوابت فى سائه الصافية كان دليل كل مرتحل على ظهر بعير أو ظهر سفينة . وكذلك استنباط خيرات الأرض واستغلال مواردها فى المشرق العربى لم يكن من اليسر بمثل ما كانت عليه الحال فى المناطق الاستوائية ، ولا من الشدة بما يقيد النشاط فى المناطق شديدة البرودة . وإنما كان الجدل المعتدل فيه يؤتى ثماره ، وكانت التجربة والحكمة والعلم فيه هى السلاح المثمر لكل عامل دؤوب . ومن هنا فإن بيئات التحدى الرقيق كالبينة العربية كانت منذ قديم مهذاً للنشاط البشرى المثمر وللعمل الذى يهديه الأمل ويشجعه اضطراد النجاح واتصال التوفيق .

ثالثاً - كذلك فإن التكوين السكانى لأهل المشرق العربى كان فريداً فى مزاجه . فإن المنطقة كانت قريباً من الموطن الأصلى للسلاسل البشرية التى تعمر العالم القديم . عندها تقاربت تلك السلاسل فى نشأتها الأولى . وفى دماء سكانها تزاوجت المميزات الجنسية والمواهب والملكات . بل إن سكان المشرق العربى كانوا منذ قديم بعيدين عن كل مركب يدعو إلى التناوب أو القطيعة . فاتخذوا من

رباط الثقافة والفكر والعقيدة ما يزكى رباط الدم والنسب . ولم يستشعروا مركب خلاف أو نقص أو حتى مركب استعلاء حيال غيرهم من الشعوب المجاورة أو البعيدة . وكان ذلك مصدر قوة لا حد لها بالنسبة لسكان المشرق ، لاسيما في عهود الاتصال العالمى واسع النطاق .

رابعاً- فإذا تناولنا الناحية الثقافية والحضارية العامة بنوع خاص ، لم يلبث أن تبهرنا الحقيقة الرائعة ، وهى أن هذا الإقليم قد مر في حياته الحضارية بمرحلتين كبيرتين . أولاهما امتازت بالإقليمية الواضحة ، حيث قامت به مجموعة من الحضارات لكل منها نطاقها الإقليمي أو المحلى المحدود ، في مصر وحوض النيل ، أو في الشام ، أو في العراق ، أو في جنوب الجزيرة الغربى أو جنوبها الشرقى ، أو في بعض الجهات الصحراوية المنعزلة . ولكن تلك الحضارات ما لبثت أن تقاربت وتلاحمت في عهد ظهرت فيه الاتصالات العالمية ، فسعت بالمنطقة كلها إلى الوحدة الفكرية والروحية والثقافية بل والحضارية العامة . ولئن جاز لنا أن نصف القسم الأول من تاريخ المشرق العربى قبل وحدته الحضارية في العهد الإسلامى بأنه عصر «الإقليمية الحضارية» أو «الجاهلية السياسية» ، فإن ظهور الوحدة في أولى صورها وأقربها إلى «القومية العربية» مع مطلع الإسلام كان ظاهرة سبق المشرق العربى بها غيره من مناطق العالم ولا تكاد تضارعه في قدم الفكرة القومية واتساع نطاقها واستنادها إلى أساس ثقافى وفكرى وروحى واجتماعى غير بلاد الصين .

خامساً- كان الموقع الجغرافى للمشرق العربى أيضاً موقعاً فريداً . فالمنطقة تتوسط العالم القديم ، وهى بذلك أصلح مقر تقوم فيه «الأمة الوسط» بكل ما فى هذه التسمية من معنى . وكل هذا الموقع شبه الجزرى لا يمكن أن يتجاهله أو يدور من حوله من يريد أن يسير بين أقصى الغرب وأقصى الشرق ، أو بين الشمال والجنوب في وسط العالم ، ومن هنا كان للموقع الجغرافى العربى أثره الكبير والبعيد المدى على مجرى الأحداث التاريخية ، بل وفى تتابع المراحل الحضارية ذاتها . وقد ترتب عليه أنه منذ أن ظهرت العالمية فإن سكان هذا المشرق لم يستطيعوا أن يعيشوا في بيئتهم بأنفسهم ولا لأنفسهم وحدهم . وأصبح هذا سجية من سجاياهم ، يعطون العالم ويأخذون عنه ، ويعاملونه ويتعاملون معه ، ويعملون

دائماً لأن يكون مسعاهم بين الأمم مسعى الخير والأمن والتعاون والسلام .
سادساً- ولكن الموقع الجغرافي كان دائماً سلاحاً ذا حدين . ذلك أنه كان مصدراً
للخير من حيث مرور التجارة والمنافع ، وقيام العرب بدور النقل والوساطة بين
الأمم والشعوب في مجال السلع ومجال الأفكار في الوقت ذاته . ولكنه كان في بعض
الأحيان مصدر إضرار وشر مستطير ، حين طمع فيه الغزاة والراحلون من أدنى
الأرض حيناً ومن أقصاها في بعض الأحيان . ومصدر الشر أن أولئك الغزاة
والدخلاء لم يكونوا من أهل المنطقة ولا من أهل منطقة تشبهها في الموقع أو في
التاريخ الحضاري القائم على التبادل الرحب والاستجابة لمفهوم العالمية والاتصال
العالمي السمع ، وإنما جاءوا إلى المنطقة طامعين في السيطرة عليها ، والتحكم عن
طريقها في مسالك المواصلات العالمية ولئن كان بعض أولئك المتحكمين لم يحسنوا
الإفادة من الموقع الجغرافي ، كما حدث في العهد التركي ، حين جاء الأتراك فحلوا
محل العرب في السيطرة السياسية على المنطقة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحلوا محلهم
في حمل التجارة ووصل أسبابها بين الشرق والغرب . . فإن آخرين ممن جاءوا إلى
المشرق العربي في عهد الاستعمار الأوربي الحديث قد استغلوا ذلك الموقع أسوأ
استغلال ، وجعلوا منه منطقة عراك من أجل السلطة والسيطرة العالمية . حتى غدا
المشرق العربي في العهد الحديث للاستعمار ممراً ومقراً في آن واحد .

سابعاً- أن الأمر في المشرق العربي ، منذ ظهرت الاتصالات العالمية في العهد
الأغريقي الروماني كان أمر توازن بين مقتضيات البيئة المحلية ومؤثرات الموقع
الجغرافي : ففي العهود التي استجاب فيها العرب لمقتضيات بيئتهم المتحدية ،
وعملوا على استغلال موارد تلك البيئة واستدراار خيرها ، واستمسكوا بما تدعو
إليه تلك البيئة من دوافع التكامل والترابط الداخلي والوحدة في مجال المادة ومجال
الفكر والثقافة والروح . . في مثل تلك العهود عرف العرب قوميتهم بمفهومها
الصحيح والكامل كعقيدة وكحركة على طريق القوة والمجد ، فحملوا عبء
الرسالة المفروضة على « الأمة الوسط » ، تعارفاً وسلاماً ، وسعيًا بالخير والعدل
بين الأمم والشعوب . وفي العهود التي انصرف فيها العرب عن مقتضيات بيئتهم .
وارتدوا إلى « الجاهلية السياسية » ، تفرقاً وتنازلاً أو انحلالاً وضعفًا ، ذهبت ريح

قوميتهم ، وركد تيارها ، وطمع فيهم الغزاة والمغامرون ، وأصبح الموقع الجغرافي الفريد وبالأعلى عليهم بل وعلى العالم ، لأن الأمر قد أصبح أمر تحكم وسيطرة عالمية ، قبل أن يكون أمر وصل بين أطراف العالم . . . وفي بعض الأحيان ، كما يجري الآن في فلسطين ، أصبح الأمر أمر طمع في استقرار جديد ، في بيئة عربية ، من جانب عنصر دخيل ترك أسلافه أرض المشرق قبل أن يعرفوا معنى العالمية ومقتضياتها ، وما تفرضه من رسالة وتدعو إليه من بلاغ ، ثم اختلطت فيه دماء عناصر كثيرة أخرى أوربية وغير أوربية ، ضاع معها كل ميراث شرقي أو حتى سامي بالمعنى الدقيق للكلمة فجاءت هذه الفئة المغامرة من الأوربيين وأصحاب الاستعمار الحديث يفرضون لوناً جديداً من السيطرة على المشرق ، والتحكم في مثل هذا الموقع الذى شاءت الطبيعة والتاريخ أن يكون أرض الزاوية بين أقطار العالم القديم ، فلا يجوز أن تتحكم فيه عناصر لا يؤهلها تكوينها ولا تاريخها الحضارى أو الروحى لأن تحمل فيه رسالة الوصل السمع بين الشعوب .

ثامناً - وأخيراً قد ينفعنا في مجال الموازنة بين البيئة المحلية والموقع الجغرافي ومقتضيات كل منهما أن نذكر أن المشرق العربى كان في بعض عهوده مجالاً للصراع والتنافس العالمى ، ولكن ظروف ذلك الصراع تختلف من عصر لآخر وإن كانت طبيعته تتشابه من بعض الوجوه على اختلاف العهود . ففي العهد القديم مثلاً كان الصراع بين الفرس والروم من أجل السيطرة على قلب العالم القديم ، واستطاعت كل من القوتين الجبارتين أن تجد لنفسها موطئ قدم في المشرق العربى . بل إن العرب أنفسهم انقسموا فيما بينهم ، فكان منهم من يناصر الفرس ، ومنهم من يناصر الروم . ولكن العرب مالبثوا أن اكتشفوا أنفسهم وعرفوا طاقاتهم المادية والروحية مع مطلع الإسلام ، حين اجتمعت إرادتهم وتوحدت كلمتهم ، واستطاعوا آخر الأمر أن يمسكوا بزمام الأمور ، وأن يقوموا على الوساطة والربط بين الشعوب على أساس من الحق والعدل والخير والسلام . وبعد انقضاء العهد العربى بكل ما واكبه من وحدة وقوة وأمن ، جاءت عهود من التدخل الأجنبى أيام الأتراك ثم أيام الاستعمار الحديث والمعاصر . فظهر التنافس من أجل السيطرة على المشرق ومقدراته . وعن طريق ذلك من أجل التحكم في موارد الشرق البترولية

من جهة وفي طرق المواصلات العالمية من جهة أخرى . ولكن من حق العرب وواجبهم وهم في هذا المجال ألا يدعوا ذلك التنافس والصراع العالمي يحيد بهم عن طريق الوحدة ، أو يبعد بهم عن مسار العروبة المستقل والمميز . بل من حقهم وواجبهم أن يستعيدوا ثقتهم بأنفسهم وأن يحتفظوا بشخصيتهم ويدركوا أن درس الماضي كفيلا بأن ينير طريق العمل أمامهم ويفتح أعينهم على الحقيقة الخالدة ، وهي أن حاضر العرب قمين بأن يضحو مرآة صافية تنعكس فيها صورة الماضي المجيد ، وحدة وقوة ومنعة ، وامتداداً رائعاً نحو مستقبل لا مجال إلى الشك فيه .

« Σ »

**المغرب العربى : صلاته بالمشرق العربى
القديم والحديث**

المغرب العربى : صلاته بالشرق العربى القديم والحديث

مشرق العروبة ومغربها :

ينقسم العالم العربى الممتد من هضاب إيران إلى شواطئ المحيط الأطلنطى قسمين كبيرين هما المشرق العربى والمغرب العربى ، وتقوم أرض مصر رباطاً بينهما فى التراب من جهة ، وفى الحضارة من جهة أخرى ، وإن كانت أكثر اتصالاً بالمشرق منها بالمغرب ، لأن أرض سيناء كانت لصيقة بالجزيرة العربية ، ولأن مياه البحرين المتوسط والأحمر وجهت اتصال مصر نحو المشرق العربى بصفة خاصة . وفوق ذلك فإننا نلاحظ أن العروبة حين انطلقت من جزيرة العرب إلى الساحل الجنوبى للبحر المتوسط ، تابعت سيرها عبر مصر إلى المغرب العربى فى ليبيا وصحراء مصر الغربية ، إلى تونس ثم إلى الجزائر وبلاد المغرب ، واستمرت فى سيرها الغربى هذا عدة قرون حتى بلغت الأندلس وأرض أيبريا . ولكن جانباً كبيراً من أولئك العرب النازحين بقوا فى أرض مصر الطيبة ، ولم يحاولوا الانتقال جنوباً مع نهر النيل ، إلا بعد عدة قرون من دخولهم مصر (عام ٦٤٠ م وما بعده) ، حتى بدأت بعض القبائل العربية تنتشر جنوباً على حافة الوادى ، لاسيما ابتداء من القرن الثانى عشر ، حين انطلقوا نحو السودان الشمالى وأرض النوبة وأطراف ايرترية القديمة ، وانتشر الإسلام فى ربوع السودان الشمالى والأوسط انتشاراً جاء مستقلاً ومختلفاً فى طبيعته عن انتشار الإسلام نحو ليبيا وتونس والجزائر وما وراءها إلى أرض الأندلس . كذلك فإن العرب المسلمين

لم ينشئوا في السودان غير مجتمعات رعوية ، لم تكون دولاً كتلك التى أنشأها العرب في شمال إفريقيا وفي الأندلس ، وإنما قامت في السودان دويلات صغيرة وغير متماسكة . ولم يعرف السودان العربى حكومة موحدة كالتى عرفناها في أرض شمال إفريقيا . . . وكانت تلك الدول أضعف من أن تنتقل بالاسلام إلى جنوب السودان ، إلا في حدود ضيقة . حتى إذا ما جاء « العهد التركى » وظهر الأتراك العثمانيون في شمال الجزيرة العربية وفي مصر أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، فإن تيار الهجرة العربية عن مصر ووادى النيل والصعيد لم يلبث ان ضعف وانكسرت شوكته فتوقف على أبواب السودان الجنوبي ، الذى لم يلبث أن دخل إليه الاستعمار الأوروبى الحديث في القرن التاسع عشر (أو قبل ذلك في بعض السواحل الإفريقية الغربية أو الشرقية) وبدأت المسيحية القادمة مع الكنائس وفي كنف قوى الاستعمار التجارى والعسكرى ، فاستطاعت أن توقف توغل الإسلام إلى الجنوب .

الجهة الليبية :

أما الجهة الليبية فقد كان توجيهها الجغرافى في العصور القديمة (قبل العرب) نحو مصر ، ثم نحو شاطئ البحر المتوسط وما وراءه ، في حين أن اتجاهها نحو الغرب كان محدوداً . والواقع أن ليبيا في العهد القديم كان يطلق عليها تسمية « إفريقيا » وهى التسمية التى عرفها بها اليونان والرومان ، والتى أطلقت فيما بعد على القارة الإفريقية كلها . وكانت القبائل الليبية قبل ذلك تتصل اتصالاً وثيقاً بمصر ، لاسيما في عهد الدولة الفرعونية الحديثة ثم العهد الفرعونى المتأخر ، عندما اشتد اتصال القبائل الليبية المحاربة بأرض مصر في الدلتا الغربية والوسطى ، ثم الدلتا الشرقية . وتزايد نفوذ القبائل المحاربة والمرزقة من ليبيا حتى شاركوا في إقامة حكم الأسرة الثانية والعشرين الليبية (على أيام الملك « شاشانق ») ، وامتد بعض نفوذ المحاربين الغربيين في جانب من الأسرة الثالثة والعشرين ، ولكنه كان نفوذاً مضطرباً ، حتى تقلص النفوذ الليبى ثم توقف أو اقتصر على أطراف أرض البحيرة في غرب الدلتا . وفي مرحلة لاحقة لم يلبث النفوذ « التركى » ذاته ان تقدم من مصر على ساحل البحر المتوسط إلى أرض ليبيا ، حيث استقر فيها استقراراً سطحياً ، زاد

من سطحيته ظهور الطائفة « السنوسية » التى انتشرت زواياها فى أرض برقه وسارت مع انتشار الليبيين فى اتجاه « الفيوم » بأرض مصر ، حتى اشتبكت مع الاستعمار الحديث الآتى من ناحية إيطاليا والذى استمر حتى الحرب العالمية الثانية وخروج إيطاليا من أرض ليبيا المستقلة .

وهكذا كانت ولاية « برقة » هى نقطة الارتكاز بالنسبة للنشاط الليبى الحديث ، وهى فى حقيقة الأمر إنما ورثت نشاطاً سابقاً قديماً فى برقة ، ويرجع فى أصوله إلى عهد الاستعمار اليونانى الرومانى فى منطقة « الشحات » (« سيرنايكة ») التى كانت مستعمرة إفريقية جاءت بالبحر ، وأحييت منطقة الجبل الأخضر ، واستمرت فى برقة كلها خصوصاً جانبها الغربى الذى يتلقى أمطار الرياح الغربية . ولا تزال إلى الآن مستقرة للحياة فى تلك المنطقة من الجبل الأخضر .

أما إلى الغرب من برقة فهناك منطقتان أخريان تمثلان بقية أرض ليبيا وهى المنطقة الجنوبية فى « سبها » والجبال الجنوبية الغربية ، وتقطنها قبائل قديمة ، ربما كانت غير عربية الأصل ، وربما كانت أصولها متصلة بالعناصر الحامية التى جاءت إلى منطقة أوزو وأطراف هضبة تيبستى الداخلية ، والمتجه إلى جنوب تونس وأطراف جبال الأطلس ، وأما المنطقة الأخرى (الثالثة) من ليبيا فهى منطقة شاطئ البحر المتوسط عند طرابلس وما جاورها من شواطئ تمتد إلى حدود تونس وهى منطقة سبق إليها الاستعمار اليونانى القديم قبل أن تمر بها العناصر العربية التى جاءت عن طريق مصر واستمرت حتى استقرت فى شمال تونس ونشرت فيه الثقافة العربية الإسلامية . ولم تزال منطقة طرابلس على حالها حتى جاء الأتراك واحتلوها احتلالاً سطحياً ثم تركوها لإيطاليا واستعمارها الحديث ، الذى استمر حتى عادت ليبيا الموحدة إلى الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية .

تونس وقرطابة القديمة :

ثم نأتى تونس بعد ليبيا . وعندها يبدأ « المغرب العربى » بمعناه التاريخى الخالص . وتختلف تونس الشمالية عن تونس الجنوبية ، حيث كانت الأمطار فى الشمال أغزر والنباتات أغنى وأكثر إدراراً للخير من تونس الجنوبية الجافة نسبياً . وقد

كانت تونس الشمالية منطقة مستقرة وذات شخصية حضارية أوضح كثيراً من غيرها من مناطق الساحل الشمالى لإفريقية . بل إن بعض مظاهر الاستقرار فيها ترجع إلى العصر الحجري القديم الأعلى وبدايات العصر الحجري الحديث . وهى مقر الحضارة التى عرفت باسم الحضارة « القفصية » (نسبة إلى قرية قفصة) التى وجدت بها آثار العصر الحجري القديم الأعلى التى ترجع إلى عشرة آلاف سنة أو أكثر
والتي يبدو أنها استمرت حتى ظهر العصر الحجري الحديث في هذه المنطقة . . . ثم استمرت هذه المنطقة أرض خير واستقرار في العصور التاريخية القديمة ، عندما بدأت الاتصالات الحضارية مع النشاط التجارى البحرى في البحر المتوسط ، وهى اتصالات تهم المشتغلين بدراسة الانتشار الحضارى القديم . بل هى التى أدت إلى ظهور قرطاجة قرب موقع تونس العاصمة الحالية . والمهم في تلك الاتصالات القديمة إنها تمثل المرحلة الأولى التى اتصلت فيها مصر بتونس ولو بطريق غير مباشر .
إذ أن بعض معالم الحضارة المصرية القديمة ، لاسيما الكتابة القديمة الأولى والمنحدرة من الهيروغليفية المتأخرة ، كانت قد انتقلت إلى شواطئ فينيقية القديمة في لينطة (بشاطئ فلسطين الشمالى وشاطئ لبنان الجنوبى) . ومن هناك نقل الفينيقيون القدماء تجارتهم وحضارتهم وكتابتهم إلى قرطاجة القديمة . . . تلك التى أفادت من هذا الانتشار الحضارى ، وتبنت قواعده في شاطئ تونس ، ثم ثويت وازداد نشاطها حتى خرج إلى أرض إيطاليا الرومانية القديمة . وخرج هاينبال إلى شاطئ إيطاليا الشمالى الغربى ، وحاول غزو الإمبراطورية الرومانية الأولى . . . لولا أن روما كانت هى الأقوى ، فردت الغزو إلى قرطاجة في معركة شارك فيها نساء المدينة كما روى التاريخ القديم . فأنكمشت قرطاجة ولكن جذوة الحضارة بقيت كامنة تحت رمادها ، حتى جاء العرب في غزوتهم الكبرى واستقروا في أرض قرطاجة ذات الحضارة والتراث الحضارى القديم . وفي تونس استقر العرب واثين لتراث حضارى قديم ، وظهرت دولة الفاطميين الأولى والتي ما لبثت أن ارتدت بحركة آلية جاءت وكأنها رد فعل متأخر لحركة الانتقال الحضارى من مصر وفينيقية القديمة إلى تونس . . . ثم ارتد الفاطميون إلى مصر على طول الشاطئ والبر الليبي . . . حتى استقر الأمر للفاطميين في مصر ، وأقاموا القاهرة المعز لدين الله ، ثم أقاموا الأزهر الشريف كمسجد قصدا

به في أول الأمر خدمة المذهب الفاطمي الشيعي . ولكن روح مصر الرحبة أبت في آخر الأمر إلا أن تجعله مسجداً للمذاهب الإسلامية الأربعة ، وفرضت مصر على الروح الفاطمي أن يقتصر أمره على المؤثرات الاجتماعية والثقافية العامة في مصر . . . أما الناحية الدينية (والعلمية) فقد انعكست عليها روح مصر الرحبة ذات الأفق المتسع ، وصار الأزهر إسلامياً لكل المذاهب وكل العالم الإسلامي .

تلك قصة دور تونس قبل الإسلام وبعده . وهى قصة تفرد لتونس دوراً خاصاً في التاريخ الحضارى والجغرافيا الحضارية لمغرب العالم العربى بل إنها قصة تعكس الاتصال الحضارى والفكرى بل والثقافى بين كل من مغرب البلاد العربية ومشرقها القديم ، وهو جانب طريف من التاريخ القديم للوحدة العتيدة بين شقى العالم العربى .

الجزائر والمغرب وما وراءهما :

وللجزائر والمغرب موقع خاص في المغرب الأقصى ، وهما في الحقيقة قلب ذلك العالم . ولهما ثلاثة أقسام (أو أشرطة) متوازية من الشرق إلى الغرب . والقسم الأول والأقدم في الاستقرار هو الشريط الداخلى المجاور للصحراء . وعلينا أن نذكر أن داخلية الصحراء الكبرى في العصور الحجرية وما نسميه « العصر المطير » الموازى في أغلبه « للعصر الجليدى » في أوروبا كانت الصحراء الكبرى هى موضع استقرار إنسان العصر الحجري القديم في ذلك العهد أكثر من شواطئ البحر المتوسط الواقعة إلى الشمال . وقد استمرت الحضارات الحجرية في القسم الداخلى من الجزائر والمغرب ، وتطورت من صناعة الآلات الحجرية من قطع الصخر (أو«النواة») إلى « شظايا » الصخر الصوان الرقيقة والتي تكون مثلثة في الشكل أو مستطيلة كالنصال ، وقد استمرت هذه الأخيرة (النصال) خلال مانسميه بالعصر الحجري القديم الأعلى . . . بل وإلى بدايات العصر الحجري الحديث (الذى عرف « الرعى » والزراعة » في بعض الأماكن) .

أما القسم الثانى فهو خط يسير مع هضبة تيبستى إلى جبال أطلس في كل من الجزائر والمغرب ، وهذا الخط شهد توسعاً أحدث وربما امتد خلال العصر الحجري

الحديث (الألف السادسة ثم الخامسة قبل الميلاد) . وهذا الشريط الأوسط من صحارى المغرب وهضابه وجباله هو الذى شهد انتشار « الحاميين » والذين جاءوا بلغتهم ونظامهم الاجتماعى من مكان يرجح كثيرا أن يكون جنوب الجزيرة العربية . ومن هناك إلى القرن الأفريقى حيث انتشر الحاميون فى شعب ثلاث هى : الشعبة الأولى التى سارت نحو هضبة شرق إفريقية والشعبة الثانية التى اتجهت نحو صحراء البحر الأحمر وسلاسل جباله إلى أرض مصر ، حيث كانت بدايات الحضارة المصرية قبل أن يقيم الفراعنة حضارتهم . وأما الشعبة الثالثة من أولئك الحاميين القدماء فقد انتشرت إلى قلب الصحراء الكبرى حيث صارت مع الهضاب والجبال إلى أطلس الجزائر والمغرب ، وكانت أساس تكوين القبائل التى عرفت الآن « بالبربر » وهم حاميون لهم ثقافتهم المميزة ، وقد سبقوا وصول العرب الساميين إلى تونس والجزائر والمغرب بعد ذلك بقرون عديدة . والواقع أن البربر يمثلون الاتصال الأقدم بكل من شرق إفريقية ومصر القديمة وجنوب الجزيرة العربية ، وهو اتصال بشرى وحضارى يرد الصلة بين المغرب الإفريقى والمشرق الأدنى (موطن الحاميين والساميين) فى الجزيرة العربية إلى أقدم كثيرا من العهد العربى . بل وهو اتصال يحدد مكانه البربر من تاريخ العلاقات الحضارية بين مشرق العالم العربى ومغربه .

أما نطاق شواطئ البحر المتوسط فى تونس ثم الجزائر ثم المغرب فإنه يمثل الشريط الثالث لمزور القبائل وانتشارهم من المشرق إلى المغرب . وله جانب آخر من الحركة قديم هو انتشار العناصر البحرية ، وهذه حركة قديمة ترجع على الأقل إلى عصر حضارة النحاس والبرونز . وكان السكان البحريون خلالها يدورون مع الشواطئ فى اتجاه المحيط الأطلنطى . بل إن بعضهم وصل فى دورانه وانتقاله البحرى حتى بلغ الجزر البريطانية ، وكان بعضهم يعرفون « بالباحثين عن المعادن » ، وبعد هذه الدورة وخلال التاريخ القديم والوسيط جاءت حركات الساميين بالبر من الشرق إلى المغرب على طول الشاطئ الإفريقى الشمالى . وكانت الموجة العربية آخر تلك الهجرات ، وهى التى استقر بها الإسلام فى تونس ثم فى الجزائر والمغرب ، وامتدت حركتها حتى بلغت أرض الأندلس عبر مضيق جبل طارق على أيام طارق بن زياد ، وهو أحد أبناء البربر الذين اختلطوا بالعرب ، وتلك الحركة العربية هى التى انطلقت منها حركة

بعض أهل الثقافة العربية والعلم ، واستقروا في أرض صقلية ونحوها ببعض ملوكها في اتجاه الفكر العربى والانتقال به إلى أرض ايطاليا وما وراءها ، وإن كانت هذه الحركة أضعف من حركة الانتشار العربى والإسلامى إلى أرض الأندلس ، حيث عاش النفوذ العربى الثقافى والإسلامى نحو ثمانية قرون حتى استطاعت الحضارة المسيحية الكاثوليكية أن ترد موجة الإسلام عن أيبريا إلى المغرب ، وأن تغير اتجاه التوسع الحضارى ، فانهسرت إفريقية وتقدمت أيبريا (أسبانيا والبرتغال) بعيداً فيما وراء البحار والمحيطات إلى العالم الجديد فى الأمريكتين وعلى شواطئ إفريقية العربية ثم إلى إفريقية الشرقية ومشارف بحار الهند ثم الهند الصينية . . . وتلك قصة أخرى التقى فيها المد العربى مع المد الأوروبى فى الشرق الأقصى والفلبين .

ولنعد إلى منطقة المغرب الأقصى فى إفريقية ، فنجد أن الانتشار السامى والإسلامى جاء كذلك من الشرق ، واستطاعت بعض القبائل العربية القادمة أصلاً من جزيرة العرب أن تتجه جنوباً وتبلغ أرض موريتانيا وتستقر فيها قبائل شنقيطية وتجلب معها لغة عربية امتازت بنقائنها واستمساكها حتى اليوم بلهجتها العربية الفصيحة . كذلك فإن المد العربى استمر من هناك متوغلاً مع شاطئ غرب إفريقية إلى السنغال . وهناك احتكت القبائل العربية والسامية الأصل بالعناصر الزنجية ، وحدث الاختلاط فى وادى نهر السنغال الممتد من الداخل إلى المحيط . وعلى الرغم من أن الاختلاط السلالى كان محدوداً ، فإن اختلاط النظم الرعوية بالنظم الزراعية المستقرة كان أوضح ، وامتدت آثاره إلى ظهور عناصر من القائمين بالتبادل التجارى الذى تركز فى مراكز مثل دكا وماجاورها . ثم امتد التوسع من الساحل إلى الشرق على طول الحزام السودانى الغربى . . . ودخل الإسلام عن هذا الطريق إلى قلب النطاق السودانى وإلى حدود تشاد الشالية والوسطى ، حيث بدأت القبائل المختلطة تنتشر ، وتعمر هذه المنطقة مع مجالات جانبية للتوسع نحو المناطق الأغنى بأطوارها ونباتاتها فى النيجر ونيجريا الوسطى وغانا بل وبعض المناطق الجنوبية والمطلة على المحيط فى توجو وغيرها . وجاء هذا التوسع العربى الأصل على دفعات من الهجرة . فضلاً عن أن بعض تلك الهجرات فى بلاد وادى وغيرها بلغت حدود السودان الشرقى . وهناك التقى التيار العربى الذى بدأ فى المغرب الأقصى وأطراف الجزائر

وامتد في حركة دوران مع سهول السودان الغربى حتى التقى في السودان الشرقى بتيار الهجرة العربية الذى أتى عن طريق مصر وسودان نهر النيل .

ذلك طرف من قصة انتشار العرب والإسلام إلى شمال إفريقيا وغربها وعلاقاتهم الأولى بالشرق العربى وأرض مصر ، ثم امتدادات ذلك عن طريق الجزائر والمغرب إلى الأندلس من جهة ، وإلى غرب إفريقيا والسودان الغربى والأوسط من جهة أخرى ، وهى قصة صورناها في موضع آخر من هذا الكتاب ولكنها لا تمثل نهاية العلاقات الحضارية التى شملت شواطئ إفريقيا الشمالية ، إذ أنها في حقيقة الأمر استمرت في صور أكثر اختلاطاً وتعقيداً عندما جاء العصر الحديث ، وانتشر الأتراك أولاً ثم تداخلت العناصر الأوربية في الواجهة الشمالية للبحر المتوسط . وفي أعقاب الأتراك ، جاءت أربع عناصر من الأوربيين هم الإنجليز والفرنسيون والأسبان والايطاليون . أما الإنجليز فقد كانت مصر محط أنظارهم ، ومكنوا لأنفسهم في ثلاث نقاط أو أربع على الطريق إليها ، وهى جبل طارق عند مدخل البحر المتوسط ومالطة في وسطه وقبرص عند طرفه الشرقى . وقد أدرك الإنجليز قيمة موقع مصر الجغرافى على طريق الهند ، وذلك منذ أن جاء بونابرت وحاول قطع تلك الطريق عليهم في أواخر القرن الثامن عشر . وبعد أن رحلت الحملة الفرنسية عن مصر بقيت أعين بريطانيا على مصر وموقعها الفريد حتى احتلوها عام ١٨٨٢ ثم قامت المنافسات بينهم وبين فرنسا ، حتى عقدت بين الدولتين معاهدة الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ ، وانفردت بريطانيا بمصر بعد أن كانت قد وضعت يدها على قناة السويس . أما فرنسا فقد انفردت من جهتها بكل من تونس ثم الجزائر ثم المغرب وكان تدخلها ذا صفة حربية وسياسية وثقافية جميعاً ، فحاولت أن تفرض لغتها على كل تلك الأقطار . بل إنها بدأت تحارب اللغة العربية هناك لولا أن تونس والمغرب كانتا مقرّاً قديماً لتلك اللغة ، كما إنها نفذت عن طريق منافسة إيطاليا لفرنسا في المجال التونسى الذى كان قد عرف طريقه في الاتصال الثقافى ببا يقع إلى شياها في صقلية ، التى هى امتداد لايطاليا ، كما أن تونس كانت قد تبنت الإسلام والثقافة العربية في مسجد الزيتونة واتصالاته التقليدية مع مصر وجامعها الأزهر . أما في الجزائر فقد كانت فرنسا صاحبة السلطان الثقافى والعسكرى والسياسى جميعاً ، ولولا

أن الإسلام وجد في الجماعات الإسلامية مثل جمعية « العلماء » الذين حافظوا على الفكر واللغة العربية في مساجدهم وزواياهم ومدارسهم ، ثم بعض معاهدهم وعلى رأسها معهد عبد الحميد بن باديس في قسنطينة . والحق أن جمعية العلماء هي التي مكنت للفكر والثقافة العربية والإسلامية من أن تصمد في مواجهة الفكر والثقافة الفرنسية وغير الإسلامية حتى حررت الجزائر واستطاعت بشورتها أن تنتزع الاستقلال في عام ١٩٦٢ . وكان أبناء الجزائر قبل ذلك قد انتشروا إلى أرض فرنسا ذاتها في هيئة هجرات من العمال وأهل الحرف الصغيرة ، وانقلب الغزو الفرنسي إلى غزو مضاد إلى فرنسا حيث استطاع الملايين من سلالة الجزائريين أن يثبتوا أقدامهم فوق التراب الفرنسي بما لا يسهل زعزحته أو رد مكدّه إلى الجزائر ، حتى اضطرت فرنسا إلى التسليم باستقلال الجزائر والاكتفاء من غزوها السابق بالخروج من أراضي المستعمرات الفرنسية في منطقة الهضاب الوسطى من الجزائر ، حيث حل محلهم المزارعون الجزائريون في هذا النطاق الهام من أرض الجزائر .

كذلك فإن فرنسا كانت قد مدت ظلها إلى بلاد المغرب الأقصى منذ أوائل القرن العشرين وأقامت صلات اقتصادية وطيدة مع المغرب حتى دب الخلاف من جديد واستطاع المغرب مع ملكية محمد الخامس أن يرد هذا العدوان الأوربي وأن يقيم دولة المغرب الحديثة . . . ولم يلبث السلطان الفرنسي الذي امتد من المغرب جنوباً مع الاتجاه العربي القديم حتى سيطرت فرنسا على السنغال وغينيا وغيرها من مواقع غرب إفريقيا . . . هذا المد الفرنسي الذي سار في أعقاب المد العربي الإسلامي . . . لم يلبث أن ارتد وأن خرج من مواقع كثيرة في غرب إفريقيا ومنها موريتانيا ومالي والسنغال وغيرها . وهذه قصة تعكس كلها تناوب « المد » بين العروبة والإسلام من جهة وبين الاستعمار الفرنسي في أقصى الغرب من جهة أخرى .

أما عن إيطاليا وامتدادها إلى شمال إفريقيا ، فإن التوسع الإيطالي جاء متأخراً عن كل من التوسع الإنجليزي والفرنسي ، ولم يبق أمام إيطاليا إلا أن تحاول أن تقفز على ما تبقى من الفريسة في الساحل الشمالي من إفريقيا . وكان ذلك الجزء المتبقى هو أرض ليبيا . وقام النزاع بين إيطاليا وتركيا العثمانية وغزت إيطاليا أرض ليبيا في عام ١٩١١ ، حيث استقرت هناك بضعة عقود حتى خرجت وعادت من حيث أتت ، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، وإن كان بعض امتدادها الثقافي قد بقى في تونس

المجاورة إلى الغرب بفضل هجرات كانت قد جاءت من إيطاليا إلى ذلك الركن المواجه لها في شمال إفريقيا .

وأما العنصر الأوربي الرابع الذى حاول التوسع إلى شمال غرب إفريقيا فهو العنصر الأسباني . وكانت أسبانيا بعد أن دفعت بالعرب الأندلسيين إلى خارج بلادها قد اندفعت واحتلت بعض شواطئ « الريف » المغربي ومرافئه في مواجهة جبل طارق ، كما أنها امتدت إلى ما أصبح يسمى « بالصحراء الأسبانية » بين المغرب وموريتانيا والجزائر وبدأت استغلال بعض الموارد هناك . وقد قامت المنازعات بين أسبانيا والمغاربة في أرض « الريف » أول الأمر ثم انتشرت المنازعات إلى بقية المغرب الأقصى ، وانتهى الأمر بانسحاب أسبانيا من كل ما احتلته ماعدا ثغرين صغيرين على مضيق جبل طارق ، وأغلب الظن أن النفوذ الأسباني في المنطقة كلها هو إلى زوال .



هذه صورة عامة للعلاقات التاريخية بين المغرب العربي في شمال إفريقيا والمشرق العربي في مصر والجزيرة العربية وهي صورة أبرزت عدة نقاط هامة منها :
أولاً : إن المشرق العربي والمغرب العربي لم يكونا أبداً منطقتين منفصلتين الواحدة عن الأخرى ، وإنما كانتا من الناحية الطبيعية والناحية الحضارية منطقة واحدة ، هي التي ورثها العرب في قلب العالم القديم ، وأقاموا عليها جانباً من « أرض العروبة » التي نفرد لها هذا الكتاب .

ثانياً : إن الاتصال بين المشرق العربي والمغرب العربي ليس اتصالاً طارئاً ولا منقطعاً ، وإنما هو اتصال قديم ومستمر متجدد ، وترجع أصوله الأولى إلى العصور الحجرية قبل التاريخ ، ولم يكن الدور « العربي » إلا تسويجاً لصلات أصلية وعريقة . . . وقد تزامن هذا الدور مع العهد الإسلامي والحضارة الإسلامية التي أعطته الطابع التاريخ الذي بقى على الزمن ، والذي قام كله على ثقافة متكاملة ومتماسكة بين أقطار المشرق وأقطار المغرب ، بل هي التي فرضت نفسها في التاريخ أيام قيام الأزهر الشريف على أيدي الفاطميين وأيام رجال أمثال عبد الرحمن ابن خلدون عرفوا شمال إفريقيا وعرفوا « الفيوم » وأرض

مصر . . . ثم خلدتهم التاريخ الفكرى حتى أيامنا المعاصرة . بل إنها ثقافة عربية عرفت العمل القومى والسياسى حين جاء عهد الاستعمار فربط من جديد بين مصر ومشرقها العربى وبين جميع أقطار العروبة فى شمال إفريقيا . . . ومن هنا كان تكامل « العروبة » الذى نفرد له أيضاً هذا الكتاب .

ثالثاً : إن التاريخ كان دائماً يعيد نفسه فى الصلات بين المشرق والمغرب ، وهو فى كل مرة يعيد فيها نفسه كان يجلى روح العروبة وتكامل العروبة بل ودورها الإنسانى الفريد فى الربط بالإسلام بين شعوب البشر وألوان الحضارات بل وحتى المذاهب السياسية التى جارت بها رياح التغيير الفكرى والإنسانى المعاصر . ولعل موقعها الجغرافى الفريد أن يجعلها سبيلاً للربط بين أقطار الأرض وحضاراتها ومذاهبها الفكرية على نحو قد يكون سبيلاً حقاً إلى اشاعة أسباب السلام بين شعوب الشرق والغرب والشمال والجنوب فى عالمنا المعاصر .

« ٥ »

**العرب وانتشار الإسلام
(أثر العوامل الطبيعية والبشرية في
حركة الانتشار)**

العرب وانتشار الإسلام (أثر العوامل الطبيعية والبشرية في حركة الانتشار)

تقديم : عن أصول انتشار الرعاة الأقدمين :

تعتبر حركة انتشار العرب والإسلام مع مطلع العهد الإسلامي من أبرز حركات الانتشار في التاريخ البشري ، وأبعدها أثرا وبقاها في التاريخ الحضاري . ولا يمكن أن يتأتى مثل ذلك نتيجة للمصادفة ، ولا أن يكون ظاهرة من الظواهر العادية في التاريخ الحضاري الذي اعتدنا أن تحكمه عوامل فعالة توجه التاريخ وتكيف الأحداث ، خصوصا إذا بقيت مؤثرات الأحداث أجيالا متعاقبة ومتصلة كما حدث في حالة الإسلام الذي جاء وانتشر كرسالة لها أبعادها المتعمقة في ضمير الإنسان وأفعاله وتصرفاته بصرف النظر (صرفا يكاد يكون كاملا) عن أصله أو جنسه أو سلالته .

وظاهرة انتشار الرعاة من بيئة شبه صحراوية أو بيئة رعوية ، هي ظاهرة بالغة القدم . وترجع في أصولها إلى المراحل الأولى من عصور ما قبل التاريخ ، بل ترجع في بلاد العرب وما حوّلها من الصحاري وأشباهها في آسيا وإفريقية إلى العصر الذي نسميه بالعصر المطير الذي يشمل العصور الحجرية الأولى (القديمة) والوسطى والعليا (وهي الأحداث) . ولقد جاء العصر المطير في أكثر من دور واحد ، إذ تخللته فترة واحدة على الأقل من الجفاف الكامل ، وفترة أو فترتان من الجفاف النسبي ، وفي ذلك العصر كانت الأمطار والزوابع المطيرة تتخلل النظام الصحراوي ، فتتوغل أعاصير البحر المتوسط من الشمال إلى جوف المناطق

الصحراوية من أطرافها الشمالية ، وعلى هيئة أمطار معظمها شتوى ، كما كانت الزوايا المدارية وشبه الموسمية تتوغل في ذلك النطاق الصحراوي من أطرافه الجنوبية على هيئة أمطار أغلبها صيفي . وعلى ذلك فقد كان النطاق الصحراوي دائم المطر على قمتين أحدهما شتوية في الشمال والأخرى صيفية في الجنوب . وقد نها الغطاء النباتي وتكاثف في ذلك النطاق الصحراوي وشبه الصحراوي ، حتى غطت الأدغال قيعان الأودية ورءوس الجبال والتلال العالية في ذلك النطاق ، وبالتالي فقد تكاثرت الحيوانات مما أتاح لإنسان العصر الحجري الاقدم والأوسط والأعلى أن يعيش على التقاط النباتات والحبوب والثمار واقتناص الحيوان ، وأن ينشئ حضارات تقوم على صناعة الآلات الحجرية والتركز في مناطق تكثر بها الموارد المائية والنباتية والحيوانية ، حتى إن العصر الحجري الاقدم والأوسط والأعلى كان عصر ازدهار نسبي في الحياة البشرية ، وإن اعترته فترات من الجفاف النسبي ، كان الإنسان يضطر فيها إلى الهجرة إلى خارج المنطقة الداخلية من النطاق الصحراوي ، خصوصا في فترات الجفاف . وبعبارة أخرى فإن النطاق الصحراوي في آسيا وإفريقية كان يمكن تشبيهه بقطعة « الأسفنج » تمتص مياه الأمطار وتزدهر بالحياة والحركة الداخلية خلال الأدوار المطيرة ، حتى إذا ما جاءت فترة جافة انعصرت المياه من الأسفنجة وخرجت جموع السكان في هيئة هجرات كبيرة إلى مختلف الاتجاهات ، وتستمر حالة القحط والهجرة والفرار من الصحراء حتى تعود الأحوال المناخية إلى التحسن من جديد ، فتتقضى الحاجة إلى الهجرة وإلى ترك أودية الصحراء وقممها العالية .

العصر الحجري الحديث :

ولقد أنهى العصر الحجري القديم بحلول الجفاف النهائي بعد أنقطاع العصر المطير . ويقال إن ذلك حدث حوالي الألف التاسعة أو الثامنة قبل الميلاد حيث دخلت المنطقة كلها في فترة جفاف طويل وتدرجي حتى عادت الأحوال المناخية فتجددت في دور نسميه « بالدور الممطر » أى أن الأمطار تجددت ، ولكن إلى درجة محدودة ، فلم تكن « مطيرة » بالمعنى القديم ، وإنما كانت تمثل حالة « ممطرة » زاد

فيها المطر بنسبة محدودة إلى أكثر مما يصيب الجزيرة العربية من المطر في الوقت الحاضر . وقد أدى ذلك إلى ظهور الحضارة التي نسميها بحضارة العصر الحجري الحديث التي عرف الإنسان فيها الآلات الحجرية المصقولة ، بعد أن كانت صناعاته الحجرية في العصر القديم مقصورة على الآلات « المشطاة والمشطوفة » دون صقل ظاهري . كما أن الإنسان في العصر الحجري الحديث عرف صناعة الفخار والآنية التي يحفظ فيها المواد الجامدة كالحبوب والسائلة كالماء والزيت .

وعرف اختزان المواد ، وأصبح يعيش على تربية الحيوان واستدراخه بدلا من مجرد اقتناصه والقضاء عليه . بل إنه عرف كذلك كيف يستنبت النبات ، بعد أن كان يكتفى بالتقاط حبوبه وجنى ثماره البرية . ومن هنا فقد تغير شكل حياة العربان في الصحارى وأصبح الراعى يهدف إلى تنمية الحياة واستدراخ خيرها بدلا من العيش عالة عليها أو مخربا لها بالصيد والقنص ، أو التقاط الحبوب وجمع الثمار . بل إن حياة الأعرابي أصبحت حياة « منتجة » تقوم على استثمار مصادر الطبيعة والأخذ بأسباب الاختزان من موسم لآخر . ففي أحد المواسم مثلاً ينتج الناس أكثر مما يستطيعون استهلاكه مباشرة من الشعير أو القمح أو تمر النخيل أو زيت الزيتون أو الثمار المجففة أو غير ذلك ، أو حتى من منتجات الألبان كالسمن والجبن ونحوها أو حتى من قديد اللحوم المجففة ، فيخزنون كل ما يمكن اختزانه من تلك المنتجات النباتية أو الحيوانية . وهذا يجعل لديهم فائضاً يمكن أن يتبادلوه مع غيرهم ، مما أنشأ التجارة والتبادل وهي حرف جديدة أضيفت إلى حرفة الزراعة وحرفة الرعى ، مما أوجد لونا جديداً من ألوان تبادل السلع ، وما يتبع ذلك من احتكاك الأفكار والمعاملات ، وأصبحت للأعراب « أسواق » يلتقى فيها الناس ويتبادلون السلع والأفكار والآراء والتجارب ، مما كان بداية الحضارة هي التي عرفناها بحضارة العصر الحجري الحديث وما جاء في أعقابه . ولقد أصبحت الهجرة في هذا العصر هجرة للتجارة والتبادل هي التي تطورت فيما بعد وفي عصر ما قبل الإسلام في الجزيرة العربية ، من رحلة الشتاء والصيف ثم من لقاءات سوق عكاظ وغيرها من أسواق الجزيرة العربية التي وصلنا خبرها ، أو مما أهمله الزمان وعفى عليه التاريخ .

العصر التاريخي القديم :

وفي العصور التاريخية القديمة التي تلت العصر الحجري الحديث اتسع نطاق الاتصال بعد أن نشأت حضارات مستقرة في بعض البلاد المجاورة للصحارى والتي تتخللها ، مثل مصر وأرض سورية وأرض السواد في العراق وما وراءها من جهة ، ومنها بعض جهات إفريقية الشمالية والشرقية من جهة أخرى .

وفيما بين تلك البلدان ومواطن الحضارة المستقرة أو شبه المستقرة قام نشاط التبادل والتجارة في ظروف من السلم أحيانا وظروف من الحرب والتشاجر أحيانا أخرى ، وكانت تلك الحركات والرحلات بين أرض الرعاة والرحل وبين أرض الاستقرار والحضارة الزراعية المستقرة . وهى تلك الحركات التي كان يحكمها عاملان أساسيان ، هما تغير الأحوال المناخية وميلها إلى الجفاف في بعض الأحيان (مما كان يسميه بعض الباحثين « بنبض الصحراء ») ثم عامل استقرار الحضارة وقوتها على ردع الرعاة وغزواتهم في بعض الأحيان الأخرى . وفي الحالات الأولى كانت قوة الغزو تطفئ على الأرض المزروعة وتخرب حضارتها ، بخلاف حالات قوة الحضارات الزراعية ، حيث كان الاستقرار يجمع من القوة ما يردع به موجة الغزوات التي تنكسر على حدوده . ولكننا نلاحظ في حالة الغزوات التي كانت تخرج من صحارى شمال بلاد العرب ووسطها أنها كانت في بعض الأحيان تتلقى موجات إضافية تأتي من ناحية آسيا ، فيجمع الرعاة قوة مضافة إلى قوتهم ويحتاجون أرض الاستقرار في يسر يغير وجه الحضارة في أقاليم الاستقرار . وقد رأينا في العصر القديم كيف أن الهكسوس مثلاً ومن خالطهم من الحيثيين وسكان الهضاب الواقعة إلى شمال الجزيرة العربية قد تسللوا إلى أرض الاستقرار في مصر في القرون الأولى من الألف الثانية قبل الميلاد ، واستطاعوا أن يهزوا قواعد الحضارة المستقرة في مصر ، حتى استطاع أبناء الكنانة المستقرة أن يجمعوا من القوة ما يردون به جحافل الرعاة على أعقابهم وأن يتعقبوهم إلى شمال الجزيرة العربية . ويجمل بنا أن نلاحظ أن رعاة هضاب آسيا وداخلها قد جلبوا معهم حيواناتهم السريع وهو الحصان ، الذى أستاذنوه وركبوه من موطنه الأصلي في داخلية آسيا إلى غرب آسيا

ثم إلى أرض مصر . فأدخلوا به أداة جديدة من أدوات الحركة والحرب ، وقلبوا بذلك موازين هذه الحركة والحرب في إقليم من أقدم أقاليم الأستقرار ، وأستمرت الحال على ذلك حتى فطن المصريون القدماء إلى قيمة هذا العنصر الجديد الذى أدخله الهكسوس إلى بلادهم ، فصنعوا «عجلة رمسيس» وانتقلوا بها إلى شمال الجزيرة وأرض فلسطين وسورية القديمة وأعادوا إلى ميزان القوة اعتداله في هذا الإقليم القديم من أقاليم الحضارة في الشرق القريب .

ولنذكر أن دخول الحصان إلى غرب آسيا وبلاد العرب قد نوّع مصادر الثروة الحيوانية في الإقليم ، وكان لذلك أثره في الحركة وحياة الأستقرار في البلاد بما في ذلك داخلية الجزيرة العربية ذاتها . ذلك أن الحيوان الأصل في داخل الجزيرة كان هو الجمل ذا السنام الواحد ، وهو حيوان يصلح لحمل الأثقال والسعى بها بين أطراف الجزيرة ، وبين موانئها على السواحل الجنوبية والشرقية إلى أطرافها في الشمال وعلى السواحل الشمالية والغربية ولا يصلح في الحركة السريعة والحرب (إلا أنواع خاصة منه تعرف أحيانا باسم «الهجين») . فلما وصل الحصان إلى داخلية الجزيرة حوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد (على أيام الملك سليمان وجيوشه من الفرسان) بدأت تظهر فصيلة الحصان «العربي» الضامر ، وهى الفصيلة التى تطورت وضمّرت بطونها في بيئة فقيرة نسبيا وتختلف بعض الشئ عن بيئة السهول في داخلية آسيا ، حيث الحشائش أغنى منها في شمال الجزيرة العربية وداخليتها ، وحيث أنواع الحصان الأصلية لا تزال تعيش في حالة برية أو شبه برية ، أما الحصان في داخلية الجزيرة فقد عاش في بيئة صقلتها يد الإنسان والحضارة منذ قديم ، فالحصان العربي هو نتيجة «التربية» والتقويم في معيشته وحركاته ، وجرى ذلك على ناموس «الاختيار» في تناسل الصفات ، حتى ظهرت سلالاته العربية المنتقاة ، وهى السلالة التى لا يزال يجرى عليها التناسل والاختيار حتى الآن .

عصر الجاهلية وظهور الإسلام :

وظاهر أن التفاعل في العصور القديمة كان قائما بين العوامل المناخية الطبيعية التى تغير البيئة وبين العوامل البشرية التى تؤثر في انتشار القبائل الرحل أو كبح

جماح الهجرة من الفياثى إلى مناطق الاستقرار . و ظاهر أيضا أن أثر العوامل الطبيعية في العصور القديمة وقبل أن يبدأ التاريخ كان أقوى من أثر العوامل البشرية التي ازداد مفعولها كلما تقدمت الحضارة واستطاع أهل الاستقرار أن يصدوا هجمات الرعاة على أرض الاستقرار . و ظاهر أيضا أن « مقدار » التغير في المناخ وكمية الأمطار الساقطة كان أكثر وضوحا في العصر المطير (الحجري القديم) والعصر أو الدور الممطر (الحجري الحديث) ، وأن ذلك ترك من الآثار الفزيوغرافية ما يمكن ملاحظته وتسجيله في مظاهر البيئة الطبيعية التي تتخلف عن سقوط الأمطار ونحت الأودية أو أرساب الرواسب . وقد يَسّر ذلك علينا متابعة « الذبذبات » التي اعترت ظروف المناخ في العهود السابقة للتاريخ .

أما في العصر التاريخي القديم . وابتداءً من العهد الأغريقى الرومانى مثلا فإن الذبذبات أصبحت أصغر وأقل في مفعولها الطبيعي ، مما جعل من العسير متابعة أثرها على معالم الطبيعة من النحت والأرساب ونحو ذلك . كذلك فإن مفعولها أصبح مما يصعب جدا أن نلاحظه ونتابعه بالنسبة لتغيرات الحياة النباتية أو الحيوانية . والواقع أن الباحثين في شئون المناخ القديم يرون أن الدور الممطر الذى ظهر مع العصر الحجري الحديث قد تضاعف أثره شيئا فشيئا حتى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ثم تضاعف سقوط الأمطار بعد ذلك أكثر فأكثر حتى نهاية « العصر الكلاسيكى » (الأغريقى الرومانى) حين ساد جفاف يكاد يشبه حالة الجفاف التاريخية التي عرفت في أوائل العصر المسيحى . وإذا حاولنا أن نتابع أثر ذلك في الجزيرة العربية وداخليتها بالذات ، فإننا نلاحظ أن عصر الجاهلية عرف بالاضطرابات الشديدة بين القبائل وظهور ما أصبحنا نسميه « بأيام العرب » ، وهى أيام الحروب والغزو بين القبائل ، والتي لعب فيها الحصان العربى دوره الكبير في حملات الغزو، حتى أن بعض تلك الأيام والحروب ينسب إلى أسماء بعض الخيل ، ومن ذلك على سبيل المثال حرب «داحس والغبراء » . والواقع أن تلك الحروب الجاهلية قد صاحبها شيء من محاولة للمواءمة بين الموارد وعدد السكان فظهر ما يعرف باسم وأد البنات، من املاق أو خشية املاق كما أشار القرآن الكريم الذى دعا إلى مكافحة

هذه الظاهرة الاجتماعية التي كشفت فوق ذلك عن الروح الأعرابية في التمييز
الظالم بين ذرية البنين وذرية البنات .

الأدلة العلمية على تغير المناخ قبل الإسلام : الأدلة الأثرية *

تلك بعض « القرائن » على تغير الأحوال المناخية والميل إلى الجفاف التدريجي
خلال العصر الجاهلي . ولكن الدراسة العلمية تقتضينا أن نتابع بعض « الأدلة »
على مثل هذا التغير المناخى ولعل بعض أدلة الآثار القديمة التي سبقت العصر
الإسلامي أن تكون من أهم ما يثبت لنا أن الحالة المناخية في تلك الأيام كانت أكثر
رطوبة وتساقطا للأمطار مما أصبحت عليه الحال في العصر الإسلامي . ومن أهم
تلك الآثار في شمال الجزيرة العربية ، ما تركه الرومان من صهاريج كانت تجمع
المياه المنصرفة عن الأمطار الساقطة إذ ذاك ، وهي صهاريج لا تكفى الأمطار
الساقطة حاليا لمثلها بالمياه . وكذلك فوهات آبار المياه الجوفية وقد كان الرومان
يطنونها بالمباني الحجرية التي تظهر عليها آثار خط المياه الجوفية في العصر الذي
بنيت فيه . ويلاحظ أن مستوى هذه المياه في الوقت الحاضر قد هبط بمقادير تتراوح
بين مترين وأربعة أمتار . ولما كانت تلك المياه هي في الأصل مستمدة من
المياه الجوفية المتسربة في التربة من الأمطار الساقطة على السطح ، فإن هبوط
مستواها هو دليل قاطع على أن الأمطار الساقطة والمياه الجوفية المتسربة كانت في
عصر بناء فوهات تلك الآبار أغزر مما أصبحت عليه في عصور لاحقة ، وذلك
دليل الجفاف الذي حل بالمنطقة ، وهو الجفاف الذي يستدل عليه أيضا من أن
صهاريج المياه القديمة في هذه المنطقة وفي امتدادها على سواحل البحر المتوسط في

* سبق للكاتب أن درس هذه الأدلة الأثرية والتاريخية وغيرها على تغير المناخ نحو الجفاف في الفصل
الأول من كتاب أصدره عام ١٩٤٢ وأعيدت طباعته في ١٩٨٢ وهو

S . A Huzayyin " Arabia and the Far East " See also

S . A Huzayyin " Spread of the Arabs and of Islam : Its relation to climatic changes and other factors " Bulletin of the Geographical Society of Egypt, vols. LI and LII , 1978 -
79, pages 5 - 22 .

منطقة مريوط المصرية قد أصبحت تمتلئ الآن بالرمال بدلا من مياه الأمطار التي تضاءلت بالتدريج في كل هذا الإقليم .

وهناك دليل آخر يمكن اعتباره من أدلة الآثار في شمال الجزيرة العربية ، ذلك هو طرق المواصلات والتجارة القديمة التي كانت تقطع بادية الشام بين القرن العراقي من الهلال الخصيب والقرن الشامي منه (ويشمل الأردن وفلسطين ولبنان وسورية المعاصرة) . ويلاحظ أن أقدم تلك الطرق في العهد اليوناني وأوائل العهد الروماني كان يبدأ عند نهاية أرض شط العرب على قمة الخليج العربي عند ميناء قديم كان يطلق عليه « شاراكس سبازينو » ثم يتجه غربا إلى أرض النبط ومنطقة البطراء ومنها إلى رأس خليج العقبة أو شمالا إلى غزة القديمة . وقد بلغ بهذا الطريق قمة نشاطه حول بداية العهد المسيحي ، ثم بدأ النشاط التجارى يتقل نحو الشمال ، فأصبحت قمة الطريق من ناحية الشرق قرب وسط العراق . عند اقتراب نهري دجلة والفرات من بعضهما البعض ، ثم يخترق الطريق بادية الشام في وسطها وينتهى إلى بصره القديمة وغيرها من حاميات الرومان ذات المباني والآثار الضخمة في جنوب سورية ، ومنها إلى البحر المتوسط . وبعد ذلك - وأغلب الظن أن ذلك جاء نتيجة لازدياد الجفاف في بادية الشام - أنتقل الطريق آخر الأمر إلى أقصى شمال بادية الشام ، فكان يبدأ قرب الطرف الشمالى لأرض العراق . ويعبر الجزء الشمالى الضيق من بادية الشام والذي تركّز فيه سقوط الأمطار بعد أن تراجع وانحسر عن جنوب البادية على صحراء النفود ، واقتصر على الشمال القريب من أطراف هضبة الأناضول . وظهرت في هذا الدور مدينه بالميرا عاصمة الملكة الزباء ، ومنها إلى شمال سورية ثم البحر المتوسط . ولا شك أننا نستطيع أن نستنتج من تراجع خط سير القوافل التجارية من جنوب بادية الشام إلى وسط البادية ثم إلى طرفها الشمالى أنه حدث خلال القرون الأولى من العصر المسيحي أن تراجع سقوط الأمطار من الجنوب إلى الشمال ، وهذا معناه تزحزح خط سير أعاصير الشتاء الآتية من حوض البحر المتوسط والمتجهة نحو الشرق حاملة الأمطار تزحزح ذلك الخط من الجنوب نحو الشمال ، مما جاء نتيجة لتغير مناخى وقلة تدريجية للأمطار بادية الشام . ولا نزال نلاحظ حتى اليوم الآثار العمرانية التي خلفتها

حاميات الرومان في بعض تلك المناطق من مسارح وملاعب وعمائر وغيرها .

فإذا ما أنتقلنا إلى جنوب الجزيرة العربية - وجنوبها الغربي بصفة خاصة - فإننا نجد أدلة أثرية مشابهة على تغير المناخ نحو الجفاف خلال القرون القليلة التي سبقت مطلع العهد المسيحي والقرون القليلة التي لحقت به . وقد كان الركن الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية مقرا لسلسلة من العهود الحضارية التي تركت آثارها دالة على أحوال ماطرة من المناخ ولكنها كانت تتجه بالتدريج نحو الجفاف الذي أثر في مواضع تلك الحضارات ومدى ازدهارها . وتلك الحضارات هي حضارة « معين » (من القرن التاسع قبل الميلاد حتى قبيل العهد المسيحي) التي ورثتها حضارة أطلق عليها اسم حضارة « سبأ » (وارثة سبأ القديمة) التي عادت فازدهرت في أوائل العهد المسيحي . ثم أخيرا جاءت حضارة « حمير » التي تداخلت مع حضارة سبأ وورثت عنها الكثير واستمرت حتى جاء الغزو الإثيوبي حوالى القرن الخامس والسادس بعد الميلاد . ويلاحظ في هذه الحضارات المتتابعة أن حضارة «معين» كانت عاصمتها «قرنوه» وهى فى أرض «الجوف» الداخلى من هضبة اليمن ، ولا يكاد ارتفاعه أن يزيد على الف متر أو نحو ذلك فوق سطح البحر ، فضلا عن أنه يقع فى منطقة « ظل المطر » بالنسبة لهضبة اليمن التى تأتى معظم أمطارها من الجهة الجنوبية الغربية . ويبدو أن الجفاف التدريجى قد حل بمنطقة الجوف التى ازدهرت فى القرون السابقة للعهد المسيحي ، ولكنها لم تلبث أن جفت وحلت محلها منطقة «سبأ» التى تقع إلى الجنوب منها وعلى ارتفاع بضع مئات الأمتار فوق الجوف وعاصمتها مأرب ذات السد التاريخى المعروف الذى كان يجمع مياه أمطار الهضاب العالية الواقعة إلى الغرب منه . وهو السد الذى استمر حتى القرن الخامس بعد الميلاد ، وكانت الأراضى المجاورة له والمحيطه به (وارتفاعها فى المتوسط نحو ١٥٠٠ متر فوق البحر) مقرا لحضارة سبأ والحضارة الحميرية التى لحقت بها واختلطت بنشاطها وثقافتها وامتدت إلى بعض أطراف اليمن وحضر موت ، كما استمرت حتى جاء الغزو الإثيوبي .

ولكن علينا أن نلاحظ فوق ذلك أن قبائل اليمن القديمة كانت تتجه بالتدريج من مناطق الجوف الداخلية والمعرضة للجفاف إلى مناطق أعلا فى الارتفاع وأقرب

إلى مصادر مياه الأمطار في الغرب وفي قمم الهضاب والجبال ، حتى إذا ما جاء الغزو الإثيوبي في القرنين الخامس والسادس الميلاديين كانت مناطق مأرب وسدها القديم (الذى تهدم واندثرت حياته في القرن الرابع أو الخامس من الميلاد) قد جفت ودالت أيامها ليستقر السكان في المناطق العالية عند مستوى ١٨٠٠ متر وأكثر فوق البحر وفي مناطق ذات تربة أغلبها بركاني يحتفظ بالرطوبة وتوجد فيه الزراعات . وأصبحت العاصمة هي صنعاء وسهولها المجاورة على ارتفاع يزيد على ألفي متر فوق البحر ، وتصل بعض قممه إلى ما يقارب الثلاثة الآلاف من الأمتار أو ما يزيد . وقد بقيت هذه الهضاب والقمم العالية مقرا للحضارة والاستقرار خلال العهد الإسلامي كله حيث قامت مدائن صنعاء وتعز وإب وغيرها .

وبالإضافة إلى هذه الأدلة الأثرية المستقاة من مواقع استقرار الحضارات القديمة بهضبة اليمن ومدائنها القديمة ، فإننا نلاحظ وجود مواقع لكثير من صهاريج المياه القديمة . وقد زرنا بعض هذه المناطق في رحلة للجامعة المصرية في عام ١٩٣٦ * ولاحظنا أن الحميريين بصفة خاصة تقع صهاريجهم في المواقع العالية بين القمم الجبلية التي تتجمع مياه أمطارها في أحواض صناعية كبيرة لا يزال بعضها قائماً ، ولكن مياه الأمطار الحالية لا تكفي لملئها بالماء ، وإنما تتجمع المياه القليلة في قيعانها أما السكان الحاليون فيختارون الحفائر والوهاد المعلقة في مواقع أقرب إلى سفوح القمم ، حيث يتجمع الماء في حفرة طبيعية أو شبه طبيعية تشبه البرك المكشوفة وغير المسورة ، والتي يرتوى منها الحيوان ويتزود منها البدو بما يروى ظمأهم وهناك بعض الصهاريج القديمة في مواقع منخفضة ولكنها أهملت لأن الأمطار الساقطة على ما يبدو لا تكفي لمدها بالمخزون المناسب . وهكذا فإن الإدلة الأثرية المتصلة بموارد مياه الشرب تدل في مجملها على أن الأحوال المناخية وأحوال المطر بصفة خاصة قد تغيرت في الوقت الحاضر عما كانت عليه أيام سبأ وحمير . كذلك فإننا نلاحظ في العهد الإسلامي أن حضارات الهضبة العليا من اليمن كانت تعتمد في

* انظر : سليمان حزين « رحلة الجامعة المصرية إلى اليمن وحضرموت » مجلة كلية الآداب الجامعة المصرية ، القاهرة ١٩٣٨ .

مياه الشرب والسقيا على الينابيع المتفجرة بين صخور القمم أكثر من اعتمادها على أقامة الصهاريج ، وإن كان بعض هذه الأخيرة قد وجد أيضا ، ولو أن ذخيرته من الماء كانت قليلة أو شبه آسنة .

أدلة النصوص القديمة على تغير المناخ :

وإذا استمررنا في الحديث عن جنوب الجزيرة العربية فإننا نجد النصوص التي تركها الكتاب من العصر الإغريقي الروماني تدل كذلك على أن الحالة المناخية في أرض اليمن وحضرموت كانت في ذلك العهد غيرها الآن ، لا سيما في أرض وادي حضرموت الذي كان منبت أعشاب البخور التي تجلب من هناك ومن المناطق المجاورة لها أو القريبة منها في جزيرة سقطره وبعض شواطئ البحر الايرتري القديم أو بحر العرب وخليج عمان الآن . وقد وردت أحاديث أرض البخور فيما تركه كتاب العهد الإغريقي الروماني من أمثال ديودوراس سيكولوس وسترابو وغيرهما من كتاب العهد القديم وملاحيه . ويبدو أن اسم « حضرموت » ذاته فيه شيء من الدلالة على الحالة المناخية والصحية في ذلك الوادي الغائر في هضبة الاحقاف وحضرموت . ذلك أن بعض الكتاب يفسر الاسم بأنه مشتق من « الحضور » و « الموت » ، وقد يبرر هذا التفسير ما يذهب إليه كتاب العهد الإغريقي الروماني الذين يصفون الوادي بأنه وادي الموت ، وإن الابخرة والرطوبة مع الحرارة الشديدة ومع الروائح التي تنبعث من أعشاب البخور وأزهاره كانت خانقة أو شبه خانقة بل يقال أن بعض الروائح الكريهة قد تنبعث من تربة الأرض إذا نبشت . كذلك فإن المنطقة الوسطى والسفلى من وادي حضرموت ذاته لا بد وأنها كانت كثيرة المستنقعات ويكثر بها البعوض وربما الملاريا مما يجعل الحالة الصحية للسكان غير طيبة . ويذكر بعض الكتاب أن المدينة العاصمة في ذلك الوقت كانت في « شبه » بالجزء الأعلى من وادي حضرموت بعيدة عن أسفل الوادي وعلى مقربة من أرض اليمن السعيد وهضابه العالية .

وقد استمرت منطقة حضرموت وما جاورها لاسيما في جزيرة سقطره استمرت تمون العالم الإغريقي الروماني بالبخور ، لا سيما بعد أن ازداد الطلب مع

ظهور الكنائس والأديرة المسيحية في المشرق العربي ، وبعد أن صارت المسيحية دين الامبراطورية الرومانية الرسمي ، وعند ذاك يقال أن حضرموت أخذت تعجز عن الوفاء بالحاجة المتزايدة إلى البخور والمواد شبه العطرية ، ولعل ذلك أن يكون مرتبطاً بقلّة الأمطار الساقطة على جنوب الجزيرة ، حيث هجر السكان المناطق المنخفضة ووديانها ولجأوا كما ذكرنا إلى أعلى الهضبة اليمنية ، فارتفعت منطقة العمران من مناطق الجنوب نحو هضبة اليمن إلى مستوى صنعاء وما ماثلها من المدائن ذات الارتفاع الكبير عن سطح البحر والتي تتلقى الأمطار الصيفية الكافية . ويبدو أنه في هذه الفترة عجز جنوب غرب الجزيرة العربية عن الوفاء بالمطلوب من محصول البخور والمواد العطرية ، فانتقل النشاط التجاري إلى « الهند » وانصرف الملاحون عن شواطئ الجزيرة العربية إلى شواطئ شبه القارة الهندية .

كل هذا عن جنوب الجزيرة العربية وأدلة الوثائق والنصوص القديمة على تغير المناخ في خلال العصر الجاهلي وبعد أنتهاء دور المطر الإغريقي الروماني (العصر الكلاسيكي) ، أي فيما بعد القرنين الرابع والخامس الميلاديين على وجه التقريب . أما عن داخلية الجزيرة وشمالها فإن النصوص العربية القديمة تعطينا صورة مشابهة لما حدث في جنوب الجزيرة العربية من حلول الجفاف التدريجي . ونجد أدلة النصوص هذه متواترة فيما تلقيناه عن العصر الجاهلي من أخبار العرب وأيامهم . والذي نعرفه من هذا الحديث المتواتر عن العرب والأعراب من العصر الجاهلي يدلنا على أن العصر كان عصر اضطراب وهجرات دائمة ، وغزو كثير بين القبائل من أجل التحكم في مصادر الرعى وموارد المياه لسقيا الإنسان والحيوان . والمعروف كذلك أن العصر الجاهلي قد أمتاز بصفة عامة بانقراض تدريجي للثروة الحيوانية البرية والوحشية . فالحيوان المفترس قد قل وانحصر بالتدريج في مناطق الجبال العالية . كهضاب اليمن ومرتفعات عمان وربما بعض أودية نجد العليا ، ذلك أن الغطاء النباتي قد خف بالتدريج فقلت حيوانات الرعى الطبيعي من غزلان ونحوها ، وبالتالي فقد قل مصدر الغذاء بالنسبة للحيوان المفترس . ومع ذلك فإن الأمر لا بد أن حل بالتدريج ، فنحن نعرف أن بعض شعراء العرب ومغامريهم من أمثال امرئ القيس كانوا يجوبون الجزيرة العربية في طولها وعرضها

طلباً للمغامرة والشهرة أو للغزو وفرض الجاه . وقد خرج امرؤ القيس فيما يبدو من الأحفاف في شمال غرب حضرموت ، حتى قطع الجزيرة كلها إلى أطراف الأناضول في أقصى الشمال . كذلك فإن من المعروف أن هجرات القبائل العربية جاء أقدمها فيما يبدو من أرض الجوف في شرق اليمن (وبعد بداية الجفاف فيها) إلى قلب الجزيرة ونجد وأطراف الخليج حتى بلغ أرض العراق . والمثل العربي المعروف يقول « اليمن مهد العرب والعراق لحدهم » وذلك ينطبق بصفة خاصة على هجرة قبائل الأزد وقضاعة في ذلك الطريق القديم حتى استقروا بأرض السواد بالعراق . أما بالنسبة لشمال الجزيرة العربية فإن النصوص القديمة قد تواترت بشأن حركه القبائل والنازحين عبر بادية الشام إلى الشمال من صحراء النفود . وقد استمر الحديث متواتراً من العصر الجاهلي إلى بداية عصر الإسلام . فنرى كاتباً مثل المسعودي في الجزء الأول من « مروج الذهب » (القرن العاشر الميلادي) يشير إلى ماتواتر من أحاديث أواخر عصر الجاهلية من أن الرواة يذكرون أن رجلاً عجوزاً كان يعيش في مطلع العصر الإسلامي ويروى عن أجداده أن المرأة البدوية في عهدهم كانت تخرج من أطراف أرض العراق لتزور أصهارها على الجانب الغربي من بادية الشام ، فكانت « تخرج من أرض خصبة ذات موارد مائية متاحة لتمر في أرض أخرى عامرة بالماء والكأ » حتى تصل أرض الجانب الغربي من البادية . وذلك بالطبع مجرد قول متواتر ولكنه يدل على أن حالة المطر والنبات كانت غير حالها في مطلع العهد الإسلامي .

حركة الإنتشار من الجزيرة العربية والعوامل التي أخرت بداياتها حتى ظهور الإسلام :

إن منطق الأشياء بالنسبة للقرائن والأدلة التي سقناها من قبل كان يقتضى أن يبدأ العرب في الانتشار من جزيرتهم مع حلول الجفاف التدريجي أيام العصر الجاهلي . ولكن الحقيقة والواقع أنه قامت ظروف وملابسات أدت إلى تأجيل حركة الخروج والانتشار . وفي هذا المجال يحسن أن نوازن بين منطقة الإستبس الفقيرة في الجزيرة العربية ومنطقة الإستبس الغنية في داخلية القارة الآسيوية ، ذلك

أن هذه الأخيرة كانت أكثر مطرا ، وتأتيها التيارات التي تحمل البخار والماء من مصدرين على الجانبين ، هما المحيط الهادى والرياح الموسمية في شرق القارة من جهة ، والأعاصير المتوغلة من قارة أوربا ، ولا سيما في الربيع والصيف . ومن البحر المتوسط الذى تأتى أعاصيره في الشتاء . ومن هنا فإن مراعى الاستبس في داخلية آسيا غنية بالكلا والحيوان وأسباب العيش لجموع كبيرة من الرعاة . ومن هنا أيضاً فقد كانت هجرات الرعاة من داخلية آسيا حركات كبيرة ذات أعداد غفيرة ، كما حدث أيام الهون الذين حطموا الإمبراطورية الرومانية ، وفي أيام المغول والتتر والأتراك الذين حاولوا تحطيم دولة الأسلام في الشرق العربى ، لولا وقوف مصر وجيوشها في وجه ذلك الغزو . أما الجزيرة العربية فقد كانت الإستبس فيها فقيرة ، وكان عدد سكانها القادرين على الخروج والانتشار بالتالى محدودا في جميع الحالات . ويكفى أن نذكر على سبيل المثال أن مجموع الغزاة الذين دخلوا أرض مصر مع مطلع العهد الإسلامى لم يكد يتجاوز العشرين ألفا ، وهو عدد محدود فيما يبدو بالنسبة لجحافل الرعاة الذين اندفعوا من داخلية آسيا نحو الصين من جهة ونحو العالم الرومانى ثم العربى بعد ذلك في اقاصى الغرب من القارة الآسيوية من جهة أخرى .

هكذا كان النزوح من شمال الجزيرة العربية محدودا منذ البداية ، فضلا عن أن وجود امبراطوريتين كبيرتين في مواجهة هذا النزوح ، هما امبراطورية الفرس وامبراطورية الروم ، قد أدى إلى ظهور مقاومة قوية ضد التوسع نحو الشمال الشرقى أو الشمال الغربى من الجزيرة ، بل إن كلا من الأمبراطوريتين قد عملت على استقرار الأعراب على حدودها لتتخذ منهم دويلة حاجزة ضد الهجوم والتوسع العنيف من داخلية الصحراء ، فأنشأ الفرس دويلة اللخميين ، وأنشأ الروم دويلة الغساسنة ، وقام بذلك حاجزان ضد توسع أهل البادية الرحل إلى أرض الاستقرار على جانبي الأمبراطوريتين ونجحت كل من الأمبراطوريتين في إقامة الأمن « المرتزق » (أو شبه المأجور) على حدودها . وكان ذلك من عوامل « تأجيل » الخروج الجماعى وغير المكبوح من داخل الجزيرة إلى خارجها . ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن تغير المناخ نحو الجفاف بالتدريج خلال القرون الأولى من

العهد المسيحي لم يترتب عليه خروج تلقائي ومباشر من داخلية الجزيرة العربية إلى خارجها ، وإنما تأجل ذلك بفعل عوامل سياسية وبشرية أخرى زاد من قوتها وفعاليتها أن نمو التجارة الرومانية في العهد المسيحي مع ازدياد قوة الكنائس وعمران أديرتها واستمرار الطلب على مواد البخور والعطور وغيرها من نتاج جنوب الجزيرة العربية ثم من نتاج الهند ، مما أوجد وظيفة ثانية لبدو الصحاري العربية ، بعد أن تضاعفت مهنة الرعى بسبب الجفاف التدريجي ، فظهرت مهنة ثانية إضافية هي مهنة « الوساطة » التجارية ، التي كان طريق الحجاز وأرض قریش أبرز أمثلتها (وإن لم يكن المثال الوحيد بالطبع فقد ظهر إلى جانبه طريق آخر من سواحل الخليج إلى داخلية الجزيرة وشمالها) . ومن هنا فإن طرق القوافل والتجارة الراحلة عوضت عرب الصحراء ولم تضطرهم إلى النزوح والهجرة إلى الخارج .

كذلك فإن هناك فارقا كبيرا آخر بين أرض سهوب صحراء العرب وأرض سهوب آسيا الداخلية . ذلك أن هذه الأخيرة لم تكن في يوم من الأيام مهبط أية ديانة سماوية ، ومن هنا فإن رعاة آسيا الداخلية يعتمدون على بيئتهم الخشنة والبعيدة عن اللين والتهذيب ، فلما خرجت جموعهم إلى الشرق الصيني أو إلى الهند القديمة أو إلى الغرب وحدود الإمبراطورية الرومانية أو إلى سهول المشرق العربي الإسلامي خرجت دائما في هيئة غزوات عارمة ومخربة ، وذلك بخلاف غزوات رعاة المشرق العربي الذين عرفوا المسيحية (بل عرف بعضهم اليهودية من قبل) ، ثم جاءهم الإسلام فأعطاهم « رسالة » دينية وإخلاقية خرجوا بها وبقيمها الرفيعة وكتابها ودستورها الخالد إلى حدود الإمبراطوريات القديمة في الشمال والشرق والغرب وكانوا في خروجهم حملة رسالة ودستور إنساني ، هذب غرائزهم وشذب خشونتهم وجعلهم أقدر على « التفاعل » مع حضارات العالم المستقر خارج حدودهم ، بل أعطاهم ما يقدمون لغيرهم وما يشاركون به في بناء عهد جديد من الحضارة الإنسانية بل بناء عصر جديد من الحضارة والتاريخ ، هو العصر الإسلامي وعالمه الكبير .

عهد الخروج الإسلامى إلى داخلية آسيا :

هكذا مرت الجزيرة العربية بفترة اضطراب سكانى وحركات هجرة وغزو امتص جانبا منها ذلك النشاط الملحوظ فى النقل والتجارة وفى الوساطة التجارية الناجمة بين اليمن وجباله وشواطئه من جهة ، وشواطئ الخليج العربى من جهة ثانية ، ثم أسواق الحدود على الجانبين العراقى والشامى إلى شواطئ بحر الروم من جهة ثالثة . وأدى ذلك كله بالتالى إلى امتصاص حركة الخروج بسبب الجفاف ، واستمر الامتصاص خلال قرنين أو ثلاثة هى العصر الجاهلى ، حتى جاء الإسلام برسائله الجديدة فى مواجهة تصارع الأمباطوريتين الكبيرتين ، وتطاحن الفرس والروم إلى درجة أضعفت الجانبين واتاحت فرصة التاريخ أمام الشعب الجديد ورسائله التى دعت الجميع إلى رحابها ، دعوة بعيدة عن الإكراه قريبة إلى مبادئ العدل الاجتماعى ، الذى ساوى بين العرب والعجم ، الذين بدأت دولتهم تدول ، وبينهم وبين الروم الذين أنقسمت كنائسهم وساد التنابذ بين أهل الدين وأهل الحكم والسلطان بينهم ، فنفذ الإسلام بسماحته وشموله ، بحيث جاء منقذا لكثير من شعوب حكمها الرومان والروم وحلفاؤهم فى فترة انحلال سياسى وعسكرى ، مهد السبيل لسيادة الشعب الجديد ، بل الحضارة التى أطل بها الإسلام على أطراف الأمباطوريات المتهالكة .

ومع ذلك فإن علينا أن نذكر أن الخروج العربى نحو الشمال قد سبقه توسع فى الاتجاه المضاد ، دخلت به جيوش الفرس والرومان ومن قبلهما دخل تجار الإغريق إلى أطراف الجزيرة العربية وبعض أجزائها الداخلية . ويهمنى أنه من ناحية الشمال الشرقى للجزيرة كان دخول الفرس بجيوش نظامية دون أن تكون هناك هجرات منتظمة فى أية صورة ظاهرة ، وقد سبق ذلك التوغل حركة أنتشار العرب المسلمين بنحو ألف سنة أو أكثر . وقد توغل الفرس فى إحدى غزواتهم إلى أرض مصر ذاتها وراء الجزيرة العربية فى أواخر العهد الفرعونى ، كما توغل الفرس أيضاً وبلغوا أطراف أرض سبأ القديمة فى اليمن . كذلك فإن الفرس قد أنتشروا بالبحر إلى أرض الخليج العربى وجزره وسواحل عمان فى الجنوب الغربى . أما المؤثرات السلالية من هضاب إيران الشمالية فيبدو أن بعض عناصرها وسكانها الأقدمين قد

نزلوا إلى الخليج وبلغوا عُمان ، حيث أثروا في السلالة تأثيرا ظاهرا ، لا سيما في شكل الأنف الطويل والكبير ، وهو ما يعرف باسم الأنف الأرمني أو الآشوري القديم الذي عرفناه من تماثيل الآشوريين الأقدمين وصورهم . وهكذا فإن صلة التوسع والانتشار بين هضبة إيران والجزيرة العربية هي صلة قديمة ، بحيث يمكن أن نعتبر التوسع العربي في الاتجاه المضاد رد فعل لحركة قديمة سابقة من الشرق إلى الغرب . ولكن حركة التوسع القديمة لم تكد تحمل معها الا النذر من معالم الحضارة والمدنية ولم تترك أثرا يذكر فيما عدا أثرها الخفيف في ناحية السلالة . أما حركة الخروج في العهد الإسلامي فلإنها حملت معها حضارة جديدة وعقيدة لم تلبث أن غلبت على ما سبقها من عقائد فارسية قديمة ، ثم خالطت الفكر واللغة القديمة وزاوجتهما مزوجة آتت ثمارها في الفلسفة والعلم الإسلامي في عهد العباسيين الذين جاءت بعض معالم ثقافتهم ثمرة لتلك المزوجة التاريخية ، التي تركت أثرها الخالد في تاريخ الفكر الإنساني خلال فترة من أمجد فترات التاريخ .

ولنتابع الان معالم إنتشار العرب بدينهم الجديد وقيمهم الفكرية والروحية والاجتماعية في بلاد الفرس ، لعلنا أن نتفهم مبلغ تأثير حركة الإنتشار بمعالم الطبيعة الجغرافية على الطريق من جهة ، وتأثيرها بالظروف البشرية والحضارية التي وجدها العرب من جهة أخرى . وقد كان لعبور الهضبة الإيرانية طريقان . أحدهما جنوبي والآخر شمالي . فأما عن الطريق الجنوبي فقد كانت تقع فيه منطقة « فارس » القديمة موطن الحضارة والقوة الفارسية على أيام الاكاسرة . وظاهر أن هذه المنطقة واجهت التوغل العربي والإسلامي بقيمه الاجتماعية التي جاء بها عرب الإسلام الذين يبشرون بالحق والاخاء والمساواة بين الناس بصرف النظر عن أصلهم أو تاريخهم . أما الطريق الشمالي في الهضبة فقد كان أقرب تناولا لجموع العرب الفاتحين والمبشرين بالدين الجديد . وقد سارت جموع هؤلاء الفاتحين عبر جبال زاغروس إلى مناطق همدان وشمال إيران حتى بلغت مشارف تركستان الغربية ، فوجدوا هناك قبائل الرعاة الأتراك القدماء ، وهم يعيشون في بيئة تشبه ، ولو من بعض الوجوه بيئة بلاد العرب الشمالية . وهناك أيضا اتخذ العرب لهم قاعدة انتشروا منها في اتجاهين ، أولهما نحو الجنوب الشرقي عبر الجبال مرة أخرى

إلى شمال غرب بلاد الهند حيث استقر بهم الحال وبدأ الإسلام يوطد أقدامه بالتدريج في أرض السند وأطراف القارة الهندية الشمالية . أما الاتجاه الثانى للإنتشار فقد كان نحو أطراف أمبراطورية الصين القديمة وبلاد تركستان الشرقية التى وجد الرعاة حافتها الشمالية أصلح لتوسع جموعهم ومعهم حيواناتهم من الجمال ذات السنامين والخيول حتى دخلوا إلى حافات صحراء جوبى وأرض منغوليا، وحتى قرعوا أبواب الصين الشمالية واستعمروا ولايات الأمبراطورية الشمالية الغربية في أفليم سيانفو وما يليه شرقا إلى سهول شمال الصين . وكان هذا الطريق الشمالى، وطرقه (حافة منغوليا الداخلية) ، هو طريق التوسع الأساسى لجموع الرعاة القادمين من الغرب أما الحافة الجنوبية لصحراء حوض تاريم والتى تحاذى حافة هضبة التبت ، فإنها لم تكن صالحة تماما لمسيرة الرعاة والغزاة ، ولذلك فإن الإسلام لم يسلك هذه الطريق الجنوبية ، وإنما اقتصر توسعه على الحافة الشمالية لصحراء حوض تاريم .

ومع ذلك فإن علينا أن نذكر أن إنتشار الإسلام في طريقه إلى الصين لم يأت مع تلك الغزوات الأولى حوالى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين . وإنما بقى الإسلام محدودا في مناطق الرعاة تلك حتى جاء العصر المغولى بعد ذلك بقرنين أو أكثر ، فخرجت جحافل المغول والرعاة غير المسلمين من حافات صحراء جوبى ، ولم يكونوا قد دخلوا الإسلام بعد . . . خرج التتر والمغول من داخل آسيا إلى غربها ، وغزوا أرض المسلمين في تركستان الغربية وما وراءها في شمال إيران ثم المشرق العربى الشمالى ، فحطموا بغداد في منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ثم اتجهوا إلى أرض الشام وفلسطين ، حيث قابلتهم جيوش مصر التى دافعت عن الإسلام وقاعدته في شمال الجزيرة ، وهزموا المغول والتتر . ولكن الشيء المذهل هو أن هؤلاء التتر والمغول الذين جاءوا إلى المعركة بقوتهم وجبروتهم ، دخلوا إلى الإسلام الذى فتح قلوبهم في موجة سريعة ارتدت بهم مره أخرى نحو المشرق إلى أرض الأتراك ثم إلى أرض المغول في داخلية آسيا الشرقية .

الخروج الإسلامى إلى شمال إفريقية وبعض جهاتها الداخلية :

أما عن الخروج في مطلع العهد الإسلامى إلى شمال إفريقية فقد كان طريقه

الأساسى عبر شبه جزيرة سيناء إلى أرض مصر ، حيث تركز الإسلام واتخذ قاعدته القوية . التى انتشروا منها غرباً ، ثم عادت إحدى موجاتهم فامتدت من بلاد تونس فى القرن العاشر الميلادى إلى مصر ، التى لم تلبث أن أصبحت منارة العلم وفقه العقيدة مع قيام الأزهر الشريف ، جامع وجامعته ، ولكن علينا أن نذكر أن الإسلام لم ينتشر فى ربوع أرض مصر فور دخوله ، فقد كان دفع الجزية كافيا لان يحتفظ أقباط مصر بديانتهم إلى اعتباروها قريبة فى بعض أصولها الأساسية من الإسلام ، فضلا عن أن العقيدة الجديدة كانت تقوم على عدم الإكراه فى الدين ، ومن هنا فقد بقى معظم أهل الريف فى مصر على ديانتهم حتى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، حين كانت الكنيسة قد ضعفت ، ودخلت جموع متزايدة إلى الإسلام . كذلك فإن الإسلام لم ينتشر من رأس الدلتا إلى الصعيد ثم إلى النوبة والسودان إلا بعد انقضاء نحو خمسة قرون على دخول الإسلام إلى مصر فى منتصف القرن السابع الميلادى ، فقد بقى العرب الأوائل متركزين فى شمال مصر واكتفوا بالهجرة منها على ساحل البحر المتوسط إلى شمال إفريقيا . أما انتشارهم نحو الجنوب فقد بقى حتى جاءت موجات جديدة من قبائل الجزيرة العربية ، وبدءوا ينتشرون جنوبا على طول الوادى وحافته المجاورة للصحراء ، وذلك فى القرن الثانى عشر وما بعده . واستقر الكثيرون وهم فى طريقهم ، وأنشأوا نجوعا باسماء عربية مثل بنى سويف وبنى مزار وبنى قرة وبنى عدى ونجع حمادى وغيرها من الأسماء الكثيرة . ثم رحلت طلائعهم إلى النوبة (حيث اختلط بعضهم بالنوبيين) ثم إلى شمال السودان وشرقه وغربه . واستمر توسعهم حتى صدمته هضبة الحبشة التى سبقتهم إليها المسيحية القبطية منذ القرن الخامس الميلادى وما بعده . وهكذا حتى بلغت طلائع العرب حوض النيل الأعلى فى بحر الغزال وبحر الجبل . ولكن يبدو أنه فى ذلك الوقت كان المد العربى قد طالت به الطريق وضعفت به الخطوات ، فضلا عن أن الغزو التركى فى شمال الجزيرة ومصر فى القرن السادس عشر قد قطع سيل العروبة عن جذورها فى الجزيرة ، فانقطع المد العربى الذى يغذى سيل القبائل من الشمال الشرقى إلى مصر ووادى النيل فى السودان . ومن هنا توقف المد واستمرت الحال على ذلك حتى جاء عهد

الاستكشافات الحديثة في داخلية إفريقية ، ودخلت سلطات الاستعمار ومعها هيئات التبشير المسيحية من أكثر من كنيسة واحدة ، وأخذت المسيحية تستند إلى سلطة المستعمرين ودولهم ، وأخذت تنتشر بين القبائل ذات العقائد الفطرية ، وصوّر المستعمرون تجار المسلمين ودعاتهم على أنهم تجار رقيق ينبغي أن يتحاشاهم أبناء القبائل والسكان الأصليون ، وبالتدريج أصبحت محاربة أنتشار الإسلام والسعى بالقطيعة بينه وبين السكان الأصليين سياسة مرسومة لدول الإستعمار في تلك المناطق . وقد استمر هذا الأمر حتى بعد أن بدأ ظل الاستعمار ينقشع عن هذه المناطق .

وفي هذه الأثناء كان انتشار تجار المسلمين بالبحر قد بدأ يصل إلى القرن الأفريقي عن طريق باب المندب (بعد أن كان الانتشار المباشر من الحجاز إلى شواطئ البحر الأحمر الغربية قد بقي ضعيفا ومحدودا) . وكذلك امتد إنتشارهم بالمباشرة من جنوب بلاد العرب وجنوبها الشرقي (عمان) إلى سواحل إفريقية الشرقية . ولكن هذا الإنتشار من البحر لم يلتحم بالإنتشار الإسلامى الآتى بالبر من الشمال عن طريق السودان الأوسط . وبذلك فقد بقيت منطقة بحر الغزال تمثل نطاقا حاجزا بين الإسلام الآتى من الشمال والإسلام القادم عن طريق القرن الإفريقي .

وإذا عدنا إلى الشمال وإلى أرض مصر فإننا نجد أن التيار الإسلامى انطلق منها إلى شمال إفريقية في ليبيا ثم في تونس ومنها غربا إلى الجزائر ثم المغرب . ومن هناك دار إلى الجنوب نحو موريتانيا (حيث استقرت بعض القبائل العربية النازحة وارسى قواعد اللغة العربية والفقه والأدب في واحاتها) ، بعد أن كان أثر الإسلام في قبائل البربر في جبال أطلس المغربية والجزائرية . كما أن المد الإسلامى سار مع سواحل المغرب إلى السنغال وأطراف إفريقية الإستوائية ، وإن كانت القبائل النازحة قد فضلت عدم التوغل في النطاق الإستوائي ، ورغبت عن ذلك إلى التوسع والدوران شرقا مع الحزام السودانى نحو مالى وشمال نيجيريا وتشاد ، حتى التقت موجة الإسلام القادمة من شمال إفريقية وغربها بالموجة القادمة مع النيل من مصر إلى شمال السودان ووسطه وأطراف جنوبه . أما عن الطرق الصحراوية التى تقطع الصحراء الكبرى من شمالها إلى جنوبها وتتبع خطوط الواحات وبعض

الأودية الصحراوية الداخلية التي تغذيها أمطار مرتفعات تبستي . . . هذه الطرق كان روادها من التجار الذين ربطوا إسلام ساحل البحر المتوسط بإسلام مناطق السافانا في النطاق السوداني الغربي . وبذلك كانت تلك الطرق سبل اتصال حضارى وتجارى ، ولم تكن طرفا لانتشار القبائل كما كانت الحال بالنسبة لطريق سواحل إفريقية الغربية ، وإذا عدنا إلى سواحل إفريقية الشمالية مره أخرى فإننا نجد أن التوسع الإسلامى عن طريق مخرج اللسان التونسى وصقلية كان محدودا ، أما التوسع عن طريق الريف المغربى إلى جنوب إسبانيا فقد كان طريق التوسع الإسلامى الذى بلغ بالإسلام ربوع الأندلس وجنوب إسبانيا وجنوبها الشرقى ، حتى وصل التوسع إلى قلب أيبيريا ، بل خرجت واحدة من طلائعه في يوم من الأيام إلى جبال البرانس وما وراءها في جنوب فرنسا ، حيث عجزت عن أن تبلغ بالإسلام إلى غايته في ذلك الطرف من القارة الأوروبية .

الخروج الإسلامى بالبحار الجنوبية من شواطئ الخليج وبحر العرب :

إن الأمر المشهور والمتداول بين عامة الباحثين هو أن الأمة العربية أمة « برية » ، كان إنتشارها الأساسى عن طريق البر . وظاهر أن مرجع هذا رأى إلى أن حركة الإنتشار الكبرى إنما تمثلت فيها عرضنا له من أن العرب خرجوا بجموعهم وحضارتهم وعقيدتهم وقيمهم العربية والإسلامية من شمال شبه الجزيرة إلى إيران حتى حدود الهند والصين من جهة ، وإلى أرض مصر وشمال إفريقية إلى المغرب والأندلس ، ثم كذلك إلى موريتانيا وشواطئ إفريقية الغربية ، ثم رجعت مع سهل السودان الغربى حتى السودان الشرقى وبعض أطراف إفريقية الإستوائية . وتلك حركات خروج كبرى يندر أن تناظرها حركات مماثلة في التاريخ ، بل إنها حركات غيرت وجه التاريخ الإنسانى بصفة عامة في قارتين هما أكبر قارات العالم القديم وبعض أطراف من جنوب القارة الأوروبية التى دخلها العرب والإسلام من ناحية الأندلس وإيبيريا ، وجاءت محاولة متردة ليدخلها عن طريق صقلية ، كما دخلها الإسلام على أيدي الأتراك (بدل العرب) إلى أرض البلقان (شبه الجزيرة في الجنوب الشرقى) من القارة الأوروبية . ولقد كان ذلك كله انتشارا برياً لم يركب

العرب (والأتراك) البحر فيه إلا ركوبا عبرا وقصير المدى ، وحتى ساحل البحر المتوسط الذى ورث فيه العرب مواقع الفينيقيين الأوائل كان خروج الملاحين العرب منه خروجاً محدوداً ، وقفوا به في وجه الغزو الصليبي ، خرجت به جموع قليلة من أحفادهم الذين خرجوا فرادى أو في مجموعات مغامرة قليلة وصلت بهم إلى بحر الظلمات (الأطلنطى) وما وراءه إلى بعض شواطئ قارتى العالم الجديد في عهد قديم (؟) أو في عهدنا هذا الحديث إلى بعض سواحل إفريقية الغربية أو في عهدنا هذا الحديث إلى بعض سواحل إفريقية الغربية ، وأقاموا جماعاتهم ومراكزهم التجارية فيما نسميه الآن بأرض المهجر الأمريكى الشمالى أو الجنوبى أو أرض المهجر الإفريقى .

ولكن الحقيقة أن العرب لم يكونوا أمه « برية » فحسب ، وإنما كانت لهم جموعهم « البحرية » التى خرجت من شواطئهم على الخليج وسواحل بحر العرب والركن اليمنى ، وكان خروجهم من تلك الشواطئ في ثلاث مراحل ، أولاها سبقت الإسلام وقيل فيها أن الخروج من شواطئ الخليج وموانيه القديمة يمثل الموجة الفينيقية القديمة حيث تعلم أسلافهم ركوب البحر على شواطئ الجزيرة الشرقية قبل أن تنتقل بهم التجارة البرية إلى شواطئ البحر المتوسط ، حيث أقاموا موانئهم الجديدة وركبوا البحر ناقلين معهم حضارتهم وفكرهم متأثرين بالفكر المصرى القديم ، حتى بلغوا به أرض قرطاجة في تونس . وإلى جانب تلك الموجات البحرية القديمة والتى كان لها ما يناظرها على شواطئ اليمن وجنوب غرب القارة الآسيوية ، والتى ارتبطت ملاحظتها بملاحة البحر الأحمر القادمة من شواطئ مصر في شمال ذلك البحر إلى بلاد « بونت » القديمة في العهد الفرعونى ، كانت هناك موجة أو موجات بحرية بعد ذلك في العهد الكلاسيكى القديم ، ارتبطت بالنشاط البحرى في العهد الإغريقى الرومانى ، وانتشرت بها الحضارة والتجارة في البحر الأحمر من جهة ، وعند رأس الخليج العربى من جهة ثانية ، ثم من قواعد البحر الأريثرى ثم على شواطئ اليمن وحضرموت القديمة وبعض شواطئ الصومال من جهة ثالثة . وأخيرا جاء العصر الحديث في أعقاب عهد الاستكشافات الأوربية (من غرب أوربا على أيام الإسبان والبرتغال ومن جاء في

أعقابهم من هولنديين وانجلو سكسونيين وكانت هذه هى الموجة الأحدث فى انتشار الملاحين العرب الذين جاء أغلبهم من جنوب بلاد العرب وبعض شواطئ الخليج (لا سيما مسقط) ، وهذا هو الانتشار الذى حمل الإسلام فى اتجاهين متقاطعين ، هما الاتجاه البحرى الشرقى إلى سواحل الهند ثم إلى أندونيسيا وجزر الجنوب الشرقى الآسيوى حتى شواطئ الصين الجنوبية والوسطى من جهة وشواطئ جزر الفلبين الجنوبية من جهة أخرى (بلاد واق الواق فى أغلب الظن) ، فضلا عن أنه مر بالكثير من جزر المحيط الهندى لا سيما فى منطقة المالديف .

على أن هناك ملاحظتين ينبغى أن نسجلهما فى هذا الانتشار البحرى للعرب من الغرب والشرق . أولاها أنه لم يكن مجرد خروج من الشواطئ وإنما كان متما للنشاط العربى العام ، وهو نشاط مثلث الأطراف ، فقد كان هناك النشاط البحرى الخالص فى الشواطئ الجنوبية والشرقية إلى جانب النشاط البحرى فى الشاطئ الفينيقى قديما وحديثا . وكان هناك النشاط البرى فى داخلية الجزيرة العربية والذى تأثر بتغيرات المناخ قبل الإسلام فى الجزيرة وصحاريها وأشبه صحاريها من جهة ثانية . ثم نشاط «الوساطة» التجارية والنقل البرى بالقوافل بين موانئ الجنوب وموانئ الشمال من جهة ثالثة . ومن هنا فإنه لا يمكن أن يفهم النشاط العربى فى صورته الكاملة إلا إذا ربطنا النشاط البحرى بالنشاط البرى ونشاط الوساطة التجارية التى تعلم العرب عن طريقها أن يكونوا حملة فكر ورسالة ، بل حملة عقيدة وقيم إنسانية غير بها العرب وجه التاريخ ، واختلفوا كل الاختلاف عن أقرانهم رعاة داخلية آسيا الذين صاحب خروجهم غزو بعيد وطغيان حرب بعض أمم الحضارة ، وبذلك فقد أصبح العرب بناء للحضارة بل حماة لها فى كثير من الأقطار التى خرجوا إليها فى آسيا وإفريقية وبعض أطراف القارة الأوربية .

أما الملاحظة الثانية التى نود تسجيلها بالنسبة للخروج العربى البحرى من الجنوب والجنوب الغربى لبلادهم فهى أنه كان خروجا « سلميا » ، فلم يعرف التاريخ أن حملة عسكرية بحرية واحدة خرجت من شواطئ الجزيرة ، وإنما هى

كانت كلها حملات تجارية تنقل السلع وتنقل الأفكار وقد كان رجال تلك الحملات من التجار وحملة الرسالة إلى جانب أنهم كانوا بحارة يكسبون عيشهم عن طريق النقل البحري المسالم ، ولم يكونوا من قطاع البحر وقراصنة الطرق البحرية . وهذه حقيقة هامة ميزت التوسع البحري العربي الإسلامى وجعلت منه مدخلا إلى لقاء وتزاوج حضارى لا يكاد يناظره تداخل حضارى آخر . فقد التقت حضارة العرب وثقافتهم مع حضارات الهند والهند الشرقية والملايو واندونيسيا والهند الصينية والصين والفلبين وحتى أطراف أرض « شيلا » القديمة فى شبه القارة الكورية . وكان ذلك اللقاء كله لقاء سلمياً لم تكن تخالطه أية حروب من ذلك النوع الذى كثيراً ما يحدث عندما تلتقى حضارات بعيدة الأصول متباينة الأفكار أو التقاليد ، كما حدث على سبيل المثال عندما التقت حضارة أوروبا بحضارات الأمريكتين القديمة ، فثار الصراع من أجل الحياة بين الغزاة وسكان البلاد الأصليين . وذلك ما لم يحدث شىء منه عندما التقى العرب المسلمون بأهل آسيا الجنوبية والجنوبية الشرقية ، وبعض أطراف تلك القارة الشرقية .

من هم العرب الذين نشروا الإسلام*

تحدثنا فيما سبق ، عن البيئة التى انتشر منها العرب ، وشرحنا كيف أن تلك البيئة متنوعة فى أقاليمها ، ومميزاتها الجغرافية ، وكيف أن ذلك التنوع ، كان له أثره الواضح فى الصفة التى اتخذها توسع العرب من تلك الأقاليم . بالبر حينا والبحر حينا آخر ، كما شرحنا كيف أنه على الرغم من اختلاف تلك الأقاليم بعضها عن بعض ، فإنها تؤلف فيما بينها تلك البيئة العامة التى سمينها بالبيئة العربية . وكذلك الشأن فى سلالات العرب فهم على اختلافهم فى الشمال والجنوب وعلى تنوع مميزاتهم الظاهرية فى البادية والحضر ، وفى الداخل والجهات الساحلية فإنهم

* فى الفقرات التالية سنحاول تعريف « العرب » من حيث خصائصهم السلالية ومن الناحية الانثروبولوجية (علم السلالات البشرية) . أما التعريف العام للعرب من الناحية الاجتماعية والسياسية ، فإننا فى رأينا كالآتى : « العربى من كانت اللغة العربية وعاء ثقافته وكانت العروبة محط انتمائه » سليمان حزين .

يمثلون في الواقع شعبا واحدا ، له مميزاته العامة المشتركة ، وثقافته الواحدة في اللغة والاتجاه الدينى والفكرى العام .

ولذلك فإننا إذا حاولنا الآن أن نتبع أصل العرب . إنتهى بنا البحث إلى أن ذلك الاصل ليس ضيقا ولا محدودا . وإنما هو متشعب غير محدود ، وإلى أن العربى يجمع في تكوينه السلالى بين مميزات أهل آسيا الغربية وأهل البحر المتوسط ، وبعض أهل أفريقية الشرقية ، ويرث هذه العناصر جميعا ، أو يشترك معها على الأقل ، في كثير من المزايا والملكات والمؤهلات التى تضيف إلى تراث العرب السلالى والثقافى جميعا .

وهناك نظرية تجعل من الشرق الأدنى الوطن الأصيل للإنسان ، أو بعبارة اصح المنطقة التى انتشرت منها السلالات البشرية الكبرى التى تعمر العالم فى الوقت الحاضر . وتقوم تلك النظرية على أساسين : أولهما : الموقع الجغرافى ، إذ يجمع الشرق الأدنى بين قارات العالم القديم الكبرى (آسيا وأوربا وإفريقية) ، كما يجمع بين بحار الشمال (أى البحر المتوسط وما يليه شمالا وغربا) ، وبحار الجنوب (أى البحر الأحمر وبحر العرب وما يليهما جنوبا وشرقا) ، وثانيهما : إن سلالات البشر الكبرى من عناصر آسيا الداخلية (الأتراك البيض والمغول الصفرة) ومن العناصر البيضاء (أى الشقر فى شمال أوربا والبيض السمر فى جنوبها وفى شمال إفريقية) ، ثم العناصر السمراء والسوداء (فى إفريقية وجنوب الهند وجنوب شرق آسيا ثم أستراليا البعيدة) . هذه العناصر كلها تتقارب بعض أطرافها ، فى الشرق الأدنى ، الذى يبدو أنها انتشرت منه أو من جواره نحو الشرق فى حالة سكان آسيا الداخلية ، ونحو الغرب والشمال فى حالة العناصر البيضاء ، ونحو الجنوب الغربى والجنوب الشرقى فى حالة الزنوج ومن إليهم من ذوى البشرة السمراء والسوداء .

وإذا صحت هذه النظرية ، وهو ما يرجحه أغلب الباحثين ، لاسيا فيما يختص بالعناصر البيضاء والسوداء ، وإن لم يسلموا به جميعا فيما يتصل بالمغول ، فإنه يجب أن نتظر أن يجمع أهل جنوب غرب آسيا فى دمائهم وتكوينهم السلالى مزيجاً من المميزات والصفات ، وأن يكون هناك شىء من الاختلاف بين أهل الجزيرة العربية فى مختلف جهاتها ، لاسيا الشمال والجنوب ، وهو ما أنتهت إليه البحوث الحديثة بالفعل .

تغلب على العرب في جملتهم الصفات التي يعرفها علماء الانثروبولوجيا (أو علم السلالات البشرية) بالصفات « القوقازية » والتي يطلق عليها أحيانا بشء من التسامح ، اسم الصفات « السامية » ، وإن كان من الأفضل أن يقتصر استعمال هذا اللفظ الأخير على الناحية الثقافية عامة واللغوية خاصة ، وألا يكون له مدلول سلالى معين . وأهم تلك الصفات العربية ، البشرة السمراء أى القمحية اللون ، والقامة المعتدلة ، أى فوق المتوسطة ، والرأس المستطيل أو المتوسط الاستدارة ، وملامح الوجه القسيمة الوسيمة فيما عدا استطالة الأنف وبروزه في بعض الأحيان ، والشعر المجعد تجعيدا خفيفا ، واللحية المتوسطة الكثافة ، ولون الشعر الكستنائى ، والعيون العسلية الغامقة ، والأطراف المتناسبة مع القامة التى يغلب عليها أن تكون نحيلة ، لا سيما بين أهل البادية ، حيث يقل الغذاء ويكثر التنقل وتطول المسافات .

على أن هذه الصفات وإن كانت غالبية ، فإنها في الحقيقة لا تتمثل على صورة واضحة خالصة ، إلا في جهات محدودة من الجزيرة ، لا سيما في الأجزاء الداخلية منها ، مثل نجد وبعض جهات الحجاز وبادية الشام . وربما كانت هذه الأخيرة الوطن الأصلى لبعض العناصر التى عرفت فيما بعد بالساميين .

كذلك من المهم أن نلاحظ من الناحية السلالية اختلاط المظاهر والمميزات في بعض المناطق . ففي العراق مثلا اختلط الأعراب ، ومن يعرفون بالساميين ، بعناصر أخرى انحدرت من الهضاب ، حيث يمتاز السكان فيها الآن باستدارة الرأس وانبطاح مؤخرة الجمجمة ، وارتفاع اليافوخ وأم الرأس ارتفاعا ظاهرا ، وانحدار الجبهة وتقهرها إلى أعلى ، وشدة بروز الأنف وأرتفاع قنطرتة وغلظ جوانبه ، فضلا عن أن القامة متوسطة ، وإن الجسد يميل إلى الامتلاء بعض الشيء . وهذه الصفات بالطبع لا توجد خالصة إلا فوق الهضبة نفسها ، أما في بعض جهات العراق فإنها تتمثل مخففة ومختلطة بالمميزات الاعرابية المشار إليها من قبل . ويظهر أن بعض عناصر الهضبة هاجرت نحو الجنوب وأن أثرها لم يقف عند العراق وإنما امتد مع الخليج إلى عمان ، ومنها غربا إلى وادى حضرموت ، حيث تظهر بعض المميزات شبه الارمينية بين سكان ذلك الوادى كما سنرى بعد قليل .

كذلك تأثر سكان الشام ، لا سيما جبال لبنان ، بالعناصر التي انحدرت من هضبة الاناضول في الشمال ، ويرجع بعض تلك المؤثرات إلى أيام الحثيين الذين توسعوا في لبنان القديم ، وأثروا في سكانه ، كما تجددت تلك المؤثرات في أيام الأتراك الذين امتد تأثيرهم ، فشمّل أجزاء مختلفة من سورية ولبنان وفلسطين . وتتمثل هذه المؤثرات الشمالية أيضا في استدارة الرأس ، وانبطاح مؤخرة الجمجمة انبطاحا خفيفا ، وغلظ الأنف نسبيا ، وغزارة شعر الوجه ، إلى غير ذلك من المميزات المعروفة بين أهل الاناضول .

فإذا ما انتقلنا إلى جنوب الجزيرة العربية ، وجدنا الاختلاف أكثر وضوحا بين أهل ذلك القسم من الجزيرة . وقد لاحظ علماء الانثروبولوجيا منذ بدأوا يبحثون هذا الإقليم ، امتياز سكانه في جملتهم (ما عدا شمال اليمن) باستدارة الرأس استدارة يختلفون بها عن أهل الشمال عامة . كما لاحظوا ظهور المؤثرات شبه الارمينية ، التي أشرنا إليها ، في كل من عُمان ووادي حضرموت . ويظهر أن وصول هذه المؤثرات الأخيرة ، أمر حديث نسبيا ، فهي في وادي حضرموت تكاد تقتصر على أهل الواحات المستقرة في قاع الوادي دون « القبائل » ، وهم البدو المتنقلون في فيافي حضرموت الجافة ، ويمثلون حالة متوسطة بين القوقازيين أو الساميين في الشمال وفي اليمن من جهة ، وبين سكان شواطئ بحر العرب والبحار الهندية في الجنوب من جهة أخرى : بل إن الصفات الهندية والتقارب بين بعض الحضارمة ، لاسيما على الشواطئ الجنوبية لبلاد العرب ، وبين بعض سكان الهند الغربية وهضبة الدكن أمر واضح ملموس ، كذلك توجد مميزات زنجية خفيفة جدا تتمثل في بروز الفم ، وفرطحة طرف الأنف الأدنى ، بين بعض سكان شواطئ حضرموت ، وإن كان من الجائز أن تكون هذه المؤثرات ، راجعة إلى تجارة الرق ونقل الزنوج من شرق إفريقية إلى جنوب بلاد العرب ، ثم اختلاطهم هناك بالسكان الاصليين .

فأما عن هضبة اليمن ، فإنها تمثل منطقة اختلطت فيها العناصر القوقازية من ذوى الرأس المستطيل ، بعناصر جنوب بلاد العرب من ذوى الرأس الأكثر استدارة ولهذا الاختلاط ، وكذلك لاتصال اليمن بالشمال ، وتبادل الهجرات

بينهما ، تاريخ طويل طريف ، ولكن يكفي أن نذكر الآن على وجه الاجمالى ، وإنه فى القرون الأولى من الحضارة السبئية (أى فى بضعة القرون السابقة للعهد الميلادى) حدثت عدة هجرات متلاحقة من الشمال إلى الجنوب ، ولا يزال أثرها ظاهراً بين سكان منطقة حاشد فى شمال بلاد اليمن ، فى حين أنه فى أواخر الحضارة الحميرية (أى فى بضعة القرون السابقة للهجرة) انقلبت الآية واتت أغلب الهجرات من اليمن نحو الشمال ، ولعل هذا هو السر فى أن كثيراً من القبائل العربية فى صدر الإسلام ، كانت تدعى لنفسها أصلاً يمينياً ، بل لعل هذا هو السر فى ظهور المثل الذى أشرنا إليه : « اليمن مهد العرب والعراق لخدمهم » إشارة إلى أن العرب فى العهد الجاهلى وفجر الإسلام ، كانوا يخرجون من اليمن ويهاجرون شمالاً ، حتى يستقر بهم المقام فى أراضى السواد بالعراق .

الخلاصة من كل هذا ، أن العرب الذين انتشروا من شبه الجزيرة ، واختلطوا فيما بعد بسكان بقية العالم العربى و الإسلامى فى خارج الجزيرة ، كانوا يمثلون شعباً متنوع المميزات والملكات ، ولكن ليس معنى هذا التنوع أن العرب خليط من الاجناس ، وإنما معناه الصحيح أنهم سلالة متجانسة ذات تنوع من الناحية السبلالية ولكنها موحدة التكوين من ناحية الفكر والثقافة . وقد أفاد التنوع من حيث أنه أعد العرب وجعلهم صالحين من الناحية الجسدية للانتشار والحياة فى بيئات متباينة بعيدة عن الجزيرة والوطن الأصلى ، كما أفادت وحدة الفكر والثقافة فى أنها ربطت بين مختلف أجزاء العالم العربى والإسلامى فى داخل الجزيرة وخارجها ، بما فى ذلك مصر وشمال إفريقيا من جهة ، وشرق إفريقيا وبعض جزر جنوب شرق آسيا من جهة أخرى .

صفوة القول فى خروج العرب وانتشار الإسلام :

إن خروج العرب وانتشار الإسلام بهم ومعهم من الجزيرة العربية إلى أقطار الأرض والبحار شرقاً وغرباً وجنوباً ليمثل ظاهرة تاريخية فريدة ، جعلها الإسلام تتسم بسمه من الإنسانية والحضارة والاتصال الروحى المفتوح بين شعوب لم تكن تعرف مثل هذا الاتصال السمع من قبل . وقد يكون من الخير أن نوجز فى ختام

هذا البحث بعض ما يميز حركة الخروج والتوسع العربى وحركة انتشار الإسلام التى جاءت فى أعقابها وذلك فى النقاط الآتية :

١ - أن ظاهرة الخروج العربى ثم الإسلامى من الجزيرة لم تكن ظاهرة مستقلة بذاتها فى التاريخ ، ولا ظاهرة مفردة فى هذا التاريخ البشرى ، وإنما هى واحدة من سلسلة متصلة الحلقات من حركات الخروج والانتشار من النطاق الرعوى وشبه الصحراوى والصحراوى (الآن) فى كتلة قارتى آسيا وإفريقية . ولقد كان نطاق مراعى الاستبس فى القارتين نطاقا يتلقى الرطوبة والأمطار من المحيطات والبحار التى تحف القارتين ، وكان مقدار الأمطار الساقطة عليه يتأثر دائما بمدى توغل التيارات الهوائية واعاصيرها من الشرق أو الغرب أو الجنوب ، وهو توغل كان يتأرجح ويتذبذب خلال العصر التاريخى المناخى للأرض ، بل وبصورة أوضح خلال ما يعرف باسم العصر المطير الجيولوجى (البلايستوسين) . وحتى هذا العصر المطير لم يكن متصلا فى دور واحد ، وإنما كان له دوران أو ثلاثة أدوار تفصلها فترة أو فترتان من الجفاف ، فكان النطاق الصحراوى وشبه الصحراوى فى القارتين يتأرجح فى مقدار أمطاره الساقطة وغطائه النباتى وما يعيش عليه من حيوان وإنسان ، إبان ما يعرف بالعصر الحجري القديم . وكانت المناطق الصحراوية فى كل من القارتين تشبه الاسفنجة التى تمتلئ بالماء ويكسوها الغطاء النباتى والحيوانى والبشرى إبان كل من أدوار المطر . ثم تعتصر كل هذا وتدفع به إلى خارجها عندما يحل الجفاف ، بل كانت محصلة ذلك التابع بين المطر والجفاف أن كانت الهجرات البشرية الكبيرة أو الصغيرة تخرج من نطاق السهوب وأشباه الصحارى إلى الأراضى المجاورة ومناطق الاستقرار القديم على بعض أطراف القارتين وما يتصل بها من سهول أوروبا التى تعتبر امتدادا للقارة الآسيوية .

٢ - ولن ندخل فى تفاصيل تلك الذبذبات والهجرات فى عصور ما قبل التاريخ . وإنما الذى يعيننا فى هذا البحث هو العصر التاريخى ثم العصر العربى والإسلامى منه بصفة خاصة . وفى العصر التاريخى القديم (الذى توافق مع جانب من العصر الفرعونى فى مصر) خرجت غزوات متعددة لا سيما من

منطقة السهوب في داخلية آسيا . فقد خرج « الهونج نو » القدماء إلى شمال الصين وخرج الآريون ومن سار في أعقابهم إلى شمال الهند وهضبة إيران، وخرج الهكسوس من داخل تركستان إلى أطراف إيران والاناضول ثم إلى مصر في أواخر الألف الثانية قبل الميلاد ، ولابد أن هجرات مماثلة (وإن كانت أقل في عددها وأثرها) قد خرجت من داخل الصحراء الإفريقية إلى الأراضي القابلة للاستقرار في شمال إفريقيا (أو في مصر أو على طول النطاق السوداني جنوب الصحراء ، حيث قامت حضارات قديمة ولكنها أحدث من حضارة مصر الفرعونية الأولى . وتلك الظروف القديمة في العصر التاريخي لاتزال تستحق المزيد من الدراسة والتقصي بالنسبة للتاريخ الحضاري في كل من آسيا وإفريقية وما يلامسهما من مهادر الحضارات القديمة في البحر المتوسط وما إلى شماله من جهة ، وفي داخلية إفريقيا وجنوب آسيا من جهة أخرى .

٣- أما عن العصر العربي ومولد الإسلام الذي داخله فإن الصورة أوضح وأكثر جلاء . وقد بدأ العهد العربي بمفهومه اللغوي والثقافي خلال القرون الأولى من العهد المسيحي . وبعد أن تطورت الكتابة العربية من الكتابة النبطية ، وتطورت اللغة عن أصولها السامية واتخذت نطقها ومنطقها العربي الذي تطور كثيرا وبلغ صورته الأولى المجيدة فيما نسميه بالعصر الجاهلي ، حتى أنزل كتاب الله في مطلع الإسلام فاضفى على اللغة بهاءها وجلالها قولاً وترتيلاً وكتابة وصياغة وبلاغة حتى أصبحت العربية هي لغة التلاوة والعقيدة والعبادة ، وتوطدت مكانتها لغة للأدب والفن وجمال التعبير البشري ، بل لغة الحضارة والمدنية والثقافة والسياسة جميعاً ، وحتى بالنسبة لمن لم تنتشر العربية بينهم من المسلمين غير العرب فإن جمال التذوق الحسى والسمعى للقرآن جمع بينهم وبين المسلمين العرب وأبناء العربية . ومن هنا كان الدور التاريخي الكبير الذى لعبته العربية لغة دين ولغة حضارة في آن واحد ، بحيث تصعب التفرقة بين العروبة وبين الإسلام اللذين جعلت منهما لغة العقيدة أمة واحدة .

٤- وفي هذا العهد الإسلامى وما سبقه من العهد الجاهلي ، لم تكن التغيرات المناخية التى صاحبت الجفاف النهائى الذى لا نزال نعيشه . . . لم تكن هذه

التغيرات إلا بمقدار ضئيل في حد ذاته ، وما نظن أنه تجاوز الستيمترات الخمسة أو العشرة بالنسبة لكمية الأمطار السنوية في أقاليم الصحارى العربية ، ولكن هذا القدر من التغير نحو الجفاف كانت له فعاليتيه الكبيرة والبالغة ، لأن الأمطار الساقطة كانت تمثل هامش « الكفاف » ، فإذا زادت أو قلت أو تذبذبت من سنة لأخرى فإنها تكون ذات أثر بالغ بالنسبة لحياة الرعاة والأعراب ، بل حياة الكلا والحيوان والإنسان جميعا ، وأغلب الظن أن الجفاف الذى حل اتخذ صورة الذبذبة من سنة لأخرى مع ميل إلى قلة الزوايع الماطرة بالتدريج مع تقدم الزمن ، حتى استقرت حالة الجفاف الحالية خلال نهاية القرن الخامس بعد الميلاد ، وإن كان هذا في حد ذاته تقديرا واستتاجا شخصيا أكثر منه استنباطا علميا دقيقا .

٥ - وسندنا في استقراء ما حدث من تغير مناخى وجفاف تدريجى في تلك الفترة هو سند ذو شقين . فأما الشق الأول فهو القرائن التاريخية التى تستنبط من النصوص القديمة التى وصلتنا عن كتاب العهد الإغريقى الرومانى ، لاسيما عن جنوب الجزيرة وأرض اليمن وحضرموت ، أو تستقى من بعض الحكايات والروايات التى بقيت لنا فيما تركه كتاب العرب في العهد الإسلامى الأول ، لاسيما من شمال الجزيرة . كذلك ما تداولته الأجيال عن حركات الاضطراب والهجرة داخل الجزيرة العربية ، ومنها إلى أراضى الاستقرار وموارد المياه الجارية أو الساكنة في آبار الأرض وواحاتها خلال العهد السابق لظهور الإسلام ، وخلال « أيام » العرب وحروبهم التى وصلتنا أنباؤها لتقص علينا عبرة الاضطرابات القبلىة والنزوح والتشاحن بين البدو في وقت شح فيه المطر ونضبت الآبار وجف الكلا الذى كان الأعراب يعتبرونه « ملكية مشاعة » بينهم لكل منهم فيه نصيب يحل لصاحبه أن يأخذه ولو غلابا .

٦ - أما الشق الثانى من سندنا في افتراض تغير المناخ فهو « الأدلة » الأثرية أو « الأركيولوجية » . ويستمد هذا السند من دراسة الآثار القديمة التى خلفتها الحضارات والشعوب القديمة في مختلف أرجاء الجزيرة العربية . وهذه الآثار يوجد بعضها في شمال الجزيرة ومثلتها في جنوبها . ففي الشمال هناك

«الصهاريج» القديمة التى بنيت لتجميع مياه الأمطار فى العصر الأغرقي الرومانى (أو ما يعادله) وهى الآن جافة لا تكفى الأمطار المتسربة إليها لمثلها، فضلا عن أن بعضها قد ردمته الرمال والأتربة المتراكمة . كما أن شمال الجزيرة توجد به آبار حفرت فى عصر الرومان وبطنت جوانبها بالحجر . ولكن الملاحظ الآن أن مستوى المياه الجوفية فى هذه الآبار قد انخفض عنه فى العصر الكلاسيكى (اليونانى الرومانى) . ومعنى ذلك هو بالطبع انخفاض كمية الأمطار الساقطة والتى هى المصدر الأساسى للمياه الجوفية . وفوق ذلك فإن شمال الجزيرة العربية عامر بآثار المباني القديمة الضخمة وبعض بقايا المدن التى اندثرت لأسباب طبيعية أو أسباب بشرية أخرى . أما جنوب الجزيرة (ومنطقة اليمن وحضرموت العليا بالذات) ففيها آثار كثيرة لصهاريج قديمة لا تكفى مياه المطر الحالى لمثلها . وفصلا عن ذلك فإن الحضارات القديمة فى بلاد اليمن وأطراف حضرموت ، وهى حضارة معين وحضارة سبأ وحضارة حمير قد قامت أولاها فى جهات داخلية ومتوسطة الارتفاع (فى منطقة الجوف التى لا يكاد ارتفاعها أن يزيد على نحو ألف متر فوق البحر) ثم حدث بالتدريج أن اضطرت القبائل فى عهد سبأ وحمير إلى الارتفاع على المرتفعات إلى مستوى نحو ١٢٠٠ متر فوق البحر أو أكثر ثم إلى مستوى ١٨٠٠ متر (وما فوقها) ، وظاهر أن هذا الارتفاع والتسلق التدريجى نحو القمم إنما جاء نتيجة لجفاف داخلية الهضبة وجفاف سفوحها الداخلية السفلى وتركز الأمطار على مناطق القمم العالية .

ومثل هذه الأدلة الأثرية لا بد وأن تكون موجودة فى جهات أخرى من الجزيرة العربية ، لا سيما فى منطقة عمان ونحوها من المناطق العالية التى تتلقى الرياح شبه الموسمية وأمطارها التى يبدو أنها ضعفت بالتدريج فى خلال القرون القليلة التى سبقت ظهور الإسلام .

٧ - وإذا صح ما نستنتجه من أن الفترة ما بين القرن الثالث والقرن الخامس أو السادس بعد الميلاد كانت فترة جفاف تدريجى حل ببلاد العرب ، فقد كان من الواجب أن نتظر خروجاً للبدو من الجزيرة فى تلك الفترة . ولكن أسبابا

أخرى أدت إلى « تأجيل » هذا الخروج ، وربما كان من العوامل الأساسية في هذا التأجيل أن الجزيرة العربية كانت في أصلها فقيرة بالسكان بسبب أن سهوبها ومراعيها أفقر من منطقة السهوب في أواسط آسيا وافقر من مناطق السافانا في سهول السودان أو شرق إفريقيا ، وبذلك فإن العدد الإجمالي للبدو العرب كان محدودا نسبيا . ومن هنا فإنه لم يكن كافيا لخروج كبير شامل كذلك الذى خرج من داخلية آسيا إلى شرقها وغربها ، وإنما كان عدده كافيا بالكاد لاجتياز الهجرات الداخلية في الجزيرة وحركات الغزو المحلى الذى ساعد عليه ظهور الحصان العربى ، الذى زاد من سرعة الحركة ، وكان وسيلة الغزو الأساسية في حركات الاضطراب .

٨- وهناك عامل آخر سياسى قد ساعد أيضا على تأجيل حركة الخروج . وذلك أن الأصل في حركات خروج الرعاة أنهم يسعون للتوسع والسيطرة على بلاد الحضارة المستقرة المجاورة ، كما حدث في حالات خروج الرعاة من داخلية آسيا إلى مناطق الاستقرار في الصين والهند وأطراف الإمبراطورية الرومانية وقت ضعفها ، بل وفي أوقات ضعف بعض الدول الإسلامية المستقرة في أرض العراق وأطراف الشام ، حين أغرى ذلك جحافل المغول والتتر ثم الأتراك على غزو أطراف العالم الإسلامى في غرب القارة . وأما في حالة العرب قبل الإسلام فقد كانت هناك دولتان عظيمتان هما دولة الفرس ودولة الروم ، وقد أقامت كل منهما « دويلة » عربية من اللخميين والغساسنة على حدودهما وجعلت منها سياجا يحول دون توسع البدو وغزوهم للأراضى المستقرة . وقد نجحت الإمبراطوريتان في حفظ الأمن واحتواء الأعراب في جزيرتهم . وهذا عامل سياسى كان له أثره التاريخى الكبير في تأجيل الخروج العربى لقرنين أو ثلاثة قرون .

٩- ولكن السمة التاريخية والحضارية الكبرى للخروج العربى في عهد الإسلام هي أن العرب لم يخرجوا هذه المرة من بلادهم صفر اليدين من الناحية الحضارية والفكرية والروحية ، بل إنهم حملوا معهم - ولأول مرة في تاريخ الجزيرة العربية - رسالة العقيدة الجديدة التى لم تكن مجرد ديانة بالمعنى الضيق للكلمة ،

وإنما كانت تمثل غطاء جديدا من الحضارة يجمع بين العقيدة واللغة والنظام الاجتماعي الجديد ، بل يسجل نبراسا من الحكم ينطوى على مبادئ الإخاء والمساواة والعدل ، كما يربط بين العبادات والمعاملات جميعا في نسيج متكامل . ومن هنا فقد هدف خروج العرب هذه المرة إلى العطاء قبل الأخذ ، وكان العطاء الروحي والاجتماعي الذي لم تألفه الغزوات التي كانت تخرج من مناطق السهوب وأشبه الصحارى في فترات القحط والجفاف والمجاعة ، وبذلك فإنها كانت حركة تستهدف البناء الحضارى ، ولا تنزع إلى التخريب المادى أو الفكرى .

وهناك ملاحظة هامة ينبغي تسجيلها في مجال انتشار الإسلام . ذلك أن توسع السلطان العربى قد استند إلى قوة الغزو العسكرى . ولكن انتشار الإسلام كدين وعقيدة لم يؤمن نفسه بالقوة بين الشعوب المفتوحة . فقد ساد المبدأ الأساسى « لا اكراه في الدين » منذ اللحظة الأولى للغزو الذى كان غزوا عربيا إسلاميا بالمعنى الدينى الخالص . ومن المفيد في هذه المناسبة أن نذكر على سبيل المثال أن انتشار الإسلام وعقيدته في داخلية آسيا إلى مناطق السهوب الشرقية في أرض المغول لم يحدث مع انتشار سلطان العرب إلى تركستان وأطراف المناطق الرعوية المغولية بل لم يأت في وقت قوة التوسع العسكرى والسياسى في القرن الثامن وما بعده ، وإنما جاء بعد ذلك بقرنين آخرين أي في عهد ضعف السلطان العربى وغزو المغول للشرق الأوسط وأحراق إحدى عواصم الفكر السياسية (وهى بغداد) فقد وصل المغول إلى الشرق الأوسط وهم على غير الإسلام ، ثم لم يلبث الإسلام أن فتح قلوبهم وانتشر في عقر دارهم في وقت كانت القوة السياسية والعسكرية للإسلام أضعف من أن تفتح بلادهم وتنشر فيها العقيدة الجديدة . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن انتشار الإسلام في أرض المغول والتتر لم يتزامن مع عصر قوة العرب السياسية والعسكرية .

١٠ - لقد كان من الطبيعى أن تأتى حركة الانتشار الكبرى من بلاد العرب الوسطى والشمالية ، وأن يكون الخروج الأساسى بالبر لأن معظم العرب رعاة وبدو

بريون . وقد كان محور هذا الخروج البرى إلى الشمال (إيران وما وراءها) من جهة والشمال الغربى (مصر وما وراءها) من جهة أخرى . أما اتجاه الشمال المباشر للجزيرة أى نحو جبال الأناضول وأرمينيا ، فإن اتجاه الجبال هنا كان من الشرق إلى الغرب متعامدا على مسار الخروج العربى ، كما كانت تقل فيه المنافذ والأودية التى تخترقه فى اتجاه منطقة أرمينيا . ولذلك فإن العرب لم يتقدموا فى هذا الاتجاه وإنما انحرفت حركة التوسع نحو إيران وما وراءها . أما إنتشار الإسلام فى الأناضول ذاته فإنه قد جاء على أيدي الأتراك العثمانيين الذين جاءوا من ناحية الشرق وساروا فى اتجاه سلاسل الجبال حتى دخلوا أودية الأناضول وهضابه ، ثم وصلوا آخر الأمر إلى مداخل البلقان وجنوب شرق شبه القارة البلقانية . وهذا مثل طيب لأثر الظروف الطبيعية والتضاريس فى اتجاهات التوسع والانتشار البشرى ، ولقد سبق لنا أن عالجنا تفاصيل التوسع البرى والانتشار عن طريق الهضبة الإيرانية إلى تركستان فى القرن الثامن والقرنين التاسع والعاشر ، ثم العودة من هناك إلى شمال غرب الهند والدخول بالإسلام إلى هناك ، بعد أن كانت طلائع الانتشار من تركستان فى اتجاه الشرق قد توقفت عند أبواب إمبراطورية الصين ، حتى جاء الوقت ففتح الإسلام قلوب المغول وجحافلهم فى أيام قوتهم وغزوهم للمشرق العربى فى القرن الثالث عشر فخسروا المعركة التى وقفت مصر فى وجهها ، ولكنهم كسبوا الدخول إلى ساحة الإسلام . كذلك سبق أن عالجنا حركة الخروج بالبر إلى شمال سيناء ثم مصر ومنها إلى شمال إفريقيا التى خرجوا منها إلى الأندلس ، كما دارت قبائلهم مع المغرب إلى سواحل إفريقية الغربية ثم إلى سهول السودان العربى وسهول السودان الشرقى حتى التقى التيار الآتى من الغرب مع التيار الذى جاء إلى السودان الشرقى عن طريق مصر ووادى النيل . وهذه حركة من أهم حركات التوسع والانتشار البرى وأبرزها وأطولها فى جميع شمال القارة الإفريقية .

١١ - ولكن القصة التى تعتبر العرب أمة « برية » كان خروجها الأساسى بالبر ، لايحوز أن تغطى على الحقيقة الثانية والهامة ، وهى أن العرب من حيث مكانهم

في نشر الإسلام كان لهم دورهم « البحري » بقدر لا يقل كثيرا عن دورهم البري . والواقع أن تسمية « الجزيرة العربية » في حد ذاتها تدل على ارتباط اليابس بالماء في الطبيعة ، وحتى إذا اعتبرنا أن بلاد العرب هي في حقيقتها « شبه جزيرة » وليست « جزيرة » بالمعنى الكامل ، فإن تداخل الماء باليابس وإحاطته به إحاطة شبه كاملة كان له أثره الكبير والدائم في حياة العرب وارتباط العديد من شواطئ شبه الجزيرة بالنشاط البحري في مختلف أعصر التاريخ . ولقد كان لبلاد العرب أربعة بحار تطل عليها الشواطئ الطويلة . وتقوم عليها المرافئ الطبيعية والموانئ العريقة . وأول هذه الشواطئ شاطئ فينيقية القديم الذي عرف أحيانا (في العصور القديمة والوسيطة) باسم الشاطئ « اللينطي » وهذا هو الشاطئ الذي قامت عليه موانئ فينيقية القديمة ثم المرافئ التي خلفتها في العصور اللاحقة . وقد نشطت الملاحة بينها وبين شواطئ مصر القديمة ، حيث كانت تنقل الأخشاب القديمة إلى مصر وتنقل الأفكار والمعالم الحضارية من مصر إلى هذا الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط ، كما أن المعالم الحضارية المصرية القديمة (وأهمها « الكتابه » القديمة) أنتشرت من فينيقية إلى قرطاجة على شواطئ تونس في مغرب البحر المتوسط . وفي العهد الوسيط نشطت التجارة بين هذا الشاطئ وشواطئ إيطاليا وغرب البحر المتوسط ، ثم أخيرا في العهد الحديث أصبح شاطئ لينطة ولبنان مصدرا « للهجرات » العربية الحديثة إلى أراضي « المهجر » في الأمريكيتين ، وكذلك على شواطئ إفريقية الغربية الاستوائية وشبه الاستوائية .

والشاطئ الثاني للجزيرة العربية هو شاطئ البحر الأحمر ولكن هذا الشاطئ العربي لم تكن له حافة برية (جبلية مخضرة) كتلك التي كانت لشاطئ لينطة ، ولم يكن به غير القليل من الموانئ الطبيعية الصالحة كقواعد للملاحة ، فضلا عن أن شطوط المرجان وجزره كانت تكتنف أغلبه . ولذلك كله فإنه لم تكن هناك هجرات ولا اتصالات ملاحية واسعة النطاق ، وإن كان الأمر لم يخل من بعض الهجرات القليلة العدد والتي خرجت من أرض الحجاز وما إلى جنوبه وعبرت البحر الأحمر إلى شواطئ إفريقية المقابلة ، ولكن على دفعات

متباعدة وقليلة الأثر . ولعل من أبرزها ما بقى لنا من آثار الهجرة الأولى (على
دفتين) للمسلمين الأوائل الذين اضطهدتهم قريش فهاجروا بدينهم وحرثهم
إلى شواطئ أريتريّة المقابلة .

والشاطئ الثالث والهام للجزيرة هو شاطئ الخليج ، ويلاحظ فيه أن
الجانب الغربى (العربى) كان أقدم فى نشاطه (الذى يرجع إلى ما قبل التاريخ)
من الجانب الشرقى (الفارسى) . كما أن الاستقرار فيه أنشأ حضارات يرجع
بعضها إلى ما قبل أن يبدأ التاريخ ، بل إنه ليقال (فى رأى بعض الباحثين) إن
هذا الشاطئ الغربى للخليج كان الموطن الأول لبعض الفينيقيين قبل أن ينتقل
هؤلاء الأخيرون إلى شواطئ ليبنة القديمة على البحر المتوسط . كذلك فإن
الخروج والانتشار البحرى من ذلك الجانب من شاطئ الخليج العربى كان فى
أكثر من اتجاه . فهناك نشاط بحرئى قديم امتد إلى ساحل شط العرب حيث
قامت شاراتكس سبازينو (المحمرة) القديمة على الشاطئ ، والتي التقى فيها
نشاط العرب بنشاط الاغارقة القدماء ، وقامت فى خارج شط العرب بعض
القواعد التجارية والملاحية القديمة ، لا سيما فى جزيرة فيلكة فى مواجهة
الكويت الحديثة . أما إلى الجنوب من ذلك فقد قام ميناء « جره » القديم وما تلاه
من الموانئ على الشاطئ أو فى جزر البحرين وخلافها ، وهى كلها مرافئ
قام فيها النشاط الملاحى ونشاط صيد اللؤلؤ وغير ذلك مما قامت عليه التجارة
والتبادل . ومن المفيد أن نلاحظ فوق ذلك أن موانئ الجانب الغربى (العربى)
قد وسعت نشاطها وتوسعت فى بعض المرافئ والموانئ على الجانب الشرقى
(الفارسى) للخليج ، فقد انتشرت بعض القبائل إلى أرض « عربستان » عند
رأس الخليج جنوب شرق المحمرة ، واستقرت بعض العناصر من الملاحين
والتجار العرب فى ميناء سيراف القديم على الجانب الفارسى ، واستمرت
الحال على هذا النحو خلال العصور الوسيطة ، حتى نشطت بعض العناصر
الفارسية بعد ذلك وتوسعت إلى جزر البحرين وغيرها على بعض الشواطئ
العربية ولكن الشئ الذى ميز منطقة الخليج برمتها هو التوسع من
الشواطئ الغربية فى منطقة عمان (بصفة خاصة) إلى ما وراء البحر فى اتجاه الهند

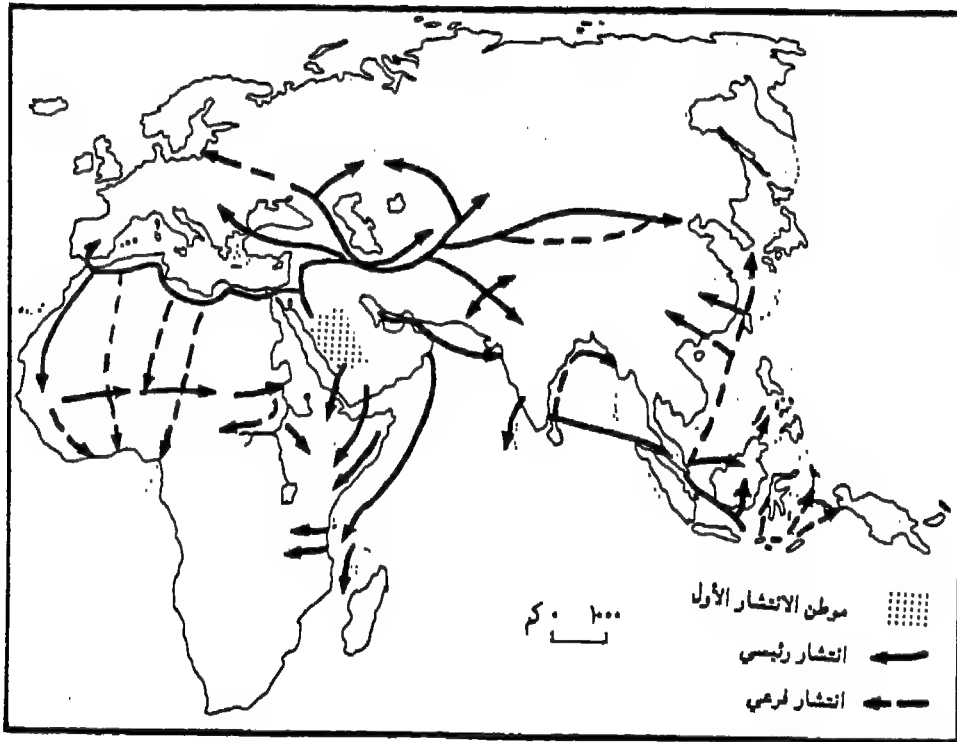
والمشرق البعيد من جهة وشواطئ شرق إفريقيا وأرض « الزنج » وزنجبار وسفالا من جهة أخرى . وقد سبق هذا التوسع وصول البرتغال إلى شرق إفريقيا وأرض الهند ، ثم استمر بعد ذلك في عهد التوسع الأوربي الحديث على أيدي الهولنديين والبريطانيين وغيرهم . وزاد ذلك من الروابط الوثيقة بين أرض عمان وشواطئ إفريقيا الشرقية على نحو لا تزال آثاره باقية معنا حتى الآن .

أما الشاطئ الرابع للجزيرة العربية فهو شاطئ اليمن وحضرموت ، وهى شواطئ كانت تكون جانباً من شواطئ بلاد «بُنت» القديمة ، أو هى على الأقل كانت وثيقة الاتصال بها ، وقد كان لها دورها القديم حين كانت على اتصال بأرض مصر منذ الأسرة الحادية عشرة وربما قبل ذلك ، ثم إزداد اتصالها بمصر في عهد الدولة الفرعونية الحديثة ثم في عصر الإغريق والرومان والبطلمة . ثم ازداد التوسع العربى بعد ذلك واستمر مع أرض الصومال وهضبة شرق إفريقيا حتى الآن . ولكن الحركة الحديثة والهامة ، إنما هى خروج الحضارمة من واديهم وهجرتهم في أعقاب الاستكشافات البرتغالية والإسبانية والهولندية الحديثة إلى شواطئ الهند ثم الهند الصينية وجزرها من أرض الملايو واندونيسيا ، حيث استقر العرب تجاراً ووسطاء بين أهل المشرق الآسيوي البعيد وبين تجار أوروبا . ولكن الشئ الذى ينبغى أن نتذكره هو أن التجار العرب استطاعوا (رغم أعدادهم المحدودة نسبياً) أن ينشروا الإسلام والفكر الإسلامى بين السكان الأصليين وأن يقفوا سداً في مواجهة العقيدة المسيحية التى دخلت مع المستعمرين بحيث إن الإسلام غلب على جزر المالديف وشواطئ الملايو وماليزيا وأرخبيل أندونيسيا والأجزاء الجنوبية من الفلبين وما جاورها . ولم يتوقف المد الإسلامى إلا بسبب الإسبان ودخول ديانتهم الكاثوليكية في شمال جزر الفلبين .

١٢ - والملاحظة الأخيرة التى علينا أن نشبها بالنسبة للخروج العربى القديم والتوسع بالبر والبحر هى أن هذا الخروج قد استند إلى أصول قديمة وسابقة على ظهور الإسلام ، ولكنه لم يتخذ صورة « حضارية » تقوم على إبلاغ

الرسالة ، ونشر « العقيدة » والنظام « الاجتماعى » الجديد ، وتساعد على الترابط الإسلامى ومبادئ الأخاء ووحدة « أمة » المسلمين . . . لم يتخذ الخروج العربى هذه الصورة الجديدة التى خلدهت على الزمن إلا بعد ظهور الإسلام ونزول رسالته التى اتخذت صفة التبشير ، وفرضت على المسلم أن يبلغها إلى غيره من جيرانه والوقوف وراءهم . ومن هنا فإن الخروج العربى الإسلامى جاء مختلفا عن خروج الرعاة الوثنيين من داخلية القارة الآسوية قبل ظهور الأديان السماوية ، وحتى بعد ظهورها ، فكان خروج الرعاة الوثنيين خروجاً مغرباً قام على الفتح الغاشم . أما الخروج العربى فى عهد الإسلام فقد جاء ومعه رسالة سماوية تدعو إلى الحق ومبادئ الأخاء والعدل ، بل تدعو إلى إقامة أمة من المسلمين المتساوين فى الجاه وفى الحقوق الإنسانية بعامة . ولذلك فإن هذا الخروج الإسلامى لم يكن مغرباً ، وإنما هو قد ساوى بين الغالب والمغلوب ، وبين العربى والأعجمى والرومى ، وسمح للمسيحى وأهل الذمة جميعاً فى الاحتفاظ بعقيدتهم وممارستها فى حرية . ولقد كانت هناك أسباب طبيعية (من تغير المناخ وشتيوع الجفاف) تدعو إلى خروج العرب قبل ظهور الإسلام بقرنين أو ثلاثة ، ولكن قيام الدولتين الرومية والفارسية كما رأينا قد كبح جماع الرعاة وأجل خروجهم من أراضيهم . كذلك فإن قيام الوساطة التجارية بين جنوب بلاد العرب وبحاره وبين شمال الجزيرة وأسواق الشمال (لا سيما الرومية منها) ، فقد أوجد فرصة للعمل فى التنقل والتجارة الرابعة أمام القبائل العربية (لا سيما قريش) وساعد بالتالى على تأجيل الخروج ولكن المهم أن ظاهرة الهجرة إلى الخارج بالبر والبحر لم تتوقف عند حد العهد السابق للإسلام والذى تلا ظهوره مباشرة ، وإنما استمرت بعد ذلك ولو على فترات فى حين أصبحت ظاهرة مستمرة ومستقلة جعلت صلة بلاد العرب بما حولها وما وراء بحارها صلة دائمة . حتى إذا ما جاء عهد الاستعمار الحديث وخرجت أوربا إلى ما وراء البحار فى الأمريكتين وشواطئ إفريقيا الغربية والشرقية ثم بلاد الهند وجنوب شرق آسيا ، كان العرب مؤهلين لأن يسيروا فى هذا التيار ، ولأن يخرجوا بنشاطهم البحرى والتجارى والثقافى (بل

والحضارى العام) إلى بلاد المهجر الغربى أو بلاد المهجر الإفريقى أو المهجر الشرقى الأقصى ، وأفرد لهم ذلك مكانة خاصة بين شعوب العالم الحديث خلال القرون القليلة التى تلت عهد الاستكشافات الأوربية والتوسع الاستعمارى الأوربى الحديث ، فلم يكن العرب شعباً مستعمراً ، ولم تكن حركة التوسع العربى المعاصر حركة تساندها الحكومات أو الهيئات التبشيرية (المسيحية) الحديثة (كما حدث بالنسبة للتوسع الاستعمارى فى العالم القديم والعالم الجديد على حد سواء) وإنما كانت حركة التوسع العربى الحديث كلها حركة شعبية قام بها الملاحون والتجار العرب المتحمسون لنشر دينهم وعقيدتهم تطوعاً وحباً وكرامة ، على نحو لم تكن تعرفه العناصر الأوربية والحكومية والكنسية التى اختلط عملها الاستعمارى بعملها التبشيرى . أما العرب المسلمون والمسيحيون (على سواء) وهم الذين خرجوا فى العهد الحديث من جزييرتهم فلمنهم أعادوا السيرة الأولى التى عرفها التوسع العربى فى مطلع الإسلام ، فأعاد التاريخ نفسه بالنسبة لقصة الخروج والتوسع العربى ، توسع تجارة وتوسع حضارة وتوسع دين وعقيدة على نحو مازج بين حضارة العرب وحضارات الشعوب الأخرى ، وزاوج بينها على نحو يبنى الحضارة الإنسانية على أساس من التكامل والتآخى والسلام ، وهو درس ما أجدر الإنسانية أن تذكره ، وأن تعى مغزاه التاريخى العظيم .



طرق انتشار الإسلام في العالم القديم

« ٦ »

العروبة و مصر

**(تأصيل العلاقات بينهما فى المكان
والزمان)**

العروبة و مصر

(تأصيل العلاقات بينهما فى المكان والزمان)

موضوع العلاقة بين مصر وسائر أرض العروبة فى آسيا وإفريقية موضوع يستأهل النظر والتأصيل ، لاسيما وأن النظرة الظاهرية ترد هذه العلاقة إلى العهد العربى ولا تكاد تتجاوزه فى القدم إلى ما قبل ذلك ، إلا بقدر محدود . مع أن حقيقة الأمر أن تلك العلاقات هى أقدم من ذلك بكثير . والنظرة المدققة ترد الاتصال الأول بين مصر وسائر مواطن العروبة إلى عهود موعلة فى القدم . حتى إنه كانت هناك مدرسة لبعض الباحثين فى أصول مصر الفرعونية تحاول أن تنسب أصل الفراعنة إلى هجرة من شمال الجزيرة العربية إلى أرض النيل الأدنى ، وهو رأى فيه شىء من المغالاة ، لأن تلك الصلات الأولى بين أرض الساميين وأرض النيل كانت صلات تجارية وحضارية ، ولم تأت فى شكل هجرة بشرية كبيرة . أما إذا كانت هناك هجرة فأغلب الظن أنها جاءت من جنوب الجزيرة العربية ، ومن موطن اللغة «الحامية» العتيق هناك إلى شرق إفريقيا ثم إلى شمالها الشرقى فى عهد تكوين اللغة المصرية القديمة ، التى استندت فى بعض أصولها إلى اللغة الحامية ، قبل أن تدخل إليها بعض المؤثرات « السامية » التى جاءت مع التجارة والاحتكاك التجارى بين الأرض السورية والأردنية والفلسطينية من جزيرة العرب وبين شرق الدلتا المصرية .

أوضاع العلاقات المكانية بين مصر والجانب المشرقي من أرض العروبة في عهدها العتيق :

لكننا قبل أن نتطرق إلى العلاقات التاريخية (وقبل التاريخية) بين مصر وسائر أرض المشرق العربى يجمل بنا أن نؤصل هذه العلاقات فى المكان ، بحيث نربط بين الأحداث التاريخية وبين الظروف الجغرافية الطبيعية التى كيفت تلك العلاقات وحددت طرقها ومسالكها بالبر أو بالبحر . فمصر تربطها بالجزيرة العربية طرق شتى ، قد يكون أهمها وأكثرها مباشرة برزخ شبه جزيرة سيناء . وهو المعبر البرى المتصل ، والذى دخلت عنه المؤثرات السامية ثم العربية . وقد يكون ثانيها فى الأهمية (غير المباشرة) معبر باب المندب ، الذى يربط بين جنوب الجزيرة وباقى أرض بونت القديمة وامتدادها فى شرق إفريقيا إلى أرض وادى النيل الأدنى ، الذى دخلت إليه مؤثرات اللغة الحامية فى عصر ما قبل التاريخ ، وقبل أن تتقدم الحضارة الفرعونية ، التى تغلب على لغتها الأصول الحامية قبل أن تضاف إليها المؤثرات السامية القادمة من الشمال الشرقى . ولكن معبر سيناء كان ولا يزال هو المدخل الشرقى الأهم بالنسبة لمصر وبالمعنى الفعلى الصحيح ، وقد حددت الطبيعة المسالك الأرضية التى رسمت طريق الاتصال والهجرة فيه . وأولها وأهمها طريق الساحل الشمالى بمحاذاة البحر المتوسط . وعلينا أن نذكر أن نهر النيل كان فى فجر التاريخ وأوائله القديمة يجرى منه فرع أصيل وهام هو الفرع البيلوزى (أو البلوزى) الذى كانت له دلتا تقع الآن فى سهل « بالوطة » جنوب بحيرة البردويل ، وتغطيها فى الوقت الحاضر رمال سطحية من الكثبان الساحلية ، وهذه الرمال تتشرب الأمطار الشتوية الساقطة حتى تصل مياهها إلى الطبقة الطينية غير المسامية ، فتكوّن طبقة من المياه الجوفية التى يستغلها الإنسان فى هيئة آبار من نوع « الجب » الذى أنزل إليه الصبى يوسف (عليه السلام) ، وبقي فيه حتى اكتشفت وجوده سيارة من التجار العابرين للساحل الشمالى إلى أرض الكنانة . وتلك الرمال تستمر شرقاً فى شمال شبه جزيرة سيناء وتتخللها كذلك الآبار التى كانت تمد التجار وجموع المهاجرين والقوافل بالماء على طول طريق الهجرة أو التجارة أو الغزو فى

الاتجاهين . ولا شك أن هذا الطريق الطبيعي كان هو همزة الوصل الميسر بين مصر وسائر أرض العروبة في المشرق ، وسبيل الاتصال في الاتجاهين عبر التاريخ . وإلى الجنوب من ذلك الطريق الشمالى المفتوح كانت هناك صحراء التيه . . . تلك الأرض القاحلة التى يتكون معظم سطحها من صخور الحجر الجيرى الذى يبتلع كل ما يسقط عليه من ماء المطر ، ولا يسمح بجريان المياه السطحية إلا فى أودية تبقى جافة معظم العام ، مما جعل المنطقة صعبة العبور ، وساعد على تكوين هذه الصحراء التى يبدو أن شعب إسرائيل تاه فيها أربعين عاما دون أن يصل إلى منتهى رحلته . ولا تزال منطقة التيه هذه صعبة العبور حتى الآن ، وتقوم حائلاً دون الاتصال الميسر مع مشرق أرض العرب .

ثم إلى الجنوب من هضبة التيه تقوم الكتلة الصخرية العالية ، التى تكون جبل سيناء بالمعنى التقليدى . وهى مكونة من صخور نارية وتجتذب قممها العالية بعض الرطوبة والأمطار ، وتنبت فى أوديتها بعض الأعشاب التى تيسر المرعى أو قد تقوم فيها بعض الزراعة على العيون أو الآبار . ولقد كان جنوب سيناء الجبلى مَعْبَرًا آخر بين أرض مصر وأرض مَدْيَن إلى الشرق من جبل سيناء . . . وهى الأرض التى كانت قاعدة حياة رعوية . أو شبه مستقرة فى بعض مواقعها . . . بل كانت قاعدة لحضارة هى أصل الحضارة النبطية التى انبثقت منها بعض جذور الحضارة العربية الأولى ، ولعلها كانت كذلك منبت الكتابة التى تطورت فيها بعد إلى الكتابة العربية ، لأن موقعها بين مصر والجزيرة العربية ، وكذلك بين جنوب بلاد العرب (اليمن) من جهة وبلاد الشام من جهة أخرى . . . ذلك الموقع جعل منها عقدة حضارية فى مثلث قديم من مثلثات الحياة والحضارة العربية الأولى ، فكان لها دورها الخاص فى قيام الصلات الحضارية الأولى بين مصر والشام واليمن وسائر أرض العروبة فى المشرق .

كل هذا عن الجسر البرى الكبير الذى أجرى مسيرة الاتصال وحدد معالمها بين مصر وباقى أرض العروبة خلال التاريخ . . . بل وقبل أن يبدأ التاريخ . ولكن هذا الجسر الأرضى كان له جناحان يجريان ، إحداهما إلى الشمال فى البحر المتوسط والآخر إلى الجنوب فى البحر الأحمر . وكان الجناح البحرى الشمالى يصل بين دلتا

مصر وسواحل فينيقية وليبنطة (الشام الجنوبي والأوسط) . والشئ الطريف أن الطبيعة ذاتها قد رسمت لونا غريبا من الصلة المادية بين نهر النيل وذلك الساحل العتيد . . . ذلك أن رواسب الحبشة التي يجلبها الفيضان في كل عام إلى ساحل الدلتا الشمالى يتكون بعضها من الرمال الثقيلة التى ترسب عند مصبات النيل ، ويتكون بعضها الآخر من رقائق الميكا البركانية الأصل والتي تطفو على سطح الماء ، لاسيما وأن مياه البحر مالحة ثقيلة ، فتدفعها التيارات المائية في اتجاه الساحل نحو الشرق والشمال الشرقى ، حتى ترسب على سواحل فينيقية وليبنطه ، وتمثل بذلك رباطا ماديا مع « تربة » نهر النيل . وسرى فيما بعد كيف أن هذا الرباط كانت له جوانب « حضارية » تمثلت أول ما تمثلت في صلة الثقافة مع أرض فينيقية القديمة ، وما انتقل إليها من حضارة الفراعنة . بل إن واقع الأمر أن اتصال مصر الفرعونية مع ساحل فينيقية وما وراءه من جبال لبنان إنما يرجع إلى عهود قديمة ، حين كانت الأخشاب تنقل إلى أرض مصر لصناعة السفن التى كانت من أشهرها مراكب الشمس التى كُشف عنها في جدار هرم خوفو الكبير .

أما الجناح البحرى الجنوبى للاتصال بين مصر وسائر أرض العربيه فهو ذلك الذى يمتد فى البحر الأحمر . . . تلك الذراع التى تمتد من القلزم إلى باب المندب . . . والتى كانت تطل عليها مرفأ قديمة ، أولاها عند رأس خليج السويس (ارسينوى القديمة ثم القلزم التى تلتها) ، وتمتد إلى بعض النقاط على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر ، والتى تنتهى إليها الطرق العابرة للصحراء الشرقية إلى مرفأ القصير القديمة ثم عيذاب إلى الشمال من سواكن وكانت الطرق القديمة تمتد من وادى النيل إلى شاطئ البحر الأحمر على طول الأودية الصحراوية ، وتنتهى كلها إلى مرفأ بحرية كانت شواطئها تكتنفها بعض المخاطر بسبب وجود الحواجز المرجانية . . . ولكن مخاطر الملاحة فى البحر الأحمر (ورياحه غير المنتظمة) لم تحل دون ركوب المغامرين من ملاحى مصر القدماء . . . ركوبهم البحر والارتحال وسط المخاطر ، ورغم تحطم المراكب والأشعة فى مغامرات سجل التاريخ وأحداثها وقصصها خلال العصور . . . وكانت رحلات تلك المغامرات تنتهى إلى الشواطئ الجنوبية للجزيرة العربية ، أو إلى شواطئ إفريقية المقابلة ، أو تمتد إلى عرض المحيط الهندى وبعض شواطئه ، دورانا حول الجزيرة العربية .

بدايات العلاقات بين مصر والجزيرة العربية قبل التاريخ :

كل ذلك عن الأوضاع الجغرافية المكانية التى حدثت طرق الاتصال بالبر والبحر. ولعل هذا العرض أن يكفى ليوضح كيف أن الطبيعة ذاتها قد مهدت لأن يبدأ الاتصال وأن تتيسر أسبابه منذ البدايات الأولى للنشاط البشرى قبل أن يبدأ التاريخ المكتوب . وهذا فى حد ذاته يبرز كيف أن ما درج عليه الكاتبون من قصر الحديث عن صلات العروبة على العصر « العربى » بمعناه الثقافى والذى درج التقليد على أن تبدأه بعد ظهور الكتابات « المعلاقات » والآثار الأدبية العربية قبل الإسلام ببضعة قرون قليلة . ولكن الحقيقة أننا نظلم « العروبة » حين نقصر بداياتها على ذلك العهد (العصر الجاهلى الأخير) . ولا بد لنا من أن نفترض وجود عهد من « الجاهلية الأولى » كانت العلاقات الثقافية والسكانية قائمة فيه عن طريق المسالك البرية والبحرية التى أشرنا إليها ، وإن كانت لم تتخذ طابعها « العربى الكامل » إلا مع ظهور الثقافة العربية كما أسلفنا ومعنى ذلك فى رأينا إنه كانت هناك « جاهليتان » أولاهما هى « الجاهلية الأولى » أو « جاهلية ما قبل التاريخ » هناك وثانيتهما هى « الجاهلية الثانية » أو « جاهلية ما قبل الإسلام » . وعلى الرغم من أن العروبة بمعناها التاريخى والتقليدى إنما تبدأ مع عصر الجاهلية الثانية ، فإنها بمفهومها « الحضارى » إنما تبدأ قبل ذلك بكثير بل إننا نستطيع أن نذهب إلى القول بأن العروبة لا يمكن أن تفهم فهماً صحيحاً بدون « جذورها » الحضارية فى عصر ما قبل التاريخ هناك ، وبدون أصولها « السامية » فى الشمال « والحامية » فى الجنوب وهى الجذور التى أثرت فى نشأة الحضارة المصرية ونشاطها حتى قبل أن يبدأ العهد الفرعونى كما أنها هى أيضاً قد تأثرت بغير قليل من المؤثرات الحضارية المصرية القديمة التى بدأت فى وادى النيل ، وانتقلت منه بالبر والبحر إلى قلب الوطن العربى القديم وأطرافه على شواطئ البحر المتوسط الشرقى والبحر الأحمر وما وراءه جنوباً إلى البحر الهندى وشواطئه العربية . بل إننا بهذا المفهوم الذى يستند إلى الأصول الحضارية التى سبقت التاريخ ، ثم يمتد عبر التاريخ القديم إلى الفترة « العربية » بحيث نستطيع أن نعيد صياغة مفهوم « العروبة »

ذاته . . . فنحدد حدود العروبة الأولى (السامية والحامية) على أنها تشمل الجزيرة العربية ومصر وشمال شرق إفريقية ، ثم تمتد إلى مناطق امتداد الحضارات السامية والحامية والمصرية الفرعونية في أرض شمال إفريقية ، حيث كانت لها القاعدة القرطاجية العتيقة في تونس ، ثم القاعدة الحامية البربرية التي سبقت ظهور العروبة الجزائرية والمغربية بعد ذلك ، حين اكتملت صورة العروبة بمداهها الواسع الكبير ، الذى امتد ليشمل ما نسميه الآن بالوطن العربى الكبير فى آسيا وإفريقية ، والذى كانت له امتدادات تاريخية موقوتة فى أرض الأندلس ، وامتدادات حضارية محدودة وموقوتة حاولت أن تحمل المؤثرات العربية فى اتجاه أوربا الجنوبية عن طريق صقلية أيام الملك روجر والجغرافى العربى الكبير الشريف الإدريسى .

على أنه قد يكون من الخير ، ونحن نعالج العهد الذى سبق قيام العروبة ومهد لها تمهيداً حضارياً . . . لعل من المفيد أن نسترجع بعض مظاهر الحياة والحضارة فيما نسميه بالعصر الحجري الحديث ، وهو عصر قيام حرفتى الرعى والزراعة اللتين ميزتا حياة العرب والعروبة بعد ذلك بحقبة طويلة . ولقد كان ظهور حرفتى الرعى والزراعة بمثابة ثورة بعيدة الأثر انتهت بعد فترة تطور تاريخى طويل بظهور حضارة العروبة . ولكن الشيء الطريف هو أن صلات الحياة والحضارة قد امتدت خلال فترة التطور الطويلة بين شقى الإقليم الذى أصبح فيما بعد هو موطن العروبة بمعناها التاريخى والثقافى . ولقد شمل ذلك الموطن القديم جنوب غرب آسيا من جهة وشمال شرق إفريقية من جهة أخرى . وكان هناك « تكامل » قديم جداً بين هذين الشقين ، وتمثل التكامل فى كل من مجالى الرعى والزراعة . فأما عن مجال الرعى واستئناس الحيوان وتربيته فقد كان أحد الحيوانات المستأنسة فى جنوب غرب آسيا هو فصيلة البقر ذى القرون القصيرة والتي تخرج مستقيمة من جانبى الرأس ، وهو حيوان بدأ استئناسه فى الشق الآسيوى ولم يدخل إلى مصر إلا فى عهد الدولة الفرعونية القديمة . وأما الشق الإفريقى (المصرى) فقد كان حيوانه البقرى المميز هو فصيلة البقر الإفريقى الذى يمتاز بقرونه الكبيرة والتي تخرج ملتوية على جانبى رأس الحيوان . وقد بدأ استئناسه فى مصر وشرق إفريقية فى العصر الحجري الحديث ، ولكنه استمر خلال العصر الفرعونى التاريخى ،

وأضيف إليه البقر الآسيوى الذى أشرنا إليه . وبذلك تكاملت الثروة الحيوانية وأثريت الحياة والحضارة فى المنطقة العريضة التى أصبحت فيما بعد « منطقة النواة » بالنسبة لوطن العروبة .

وكذلك فقد حدث مثل هذا التكامل بين جناحى « منطقة النواة » المشار إليها ، وذلك بالنسبة للثروة النباتية ولنشأة الزراعة والاستقرار الأقدم فى قلب العالم القديم . ولقد امتاز كل من الجناحين بنبات خاص من الزراعات التى تعتمد على الأمطار الشتوية ، فلقد كان جنوب غرب آسيا (ولاسيما منطقة جبل حرمون وسفوح جبل الشيخ فى أرض الشام) موطنًا تنمو فيه نباتات القمح البرى . وأغلب الظن أن هذه كانت أقدم منطقة اهتدى فيها أسلاف الإنسان العربى إلى زراعة القمح واستنباته ، ويبدو أن زراعة القمح قد امتدت من هناك فى أكثر من اتجاه ، بما فى ذلك الامتداد إلى أرض مصر والنيل الأدنى . ولكن هذه المنطقة الأخيرة (وامتداداتها فى شرق إفريقيا والحبشة القديمة من جهة وشمال إفريقيا من جهة أخرى) كانت بدورها منطقة نمو « الشعير » البرى ، بحيث ابتكر سكان وادى النيل زراعة الشعير المستنبت قبل أن يعرف ذلك غيرهم من الشعوب ، حتى فى جنوب غرب آسيا ، وبذلك كان سكان وادى النيل الأدنى أسبق الناس إلى زراعة الشعير ونشر زراعته إلى باقى شمال إفريقيا وشبه جزيرة سيناء والمناطق شبه الصحراوية المجاورة والتى يناسب مناخها زراعة الشعير ، لاسيما وأنها أيسر من زراعة القمح ، وتحمل ذبذبة ظروف المطر . ومن هنا فقد كانت مصر (التى تتمتع بفيضان النهر وبأمطار الشتاء على ساحلها الشمالى) أصلح البقاع بالتحديد للجمع بين زراعة الشعير وزراعة القمح . ولعل هذا الجمع أن يكون من أسباب أن حضارة العصر الحجري الحديث وما جاء بعده كانت أقوى جذوراً وأعنى ثروة فى أرض مصر ، والتى أصبحت قاعدة صالحة لظهور حضارات العصر التاريخى التى تلت ذلك . ولكن المهم أن نذكر أن هذه المنطقة فى مجملتها - وفى كل ما أصبح فيما بعد أرض العروبة فى آسيا وإفريقية - لم تعرف الانعزال حتى فى تلك العهود البعيدة ، وإنما عرفت الترابط والاتصال الذى مهد لظهور عهد العروبة الأولى مع مطلع التاريخ ، ثم عرفت بعد ذلك بقرون طويلة التمهيد لظهور العروبة الكاملة

مع نهايات عصر الجاهلية السابق لظهور الإسلام .
ويصح هنا أن نعرض لاكتشاف الزراعة ، خصوصاً زراعة الحبوب الشتوية
مثلة في القمح والشعير ، وهما النباتان اللذان ميزا منطقة العروبة الآسيوية
الإفريقية فيما نسميه بالعصر الحجري الحديث ، وهو عصر يصعب تحديد بدايته ،
إذ يبدو أن « اكتشاف » الزراعة لم يكن أمراً مباغتاً ولا هو قد جاء نتيجة « لاختراع »
يشبه ما نعرفه من الاختراعات المفاجئة الحديثة . وإنما جاء « اكتشاف » الزراعة
تدريجياً بحيث كانت هناك مرحلة من الانتقال من مرحلة الجمع والالتقاط إلى
مرحلة « حراسة » الحقول البرية ، وذود الطير والحيوان عنها حتى ينضج الحبوب ،
فكان الطبيعة علّمت الإنسان كيف يرعى النبات البرى قبل أن « يستنبته » . وإنه
ليصعب في مرحلة معرفتنا الحالية أن نحكم ما إذا كانت زراعة القمح قد سبقت في
الزمن زراعة الشعير ، أم العكس . ولا بد أن نتظر الوقت حتى نعثر على أدلة
أثرية قاطعة تعتمد على وسائل التحليل الإشعاعي (كربون ١٤ وغيره) يمكن
معه تحديد تواريخ بعض بقايا القمح أو الشعير المزروع القديم وعند ذلك
نستطيع إجراء المقابلة التاريخية بين المواقع الأثرية في الشام (والعراق) من جهة ،
وفي مصر من جهة أخرى . وما دامت هذه الصعوبة قائمة فإننا نفصل (في مرحلة
معرفتنا القائمة) أن نعتبر أن قيام زراعة الحبوب الشتوية في كل من غرب آسيا
وشمال شرق إفريقيا ، ظاهرة واحدة متكاملة وقعت على مراحل تدريجية خلال
فترة يرجح أنها تقع بين الألف التاسعة قبل الميلاد والألف السابعة أو السادسة قبل
الميلاد أيضاً . ولعل هذا أن يبرر اعتبارنا لشقى هذه المنطقة التى تتوسط قلب العالم
ممثلين معاً لمنطقة « النواة » بالنسبة لظهور الزراعات الشتوية للقمح والشعير ، وإن
كنا مع ذلك نرجح أن يكون « تطور » هذه الزراعة لتكتمل قبيل العصر التاريخي
المكتوب قد تم بصورة « أسرع » في أرض مصر ، لا لشيء إلا لأن منطقة غرب
آسيا كانت أمطارها شتوية ولكن فيضان أنهارها (غالباً بفضل ذوبان الثلوج) كان
يأتى في الربيع وأول الصيف ، بحيث يغرق حقول القمح فيها قبل نضجها . أما في
مصر فإن فيضان النيل في الخريف كان يتكامل وأمطار الشتاء ، بحيث يأتى
الفيضان ويتراجع عن جوانب النهر ودلتاه في أنسب الأوقات لبذار الشعير أو

القمح ، فتأتى الأمطار الشتوية (القليلة) لتغذى النبات حتى ينضج مع الربيع وأوائل الصيف . ومن هنا فإن البيئة الطبيعية في مصر كانت أنسب لتطور زراعة الحبوب وتقدمها على الزمن من البيئة الطبيعية في جنوب غرب آسيا .

اكتمال العلاقات بين الجزيرة العربية ومصر في العصور التاريخية (القديمة والعربية) :

تلك كانت هي الجذور البعيدة الأولى في الربط الحضارى بين شمال الجزيرة العربية وشمال شرق القارة الإفريقية . ولقد كان من الطبعى أن تنتهى تلك البدايات إلى اكتمال أسباب الاتصال في العصور التاريخية اللاحقة ، وهى علاقات شملت الطريق البرى البرزخى في سيناء ، وطريق الاتصال البحرى في جناحى البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وسارت وفق ذلك النسق الذى لمسناه في أواخر عصر ما قبل التاريخ المكتوب .

ويهمنا في الطريق البرى أن نذكر أن الأحداث كررت نفسها في العصر التاريخى بطريقة ملحوظة - فالطريق الشمالى من شبه جزيرة سيناء أصبح هو الجسر المطروق في أغراض التجارة وشىء محدود من الهجرة البشرية . ولعل من الخير كذلك أن نذكر أن الطريق البرى كان ينتهى في مصر عند قاعدة حضارية جديدة في منطقة « المعادى » التى تقع إلى الشمال قليلاً وإلى الشرق من قاعدة مصر الحضارية وعاصمتها في « منف » (على الشاطئ الغربى للنيل) وما كان يتبعها كذلك في منطقة « حلوان » مع الشاطئ الشرقى للنيل . وقد عثر في المعادى على آثار ترجع إلى قرابة أربعة آلاف سنة قبل الميلاد وبينها جرار فخارية من النوع « السورى » القديم ، وهى اسطوانية الشكل ولها مقابض جانبية من النوع « المتوج » الذى يكاد يحيط بأعلا الجرة التى تحمل بين اليدين حملاً عن طريق المقابض المتموجة حول الجرة . وقد عرف الأثريون أن تلك الجرار لم تكن تصنع إلا في أرض الزيتون بالشام . وكانت الزيوت تحمل فيها إلى الأسواق قرب العواصم المصرية القديمة . وهذا دليل التبادل التجارى القديم والعريق بين مصر وجاراتها في فلسطين والشام . وكانت المعادى القديمة إحدى أسواقها عند نهاية الصحراء الشرقية في

إطلائها على وادى النيل . ولا بد أن هذا الطريق قد بقى على الزمن ، لأننا نعرف أن الجرار السورية المشار إليها امتدت تجارتها إلى قلب الصعيد ومدائه في مصر العتيقة قبل أن يبدأ العصر الفرعونى . وذلك كله دليل العراقة في الصلات التجارية القديمة بين الشام ومصر .

أما طريق الجناح البحرى الشمالى فإن صلات الملاحة والتجارة امتدت إلى سواحل فلسطين وفينيقية القديمة . وكانت أخشاب الأرز اللبنانية هى السلعة الأساسية فيها ، وقد استخدمها المصريون القدماء في صناعة المراكب التى حلت في النيل محل القوارب المصنوعة من عيدان البردى التى تنمو في مناطق الدلتا ، والتى ساعدت المصريين على أن ينتقلوا بها على صفحة البحر المتوسط والبحر الأحمر جميعاً ، لأن مصر كانت محرومة من الأخشاب الشجرية المناسبة لصناعة المراكب التى تصلح للبحار .

وفضلاً عن ذلك فإن الانتقال التجارى في البحر المتوسط قد صاحبه انتشار وتبادل في الأفكار وألوان الحضارة والثقافة . ولعل فينيقية بما جبل عليه أهلها من التبادل التجارى والفكرى . . . لعلها كانت هى المستفيدة من الاتصال بمصر الفرعونية ، حين دخلت اللغة وأساسياتها إلى فينيقية ، فتطورت إلى لون من الكتابة . . . عاد الفينيقيون فنقلوه إلى غرب البحر المتوسط في أرض قرطاجة وتونس القديمة ، حيث استقرت الحضارة المتأثرة بالمدينة المصرية ، وبروح مصر الثقافية ، وبقيت كامنة في أرض تونس الخضراء حتى آن الآوان وارتد الفكر الروحى في قمة العهد العربى أيام الفاطميين الذين انطلقوا من قاعدة تونس والقيروان إلى قاعدة مصر « وقاهرة المعز لدين الله » . وكأن الأمر في ربط تونس والجناح الغربى للعروبة بأرض الكنانة لم يكن بالمصادفة أو بمثابة الحدث الطارىء والذى لا أصل له ، وإنما كان انعكاساً من التاريخ ، وصفحة جديدة منه تعيد إلى الأذهان صفحة قديمة ، كان التيار فيها من المشرق إلى المغرب ، ثم عاد بعد قرون عديدة ليرتد في صورة فكر وثقافة ونظم اجتماعية وسياسية . . . عاد ليرتد من المغرب إلى المشرق . وهكذا أثبتت الجغرافيا مرة أخرى أنها المسرح الأصيل لأحداث التاريخ طرداً وعكساً .

وأما عن الجناح البحرى الجنوبى لاتصالات مصر مع بلاد العرب عن طريق البحر الأحمر ، فإنها كانت تمثل صورة مختلفة بعض الشيء بحكم طبيعة البيئة ومقتضياتها . فهو كان اتصالاً تكتنفه بعض الصعوبات والعقبات الطبيعية التى سعى المصرى لأن يتغلب عليها . فالصحراء الشرقية كانت تقف حائلاً بين وادى النيل وساحل البحر الأحمر . وهذا الساحل أيضاً كانت رياحه أقل انتظاماً من رياح البحر المتوسط ، كما كانت تكتنفه شطوط المرجان وشعابه بكل أخطارها على الملاحة . وهو ساحل كانت طرق البحر تمتد فيه مسافات بعيدة عن أرض الوطن ، وتنتهى الرحلة فيه إما إلى جنوب الجزيرة العربية التى عرف المصريون فيها أبناء عمومتهم الآخرين من الحاميين ومن اختلط بهم بعد ذلك من الساميين ، كما عرفوا أرض البخور فى العصور القديمة التى يرجع بعضها إلى أسرات الدولة المصرية القديمة أو الوسطى أو الحديثة ، ثم عرفوا بعد ذلك أرض الحجاز المقدسة التى يقصدها الحجاج المصريون أو الحجاج العابرون من المغرب عن طريق مصر ووادى النيل وموانئ البحر الأحمر المصرية فى القلزم وعيذاب وغيرها . كما عرف المصريون القدماء أيضاً شواطئ بلاد « بونت » القديمة التى تشمل شواطئ إيرتية والحبشة القديمة والصومال إلى جانب بعض شواطئ جنوب غرب الجزيرة العربية ، وتلك جميعاً هى البلاد التى توثقت صلاتها بمصر الفرعونية ، لاسيما أيام الدولة الفرعونية الحديثة والملكة حتشبسوت بالذات . وقد رسمت صور الرحلات إليها على معبد الدير البحرى فى منطقة طيبة الغربية . وكانت تمثل أول اتصال مسجل بين مصر وسكان شرق إفريقية المتأثرين بالحاميين (ثم الساميين) الأقدمين . كذلك فإن مغامرات الرحلات المصرية فى البحر الأحمر وما وراءه قد سجلت أيضاً فى رحلات السندباد البحرى ومغامراته فيها وراء البحار .

صفوة القول : السمات الأساسية التى ميزت العلاقة

بين مصر والعروبة خلال التاريخ :

لعل فيما سبق ما يبرر الحقيقة الجغرافية والتاريخية ، بل والإنسانية الرائعة ، وهى أن الصلة بين مصر وسائر أرض العروبة ليست صلة طارئة ولا عارضة ،

وإنما هي صلة عضوية أساسية ، استمرت منذ ظهرت الحضارة البشرية في هذا القسم من العالم القديم . وقد كان طبيعياً مع ظهور الحضارات الإنسانية في العصور الحجرية السحيقة أن يغلب «التشابه» حتى بالنسبة إلى الصناعات الحجرية (الصوانية) بحيث يكون هناك تميز «إقليمي» له سماته المميزة بين الصناعات الحجرية الأولى في الإقليم الذى أصبح فيما بعد موطن العروبة . وإنما كانت الآلات الحجرية تتشابه في شكلها وصناعتها وأغراض استخدامها في وقت لم يكن الإنسان يعرف فيه غير الصيد والالتقاط سبيلاً للعيش .

ثم جاء العصر الحجرى الحديث فتميز هذا الإقليم كله بأنه إقليم نباتات الحبوب الشتوية وهى القمح بالنسبة لآسيا والشعير بالنسبة لإفريقية وقد اتصلت الزراعات الشتوية (المطرية أو المروية ، ولو جزئياً ، في بعض الأحيان) اتصلت بعضها ببعض ، وربطت بينها أسباب التطور في زراعة الأرض واستدراخ خيراتها وبناء الحياة والحضارة « المستقرة » ، وبداية الحياة المتمدينة في القرى الصغيرة والواحات ، ثم في القرى الكبيرة ، وامتداد التواصل بينها . وهو ما يبدو أنه ظهر في هذا الإقليم قبل غيره من الأقاليم .

ولقد كانت تلك هى البدايات الأولى لعصر « ما قبل العروبة » وهو عصر « السامية » « والحامية » في هذا الإقليم وامتداداته إلى الأقاليم القريبة . ولكن ذلك كان في حقيقة الأمر يمثل الجذور الأولى لما تطور فيما بعد ، وأصبحنا في العصر التاريخي القريب نسبياً نسميه بعصر « العروبة » وقد جاء مع ظهور العرب وثقافتهم العربية التى لا يمكن أن نفصلها عن أصولها السامية والحامية الأولى ، وإن كان إطلاق تسمية « العرب » « والعروبة » لم يعتمد الدارسون في مجال التاريخ إلا بعد عصر إبراهيم وإسماعيل ، وبروز أهل البادية في منطقة « النواة » التى شغلت الجانب الغربى والشمالى الغربى من جزيرة العرب وظهر ما يمكن أن نعتبره البدايات الأولى للحياة والثقافة العربية ، التى لم تلبث أن تبلورت في هيئة «كتابة» قديمة بالأحرف النبطية ، التى سبقت ظهور الأحرف «العربية» الأولى خلال القرون القليلة من أوائل العهد المسيحى ، وإن كانت لم تأخذ صورتها المميزة إلا في القرون القليلة السابقة لظهور الإسلام .

وإذن فإن من رأينا أن « العروبة » في اتصالاتها الواسعة بمصر وغيرها هي أقدم كثيراً مما تصوره لنا كتابات بعض المحدثين . ويخطئ الحقيقة من يتصور أن العروبة لا تكون إلا مع العهد الإسلامى . وقد رأينا كيف أن الاتصالات الحضارية بين مصر والأرض التي أصبحت بعد ذلك أرض العروبة (بالمعنى التاريخى) إنما هي تسبق فجر التاريخ ، وأن تلك العلاقات قد تنوعت لتشمل اتصالات العرق والتجارة بعامة . ولقد تميزت تلك الاتصالات منذ بداياتها الأولى بسمات كثيرة ، قد يكون من الخير أن نشير إلى بعضها فيما يلى :

١ - لقد استندت تلك الصلات إلى عوامل جغرافية امتاز بها المسرح الطبيعى الذى كيف أحداث تلك الاتصالات . وقد استعرضنا ذلك فى الطرق البرية والبحرية التى رسمت مسالك الاتصال . فهى إذن قد استندت منذ البداية إلى أسس طبيعية ثابتة . ولعل ذلك أن يكون هو الأصل والأساس فى أنها بقيت على الزمن ، ولم يعرف عنها إنها انقطعت انقطاعاً ظاهراً فى يوم من الأيام .

٢ - أنها كانت علاقات تقوم على « التحدى » منذ كانت . فالظروف الطبيعية ذاتها - سواء فى صلات البر أو فى صلات البحر - كانت تيسر الاتصال وتحفز القائمين به على « تحديها » دائماً . ويكفى فى هذا المجال أن نذكر أن الظروف الصحراوية تتحدى بطبيعتها أهل الصحراء فى أن يتلمسوا طريقهم بالليل والنهار للتعرف على البيئة التى يسافرون فيها ، ويركبون المصاعب ، ويهتدون بانجم الليل لمسيرة الظلام ، « وبتقصى الأثر » لمسيرة النهار ، والبحث عن الدروب والمسالك . كما يعمدون إلى استغلال موارد الطبيعة (ومنها إبل الصحراء) لقطع المسافات البعيدة ، وقهر الفياق ، والسير الخثيث والسريع لاجتياز المصاعب ، وشحذ غريزة الاستطلاع ، والملاحظة القوية لكل ما تقع العين عليه من معالم الطريق ، وتمثل ذلك كله فى حذق الأعرابى المرتحل منذ أقدم العصور . كذلك يكفى أن نذكر من جهة أخرى كيف أن ملاح البحر الأحمر القديم قد غالب الصعاب وتحدى المخاطر بين شعاب المرجان وعواصف البحر وأنوائه ، حتى شق طريقه إلى أقصى جنوب ذلك البحر ، وخرج بعد ذلك إلى مياه المحيط . ثم يكفى أن نذكر كيف أن المصرى القديم لم

يلبث أن أدرك أن موارد الأخشاب في بلاده لا يمكن أن تعينه على بناء المراكب الكبيرة التي تتركب البحر . . . فخرج إلى شواطئ غرب الجزيرة العربية في شرق البحر المتوسط واستجلب أخشاب الأرز وحملها مسافات بعيدة حتى جاء بها إلى مصر ، فبنى المراكب التي تتركب البحر . . . بل والتي أعدها بخياله لتركب بها الأرواح عبر محيط قبة السماء : كل هذه وغيرها كثير من مظاهر « روح التحدي » التي ميزت أسلاف العروبة في الجزيرة العربية وفي مصر وما وراءها غرباً ، فأقاموا صلاتهم التاريخية التي غالبت الزمن .

٣- كانت هذه العلاقات منذ قيامها الأول علاقات متكاملة ومتنوعة أشد التكامل وأوسع التنوع . فهي علاقات بالعرق والسلالة ، امتزجت فيها الدماء والعروق وألوان الثقافة والفكر والفن والعقيدة ، حتى اتخذت العروبة طابعها الحضارى العام ، وصارت محصلة لفكر استوعب عقائد التوحيد منذ كانت ارهاصاته الأولى في الجزيرة العربية وفي مصر ، وتتابع عليها الأديان المتلاحقة منذ أيام إبراهيم وأبنائه الأوائل حتى عصر الإسلام وعقيدته التي مثلت التوحيد الحنيف في أنقى صوره وأبسطها . وقد اتسع نطاق هذه العروبة حتى شمل الأرض كلها من حافات جبال زاغروس ومياه الخليج العربى حتى أقاصى المغرب وشواطئ المحيط الإطلنطى ، فصارت كلها أرضاً للعروبة مترابطة فيما بينها ، ومتصلة في امتداد لا تكاد تتخلله أية جزر غير عربية أو غير معربة ، لاسيما بعد أن نطقت أرض العروبة كلها وشعوبها بلغة واحدة هي العربية . . . لغة القرآن الكريم . . . وخليفة مجموعة من اللغات السامية القديمة ذات الحضارات والفكر اللغوى والروحي الذى ورثه العرب ومن تكلم لغتهم وقاموا عليه إلى يومنا الحاضر .

٤- على الرغم من أن العروبة قد استندت إلى النظام القبلى منذ قيامها ومنذ عهدها الأولى ، ومن أنها لا تزال حتى اليوم تقوم أساساً على هذا النظام الاجتماعى الذى تتميز به مجتمعات القبائل في معظم أرض العروبة . . . وعلى الرغم من أن المجتمعات العربية التي استقرت في أراضي الزراعة والواحات وأمثالها كانت في أصلها مجتمعات قَبَلِيَّة ورثت عن أصولها ميزات القبيلة وعصبيتها

التي تتسم بنوع من عدم الاستقرار ومن مشاحنات الغزو والشحناء بين القبائل، وعدم تقبل الحكم المدني إلا في شيء من العسر . . . على الرغم من ذلك كله فإن تاريخ العروبة لم يكن يعرف شحناء « الحروب الإقليمية » بمعناها الواسع إلا في أمثلة قليلة وإنما كانت له أعرافه التي يسوى بها مشكلاته وهي لا تزال في نطاقها المحلي . وقد ينفعنا في هذا المجال أن نذكر تاريخ مصر الفرعونية في عهد الدولة القديمة ، حين كانت مصر وبقيت أقوى « دولة » بالمفهوم التاريخي ، وبقيت كذلك قرابة ثمانية قرون ، ومع ذلك فلم يعرف التاريخ حالة واحدة (في عهد الدولة الفرعونية القديمة) خرج فيها أبناء وادي النيل الأدنى في حرب يشنونها ضد أقراهم القدماء من أعراب المشرق العربي القديم ، الذي اختلطت حضارته وزراعته (للقمح) بحضارة المصريين الذين بادلوهم التجارة والثقافة والفكر وبعض النظم الاجتماعية . . . ولقد فضل أبناء مصر الفرعونية تلك أن ينفقوا طاقتهم الزائدة في بناء « الأهرام » بدلاً من أن يسخروها في شن حرب على الجيران وذوى القربى القديمة . وحدث ذلك كله طوال الوقت الذي لم يدخل فيه « غريب » نواة منطقة العروبة القديمة . وبقي الأمر كذلك حتى دخل « الهكسوس » من رعاة آسيا الداخلية إلى أرض المشرق العربي القديم . . . دخلوا ومعهم حيوان « الحصان » الذي كان حيوان غزو واستعلاء وفتح ، بخلاف حيوان الجزيرة العربية الأصيل وهو « الجمل » الصبور الحمول الذي تألفه حداة الصحراء الأقدمون ، ولم يسع بهم إلى الغزو والفتح . . . لقد كان دخول الهكسوس إلى أرض المشرق العربي القديم سبيلاً إلى إدخال عنصر جديد اضطربه المصريون القدماء إلى أن يتبنوا فنون الحرب والقتال ، وإلى أن يردوا الهكسوس مستعملين سلاحهم الجديد ذاته ، فركب فرعون عجلته وشحذ همة فرسانه وخيوله لطرد الرعاة الدخلاء إلى المشرق من حيث أتوا . وكان ذلك أول درس في التاريخ تعلم به سكان أرض نواة العروبة القديمة فنون الحرب والقتال على نطاق واسع ولمسافات إقليمية بعيدة .

هكذا كانت روح العروبة الأولى في تلك الأيام السحيقة تسير على « السلام »

وتقوم على «السلام» ولا تنزع إلى الحروب إلا مضطرة ومدفوعة بالحاجة إلى دفع خطر الغرباء والدخلاء . . . بل لعل هذه السمة الأصيلة هي التي تكررت في مطلع ظهور الإسلام حين فرض «الجهاد» على المؤمنين لدفع العدوان . . . بل لعلها هي التي تكررت خلال التاريخ فعرفت العروبة «السلام» كسجية عربية (ومصرية قديمة) أصيلة ، وخرجت من السلام إلى الحرب ولكن كوسيلة لدفع الدخلاء والمعتدين . . . ولطالما تكرر ذلك خلال العصور . . . وحتى وقتنا الحديث والمعاصر - حين دخل الصليبيون ثم الأتراك ثم الأوربيون المستعمرون ومن سعى وراءهم من غزاة أيامنا الجارية في أرض فلسطين .

٥ - للعروبة وضعها العالمى المميز في إحكام الصلات التاريخية والحضارية بين الشرق والغرب . ومرد ذلك إلى الموقع الجغرافى الفريد ، لاسيما بالنسبة للمشرق العربى . . . ويلاحظ أن الوطن العربى (لاسيما فى شقه الشرقى) يقع فى قلب العالم القديم عند مفارق البحار الشمالية والبحار الجنوبية ، وعند الأرض بين القارتين الكبيرتين (آسيا وإفريقية) وعلى مشارف الركن الجنوبى الشرقى لقارة أوربا وراء البحر المتوسط . ويلاحظ كذلك بالنسبة للطرق البحرية أن جزيرة العرب لم تكن جزيرة كاملة بحيث تستطيع المراكب أو السفن التى تقل المتاجر أن تدور حول اليابسة وأن تنفذ من البحار الشمالية إلى البحار الجنوبية دون أن يضطر أصحاب التجارة إلى تغيير وسيلة المواصلات ، فتقف مراكب الشمال عند شواطئ الجزيرة أو شواطئ مصر ثم تنقل المتاجر بالبر أو بوسيلة مائية نهزية عبر اليابسة ، لتعود فتقف عند شواطئ البحار الجنوبية فتنقلها مراكب أخرى وملاحون من طراز جديد يحملون المتاجر والسلع إلى ما وراء البحار الجنوبية . والعكس صحيح بالنسبة لحاصلات المناطق الحارة التى تجلب من جنوب آسيا أو شرق إفريقيا ، فتتغير وسيلة النقل وتعمل قوافل الصحراء وحداة الإبل من أبناء العروبة فى نقل سلع الجنوب بالبر عبر البرازخ فى جزيرة العرب وفى أرض الزاوية فى مصر إلى شواطئ البحر المتوسط ، ومنها بالسفن وعلى يد ملاحى الشمال إلى الشواطئ المقابلة فى شمال البحر المتوسط وما وراءه من أقطار الشمال .

هكذا كانت أرض العروبة ومصر هى « أرض الزاوية » ، صاحبة الدور

الخاص فى الاتصالات العالمية . وقد علم ذلك أبناء العروبة (بما فىهم أبناء أرض الكنانة) أن يصبحوا وسطاء السلع والتجارة ، وكذلك وسطاء الأفكار والقيم الإنسانية والروحية جميعاً . ومن هنا كان الدور التاريخى الذى اضطلعت به أرض العروبة وكانت السمة الخامسة التى ميزت العروبة وأبناءها على مر العصور .

٦ - وأما السمة السادسة للعروبة وأرضها وأهلها فقد ترتبت على السمة التى أضفاها عليها ذلك الموقع الجغرافى الفريد ، الذى جعل منها منطقة النواة الرابطة بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب . بل إن ذلك كله قد أثر فى بناء شخصية أهل العروبة ، وجعل منها ومنهم شخصية إنسانية عالمية ، مفتوحة الفكر ورحبة الاختلاط بالثقافات القديمة والحديثة ، تقوم فى الوقت ذاته على أساس « الأخذ » « والعطاء » وعلى أساس إقامة العدل والانصاف والصدق فى المعاملات بين الناس جميعاً ، فضلاً عن سمة الكرم وحسن الضيافة فى معاملة القادمين والعابرين ، سواء أكانوا من أهل الجنوب أم من أهل الشمال . . . بل إن هذه الروح المفتوحة فى المعاملات قد بلغت حد المبالغة فى بعض الأحيان ، فجاء يوم كان المصريون المحدثون مثلاً يقولون فيه عن أنفسهم « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا » وذلك رغم أن أولئك « الضيوف » كانوا من الغزاة والفاطحين ، وتلك كانت هى صيغة المبالغة من كرم العروبة وحماسيتها التاريخية المتوارثة .

٧ - والسمة الأساسية السابعة للعروبة فى أوضاعها المكانية والزمانية من هذا الموقع الجغرافى الفريد ، ومن تاريخها الحضارى الموعظ فى القدم ، أنها اتسمت بصفة الاستمرار والحيوية المتجددة على مر الزمن . فحضارة العروبة التى غابت الأيام واحتفظت بالكثير عن أصول هويتها ، وجددت تلك الأصول وحفظتها على الزمن أطول مما استطاعه غيرها من الحضارات فى أجزاء أخرى من العالم . . . تلك العروبة قد حفظت ذاتها وقاومت كل محاولات التوغل والاقترحام حتى أصبحت فى التاريخ مضرِباً للمثل بين الحضارات كلها فى القدم والاستمرار والنهوض بعد فترات الهدوء ، وبعث الروح القومية

وتجديدها رغم فترات الانكماش أو الركود . ولعل مرد هذا الاستمرار على الزمن لحضارة إقليم العروبة الكبير ، والذي جعل من هذا الإقليم كتلة بشرية ضخمة لا يكاد يضارعها في الاتساع والاستمرار على الزمن غير كتلة أرض الصين . . . لعل السبب في هذا أن منطقة العروبة بدأت بالنظام « القبلي » ثم تحولت في كثير من مناطقها (كمصر واليمن وغيرها) إلى نظام « الاستقرار » . . . تمامًا كما حدث في منطقة الصين الكبيرة والفسيحة الأرجاء . . . ولقد خالفت العروبة في ذلك عن قارة إفريقية المجاورة والتي بدأت بالنظام « القبلي » ولكنها استمرت عليه حتى عصرنا الحديث . وعلمنا أن نذكر أن القبيلة في إفريقية لم تنتقل إلى نظام الاستقرار أو نظام « الدولة » وإنما بقيت القارة منقسمة إلى مجموعة كبيرة من القبائل المتفرقة أو المتناحرة ، ولم تكد أن تقوم فيها « دولة » مستقرة حتى جاء العصر الحديث . ولم يشذ عن ذلك في إفريقية إلا أرض وادي النيل الأدنى (وهي جزء من نواة أرض العروبة) فظهرت في مصر في عصر ما قبل الأسرات الفرعونية « دويلات » إقليمية استقر فيها نظام الحكم وصارت لها هويتها وشخصيتها الإدارية ، ثم قامت الدولة الموحدة بين الوجهين القبلي والبحري وظهرت أول « دولة » موحدة في التاريخ ، وإن كانت تلك الدولة قد احتفظت ببعض أصول نظامها القبلي السابق ، وظهرت « القرية » أو « مجموعات القرى » لتحل محل القبيلة أو مجموعات القبائل المتجاورة ، حتى استكملت الدولة الموحدة مقوماتها في الحكم والإدارة والطابع العام لما أصبح يعرف فيما بعد « بالحياة المدنية » أو « الحياة القومية » ومثل هذا حدث خارج مصر في جهات أخرى من أرض العروبة ، ومنها العراق القديم بدوله التي لم تستكمل أسباب الوحدة المدنية الشاملة لأسباب جغرافية محلية ، ولكنها مع ذلك تابعت على أرض العراق ، وحفظت لها طابعها الحضاري الذي استمر على مر العصور . كذلك ظهرت فكرة الانتقال من الدور القبلي إلى دور الحكومة المستقرة في جهات أخرى مثل جبال سورية ومثل هضبة اليمن ومثل بقاع أخرى في شمال إفريقية ، وإن كان التاريخ لم يحفظ لنا منها مثل ما حفظه من الكيانات القديمة التي استقرت في مشرق أرض العروبة .

وهكذا كانت السمة الثامنة والأخيرة للعروبة في عهدها القديم أنها بلغت مرحلة الحكومة ذات الوحدة (ولو محلياً) قبل غيرها من أراضى العالم القديم بأجيال طويلة . ولقد استمرت هذه السمة وازدادت وضوحاً بعد أن اكتملت عروبة هذه المنطقة الكبرى في عهد الإسلام الذى أتم الله به على الأمة العربية الأولى نعمة الوحدة التى تدعمها العقيدة الجديدة، فكان الامتزاج والتكامل بين العروبة والإسلام ، وأصبح من العسير علينا أن نتصور العروبة الجديدة بغير الإسلام . بل ظهرت فكرة « الأمة » (الإسلامية) لأول مرة في التاريخ ، وقام نظام « الخلافة » ليجتأ الوطن العربى كله في مشرقه ومغربيه ، وإن كانت الخلافة ذاتها قد أصبحت ذات شقين . . . خلافة مشرقية وخلافة مغربية (تمتد إلى أطراف الأندلس) وكانت تلك هى الصورة القديمة لوحدة العروبة الإسلامية . ورغم الضعف السياسى الذى انتاب هذا التنظيم من وقت لآخر فإن رباط العقيدة كان أقوى من أن يمحوه الزمن . بل إن هذا الرباط قد أضيفت إلى صورته الدينية الخالصة صورة جديدة تمثلت في دور مصر وازدهارها في الحفاظ للإسلام بمنبره الفكرى والعلمى والتعليمى ، حيث أصبح الأزهر الجامع الذى يربط المذاهب العقيدية ، والجامعة التى تربط الفكر والعلم كسند أساسى للعقيدة التى صار الأزهر معقلها ومنارتها العلمية التى تشع إلى كل أقطار العالم الإسلامى ، مما أضفى على العروبة ومصر - حتى في عهود ضعفها اللاحقة - سمة الريادة العلمية والفكرية ، بل والروحانية ، في العالم الإسلامى كله .

لقد كان عهد الخلافة هو عهد الوحدة في العقيدة والسياسة في قلب العالم القديم . وإن كان انتقال الخلافة من العرب إلى الأتراك قد أضعف تلك الريادة العربية للوحدة الإسلامية . . . ثم انتقلت الأمور فتخلى العرب عن استمساكهم بالريادة ذاتها وبالوحدة . . . ودخلت عناصر أخرى إلى المشرق العربى ، فظهر عهد الاستعمار الحديث وسيطرت على موقعنا الجغرافى الذى استعرضنا معالمه ومقوماته دول أوربية دخيلة . . . فتفكك العالم العربى ، وارتد عن وحدته التى حققها مع ظهور الإسلام ، وعاد العالم العربى إلى الانحلال والانقسام إلى ولايات محمية ثم دويلات شبه مستقلة أو ساعية إلى الاستقلال ، واستمر ذاك حتى عادت

فكرة « الأمة » وفكرة « القومية » (بمفهومها الأوربي الحديث) إلى الظهور في مشرقنا العربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي وما بعده ، فنهض العرب من سباتهم ، وذكروا أمجادهم السابقة ، حين كانوا أول موطن في التاريخ ظهرت فيه فكرة الدولة ، ثم فكرة « الأمة » وأول من بعثت في أرضهم فكرة « الوحدة » على نطاق جغرافي واسع (لم يناظره في التاريخ القديم غير الصين) . ولكن معقبات الاستعمار الحديث عطلتنا من جديد فترة من الزمان ، فتردد العرب بين « القومية الإسلامية » و « الوطنية العربية » (لكل قطر أو إقليم صغير على حدة) ، حتى برزت بالتدريج فكرة « القومية العربية » بمفهومها المعاصر الجديد ولكن حتى بعد أن ظهرت هذه الفكرة تردد العرب بين صور مختلفة من مظاهر تحقيقها ، وقامت « الجامعة العربية » ثم اضمحل عملها ، واكتفينا فيه بتحقيق الوحدة الثقافية دون الوحدة الاقتصادية . أما الوحدة السياسية فإن الجامعة العربية لم تجمع غير قليل من أسبابها ، وكان ذلك على خلاف ما لاحظناه من سعى مناطق أخرى من العالم لاستكمال أسباب وحدتها الاقتصادية والسياسية ، ولو بعد تعثرات كثيرة ، كما حدث في منطقة غرب أوربا التي سعت في نهاية الأمر إلى التكتل الاقتصادي بأسلوب لعله ينتهي آخر المطاف إلى لون من ألوان الوحدة والسوق الاقتصادية والمالية المشتركة أو الترابط في مجال الاقتصاد والسياسة جميعاً .

ولكن خير ما نتوصى به في ختام هذا الحديث هو أن الوحدة العربية المنشودة كانت ولا تزال ، كما تصورناها في تفكيرنا العلمي والقومي الحديث ، إنها هي تجمع بين « العقيدة » و « الحركة » . فأما أنها « عقيدة » فذلك ما لا نشك فيه ، وهو ما آمن به جيلنا السابق وجيلنا المعاصر ثم جيلنا القادم من شباب العروبة . وأما إنها « حركة » فذلك ما لا يزال بحاجة إلى أن نستحث الهمة فيه ، وما نأمل ونرجو أن يكون في تجاربنا الجارية ما يعين على تنظيم خطواتنا إلى تحقيقه ، وذلك رغم مرارة بعض هذه التجارب . ولعل ذلك أن ينتهي آخر الأمر بأن تعود العروبة إلى دورها التاريخي والإنساني الذي ميزها بين الأمم والشعوب منذ كان التاريخ .

« V »

الشرق الأوسط والحروب العالمية فى التاريخ

الشرق الأوسط والحروب العالمية فى التاريخ

إن أحداث الحروب العالمية التاريخية واتجاهاتها الأساسية وخططها الكبرى لا تتأتى عفواً ، وإنما يلاحق بعضها بعضاً ، ويترتب بعضها على بعض . وهى فى كل ذلك متأثرة بأبلغ التأثير بظروف الميدان الطبيعية ، وبالمواقع الجغرافية التى يجتذب بعضها المحاربين بها له من قيمة ظاهرة ، وينجذب إلى بعضها الآخر المحاربون أنفسهم بما لهم من بصيرة نافذة يكشفون بها عما لهذه المواقع من قيمة كامنة أو محتملة . ولا شك أن من المواقع ذات القيمة الكبرى فى الحروب العالمية موقع مصر وما يتصل بها من بلدان الشرق القريب . فقد كان لهذه المنطقة أثرها الكبير وقيمتها الخطيرة فى كل نضال من أجل السيطرة العالمية ، ولاشك أنها ستحتفظ بقيمتها هذه مهما تغيرت أحداث المستقبل ، ومهما تطورت فنون الحرب فى البر أو فى البحر أو فى الهواء .

ويعيننا فى هذا المقام أن نذكر أن الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) لم تزد قيمة موقع مصر والشرق الأدنى كله - أو ما أصبح يعرف فى السنوات الأخيرة « بالشرق الأوسط » - إلا وضوحاً ، وأن أحداثها جاءت مرددة لما تجاوب به التاريخ من قبل ، فى فترات متقطعة ، منذ فتح الإسكندر باب الحروب العالمية ، التى امتد سعيها بين الشرق والغرب ، والتى لم تكد واحدة منها تشب حتى أصاب الشرق الأوسط منها نصيب يسير أو خطير ، بل حتى غدت هذه المنطقة المتوسطة مسرح النضال وهدف المتسابقين من أجل التحكم فى المواصلات العالمية .

والذين يدرسون تاريخ الحروب فى العهد الحديث يتفقون فيما بينهم على أن هذه الحرب العالمية الثانية ، إنما بدأت فى حقيقتها منذ عام ١٩١٤ . وغاية ما هناك أن النضال الفعلى جاء فى جولتين ، لم تكن الأولى منهما حاسمة ولا فاصلة ، فلم

تنكسر جيوش ألمانيا في أرضها مثلاً ، ولم تنهزم هزيمة ساحقة ، ولم يصب نظام الصناعة والإنتاج والمواصلات في تلك البلاد بمثل ما أصيب به من خراب إبان الجولة الثانية . . . لا بل إن أداة الحرب في حملتها ونواة الجيش الألماني ذاته تركت سليمة ، أو شبه سليمة بعد الجولة الأولى ، وقد احتفظت تلك النواة بروحها العسكري وتقاليدها ، ولم تسلم قيادتها بالهزيمة ، وإنما نسبتها إلى الثورة الداخلية في ألمانيا . وهكذا لم تنقض عشرون سنة على إعلان الهدنة حتى نهضت من كبوتها وحتى استطاع المغلوب أن يبدأ بالتحرش والوثوب من جديد .

ومهما قيل في أسباب هذه الحرب وما دفع المتحاربين إليها فقد كان الغرض الأول منها والمحرك الأساسى فيها ، إنما هو السعى إلى السيطرة العالمية والتحكم في مصائر الأمم ، وفيما تقوم عليه صلات الغرب بالشرق ، وصلات أهل البلاد القوية والمستعمرة بأهل البلدان الضعيفة والمستعمرة . ولذلك لم يكن بد من أن تمتد الحرب إلى الشرق الأوسط ، لأن الطبيعة قضت بأن يكون ذلك الإقليم باباً ينفذ منه الغرب إلى الشرق ، وجسراً تمتد من فوقه قوات أصحاب السيطرة إلى أولئك الذين قضت ظروفهم أن تكون أرضهم مطعماً للطامعين ، وأن تكون أرزاقهم ، بل جهودهم في الحياة ، مغنماً يقتتل من دونه الأقوياء .

وقد تجلّى التسابق على الشرق الأوسط في كل من الجولتين ولكننا قبل أن نعالج ذلك لابد لنا من أن نلم بطرف مما يتصل بالقيمة الاستراتيجية التاريخية لبعض مناطق هذا الإقليم الهامة ومداخله الأساسية ، فذلك مما يعين على تفهم أهداف الحرب وخططها في هذا القسم من العالم . وأول منطقة تلفت نظرنا في هذا الإقليم هى مصر والركن الشمالى الشرقى من إفريقية فقد كان وادى النيل الأدنى ودلتاه على الدوام قاعدة عسكرية هامة يمكن الاستناد إليها والتوسع منها نحو قلب الشرق ، وقد تكرر ذلك في التاريخ أكثر من مرة . فمن مصر توسع الفراعنة أيام إمبراطورية الدولة الحديثة ، ومنها توسع البطالمة بعد الإسكندر ، وإليها ارتكز جانب هام من قوة الرومان في توسعهم إلى شمال بلاد العرب ورأس الخليج العربى في أوائل القرن الثانى الميلادى ، وفيها قامت دولة العرب والمسلمين ، ومنها اتسع سلطان صلاح الدين وأمثاله ممن عرفوا كيف يستغلون موقع أرض الزاوية وموارد تربة الكنانة ،

وفيهما تجدد الملك لمحمد على وامتد نفوذه إلى جهات مختلفة من الشرق القريب ، لولا ما كان من تألب الدول الكبرى عليه وعلى خلفائه . ثم إليها عادت الإمبراطورية البريطانية فارتكزت آخر الأمر ، لا لتؤمن مواصلاتها مع الشرق الهندي والبعيد فقط ، وإنما كذلك لتوسع سلطانها وتمد نفوذها إلى السودان أول الأمر ، ثم إلى شمال الشرق العربى إبان الجولة الأولى من الحرب العالمية وفى أعقابها ، ثم إلى برقة وطرابلس وحتى إلى بلاد اليونان وجزرها فى الجولة الثانية من الحرب . فكان الطبيعة قد أرادت أن تكون مصر وأن تبقى على مر الأيام ، مفتاحاً هاماً من مفاتيح الشرق الأوسط وأن يكون مرجع ذلك ومرده إلى موقعها الجغرافى من جهة ، وإلى مواردها الغنية من جهة أخرى .

وموقع آخر هام فى الشرق الأوسط هو منطقة المضائق بين آسيا الصغرى والبلقان . وقد كانت قاعدة تحكم منها الإغريق والروم الشرقيون فى تجارة البحر الأسود ، ونشر منها البيزنطيون نفوذهم فى ذلك البحر وعلى شواطئه ، كما احتفظوا منها بسلطانهم فى أراضى المشرق الرومانى القديم . وعادت أهمية هذه القاعدة إلى الظهور فى عهد الأتراك الذين امتد نفوذهم فى كثير من جهات الشرق الآسيوى القريب وبلاد البلقان . وفى العهد الحديث ازدادت أهمية المضائق بظهور روسيا وسعيها إلى الخروج من البحر الأسود إلى البحر المتوسط خروجاً حراً لاتتحكم فيه إمبراطورية العثمانيين ولا غيرها من الدول الأوروبية البحرية التى قد تضغط على العثمانيين أو توحى إليهم بما يتبعونه من سياسة نحو الروس . فلما جاءت الحرب العالمية الأخيرة لم يكن بد من أن تبرز قيمة المضائق كمنطقة عسكرية ذات خطر ، وكمنفذ للبحر الأسود من جهة ، وباب من أبواب الشرق الأوسط من جهة ثانية . وفعلاً اتجهت السياسة الألمانية منذ عام ١٩١٤ بل قبل ذلك إلى القسطنطينية وما وراءها من أراضى الإمبراطورية العثمانية ، وأصبحت المضائق نفسها منطقة قتال فعلى شديد فى موقعة غاليبولى وما يتصل بها ، واستمر التشاحن بين الدول من أجل تنظيم الإشراف على ممرات الماء خلال الفترة ما بين جولتى الحرب . ويخطئ من يعتقد أن حياد تركيا أثناء الجولة الثانية واستمساكها بموقفها المحايد وبسلطتها الشرعية فى الإشراف على المضائق وتحصينها ، . . . يخطئ من

يتصور أن ذلك سيحول دون التشاحن الدولي من أجل هذه المنطقة العسكرية الهامة .

وفيما بين برزخ السويس ومضايق تركيا هناك منطقة أخرى يمكن أن تنفذ منها القوة إلى قلب الشرق الأوسط ، تلك هي مجموعة الجزر الواقعة في شرق البحر المتوسط وما يقابلها ويطل على البحر من شواطئ المشرق العربي في لبنان وسورية وفلسطين . وقد كانت هذه المنطقة - لاسيما شواطئ لبنان - مجال اتصال واحتكاك في التجارة والثقافة خلال التاريخ ، كما كانت طريقاً للتوغل السلمي وبعض التوغل المسلح إلى قلب الشرق . وعادت قيمتها فظهرت في الحرب العالمية بشرطها ، فاقتتل في ميادينها الحلفاء والأتراك (ومن ورائهم الألمان) أثناء الجولة الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ، كما اقتتل البريطانيون وقوات المحور وفيشي في الجولة الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) . بل جاءت فترة خلال هذه الجولة الأخيرة خيل فيها أن المحور يستطيع أن يدور من اليونان وجزرها حول تركيا وأن يكيل ضربة شديدة يصيب بها موقف حلفاء الشرق في الصميم .

والمدخل الأخير للشرق الأوسط من ناحية الشمال هو طريق القوقاز وشمال إيران وهذه منطقة كانت على الدوام تمثل نقطة اتصال للشرق القريب بداخلية آسيا العروية . فمن طريق إيران نفذت جيوش الإسكندر إلى تركستان ، ثم جيوش العرب إلى الإقليم نفسه . وعن طريق ممر تفليس في القوقاز مرت قوافل العرب واتصلت تجارتهم بجنوب روسيا وأرض بولندة (والبحر البلطي) في القرون الوسطى . وعن طريق تركستان وقزوين جاءت جحافل المغول والتتر إلى شمال إيران ، ثم أرض الخلافة العباسية في بغداد عام ١٢٥٨ . وعبر شمال إيران وكردستان مر السلاجقة ثم الأتراك العثمانيون إلى آسيا الصغرى فالقسطنطينية والبلقان . ومع أن التشاحن خف في هذا الركن الشمالي الشرقي من الشرق الأوسط فترة من الزمن ، فإنه تجدد في أواخر القرن الماضي وخلال القرن الحاضر ، عندما ظهرت قوة روسيا بشكلها القيصرى أول الأمر ، ثم بشكلها السوفياتى بعد ذلك ، وسعت إلى أن يكون لها منفذ نحو البحار الدفيئة في الخليج العربي . ثم استمرت المسعى في هذا الاتجاه آخر الأمر ، عندما رأت أن الطريق إلى تلك البحار

غنى بموارد الزيت من جهة ، كما أنه يؤدي إلى قلب العالم العربى وإلى البحر المتوسط آخر الأمر من جهة أخرى .

وإلى الجنوب من الشرق الأوسط هناك مدخلان أو مخرجان لذلك الإقليم : أحدهما يمتد مع الخليج العربى ، والآخر يمتد مع البحر الأحمر ، وكلاهما يصل بين قلب الشرق الأوسط إلى شواطئ المحيط الهندى وما وراءه من بلاد الشرق البعيد . وقد كان التسلط على هذين الذراعين من البحر والسواحل المحيطة بهما غاية كل عسكرى يريد السيطرة على الشرق ومسالكه ، منذ بدأ الإتصال بين الشرق والغرب ، وصارت للمسالك البحرية قيمتها فى ذلك . فقد سعى الفرس إلى ذلك وتسلطوا فى أوقات مختلفة على الخليج العربى بشاطئيه ، وعلى طرفى البحر الأحمر فى الشمال والجنوب . وسعى طرفى الرومان إلى ذلك أيضاً فوضعوا أيديهم على رأس البحر الأحمر فى السويس والعقبة ، وعلى رأس الخليج العربى فى ميناء أبلة القديم فى شط العرب . وأدرك العرب المسلمون قيمة هذين الطريقين ، فأنشأوا فيهما الموانى ، وأحكموا السيطرة على طرق البحار خلال فترات منقطعة من العهد الإسلامى . حتى إذا ما جاء العهد الحديث ظهر التسابق بين الدول الطامعة فى الشرق والمتكالبه على السيطرة على مسالكه ومدخله وبتروله ، فسعت كل منها إلى أن تتمكن لنفسها من أحد هذين الطريقين البحرين ، ومن المسالك البرية المؤدية إليه والمشرقة عليه . فالى وحتى فارس والخليج العربى سعت روسيا جهد طاقتها ، ولكن وقفت فى سبيلها بريطانيا ، التى جاءت الخليج من طريق الهند أول الأمر ، فبسطت سلطاتها على عمان والبحرين والكويت ، ونشرت نفوذها فى أراضى إيران وشواطئها الجنوبية ، ثم جاءت إلى نفس الخليج من بعد ذلك وأثناء حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ عن طريق الهند والبحر إلى العراق الأدنى ، وكذلك من طريق الشرق العربى الشمالى ، بعد أن كافحت الخطر الألمانى الذى سعى مع الأتراك نحو العراق . أما طريق البحر الأحمر فقد سعت إليه بريطانيا ، فوطدت أقدامها فى مصر والسودان على شواطئه الشمالية والغربية ، وفى عدن وجزيرة بريم وساحل الصومال فى الجنوب . كما سعت إليه فرنسا فى جيبوتى ، وإيطاليا فى إرترية . واستمر الكفاح بين هذه الدول مكشوفاً أو مستترًا حتى ظهرت مشكلة الحبشة وحربها مع إيطاليا ، فكان نذيرًا بما انتهى إليه الأمر من

نضال مسلح على بعض سواحل هذا البحر خلال الجولة الأخيرة من الحرب العالمية الكبرى .

وهكذا نجد في هذا الشرق الأدنى كما يسميه الجغرافيون ، أو الشرق الأوسط كما يسميه العسكريون المحدثون ، منطقة كثيرة المداخل ، متعددة المنافذ ، تطل على بحار الشمال وبحار الجنوب ، وتتصل باليابس في الشرق والغرب . فلم يكن بد من أن تتأثر بالحرب أنى جاءت ، ومن أن يحاول العسكريون والمحاربون أن ينفذوا إلى قلبها من أى طريق . بل لم يكن بد من أن يمتد إلى هذه المنطقة لهب الحرب وأن يكوها سعيها ، مهما حاولت أن تجنب نفسها موارد التهلكة ومصارع السوء ، أو أن تتقى أهوال الحرب والكفاح المباشر . فهي طرف في كل حرب عالمية أرادت أو لم ترد ، والشر يسعى إليها عن كل طريق ، ويأخذها من كل جانب ، لا يحول عنها محول ، ولا يرده عنها راد .

بل هكذا قضت الطبيعة أن يكون الشرق الأدنى أو الأوسط ميداناً من ميادين التسابق والمساومة في اقتصاص مناطق النفوذ بين كبريات الدول ، حتى قبل أن يبدأ النضال المسلح في عام ١٩١٤ ففي أوائل هذا القرن كان حلفاء الغرب وأنصارهم في روسيا قد حددوا مناطق نفوذ كل منهم في الشرق الأوسط ومنافذه ، فأطلقت فرنسا يد بريطانيا في مصر وقناة السويس باتفاقية ١٩٠٤ ، واقتسمت بريطانيا وروسيا مناطق النفوذ في الأراضي الإيرانية على الجناح الشرقي لهذه المنطقة باتفاقية ١٩٠٧ . ومع ذلك فعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى كانت تركيا العثمانية لاتزال سيدة الجانب الأكبر من قلب هذا الشرق ، ما بين جنوب شرق البلقان وبحر العرب ، فكان طبيعياً أن تحاول ألمانيا أن تنفذ إلى الشرق عن طريق أرض الخلافة ، فمهدت للوصول إلى بغداد في طريقها نحو الخليج وبعثت بعملائها ثم بجيوش حلفائها الترك إلى الشام وفلسطين وسيناء وقناة السويس على باب مصر الشرقي في عام ١٩١٥ ، وكان غرضها من كل ذلك أن تقطع طريق الهند على بريطانيا ، وأن تمنع حلفاء الغرب في الوقت ذاته من أن يحاولوا تطويقها بالالتفاف حول أراضي تركيا أو شق طريقهم والاتصال بالقوات الروسية في بعض جهات آسيا الغربية . وكانت بريطانيا قبل ذلك وخلال ذلك قد تفاهت مبدئياً مع روسيا

(١٩١٢ - ١٩١٣ ثم ١٩١٥) على أن تكون القسطنطينية من نصيب الروس بعد الحرب ، فكان من الطبيعي أن يعقد اتفاق سرى مقابل للدفاع المشترك بين الترك والألمان ، واستطاعت ألمانيا بفضل ذلك أن توطد أقدامها في منطقة المضائق . فأذن ذلك بدخول الشرق الأدنى كله في نطاق الحرب ، حتى قبل أن تعلن بصفة رسمية بين العثمانيين والحلفاء .

وفي مطلع الحرب كانت قوة حلفاء الغرب مركزة على الخصوص في مصر ، التي فرضت عليها الحماية البريطانية ، والتي ما لبثت بريطانيا أن اتخذت منها بالتدريج تلك القاعدة التي طالما استطاع حكامها وسادتها أن يسخروا مواردها ، وأن ينشروا منها نفوذهم ويمدوا سلطانهم في كل اتجاه . وفعلاً بدأ البريطانيون ينظمون شئونهم في مصر وإن كانوا كعادتهم في أمثال هذه المناسبة ، قد بدءوا متأخرين بعض الشيء ، غير مستعدين تمام الاستعداد ، وإن كانوا معتمدين على مقدرتهم التقليدية على تكييف الأمور ومواجهة الأزمات أولاً فاولاً . لذلك أعلنوا الأحكام العرفية في مصر في اليوم الثاني من نوفمبر سنة ١٩١٤ ، وأعلنوا معها أنهم يتحملون وحدهم تبعات الحرب . وأنهم لن يفرضوا على مصر أن تساهم فيها بشيء ، ومع ذلك فلم تمض ثلاثة أيام حتى صدرت أوامرهم إلى المدفعية المصرية أن تشخص إلى القناة لتدافع عنها ! ولعلنا لا نزال نذكر ما قامت به مصر في عام ١٩١٥ من رد غزوة الأتراك والألمان ، التي جاءت إلى شبه جزيرة سيناء ، والتي استطاعت بعض طلائعها أن تعبر القناة . والحق أن هذا كان أول محك لما تستطيع مصر أن تؤديه في حرب كهذه . وليس يضير مصر ألا تكون بريطانيا قد اعترفت إذ ذاك أو بعد ذاك بما أدته مصر لنفسها وللحلفاء ، فقد ينصف التاريخ أولئك الأبطال الذين دافعوا عن القناة يوماً ما . ولو وقف البريطانيون وحدهم أمام الغزاة لما ثبتوا لهم ولما ردوهم ، بل لوصل الأتراك والألمان - في رأى كثير من ثقات الحرب - إلى القاهرة في أيام ، وكان لذلك ، في أغلب الظن ، من العواقب ما قد يتغير معه بعض وجه التاريخ .

ولكن الصدمة الأولى نبهت بريطانيا إلى خطورة الأمر في الشرق ، كما نبهتها إلى أهمية مصر كقاعدة عسكرية لتجمع قوات البر والبحر على السواء . وكان طبيعياً

أن تستغل بريطانيا ناحية البحر أول الأمر ، وهى الدولة البحرية الأولى ، فاتخذت عدتها واستخدمت مرافئ مصر ومرافقها كقاعدة لتجمع بحرى هائل ، فيما عرف بحملة البحر المتوسط Mediterranean Expeditionary Force التى انطلقت من مصر فى عام ١٩١٥ نحو غاليبولى ، وكانت غايتها قطع الطريق على الألمان وفتحها إلى الروس . ولكن عوامل مختلفة أدت إلى إخفاق الحملة التى كان ينقصها عنصر المفاجأة . وكما أخفقت جيوش الترك والألمان عند قناة السويس لأنها كانت على مسافة بعيدة من قواعدها عندما ثبت لها المدافعون وردوها على أعقابها ، وكذلك أخفقت أساطيل الحلفاء فى الدردنيل لأنها كانت بعيدة عن معقلها فى مصر ولا تستند إلى شىء فى الطريق ، فثبت لها الأتراك وبددوا حملتها تبديداً .

ولكن البريطانيين كانوا فى الوقت ذاته يوالون تنظيم موارد مصر ، ويتابعون إعدادها لأن تكون أداة فعالة فى الحرب ، وإن لم يعترفوا بمركزها كشريكة فيها . حتى ما إذا جاءت المرحلة الثالثة من مراحل الحرب فى الشرق (بعد مرحلتى الدفاع عن القناة والمهجوم على غاليبولى) برزت أهمية مصر وتجلت مساهمتها الفعالة فى صورة جديدة ، فتألفت فى عامى ١٩١٦ ، ١٩١٧ القوة التى عرفت باسم قوة الحملة المصرية Mediterranean Expeditionary Force وتحولت فرق العمال المصرية التى أعدت من أجل غاليبولى إلى مصر الشرقية ، ثم إلى فلسطين والشام وأرض العراق الأعلى ، وارتفع رقم المشتركين فى الحملة من المصريين إلى حوالى ١٥٠,٠٠٠ من الرجال يعملون بعقود لمدة ستة أشهر ، أى بمعدل ثلثائة ألف رجل يشتركون فى الحرب خلال العام . وفضلاً عن ذلك فقد سخرت بريطانيا موارد مصر من الأرزاق فى الحبوب والدواب والأنعام ، جمعت كلها بقبول من حكومة مصر ومعاونة فعالة منها لتغذية الجيش والحملة نحو الشرق ، مع أن الأمر فى هذه الحملة كان قد انقلب من مجرد الدفاع عن مصر إلى التوسع والفتح فى أملاك الامبراطورية العثمانية والخلافة الإسلامية ، وهنا تجلّى استغلال بريطانيا لمصر وتسخيرها مواردها من الرجال والأموال ، إلى جانب استغلالها موقعها الجغرافى . ومن سخريه القدر أن تكون بريطانيا قد بدأت باستخدام مصر وتسخيرها فى فتح الشرق بحجة تحريره من الأتراك فلما استتب لها الأمر فيه وتمكنت قواتها منه ، لم تزدها مصالحها الجديدة فى الشرق إلا استمساكاً بهذه الأداة ، وإلا تشبهاً بهذه

القاعدة ، لعلها أن تفيد مرة أخرى ، وفي يوم قريب أو بعيد ، من هذا البلد الغنى ، ذى الموارد الحاضرة وذى الموقع الجغرافى الفريد . وقد كان ا
ولكن مصر والدردنيل لم يكونا المدخلين الوحيديين للذين تسرب عنهما هب
الحرب إلى الشرق الأدنى ، وإنما نشطت بريطانيا كذلك فى بحر العرب وفى خليج
العرب ، وأرسلت الإمبراطورية حملتها على العراق ، فاحتلت البصرة ، ثم
دخلت بغداد فى عام ١٩١٧ ، وتقدمت منها فى اتجاه الموصل والجزيرة العليا ، كما
واصلت قوات بريطانيا زحفها من فلسطين إلى الشام وصوب العراق الأعلى . وفى
أعقاب الحرب تعقد الموقف فى الشام بتسابق بريطانيا وفرنسا إلى اقتسام مناطق
الاحتلال ، وبنزول قوات فرنسا فى أرض المشرق ، تم اتفاق الدولتين على اقتسام
غنائم الانتداب فى مؤتمر الصلح وعصبة الأمم . كما زاد الموقف تعقداً بمحاولة
إيطاليا تحقيق أطماعها فى جنوب غرب الأناضول تلك الأطماع التى لوح لها بها
الحلفاء فى معاهدة لندن السرية التى دخلت بمقتضاها إيطاليا الحرب فى
عام ١٩١٥ ، ولكن هذه الدولة كانت أضعف من أن تحتفظ بقواتها أو بنفوذها فى
أراضى تركيا ، رغم أنها كانت تحتل جزر الدوديكانيز منذ عام ١٩١٢ . كذلك
انتهت محاولات اليونان ، ومن ورائهم حلفاء الغرب فى التسلط على أزمير ،
باندحارهم أمام قوات الغازى مصطفى كمال على نحو ما هو معروف .

على أن المهم من كل هذا أن لهيب الحرب قد امتد إلى الشرق الأوسط من أكثر
من جهة واحدة ، وكان ذلك أمراً طبيعياً إذا نحن راعينا كثرة مداخل هذا الإقليم
ومآخذه وأهميته الفريدة فى صلات الغرب والشرق . بل كان طبيعياً أيضاً أن يتأثر
هذا الإقليم وسكانه بالحرب وأحداثها ونتائجها بما قد يزيد على تأثر غيره من أقاليم
الأرض وشعوبها . فقد أطمعت الحرب الظافرين فى هذا الإقليم ومراكزه
العسكرية ، وموارده التى لا ينقصها غير حسن الاستغلال . وكان ذلك فى وقت
زالت فيه سلطة الأتراك ، ودال سلطان الخلافة أو كاد ، فتدخلت بريطانيا ومعها
فرنسا فاقسمتا قلب الشرق الأوسط بما جعل للأولى نصيب الأسد وللثانية نصيب
النمر . ولولا انقلاب الأحوال فى روسيا وظهور ثورة البلاشفة ، وما صاحب
ذلك من انكماش تلك الدولة ثم انطوائها على نفسها ، لكان للروس مطمع فى

جانب من الغنيمة . كذلك لولا تقاعس أمريكا وتخوفها من الشرق ومشكلاته أو ذاك لكانت تلك الدولة شريكاً في بعض أسلاب إمبراطورية العثمانيين .

وانقضت فترة ما بعد ذلك تلك الحرب في قلقلة واضطراب ما كان يستقر معها الشرق الأوسط وأهله على شيء . وقد أغرى اختفاء ألمانيا المؤقت وراء الأفق كلا من بريطانيا وفرنسا ، فلم تنتبها إلى ما تقتضى به الحكمة من إنجاز العهود وإنصاف أهل هذا الإقليم بعد جهادهم في سبيل هزيمة الأتراك ، بل مضتا أول الأمر في سياسة أقل ما يقال فيها أنها لم تراعى ما استأهله فريق من شعوب الشرق الأدنى من حرية تقرير المصير ، ولو في ميدان الحكم الذاتى الصحيح . ولم تكن تلك السياسة مما يمكن أن يدوم أو أن يؤدي إلى الاستقرار . وقد جربت بريطانيا بصفة خاصة أن تجمع بين المتناقضات في سياستها مع مصر إذ منحتها الاستقلال في ظل الاحتلال ، ومع فلسطين إذ جعلتها للعرب وللصهيونيين في آن واحد .

وطغت فرنسا في سوريا ولبنان ، فتلاعبت بالعرب وشوّهت وحدة بلادهم ، دون رقيب أو حسيب . ولكن أفراد بريطانيا وفرنسا بشئون الشرق لم يكن إلى أجل غير مكتوب ، وظهور ألمانيا أو الشبح الألماني ، من وراء الأفق مرة ثانية لم يكن إلا مسألة ، كما أن استئناف الكفاح بين الجبابرة من أجل الشرق كان أمراً مفروغاً منه عند من يعرفون بواطن الأمور ، وكانت ساعته آتية لا ريب فيها . وكانت بريطانيا بحكم تجارها ومصالحها المتشابكة ، أسبق في إدراك ضرورة ذلك من فرنسا ، فلم تلبث أن فرغت من بعض مشكلاتها مع العراق ، ثم عقدت معاهدتها المعروفة مع مصر ، والتي تعتبر ولا ريب أخطر عمل سياسى أنجزته بريطانيا في الشرق ، إذ ضمنت به سلامة مواصلاتها ، كما ضمنت استقرار الأمور واستغلال موارد هذه القاعدة وموقعها الجغرافى بما لا يقل عما حدث في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ . كذلك عملت بريطانيا على تهدئة الحال بالنسبة للعرب في فلسطين ، فأصدرت كتابها الأبيض بتحديد هجرة اليهود في عام ١٩٣٩ . وفي الوقت نفسه اضطرت فرنسا إلى أن تسلك بعض ما سلكته بريطانيا ، فحاولت - ولو في شيء من المداورة والتردد - أن تنظم علاقتها مع سورية ولبنان على أساس جديد من بعض الوجوه . وهكذا ترتب على هذه الخطوات من جانب بريطانيا

وفرنسا أن لاحت الحرب اهتلية ، والشرق الأوسط عند مفترق الطرق . . قد بدأ يستشف طريقه ويتلمس سبيله إلى حياة الاستقرار أو ما يقرب منه ، ولكنه مع ذلك يشفق من المستقبل ولا يطمئن إليه بأكثر مما تسمح به تجاربه خلال ربع قرن كامل .

ولكن التاريخ أعاد نفسه في الجولة الثانية من الحرب العالمية ، وإن كانت تفاصيل الكفاح وبعض ميادين قد تغيرت نظرًا لتغير ظروف المحاربين . والشيء المهم أن الهدف الأول من الحرب بقى كما كان ، وهو السيطرة العالمية والتحكم في اتصالات الغرب بالشرق . وقد سعت ألمانيا في هذه المرة إلى قلب الشرق كما سعت في المرة الأولى ، ولكن تغير الأحوال جعلها لا تركز في طريق واحد كما فعلت في الجولة الأولى ، عندما اتخذت طريق المضائق دون سواء ، فقد وقفت تركيا الجمهورية على الحياد في هذه المرة ، ولم تسمح باستخدام مضايقتها في أغراض الحرب لأى فريق من المتحاربين . وترتب على ذلك أن سعت ألمانيا ، أو اضطرت إلى السعى ، نحو الشرق الأوسط من غير هذا الطريق واختارت بالفعل طرقًا ثلاثة : أولها طريق القوقاز ، وكان وعزًا صعبًا ، وقفت من دونه جحافل الروس . وثانيها طريق البلقان واليونان والدوديكانيز إلى سواحل المشرق والشام ، وقد سعت فيه ألمانيا إلى منتصفه ، ولكنها لم تسر حتى النهاية فاستطاع الحلفاء أن يزحفوا إلى سورية ولبنان وأن يطردوا قوات فيشى وعملاء المحور منها ، كما لم تنجح ثورة الكيلانى في العراق لأنها كانت حركة منقطعة عن غيرها ، وحركة لا تتصل بسلسلة هجوم دول « المحور » . ويظهر أن الألمان لحسن الحظ لم يقدرُوا أهمية هذا المدخل من مداخل الشرق الأوسط ، ولو قد فعلوا ذلك ، وحولوا جانبًا من قواتهم الضائعة في روسيا إلى البلقان واليونان فسواحل المشرق كما فعلوا في احتلال كريت مثلاً ، لأصبحت لهم قاعدة راسخة في قلب آسيا الغربية ، ولتغير مجرى الحرب في هذا القسم من العالم . كذلك حاول الألمان أن يأخذوا الشرق من مدخل ثالث هو طريق طرابلس وبرقة ومصر ، ولكنهم أخطأوا هنا أيضًا فجاءوا متأخرين . ويظهر أن تحالفهم مع الإيطاليين كان عليهم أكثر مما كان لهم ، فإن إيطاليا لم تكن فيما يظهر متفانية في الحرب ولا مقبلة على التضحية من أجل النصر

المشترك ، فهي مثلاً لم تجازف بأسطولها في تمكين الصلة بين قاعدة المحور في طرابلس ومواطن التموين في إيطاليا وألمانيا . وعلى كل حال فقد تقدمت جيوش المحور نحو مصر ثم تقهقرت أكثر من مرة حتى إذا ما جاءت الواقعة الفاصلة في العلمين كان النصر حليف الجيش الذى استند إلى مصر . . . تلك القاعدة العظيمة التى ساندت الجيش البريطانى ومكنت له من مواردها وخبراتها ومرافقها ومواصلاتها وجهود أبنائها وإخلاصهم في العمل ، بما كفل له الأمان ساعة الخوف ، والثقة ساعة الإقدام . . وهكذا ارتد « جيش النيل » وتراجع ، ولكن إلى غير انهيار ، حتى إذا ما دقت الساعة تقدم منتصراً حتى جاوز إفريقية وبلغ إيطاليا بل وشمالها آخر الأمر .

وفي هذا الكفاح الطويل بين « المحور » والحلفاء في الجناح الغربى من الشرق الأوسط لم تتجل قيمة مصر في الدفاع عن نفسها فقط ، وإنما برزت كذلك قيمتها كقاعدة للتموين والإعداد ، وكمركز للتوسع والزحف وإنفاذ الحملات بالبر والبحر والجو في كل اتجاه . ويكفى أن نذكر هنا أن قوات الحلفاء توسعت من مصر (السودان) نحو إرترية وشمال الحبشة ، ونحو اليونان وجنوب البلقان ، ونحو فلسطين وسورية ولبنان ، ثم نحو برقة وطرابلس وتونس والميدان الجنوبى في أوروبا . وقد تجمعت للحلفاء في مصر جيوش من خمسة وعشرين قطراً وشعباً أو نحو ذلك ، حاربوا جميعاً في أرض مصر ، أو اتخذوها قاعدة إبان الحرب . ولا يكاد التاريخ يذكر أن تجمعت جيوش من مثل هذا العدد الكبير من القوميات والشعوب في بلد من البلدان خلال تاريخ الحروب الطويل قبل ذلك .

أما في الجناح الشرقى من الميدان فكانت روسيا في أبلغ الحاجة إلى أن يسند ظهرها ويشد أزرها في جبهة القوقاز والسهل الروسى الجنوبى . ولم يكن هناك طريق يمكن أن يبلغها عنه المدد غير طريق الخليج العربى وأرض إيران وكان أن احتل الحلفاء تلك البلاد واستغلوا مواردها وطرق مواصلاتها بما في ذلك الطريق الحديدى الذى أكمله الشاه بين الخليج وبحر قزوين ، وكأنما أنجز ذلك المشروع لينتفع به المحاربون من غير أهل البلاد قبل أنه ينتفع به أبناء إيران . والغريب - أو لعله ليس غريباً - أن إيران قد قاست من جراء حاجة المحاربين إليها مثل ما قاست

مصر وغيرها من بلدان الشرق إبان جولتى الحرب العالمية الكبرى .

ولكن الحق أن هذه الحروب لم تكن حرب الجبابة وحدهم ، وإنما شارك فيها واكتوى بنارها أبناء الشرق الأوسط وأممهم - وكانت مشاركتهم فيها بمواردهم وأرزاقهم بل وأرواحهم . وإذا نحن أخذنا مصر على سبيل المثال فقد ينفعنا أن نذكر أنها أعلنت على نفسها الأحكام العرفية في مطلع الحرب . وعلى نحو لم تعلنه بريطانيا ذاتها في بلادها ، وأنها قطعت علاقاتها بالمحور وبلدانه وأصابها من وراء ذلك غرم كثير في التجارة والتبادل انتهى إلى أكثر من الحرمان ، بل إنها قبلت نظامها الاقتصادي والانتاجي كله لتلائم بينه وبين مقتضيات الظروف واحتياجات الحلفاء والجيران في الشرق ، كما وضعت مواصلاتها كلها تحت تصرف الحلفاء من إنجليز وغير إنجليز .

وعلى نحو انطوى على تسخير نظام المواصلات كله من أجل الحرب ، فضلاً عن مساهمة جيشها مساهمة فعالة في الدفاع عن القناة والمدن الكبرى ضد الغارات الجوية ، وفي حراسة مرافق البلاد ، كما جندت مصر حوالى ربع مليون من أبنائها للعمل في المصانع الحربية والمسكرات ، وخصصت حوالى نصف مليون من العمال الزراعيين لانتاج المحاصيل والخضر التى تحتاج إليها الجيوش ، واكتوت بويلات الحرب الشديدة في الغارات وحوادث الطرق والأمراض الوافدة ، ومنها الملاريا الخبيثة التى حصدت حوالى الستين ألفاً هم بلاشك من ضحايا الحرب ، والحمى وغيرها من الأمراض الوافدة بسبب تنقلات الجنود . . . إلى غير ذلك من الآفات الاجتماعية ومشكلات البطالة وغيرها بعد الحرب ، وهى كلها تدخل ضمن تضحيات مصر في الحرب ومن أجل النصر ، مما يكشف عن أن ما قيل عن « تجنب مصر ويلات الحرب » لم يكن إلا أمنية بعيدة المنال ، بل مستحيلة من الناحية العملية ؛ فهى وإن كانت قد جنبت مصر كثيراً من « ويلات القتال المباشر » فإنها لم تجنبها ويلات الحرب بمعناها المعروف . ومثل هذا يصدق ولو إلى حد ما ؛ على غير مصر من بلدان الشرق فيها عدا تركيا . وليس كثيراً أن نسجل أنه لولا هذه المساهمات من جانب أهل هذا الإقليم ما كان ذلك النصر الذى انتهت إليه الحرب العالمية الكبرى في جولتها الثانية .

وفوق ما تقدم كله فإن الشئ الذى لاشك فيه أن أعقاب هذه الحرب ونتائجها

لن تقف عندما أصاب سكان الشرق إبان استعار القتال ، بل هى ستعدى ذلك إلى المستقبل القريب ، وقد تبلغ المستقبل البعيد .
وسيزيد من شدة مثل هذا النضال مستقبلاً أنه لن يكون من أجل المواصلات والقواعد العسكرية كما كان النضال السابق ، وإنما سيكون فوق ذلك من أجل موارد البترول وغيرها فى هذا الشرق الوسيط .

* * *

أما بعد ، فإن الله يداول الأيام بين الناس . وكثيراً ما جعل الله — جلّت قدرته ودقت حكمته — من الحروب سبباً لهذا التداول . والشرق الوسيط الذى نحن بصددده الآن إقليم قديم عريق فى القدم ، قد تداولت عليه أمم وشعوب ، ومربه من الحروب ما غير وجه التاريخ أكثر من مرة . ولكن حرباً واحدة من الحروب القديمة قد تستحق أن يذكرها أهل هذا الشرق — لاسيما الجانب العربى منه — فى حاضرهم ، وفيما هم مقبلون عليه من أيام . ذلك أنه أتى حين من الدهر اقتتل فيه الفرس والروم من أجل السيطرة على هذا الشرق ، وكانت هناك أمة غافلة ، أو شبه غافلة ، كان جبابرة الساعة يعتقدون إذ ذاك أنها لم تخلق ليكون لها فى العير أو فى النفير ، بل أنهم حاولوا تسخيرها وتوجيه أقدارها بما يلائم مصالحهم هم . وترددت هذه الأمة العربية أول الأمر بين الفرس والروم ، ثم مالت نحو هؤلاء الأخيرين فى مطلع العهد الإسلامى بحكم أنهم من أهل الكتاب على كل حال . ونزلت فى ذلك الآية الكريمة : « ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفغلبون فى بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد . ويؤمئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » . ولكن هؤلاء الأعراب ما لبثوا أن أدركوا أنه أولى بهم أن يكونوا لله ولأنفسهم وللإنسانية قبل أن يكونوا للفرس أو للروم . وقد أذن الله أن يتول إليهم الأمر فى الشرق بعد أن اقتتل الفرس والروم اقتتال فناء ، وبعد أن حطم الشر الشر ودوخ الشيطان الشيطان . والآن يقف أهل الشرق الأوسط موقفاً لا يمثل ذلك الموقف القديم ، ولكنه منه على شىء من الشبه ولو من بعيد . وليس أدل على ذلك من أن هذا الشرق فى قرارة

نفسه قلق على المستقبل حائر في أمره ، يخشى أهله أن ينحرفوا أو أن يميلوا كل الميل فتأخذهم الريح أو يجرفهم التيار ، وقد ينفعهم في هذا الموقف أن يستجمعوا ثقتهم بأنفسهم ، وأن يذكروا ما يفرضه عليهم موقعهم الجغرافي نحو أنفسهم ونحو الإنسانية جمعاء . بل قد ينفعهم أن يذكروا ما انتهى إليه الأمر مع أولئك الأعراب القدماء الذين ذكروا أنفسهم فكانت لهم العاقبة ، ولو بعد حين .

قد يبدو هذا الكلام وهماً أو خيلاً ، ولكن هذا الشرق الأوسط كان في تاريخه الطويل مهد المعجزات ، وسيبقى كذلك ما بقى التاريخ . والله سبحانه وتعالى قادر ، في يوم قريب أو بعيد على أن يخرج الواقع من الوهم ؛ وعلى أن يخرج الحقيقة من الخيال وصدق الله العظيم ، وهو القائل في معرض الكلام عن اقتتال الجبابرة القدماء من أجل هذا الشرق ، اقتتالاً ما كانوا ليقدموا عليه لو أنهم أدركوا عاقبته «لله الأمر من قبل ومن بعد . . وهو العزيز الرحيم» .

« ٨ »

الأمة الوسط والبيت العربي الكبير

الأمة الوسط والبيت العربي الكبير*

قال تعالى وقوله الحق :

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ صدق الله العظيم .

إننا نحن العرب . . . أمة وسط . . . خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهي عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وتسارع في الخيرات . . . نحن أمة وسط بين السلالات والأجناس ، ووسط في الموقع الجغرافي بين عالم الشرق وعالم الغرب ، ووسط بين الحضارات .

وإن من ينظر إلى بلاد العرب ، ليجد البحر الأحمر والخليج العربي غير متصلين بالبحر المتوسط . ولو اتصل البحر الأحمر والخليج العربي بالبحر المتوسط ، لعبّر الناس منطقة بلاد العرب ، بواسطة هذه البحار ولتأثر الدور الذي قامت به البلاد العربية في الوساطة ونقل السلع والأفكار .

ولكننا نحن العرب أمة وسطاً . . لا مجرد « وسطاء » ، وتلك ميزة تضاف إلى ما نتحلى به من مزايا في الثقافة والروح والسلوك والمزاج وكرم الطباع ورحابة النفس وحسن الأخذ والعطاء ، والتحرر في ذلك كله من مركّب النقص ، كما أننا نقدر الحق والخير والتواصى بالبر واحترام العقائد ومناصرة الحق .

وعلى الرغم من « عصبية الجنس » ، إلا أننا نرفض « التعصب » ، وندعو إلى التسامح ، ونفسح للمودة أن تنمو في رحابنا ، وتزدهر بين جنبات وطننا العربي الكبير، الممتد من الخليج العربي شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً .

* خطاب ارتجل (وينشر الآن وبهذه الأصل مع بعض التعديلات) في ندوة عقدت بمدينة بنغازي (ليبيا) .

نحن العرب لم نعرف التعصب كما عرفه غيرنا من الأمم ، وإنما امتزنا برحابة إنسانية رائعة .

فعندما ظهرت الأديان السماوية في أراضينا ، وأنزلها الله من عنده ، لم يكن ذلك صدفة ، فإن الله سبحانه وتعالى لا يصدر إلا عن حكمة ، ولو شاء ربك لأرسل النبيين والرسل في الهند أو في الصين أو عند القطب الشمالي أو في أراضي أمريكا أو أستراليا . ولكنه لم يفعل ، وإنما بعث رسل الأديان السماوية الثلاثة إلى الأرض في بلادنا العربية ، ولم يكن هذا إلا لحكمة خاصة ، ذلك أن أرضنا وسط ، وأن شعبنا وسط ، وأن مزاجنا وسط ، وأن روحنا وسط ، وأن عاطفتنا وسط ، وأن ضميرنا أقرب الضمائر إلى ضمير الإنسان .

والله سبحانه حين يتحدث إلى الناس ، وحين يكلمهم إنما يخاطب العقل والضمير معاً ، وإن الإنسان ليمتاز على الحيوان بضميره قبل أن يمتاز بغريزته أو حتى بعقله ، فالغريزة أمر مشترك بين الإنسان والحيوان جميعاً ، والعقل يشارك بعض الحيوان الإنسان فيه ، ولو بأقذار قليلة أو متفاوتة . أما الضمير فينفرد به الإنسان .

الله يعرف أن هذا الضمير هو الذى تكمن فيه قدرته وحكمته في خليقته على الأرض . ذلك الضمير الذى عرفه سكان المشرق العربى منذ قديم ، هو الذى نظم سلوكهم ، ووجهه بحيث يعرفون غيرهم من الأمم ، وبحيث يقدرون مآلدي غيرهم من الأمم من رأى أو من فكر أو من حضارة أو من سلوك ، وبحيث تقوم الصلة بين الإنسان وأخيه الإنسان على أساس من السلوك الفردي الذى يمليه الضمير ، والذي يحاسب عليه الضمير كذلك .

وعلى هذا الأساس كان الناس في هذا المشرق العربى منذ قديم أقدر خلق الله جميعاً على أن يدركوا رسالة الرسل ، وعلى أن يعرفوا الله ، وعلى أن يتقوا الله في سلوكهم في الحياة . لذلك فإننا حينما نزلت الكتب السماوية علينا ، عرفنا أننا جزء من الإنسانية جميعاً ، عرفنا أننا نتوسط العالم ، ونتوسط الشعوب ، وأننا نخالط الناس في كل مكان وأننا نعطي الناس كما نأخذ عنهم ، وأن حياتنا تقوم على ما نسميه الآن العطاء والأخذ ، لذلك انطلقنا بهذه الرسالات شرقاً وغرباً ، حتى

أصبح هذا المشرق العربي منذ قديم ، وأصبح سكان هذا البيت الكبير « وسطاً بين الناس » .

وفي الحالات التي شذ فيها عنصر من العناصر السامية التي ظهرت في الإقليم في وقت من الأوقات . . . شذ عن هذه السجية ، وهذا الطبع الذي طبع عليه الله سكان هذه الأرض . . . فشل ذلك الفريق من الساميين ، وأظن أنكم تدركون أنني إنما أعني طائفة اليهود . فالديانة اليهودية في أصولها ومبادئها منزلة من عند الله . . . ولكن طائفة اليهود نشزت عما تقضى به طبيعة سكان هذا الإقليم من أنهم جزء من العالم يعيشون لأنفسهم ولغيرهم ، ويعيشون بأنفسهم وبغيرهم ، وتقوم صلات التبادل بينهم وبين غيرهم على أساس من العدل والإنصاف والمحبة . أما اليهود فقد انطوا على أنفسهم ولم ييسروا ديانتهم بين غيرهم ، بل تنكروا في كثير من الأحيان لرسلمهم أنفسهم .

وترتب على هذا أن الديانة اليهودية لم تنتشر في الأرض ، وإنما الذي انتشر أو الذين انتشروا هم اليهود ، وفرق بين أن يتفرق الناس وبين أن تنتشر أفكارهم وحضارتهم وديانتهم . . . قارنوا بين هذا وبين ما حدث عندما جاءت المسيحية ، ثم جاء الإسلام .

جاءت المسيحية فأدرك سكان المشرق العربي أنها دين من عند الله أنزله للجميع ، وأنها تقوم أساساً على المحبة ، ولذلك انطلقوا بها شرقاً وغرباً فانتشرت المسيحية .

ثم جاء الإسلام ، جاء ديناً للناس كافة ، سمحاً توسع إلى بعض أراضي المسيحية الأولى ، وقام على أساس الإخاء بين الناس جميعاً ، وعلى أساس المساواة بينهم ، بحيث لم يفضل العربي على الأعجمي إلا بالتقوي ، وفتح مجال المفاضلة على أساس جديد تماماً ، لم يعرف اللون ولم يعرف الجنس ، تساوت الألوان ، ولا غرو فقد خلقها الله متساوية ، ولم يعد النسب ولا الحسب مستقر القيمة الإنسانية للفرد ، وإنما أصبح البر وأصبحت التقوي وأصبح التواصل والتراحم بين الناس ، وأصبحت محاسبة الضمير للإنسان وأصبحت معرفة الله عن طريق العبادة الحقة . . أصبح كل هذا أساس المفاضلة بين الناس ، تعارفت الشعوب ، ودخل الناس في

دين الله أفواجا . وانتشر الإسلام شرقا وغربا .

وإننى لأصدقكم حين أقول : إن الإسلام لم ينتشر بالسيف ، وإن كانت «سلطة المسلمين» في بعض العصور قد انتشرت واتسعت بالسيف . . إنما انتشر الإسلام لأنه كان يدعو إلى الإنسانية ، ولأنه كان ينطلق على يد دعاة ومبشرين من المشرق العربى طبعت فيهم البيئة روح الإنسانية السمحة . . وتوارثوا عن أجدادهم أنهم وسط بين الناس .

لقد اشتغل العرب والمسلمون بالتجارة ، وهى مهنة شريفة ، تتصل بتبادل السلع ، ولكنها تيسر أيضا تبادل الأفكار . والنبي عليه الصلاة والسلام كان تاجرا ، كما كان رسولا . .

ولقد انتشر الإسلام شرقا إلى داخلية آسيا ، وكان انتشاره إبان ضعف دولة المسلمين العسكرى ، لا إبان قوتها . فقد انتشر في عهد المغول ، الذين طغوا على المشرق العربى ، وبلغوا بغداد وأحرقوها ، ثم حاولوا أن يبلغوا أرض الشام وأرض مصر ، ولكنهم اندحروا لاسيما في واقعة عين جالوت ، بفضل جيش مصر الإسلامية وهو الذي أنقذ الإسلام في يومه العصيب .

وهكذا انتشرت العقيدة والثقافة الإسلامية والعربية إلى قلب آسيا . . إلى أرض المغول أنفسهم ، في وقت لم تكن فيه للمسلمين ولا للعرب جيوش تتوسع نحو قلب القارة أو مشرقها . ثم انتشر الإسلام إلى بلاد ماليزيا واندونيسيا عن طريق البحر والتجارة البحرية . ولم تكن للعرب ولا للمسلمين دولة أقاموها بحد السيف في البحار إلى جزر إندونيسيا ، وكذلك انتشر الإسلام إلى أرض السودان ، وإلى داخلية إفريقية وشرقها ، وانتشر عن طريق هجرة القبائل العربية على طول وادى النيل ، وانتشر الإسلام كذلك إلى شمال إفريقية ، وإلى أرض السنغال ، عن طريق شمال إفريقية وعن طريق الهجرة والتجارة . وانتشرت بينهم الأفكار ، لأن الذين حملوا لواء الثقافة العربية والإسلامية كانوا وسطا بين الناس .

والعرب أيضا كانوا وسطا في صفات أخرى كثيرة ، منها أنهم وسط بين الحضارات . وسط بين حضارة الفرس ، وحضارة الهند في الشرق ، وبين حضارة اليونان وحضارة الرومان وحضارة القرطاجيين في الغرب ، بل بين حضارات

الشمال القديمة والحديثة وبين حضارات إفريقية في الداخل والجنوب والحق أنهم كانوا منذ قديم رسل ثقافة ورسـل حضارة .

هذا هو الذى حدد دورنا في التاريخ ، وهذا هو الذي جعل بيتنا العربى بيتا كبيرا وعريقا . وهذه الصفة لم تجتمع لغيرنا من الأوطان أو الناس ، فغيرنا كان ينطوى على حضارته ، وكان يزور عن حضارات الآخرين ، بل كان يزدري حضارات الآخرين في كثير من الأحيان . أما نحن فقد كنا نعز بحضارتنا ، وكنا في الوقت ذاته نعرف لغير حضارتنا من الحضارات قيمتها ، وهذه صفة انفردنا بها بين الأمم والشعوب ، لاسيما القديمة منها .

فالصين مثلا كانت لها حضارة ، ولكنها بقيت للصين على مرّ العصور ، وانتشرت بعض الانتشار إلى جنوب شرق آسيا ، وانتشرت قليلا في داخلية القارة ، ولكنها لم تنتشر إلى خارج نطاق الصين الكبرى وما جاورها . وكانت للهند حضارة ، ولكنها اختلطت بما دخل إليها حتى أصبحت الهند مستودعا لسلسلة من الحضارات المتعاقبة والمتعاصرة في آن واحد ، كاد منها طابع الحضارة الهندية أن يزول ، وحتى عندما انتشرت الحضارة من الهند لم تنتشر على يد الهنود بقدر ما انتشرت على يد غيرهم من الناس . وكانت للفرس حضارة بقيت ضعيفة النطاق تكاد تقتصر من حيث اللغة على أرض الفرس أنفسهم ، وتكاد لا تتسع في انتشارها إلى أكثر من حضارات مجاورة ، وعادت تلك الحضارة الفارسية فاحتكت بحضارة الإغريق ، واحتكت احتكاكا حريبا وعسكريا بالثقافات وأهل الشواطئ المجاورة لأرض الفرس ، كما حدث حول الخليج العربى ، أو كما حدث على أطراف الهند ، كذلك كانت لليونان حضارة ، ولكنها ضعفت على مر الزمن ولم تستمر ، وكانت للروم حضارة ، ولكنها تمثلت على الخصوص في نواحي الإدارة أو نواحي التشريع أو في بعض النواحي المادية كمدّ الطرق ، ولكنها ماتت في آخر وقتها ، ولم تبق على الزمن . أما العرب فحضارتهم كانت حضارة مستمرة وباقية على الزمن حتى وقتنا هذا .

لغتنا العربية ، لغة بقيت حوالى ستة عشر قرنا حية ، فنحن اليوم لا نزال نقرأ الشعر الجاهلى ونتذوقه ونتعشقه ونتغنى به ، في حين إننا لو ذهبنا إلى بلد كإنجلترا

أو كفرنسا ، وحاولنا أن نقرأ شعراً مضت عليه سبعة قرون أو ألف عام فإن البريطاني أو الفرنسي لا يكاد يفهم منه شيئاً ، وإذا ما فهم شيئاً فإنه لن يتذوقه . أما لغتنا فقد احتفظت بحيوية عجيبة ، فهي قديمة وهي مستمرة على الزمن ، وهي لغة القرآن . والقرآن حصن اللغة العربية الباقي ما شاء الله .

وثقافة هذا البيت العربى الكبير ثقافة ممتدة شاملة تشمل البيت كله ، فكلنا نقرأ القرآن ونرتله ونتشئ بالاستماع إليه ، كلما رتلته المقرءون ، وكلنا نتعشق الإنتاج الأدبى العربى بصوره التى هى بعض نواحي الخلود فى اللغة ، وكلنا فى العهد الحديث ، وبفضل التربية والتعليم ، أصبحنا فى هذا البيت الكبير ، نقرأ لغة واحدة بكتابة واحدة ليس لها مماثل فى العالم كله ، فيما عدا الصين إلى حد ما . فالصين هى البلاد الوحيدة الكبيرة فى المساحة ، والتى تقرأ لغة واحدة . فأما فى الهند مثلاً فإن الهنود لا يقرأون لغة واحدة ، وإذا أراد هندي جنوبى أن يفهم مع هندي شمالى فى الوقت الحاضر فلأنهما يستعملان لغة غريبة عن الإثنين وهى اللغة الإنجليزية .

أما نحن فى عالمنا العربى فننعم بنعمة كبرى ، وبمقوم أساسى من مقومات الوحدة بين الناس والترابط والتفاهم بين الأفراد ، أفراد البيت الواحد ، هذه النعمة هى اللغة العربية .

ثم إن حضارتنا حين توسطت الحضارات احتفظت بحيويتها . صحيح أننا احتفظنا فى هذه الحضارة ، وفى هذا البيت العربى الكبير ، بأصولنا العربية القديمة فاتهمنا بعض الباحثين الغربيين بأننا قوم جامدون محافظون على القديم ، نتعشق الشعر القديم الذى يقال إنه قد جرى عليه الزمن . ولكن الواقع أننا إن كنا نحافظ على القديم الطيب من تراثنا فإننا فى الوقت ذاته نجدد فى كل يوم .

فنحن العرب ، قد اتصلنا بالحضارات القديمة فى الشرق وفى الغرب ، وأخذنا عنها ، ولم نستشعر حرجاً فى أن نأخذ عن غيرنا ، لأننا نعرف أن الحياة أخذ وعطاء ، ولأن الكريم هو الذى يأخذ ، ولا يأنف أن يأخذ ، لأنه لا يخشى اليوم الذى يرد فيه الجميل أضعافاً مضاعفة . وهذه صفتنا نحن العرب ، نأخذ من غيرنا فى غير حرج ، وفى غير مركب نقص ، لأننا نعرف أننا إما أن نكون قد سبقنا

بالفضل إلى غيرنا ، وإما أننا قادرون بإذن الله على أن نرد الجميل في حينه وهذه صفتنا . . صفة الكرم ، كرم النفس الحاتمي الذي لا يمكن أن يولد إلا في مكان يتوسط الأرض ويتوسط الناس ، ولا يمكن أن يولد إلا عند مجموعة من البشر عرفت غيرها من الناس وعاشرت غيرها من الناس ، أعطت غيرها من الناس ، وأخذت عن غيرها من الناس ، وتلك هي الصفة الأساسية في طبعنا العربي ، امتدت إلى ثقافتنا منذ قديم .

فنحن العرب ، قد اتصلنا بالحضارات القديمة ، ونظرنا ولا نزال ننظر إلى الحضارات القديمة التي سبقت العهد العربي والعهد الإسلامي على أنها أصل من أصولنا . وإذا كنا نعيش في لبنان مثلاً أو في سورية أو في اليمن ، فإننا ننظر إلى الحضارات القديمة التي ظهرت في تلك البلاد جميعاً على أنها جذور الحضارة العربية الأولى ، ويجب أن نعرفها ، بل يجب أن ندرسها ويجب أن نحى الطيب من تراثها ، ويجب أن نستشعر بأننا قدماء في هذه الأرض ، وأننا حينما جاءت اللغة العربية فوحدت بيننا ، وحين جاءت المسيحية فعلمتنا السباحة والمحبة ، وحين جاء الإسلام فعلمنا الإخاء والمساواة بين الناس ، حين جاء كل هذا فإنه بنى على أساس قديم من الحضارات الماضية .

لقد حاول الغرب للأسف الشديد أن يشوه هذا ، وحاول أن يضعف ثقافتنا بحضاراتنا القديمة السابقة على عهد العرب ، وهي حضارات قديمة ، ولكنها تمثل عهد الجاهلية بالنسبة لعهد الوحدة . وواجب علينا ، وقد بلغنا مرحلة الوحدة ، أن ننظر إلى تلك الحضارات الأولى على أنها بدأت متفرقة ثم تجمعت في حضارة عربية واحدة . وكذلك الحال إذا كنا في أرض مصر ، وكانت هناك حضارة فرعونية ، هي أصل من أصول حضارتنا ، لا يمكن أن نتكر له ، ولكن من واجبنا أن ندرسه وأن نعي دروسه ، وإذن فسنعرف مثلاً أن مصر الفرعونية كانت دائماً على اتصال وثيق مع الشعوب المقيمة في الشرق الذي أصبح مشرقاً عربياً فيما بعد . كما كانت على اتصال وثيق بليبيا التي جاءت من أطرافها إحدى الأسر الحاكمة في العهد الفرعوني المتأخر في مصر ، كما جاءت أسرة أخرى إلى مصر من شمال السودان .

وعلىنا أن نذكر أن مصر في الدولة القديمة كانت أقوى بلد في العالم المعروف كله وبقيت كذلك لمدة ثمانمائة عام ، أيام بناء الأهرام ، ولكنها لم تشن حربا واحدة خارج حدودها ، وإنما فضل سكان الوادي إذ ذاك أن يقيموا الهرم الأكبر ، وهو الصرح الكبير من الحجارة ، الذي ينظر إليه العلماء في الغرب الآن ، على أنه صرح كبير ، بددت فيه الجهود ، وسخر فيه الناس تسخيرا ، ولكننا نحن الذين نبحث أصول حضاراتنا في المشرق العربي ، ننظر إليه على أنه متنفس للطاقة الزائدة ، فبدلا من أن تبدد قوتنا في حرب ضروس ، وبدلا من أن يساق الناس سوقا إلى الحرب ، وبدلا من أن يحارب الإنسان جاره ، أقام المصري القديم صرحا كبيرا من الحجر ، وبقي هذا الصرح رمزا لوحدة الجهود ، ورمزا في الوقت نفسه للإتقان وحسن التنظيم وانصراف الطاقة البشرية إلى البناء بدلا من التخریب .

كذلك الحال في حضارة ليبيا ، وهى أرض عربية عريقة يحاول الغربيون أن يزعموا ثقتنا وأن يصوروا بأننا طارئون على هذه الأرض ، وبأن هذه الأرض كانت لغيرنا من اليونان أو الرومان قبل أن يأتي إليها العربى ، ولكن هذا كله تصوير غير دقيق ، بل تصوير غير منصف ، وهذا الكلام إنما أسوقه إليكم كعالم يعرف أن ضميره يحاسبه على قول الحق ، فهذه الأرض كانت لأهل ليبيا الأولين من أقدم العصور ، وسكان ليبيا لم يتغيروا ، والعرب حين انطلقوا من أراضيهم ، كانوا بذرة طيبة ، ولكنهم خالطوا الشعوب المستقرة من قبلهم في الأرض التى انطلقوا إليها ، فهم قد خالطوا سكان وادى النيل ، الذين نظروا إلى العهد العربى والفتح العربى على أنه المنقذ من حكم البيزنطيين ، وانتقل العرب إلى أرض ليبيا فخالطوا السكان الأصليين ، ومارسوا سماحتهم وانطلقهم ، ومارسوا عقيدتهم التى تدعو إلى المساواة وإلى الإخاء ، وإلى محو التفاخر والتفاوت بين الناس على أساس من الجنس أو من السلالة ، فأرضكم (يا أهل ليبيا) ، إذن ، هى أرضكم منذ قديم ، ودماؤكم فيها الدم القديم لسكان البلاد الأصليين ، وفيها الدم العربى الجديد ، وفيها هذه الثقافة التى تربط بين هذه البقعة من البيت الكبير وغيرها من البقاع شرقا وغربا .

ثم إذا ما انطلقنا غربا ، إلى أرض المغرب فى تونس أو فى الجزائر أو فى المغرب ذاته ،

أو فيما وراء ذلك من أرض الصحراء الكبرى . إذا ما انتقلنا إلى هذه المنطقة الغربية، التي تمثل الجناح الغربي من بيتنا العربي الكبير ، وجدنا أنه كانت هناك حضارات ، وأن غيرنا من الناس يدعى أن الأرض كانت لهم ، وأن قرطاجة كانت غريبة عن إفريقية الشمالية ، وأن سكان إيطاليا فتحوا بعض تلك المناطق من قبل ، وأن بعض سكان إسبانيا فتحوها في عهد من العهود ، ولكن الحقيقة الثابتة، أن هذه الحضارات ، إنما اتصلت كلها بحضارات المشرق ، الذي يقع في شرق إفريقية وجنوب غرب آسيا ، فإخواننا البربر أنفسهم ، إنما جاءوا في الأصل من شرق إفريقية (وكانوا بنى عمومة مع قدماء المصريين الذين كانوا يمثلون بعض الدماء الحامية) وكانوا بنى عمومة لبعض سكان إريتريا وشرق إفريقية وجنوب بلاد العرب في اليمن وحضر موت .

تلك هي الصلات القديمة - صلات الدم ، وصلات العمومة - ثم عندما انطلقت الحضارات بعد ذلك من أرض مصر أو من أرض فينيقية ، انتشرت إلى شمال إفريقية ، إلى قرطاجة ، وعمرتها ، ونقلت معها روح المخاطرة ، روح نشر الحضارة ، فانطلقت قرطاجة إلى روما ، ونشرت نشاطها وتجارها في كل البحر المتوسط .

فحضارة شمال إفريقية إذن ، كان أحد مصادرها الأصيلة ومنابعها إنما هو في المشرق، وعندما جاء العرب ، جاءوا كموجة جديدة إلى هذا الجناح من بيتنا الكبير ، انطلقوا غربا ، فعمرروا شمال إفريقية ، واتخذوا منه قاعدة لنشر الفكر ونشر الثقافة ونشر النور . وانتشروا إلى صقلية ، وانتشروا إلى أرض إسبانيا ، ورفعوا علم الحضارة عاليا ، وكانوا في انتشارهم يمثلون الروح العربية الجديدة . طارق بن زياد لم يكن في أصله عربيا من الجزيرة ، وإنما كان عربيا ، لا بلونه وإنما بحياته وكيانه وروحه ، ثم بشعوره ودينه وثقافته .

* * *

هذا البيت العربي الكبير الذي حاولت أن أطوف به ، في عرض الأرض من ناحية إلى أخرى . . ، هذا البيت الكبير ، هو الذي بدأ في عهدنا الجديد يتفرض ،

بدأ يدرك رسالته ، فهو بيت كبير تسكنه أسرة كبيرة ، ومن طبيعة الإنسان ، ومن طبيعة البشر أن يغفروا أو أن ينام بين حين وحين . . . هذا البيت الكبير ، حضارته قديمة ، وسكانه ذوو أصالة كما كانوا دائماً همزة الوصل بين الناس ، ورمز التعارف والتآلف ، وكانوا سبيل البر وسبيل الخير ، عرفوا سكان آسيا واتصلوا بهم اتصال خيراً ، نقلوا إليهم معالم الفكر والثقافة ، وعرفوا أهل أفريقية ، وعاملوهم معاملة الأخ لأخيه ، لم يستعمروا إفريقية ، وإنما نشروا إليها النور ، وحين نشروه عرفوا أن الإنسان أخ لأخيه الإنسان ، وعرفوا أوروبا في صقلية وفي الأندلس وعرفوها ناشرين للنور وللحكمة وللثقافة لا سيما في بلاد الأندلس ، فأين هذا من صلوات غيرنا من الناس بعضهم ببعض ؟

نحن بيت عرف سكانه الصلوات الإنسانية منذ قديم . نحن شعب يسكن هذا البيت العربي الكبير ، ويعرف أنه صاحب تراث قديم ، صاحب حضارات قديمة نذكرها بالخير ولكننا نذكر معها أننا كنا متفرقين مشتتين في هذا البيت ، قبل أن تظهر الثقافة العربية ويظهر الإسلام ، كنا أمماً متفرقة ، لكل منا حضارة ولكننا تعارفنا لأننا نشأنا في إقليم وسط بين الأرض ، ولأن الله شاءت قدرته أن يكون أو أن ينطبع سلوكنا خلال الزمن كله على أساس المحبة والتعارف والتآلف . ثم انطلقنا من عهد الجاهلية الحضارية ذاك البعيد ، وعهد التفرقة ، إلى عهد الوحدة ، حين جاءت اللغة العربية ، وانطلقت مع الإسلام غرباً وشرقاً ، حين جمعتنا ثقافة واحدة ، في بيت عربي كبير ، حين أصبحنا في جملتنا أصحاب دينين اثنين متآخيين : الإسلام ، والمسيحية ، حين خرجنا على الديانة القديمة التي تنكر أصحابها لرسالتها الأولى ، فانطوا على أنفسهم ، وهى الديانة اليهودية التي تنكر أصحابها لمبادئ السماحة والتآلف ، وانطوا على دينهم ولم ينشروه بين الناس ، حتى جاءت المسيحية ثم جاء الإسلام فصححنا الأوضاع ، وأصبحنا أمة وسطاً - حقيقة - بين الناس .

ذلك هو التفسير الطبيعي لسلوكنا في الماضي والحاضر ، ومن الخير لنا حين نبحث هذه النواحي من حضارتنا ، وحين نحاول أن نفسر سلوكنا ، أن نتفهم هذه الأمور ، وأن نتفهم حضارتنا بأنفسنا على غير ما فهمها أهل الغرب . ومن واجب

الباحثين العرب أن يعيدوا النظر في التاريخ ، وأن يفسروه تفسيره الصحيح ، وعندئذ سنعرف أننا أهل حضارة قديمة أصيلة ، وإننا إن عرفنا « العصبية » ، فإننا لم نعرف « التعصب » ، وأننا نتوسط أرض العالم ، ونمارس وجودنا في أننا صلة الخيريين الناس جميعا ، في الشرق وفي الغرب ، وفي الشمال والجنوب .

ونحن حين ندرس حضارتنا العربية العريقة ، في أصولها الأولى والقديمة قبل أن يظهر العرب وحضارتهم ولغتهم ، وفي مظاهرها العربية الإسلامية ، وفي اتجاهاتها في العهد الحديث ندرك أننا نملك من مكامن القوة في حياتنا ، ما يجعل من استقلالنا ووجدتنا في هذا البيت الكبير ، مصدر خير ، لا لأنفسنا وحدنا ، وإنما للإنسانية جمعاء .

ولكننا حين بدأنا نهضتنا الحديثة في المشرق العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين ، كنا ننقل دروسنا عن الغرب ، وكان الغرب يعلمنا أننا أمة مفككة ضعيفة ، وأنها إذا أردنا أن نعيد بناءنا القومي ، فإن من الواجب علينا أن نبحث عن نواحي الضعف في حياتنا لنقومها كما نبحث عن نواحي القوة في مجتمعنا وحضارتنا فنبعثها بعثا جديدا ، وهي التي تكمن في تاريخنا الإنساني ، وتكمن في سلالتنا وفي دمائنا ، وتكمن في أننا شعب يؤمن بالله سبحانه ، وتكمن في أننا شعب لا يعوزه إلا أن يثق بنفسه ويعتز بوطنه ، الذي تكمن أسباب القوة في كل جزء من أجزائه التي اختص كل منها بدوره الخاص في بناء الحضارة العربية .

فأرض البادية في نجد مثلا ، هي موطن البداوة ، والبداوة أصل العروبة ، والبدوهم أصل الحضرة ، وإن البداوة التي غشى علينا فنظرنا إليها نظرة استعلاء ، تكمن فيها أصول الفكر والذوق السليم ، واللغة النقية ، وتلك الصفات التي يتحلى بها البدوي ، وأبرزها صفة الكرم رغم الفقر والحاجة ، وصفة البذل والعطاء ولو كان يبذل النفس ، وصفة النخوة والشهامة ، وصفة إجارة المستجير . وهي كلها صفات يمتاز بها البدوي على بساطته ، وهي لا تزال تمثل الأسس التي تقوم عليها حياتنا الجديدة . وإن ذلك هو النبع ومصدر الوحي الذي نستوحى منه أصولنا الفكرية وأصولنا الثقافية جميعا ، فالبادية والبداوة جزء لا يتجزأ من العروبة كما عرفها التاريخ .

وإذا ما انتقلنا من أرض البادية في نجد وما وراءها ، إلى أرض العراق ، وجدنا أنها أرض تقع في أطرافنا الشرقية ، نلتقى عندها بغيرنا من الناس وبغيرنا من الحضارات ، نلقى الجيوش الغازية ونتعامل معها ، وقد تستطيع الجيوش أن تحطم بعض مراكز حضارتها ، فتصبح العراق بمثابة الدرع الذى يقى العروبة . حدث هذا فى العهود السابقة حين جاء المغول ، وتكرر هذا فى العهد الحديث حين جاء الأتراك فغزوا أرض العراق وعطلوا مسيرة الحياة فيها . وحتى فى العهد الحديث ، حين احتكنا سياسيا أو عسكريا بغيرنا من النظم السياسية والعسكرية المعاصرة فى إيران استطاعت تلك العناصر ، ولو لفترة من الفترات القصيرة أن تنفذ إلى أطراف العراق دون غيرها من أرض العروبة لأن العراق أرضه متطرفة . بل لأنه «كتف العروبة» أو جناحها يتعرض أكثر مما يتعرض غيره للخطر ، ولذلك فإن غيرنا من غير العرب يستطيع أن ينفذ إلى أرض العراق (من الشرق أو من الغرب البعيد) ولكن كان للعراق دوره الخاص وكانت له قدرته على تلقى الصدمات فى القديم أو فى العهد الحديث أو المعاصر ، فهو قد كان على الدوام الشعب القادر على التصدى للعدوان .

ولأرض الشام وسورية من هذا البيت العربى الكبير ، دورها الخاص ، فالبداءة قد انطلقت من أرض الجزيرة ، واستقرت فى أرض الشام . وسورية التى كانت دائما موطن الحضارة العربية فى انتقالها من مرحلة البداءة الأولى إلى مرحلة التحضر الظاهر ، وسورية إلى جانب ذلك ، كانت تلى العراق ، وتتوسط أرض العرب الشمالية وتتصل اتصالا وثيقا بأرض مصر التى اتصلت بها منذ قديم ، وحتى قبل أيام الفراعنة . وحين جاء الهكسوس غازين من ناحية الأناضول الشرقي وما وراءه إلى الشرق ، وانتقلوا إلى الطرف العربى من أرض المشرق العربى فيما بعد ، ترابطت مصر والشام واستطاعت القوة المشتركة أن ترد الهكسوس ، وغيرهم من الحثيين . وأن ترد الغزاة الشماليين . وتكرر مثل هذا مرة أخرى أيام صلاح الدين ، وفى العهد العربى ، فحين جاء التتر والمغول والأتراك وانتقلوا من داخلية آسيا إلى بلاد العرب الإسلامية تحالفت مصر والشام مرة أخرى . واستطاع العرب فى مصر والشام أن ينقذوا أرض العرب للعرب وللإنسانية جمعاء ، وتكرر

هذا ولا يزال يتكرر في أيامنا ، وبصورة جديدة عن صورته القديمة ، حتى إنه لقد كان يقال في الحريين العالميتين الأخيرتين إن جذور وحدة جديدة تنبعث ، وإن من يريد أن يدافع عن مصر إنما ينبغي له أن يدافع عن تلال أرض الشام . وهذا التكامل الطبيعي أمر له مغزاه وليس أمرا طارئا ، ولا أمرا مفتعلا ، وإنما هو يمثل صفوة التاريخ الذي يكرر نفسه بين حين وحين ، ومصر لها دورها الفريد كحجر الزاوية في البيت العربي الكبير ، فهي همزة الوصل بين العرب في آسيا والعرب في إفريقيا . ومصر كان لها دورها منذ قديم ، إنما لا تستطيع أبدا أن تعيش بنفسها ولا لنفسها ، وإنما هي لأهل هذا البيت الكبير كلهم .

وإذا كانت مصر قد « أمت » نفسها للعروبة ، وإذا كانت الأمة العربية قد تبنت مصر وأبناء مصر ، فذلك كله أمر يتفق وما تقتضيه حكمة التاريخ .

وإذا ما انتقلنا إلى قسم آخر خاص من هذا البيت وهو لبنان . . . فإننا نجد أن لبنان كان « مطل » العروبة على البحر المتوسط . . . وهو النافذة التي يطل العرب منها على العالم في هذا البحر وما وراءه . فنحن نتصل عن طريقه بحضارة اليونان وبحضارة الرومان في القديم ، وبالخصارات الحديثة في العهد الحديث . . . فمن هنا انطلق العرب إلى المهاجر في بعيد الأرض ، انطلقوا من لبنان ومن أرض سورية المجاورة ، فنشروا ثقافة العرب إلى أمريكا ونشروها إلى بقاع أخرى في الأرض البعيدة . ولبنان قد عرف منذ قديم أيضا ، بأنه جزء لا يتجزأ من العروبة ، وبأنه هو النافذة التي يخرج منها نور العرب إلى العالم الخارجي ، ولا بأس عند العرب من أن يدخل النور من الخارج عن طريق هذه النافذة ، ولكن النور الخارج إذا انقلب نارا ، فلعل مياه شواطئ لبنان أن تكون كفيلا بأن تخفف لظاه !

وأرض السودان ، امتداد طبيعي لأرض الوطن العربي ، ارتبط منذ أقدم العصور بأرض مصر ، لا شيء إلا لأن النيل يجري بين الأرضين ، ويجرى بالصلة المعروف ، ولأنه صلة من عند الله - وحاشا لله أن تنقطع صلة هي من صنع الله - وعندما انطلق العرب من بلادهم ، وانطلقت ثقافتهم إلى السودان ، لم يبلغوا السودان مباشرة عن طريق البحر الأحمر ، إلا في أضيق الحدود ، ذلك أن العرب كانوا رعاة وكانوا أهل إبل ، وقد وصلت قبائلهم أرض السودان عن طريق مصر ،

وسارت مع النيل إلى السودان . ومصر كانت دائما طريق الثقافة إلى سهول السودان وأراضيه ، وكانت بصفة خاصة طريق العروبة والإسلام إليه ، ولقد انتشر العرب الذين توغلوا على طول مجرى النيل حتى بلغوا قلب السودان ومشارف جنوبه . ولكن الأتراك ظهروا بجحافلهم ، واحتلوا مصر ، فانقطع فيض العروبة ونورها عن داخلية السودان . ولعل هذا أن يكون هو السر في أن العرب لم يستطيعوا أن يبلغوا أعالي النيل ومنابعه .

فالسودان كان يتأثر بكل ما تتأثر به مصر ، إن جاء مصر خير فهو لمصر وللسودان ، وإن جاء مصر غير الخير فهو على مصر وعلى السودان ، وهذه حقيقة تاريخية ثابتة ، حقيقة تتصل بأرض النيل وتتصل بالإنسان الذى يعيش على جوانب وادى النيل ، حقيقة لا يمكن أن ننكرها . ولا يمكن أن يتنكر لها أحد ولو حدث ذلك إلى حين .

وإلى الجنوب من السودان ، وامتداداً في اتجاه « القرن الافريقي » فاننا نجد أن العرب قد انتشروا بثقافتهم ودينهم إلى أرض إيريترية ، وجعلوا منها امتداداً طبيعياً للبيت العربى الكبير . ولعل الزمن لا يطول قبل أن تستقل بشئوننا ومصيرها (وينحسر عنها الغزو الإثيوبى) فتلتبس سبيلها إلى جامعة الدول العربية ، كما فعلت كل من جيبوتى والصومال .

ثم ننتقل إلى أرضكم هذه . . فى ليبيا الخضراء وفى ليبيا الصحراء وهى كانت بصفة خاصة نقطة اتصال ، فهى تتصل فى شطرها الشرقى بمصر وأوثق الاتصال منذ أيام الفراعين ، وقبل أيام الفراعين ، وهى تتصل (فى شطرها الغربى) أوثق الاتصال كذلك مع بلاد المغرب ، وهى تتصل اتصالاً وثيقاً بأرض السودان (الأوسط والغربى) عن طريق الواحات ، وسكان ليبيا بينهم وبين سكان سهول السودان نسب عريق أصيل ، وهى قد اتصلت بالبحر المتوسط وبحضارات هذا البحر العريق بين الحضارات . . .

ثم ننتقل إلى أرض المغرب ، فى تونس والجزائر والمغرب وأرض شنقيط (موريتانيا) . وهذه الأرض كانت حصناً من حصون العروبة . كانت مستقراً للحياة العربية منذ قديم ، وعرف العرب أنهم بنو عمومة قديمة مع اخوانهم من

أبناء البربر في المغرب الداخلى والبعيد ، ولقد حاول الاستعمار أن ينفذ وأن يفرق ، ولكنه لم ينجح . ولقد عرف عن الاستعمار بصفة خاصة ، أنه إذا أراد أن يأخذ بلاد المغرب وحضارتها ، فإنه يجب أن يتجه ناحية الغزو الثقافي ، وأن يحاول أن يضعف الثقافة العربية وأن يباعد بين العرب وبين جذور الثقافة العربية والإسلامية في المشرق ، ولا يسمح لنور الثقافة العربية المشرقية أن ينفذ إلى تلك الأراضي ليعث فيها روح الثقة بالنفس وروح العروبة والإسلام ، لعله كان يرمى بذلك إلى أن ينفرد بأرض المغرب العربى . ولكن الثقافة العربية لها حيوية غربية ، تعرف الهدوء أو السكون المؤقت ، ولكنها بفضل الله لا تعرف النوم . هذه الثقافة استطاعت أن تقاوم وأن تدافع ، وظهرت الجمعيات المختلفة التى تدرس الإسلام وتدرس القرآن وتدرس أصول الدين والثقافة ، والتى تبعث فى الناس علما ينفع كثيرا فى الاحتفاظ بالروح المعنوية ، وإذا كانت بلاد تونس ، وبلاد الجزائر ، وبلاد المغرب ومن ورائها موريتانيا قد اعترأها نوع من الضعف الثقافى المؤقت ، فإن بذرة الثقافة العربية فيها كانت أقوى من أن تحبو ، فهى قد ضمرت فى عهد من العهود ، ولكنها بذرة طيبة فى أرض طيبة لم تلبث أن نفذت من تربتها الطيبة وآتت أكلها بإذن الله .

* * * * *

تلك هى الصورة العامة لبيتنا العربى الكبير . . صورة البيت فى أرضه وقواعده وجدرانه . . . صورته فى حياتنا العربية القديمة ، وفى حضارتنا العربية الشاملة وفى تاريخنا الماضى وتاريخنا الحديث وحياتنا المستقبلية .

هذه الصورة ينبغى أن نعيها جيدا ، وأن ندرك أن الذى أقامها ورفع دعائمها هو هذا الإنسان العربى فوق أرض العروبة من الخليج إلى المحيط . . . بل الإنسان العربى الذى جمع فى زمرته بين كل من تكلم العربية « كلغة أم » أو « لغة فكر » وتراث مجتمعات وجماعة ، فكان من حقه ، ومن واجبه أيضا ، أن يتحدث دائما بنعمة الله عليه أن أقامه على لغة الضاد ولغة القرآن الكريم ، بل من حقه وواجبه أن يكرر دائما مقولته الخالدة « أنا العربى » .

- نعم أنا العربى . . . أنا صاحب هذا البيت العربى الكبير .
- أنا صاحب هذا البيت الذى يمتد من أرض العراق إلى أرض المغرب ، والذى تتكامل فيه الأقطار وتمتد فوق تراب عربى واحد .
- نعم أنا العربى . . . الذى جمع فى عروقه بين دماء شعوب قلب العالم ، فتجمعت فيه موارث تلك السجايا والقدرات والمواهب ، وخرج من أصلابه صفوة الأنبياء وخيرة رسل الله .
- أنا العربى . . . فى هذا البيت الذى يتوسط العالم ، يتوسط الشرق والغرب ويتوسط الجنوب والشمال .
- أنا العربى . . . صاحب هذا البيت المستقر العريق فى الحضارة .
- أنا العربى . . . وارث الحضارات التى سبقت العرب والتى أعترز بها كأصل من أصولى ، ولكننى أنظر إليها على أنها تمثل عهدا قديما سابقا لوحدتى الحضارية الكاملة .
- أنا العربى . . . الذى ورث الوحدة الكاملة ، منذ ظهر العرب ، وطلع الإسلام .
- أنا العربى . . . الذى عرف المحبة ، وورثها عن المسيحية ، وعرف الإخاء والمساواة والعدل بين الناس ، وورثها جميعا عن الإسلام . .
- أنا العربى . . . الذى أعطى غيره من الناس ثمرات ما أنتج فى غير من ، وأخذ عن غيره من الناس فى غير حرج .
- أنا العربى . . . الذى أعطى فى جود وكرم وإيثار ، وأخذ فى غير طمع ولا جشع ولا أثر .
- أنا العربى الذى حقق حكمة الله فى الأرض ، حين بعث الإنسان ليقم فيها الأمن ويشيع فيها النور .
- أنا العربى . . . الذى نشر نور الله شرقا وغربا وشمالا وجنوبا .
- أنا العربى . . . الذى بنى الحضارة منذ قديم ، واحتفظ بالتراث الحضارى على مر العصور .
- أنا العربى . . . الذى لم يغلبه طغيان ولا استعمار ، ولن يغلبه حتى يرث الله الأرض وما عليها .

- أنا العربى . . . الذى عرف الوحدة على أنها مستمدة من روح الله، ومن وحدانيته .
- أنا العربى . . . الذى استوحى المثل العليا فى الحياة .
- أنا العربى . . . الذى عرف أن الإنسان يعيش بسجيته ويعقله وبعاطفته وبضميره .
- أنا العربى . . . الذى حقق للإنسانية أكثر مما حقق غيره من الشعوب .
- أنا العربى . . . الذى أودعه الله سره وحقيقته .
- أنا العربى . . . الذى سيبقى على الزمن قائما على رسالة الله فى الأرض .
- أنا العربى . . . الذى يحق له أن يفاخر أبدا بعروبه . . . فيقول :
- « أنا العربى . . . لو لم أكن عربيا ، لوددت أن أكون عربيا » .

« ٩ »

تكامـل العروبة والاتصـالات العالمـية
فـى التاريخ

تكامـل العروبة والاتصـالات العالمـية فـى التاريخ *

فـى موضـوع «العرب والسياسة العالمـية» يلزمنـا أن نستعين بشـيء من الجغرافيا ، وبشـيء من التاريخ ، لنعرف الوطن العربى ونستعرض المقومات الطبيعية فى هذا الوطن ، ثم لنعرف العرب ، ولنحاول أن نستجلى ما فى أنفسنا من صفات تجعلنا نختلف عن غيرنا من الأمم ، ومن صفات وجهت أفعالنا ووجهت صلاتنا بسائر العالم خلال التاريخ ، وطبعت هذه الصلات بطابع ميزها عن غيرها من الصلات التى تقوم بين الشعوب بعضها وبعض . وفى ضوء هذا العرض الطويل سنصل إلى تفهم موقف العرب الآن من سياسة العالم .

لنبدأ بالوطن العربى وما يمتاز به من صفات ومقومات . وهذا الوطن العربى واسع الأرجاء يمتد فى اتصال من المحيط الأطلنطى غرباً إلى الخليج العربى شرقاً . ولهذا الوطن أجنحة تمتد إمتداداً قريباً أو بعيداً فى أطراف من أفريقية ، لاسيما فى شرقى تلك القارة ، فى ايرتيرية وجيبوتى والصومال وسواحل زنجبار ، وله أطراف متباعدة تقع فيما وراء البحار ، لاسيما فى جنوبى آسيا فى بلاد مهاجر العرب . وقد نتجاوز قليلاً فنقول إن لهذا الوطن بعض أطراف بعيدة جداً تقع فيما وراء المحيط الأطلنطى فى مهاجر الأمريكتين . ولكننا سنقتصر على الوطن العربى فى كتلتـه الأساسـية فى آسيا وإفريقية . وسنجد أن هذا الوطن تتمثل فيه ظاهرتان ، أولاهما «التنوع» ، وثانيتهما «التكامل» . فهو وطن متنوع ، ولكنه وطن متكامل . وقد أخطأ بعض الناس وبعض الباحثين فاعتقدوا أن التنوع معناه التفكك ، ومعناه الاختلاف والتفرق . ولكن الحقيقة أن وطننا العربى على ما عرفناه عليه فى عصور التاريخ المختلفة وعلى ما نعرفه عليه الآن إذا ما درسناه بتعمق ، هو وطن متكامل

* هذا حديث ارتجل فى ندوة عقدت بالكويت .

حقاً . والجغرافيون الآن حين ينظرون إلى ظاهرة طبيعية كالبحر الأحمر الذى يفصل بين آسيا وإفريقية لا ينظرون إلى هذه الظاهرة على أنها فاصل بين شقين أو بين قارتين كبيرتين من قارات العالم القديم ، ذلك أن البحار ينظر إليها الآن على إنها تصل الشعوب عن طريق الإتصال المائى أكثر مما تفصل بينها ، والبحر الأحمر كان وسيلة من وسائل النقل البحرى التى سرت الاتصال بين شمال الوطن الوطن العربى وجنوبه ، سواء أكان فى جانب شبه الجزيرة العربى أم فى الجانب الأفريقى . وحتى رجال الجيولوجيا عندما يبحثون البحر الأحمر يجدون أنه عبارة عن شق طويل فى الأرض ، يمتد من البحر الأحمر إلى خليج العقبة ، ثم البحر الميت ، ثم سهل البقاع بين جبال لبنان الغربية والشرقية . وما دما ننظر إلى هذا الشق أو هذا « الفالق » فى القشرة الأرضية فى بلاد العرب الشمالية والشرقية فإننا لا نتصور أنه يفصل الوطن العربى الشمالى إلى شرقه غربه ، ولا نتصور أنه يفصل الجانب الشرقى من جبال لبنان عن الجانب الغربى ، ولعل من الواجب أيضاً أن ننظر النظرة نفسها إلى البحر الأحمر نفسه . ولحسن الحظ أن الطبيعة الجغرافية قد سرت الاتصال بين آسيا وإفريقية ، إلى حد أن الجغرافيين يعبرون الآن عن هاتين القارتين تعبيراً واحداً فيسمونها فى بعض الأحيان «أفريشيا» ، أى القارة الإفريقية الآسيوية . والذى يدرس شبه جزيرة سيناء فى مصر ، بين آسيا وإفريقية ، يجد أن الله قد حياها بميزة كبرى ، وهى أن فى شهاها منطقة تمتد فيها سلسلة من الكثبان الرملية على ساحل شبه الجزيرة الشمالى محاذية للبحر الأبيض المتوسط ، تسقط عليها الأمطار فى الشتاء فتتسرب المياه فى الرمال ، وتصبح أكوام الرمال هذه عبارة عن خزانات طبيعية للماء . فيجىء الإنسان ويحفّر بين الكثبان أباراً تغذيه بالماء . وعلى هذا الأساس أصبح من اليسير جداً أن يعبر الإنسان شمال شبه جزيرة سيناء ، وأن تمتد طرق التجارة وسبل الهجرات من الشرق إلى الغرب أو فى الاتجاه الآخر ، فالطبيعة لم تفصل بين آسيا وإفريقية وإنما سرت هذا الاتصال ، وكذلك الحال عند باب المندب فعبور المضيق فى جنوب البحر الأحمر أمر ميسور غاية اليسر ، وحتى فى ذلك المعبر الضيق توجد بعض الجزر ، ومنها جزيرة «بريم» مما ييسر الانتقال من بلاد اليمن إلى شرق إفريقيا ، وقد انتقل العرب وانتقل الساميون

من قبل من آسيا إلى إفريقية انتقالاً يسيراً جداً عن طريق جنوب البحر الأحمر .
لذلك كله فإن الذى يفحص الوضع الجغرافى فى آسيا وإفريقية لا يلبث أن تبهره
هذه الصفة ، وهذه الميزة التى يسرتها طبيعة البيئة الجغرافية ، والتى جعلت من الوطن
العربى وحدة متماسكة ، والتى يسرت للعروبة والفكر العربى والثقافة
العربية ولنور الإسلام أن تنتشر جميعاً ، وأن تنتقل انتقالاً حراً طليقاً بين آسيا
 وإفريقية .

ولكن هذا الوطن العربى يختلف من جهة إلى أخرى فى مميزاته الطبيعية . فإذا
أخذنا الجزيرة العربية فإننا نجد فى وسطها أرض نجد ، وهى أرض البداوة الأصيلة ،
وفىها الحياة البدوية التى تسير على سليكاتها ، بل هى ينبوع الأول للطبيعة والسجية
العربية . ولها امتداد نحو الشمال ونحو الشرق إلى أرض الخليج ، ولها امتداد عن
طريق الواحات المختلفة إلى أرض الحجاز أو أرض عسير أو أرض اليمن ، وتستمر
الامتدادات منها شمالاً بغرب إلى شبه جزيرة سيناء ، ثم إلى مصر ، ثم إلى شمال
إفريقية . فتجد قلب الجزيرة كان لهما وضع خاص فى الوطن العربى ، لأنها
يغذيان العروبة بأصولها البدوية وشمالها الأصيلة .

وإلى الجنوب من ذلك نجد بيئة مختلفة تتمثل فى اليمن وفى عُمان ، فهى أرض
عالية . تتمثل على الخصوص فى هضبة مرتفعة فى اليمن تسقط عليها أمطار صيفية
غزيرة نسبياً ، والتربة هناك من نوع جيد يحتفظ بالرطوبة ، ولذلك سميت «بلاد
العرب السعيدة» . ولقد أصبحت اليمن بيئة يلجأ إليها البدو من داخل الجزيرة
فيجدون هناك التربة الصالحة والماء الكافى ، والحياة المستقرة . ويحتفظ العرب هناك
بطبيعتهم البدوية من حيث النظام الاجتماعى ، ولكن حياتهم المادية تنقلب إلى حياة
زراعة واستقرار فوق هذه الأرض الخضراء ، وتصبح اليمن وطناً من مواطن التقدم
الحضارى الذى نشأ فى البادية ولكنه استقر فوق الهضاب والجبال .

وإذا انتقلنا شمالاً من قلب الجزيرة ، فإننا نجد المنطقة التى تمتد من بلاد فلسطين
والأردن إلى لبنان وسورية . ثم إلى سهول العراق ، وهى منطقة أمطارها شتوية
أى أنها تختلف عن اليمن فى طبيعتها ومحصولاتها ، فهى تؤتى ثمارها فى الربيع على
حين أن اليمن تؤتى ثمارها بعد الأمطار فى الخريف . وهذا ما قصدناه بالتنوع

والاختلاف من مكان إلى مكان . ولكنه تنوع ينطوى على التكامل ، لأن شمال الوطن العربى يختلف فى إنتاجه عن الجنوب ، مما يستدعى قيام التبادل بين الطرفين . وشمال الجزيرة موطن آخر للاستقرار والتحضر بالنسبة للبدو إذا ما خرجوا من البادية . ولكنه استقرار فى ظروف تختلف عن الاستقرار فى الجنوب ، واستقرار يتصل بهضاب إيران والأناضول ، وما وراءهما ، وداخلية آسيا ، أو يتصل بالبحر المتوسط وسواحله .

وإذا ما انتقلنا غرباً إلى مصر نجد موطناً آخر من مواطن الاستقرار العربى ؛ خرجت القبائل فى دفعات متتالية خلال عصور قديمة جداً قبل العصر العربى . خرج الحاميون من جنوب الجزيرة العربية ، وخرج الساميون من شمال الجزيرة العربية ، فنزلوا أرض وادى النيل ، حيث وجدوا بيئة تختلف أيضاً عن البيئات الأخرى ، ففى اليمن استقرار فوق الجبال وفى الجانب الشامى من شمال الجزيرة استقرار فى واحات كبيرة أو فى قيعان وبقاع تقع بين سلاسل الجبال ، وفى العراق استقرار من نوع خاص يتصل بنهرين يجريان من الشمال إلى الجنوب ويفيضان فى أشهر الربيع عندما تذوب الثلوج فوق جبال الهضاب الشمالية ، أما فى مصر فنوع آخر من الاستقرار . هى واحة ولكنها واحة كبيرة جداً تمتد فى وادٍ طويل جداً ، وتنتشر فى الشمال فى دلتا واسعة غنية ، وتتصل اتصالاً قوياً بالبحر المتوسط ، كما تتصل اتصالاً قوياً أيضاً بالبحر الأحمر ، وتمتد إلى داخلية إفريقية ، وتعتبر نقطة استقرار وقاعدة صالحة لبناء قوة ولبناء مجد ، ولبناء مدينة واسعة ، وتصلح فوق ذلك نقطة ارتكاز للتوسع فى إفريقية .

ثم إذا انتقلنا غرباً أيضاً وجدنا «ليبيا» ، وهى منطقة تشبه بلاد «نجد» من جهة ، ولكنها تختلف عنها فى سقوط الأمطار الشتوية ، وتختلف عنها فى أنها إلى جانب شريطها الساحلى ذى الأمطار بها واحات داخلية تصلح لأن تستقر فيها بعض القبائل ، حيث تفرغ لنفسها ، وتفكر فى حياتها . وتتأمل وجودها ، فتبنى لنفسها كياناً روحياً خاصاً .

هذا ما حدث فى عهود التاريخ . وهو ما حدث بالنسبة للحركة السنوسية فى العهد الحديث بصفة خاصة ، حين ترك العرب الشواطئ ولجأوا إلى الداخل بعد أن طغى عليهم الاستعمار الإيطالى فى الشمال . فرغوا لأنفسهم فى الداخل واحتفظوا

بكيانهم الروحي وتجمعوا حول فكرة العروبة والإسلام ، حتى جاء الوقت وahan
الحين فانطلقوا إلى الشمال من جديد .

ثم إذا إنتقلنا إلى بلاد المغرب وجدنا بيئة جديدة فيها عناصر حامية من البربر ،
ولكنهم في الحقيقة أكثر اتصالاً بالعرب مما صورهم العلماء الغربيون . فهم في
الأصل من العناصر الحامية التي خرجت من جنوب الجزيرة العربية (شرق
إفريقية) ، وانطلقت إلى وادي النيل ثم سارت على طريقها عبر الصحراء الكبرى
حتى وصلت إلى بلاد المغرب ، وبقيت هناك حتى جاء العرب في موجة جديدة في
العهد الإسلامي ، ودخل نور الإسلام ، ودخلت اللغة العربية إلى تلك البلاد .
وهناك اتخذ العرب قاعدة جديدة لهم — قاعدة من النوع الجبلي - وانطلقوا من هناك
إلى بلاد الأندلس ، فحلوا بها وأقاموا فيها حضارة إسلامية زاهرة .

ولكن الشيء الطريف أن العرب حين حاولوا دخول أوروبا دخلوها عن طريق
أيبيريا فوجدوا إلى شمال تلك البلاد جبال البرانس . وهي جبال تمتد فاصلة بين
أسبانيا وبقية أوروبا . وكان العرب قد بعدوا عن قاعدتهم الأصلية ، ولذلك توقفت
مسيرتهم ، وتألبت أوروبا من جديد في أيبيريا حتى خرج العرب من هناك . ولكنهم
حين خرجوا من أسبانيا عادوا إلى قاعدتهم في إفريقية ، وظلوا هناك صامدين حتى
جاء الاستعمار الأوربي الجديد ، وطغت فرنسا على شمال إفريقية ، وحاولت أن
تميت الحياة العربية والثقافة العربية فيها ، وحاولت أن تقطع الوطن العربي
الإفريقي إرباً . ثم استعانت بغيرها من دول الاستعمار ، فانفردت هي بشمال غرب
إفريقية ، وتركت ليبيا لإيطاليا ، واحتلت بريطانيا مصر ، وانقسم الوطن العربي
الإفريقي شرائح شرائح ، حتى أذن الله للنور أن يطلع ، وللظلمة أن تنجلي من
جديد .

هذا العرض العاجل للوطن العربي يبين كيف أنه وطن متنوع في صفاته ،
ولكنه تنوع يؤدي إلى التكامل ، فهذا الاختلاف في البيئة الطبيعية والمنتجات
الزراعية وغيرهما ترتب عليه اتصال قوى لتبادل المنافع ، وترتب عليه أن العرب
حين خرجوا من موطنهم الأصلي وجدوا قواعد متعددة ، استقروا فيها . فهم قد
استقروا في شمال الجزيرة واتخذوا منه قاعدة للتوسع نحو الشرق في آسيا ،

واستقروا في اليمن وفي حضرموت وعمان واتخذوا منها قواعد للتوسع نحو إفريقيا
بالبحر ، واستقروا في مصر ، واتخذوا منها قاعدة أصلية للربط بين الشرق
والغرب ، واستقروا في شمال غرب إفريقيا واتخذوا منه قاعدة للتوسع في جنوب
غرب أوروبا .

من هذا العرض الجغرافي نتبين كيف أن الوطن العربي يمتد في إتصال ، وكيف
أن كل جزء منه كانت له مهمة خاصة تختلف عن مهمة سائر الأقسام . لكن هذه
المهام جميعاً كانت كلها متكاملة ، وهي التي أبرزت الدور التاريخي للحياة العربية
على مر العصور .

ولكن هناك ناحية ثانية تتصل بالعرب أنفسهم . فإذا كان الوطن العربي متنوعاً
متكاملاً فإن العرب - كما نعرفهم - قد تأثروا بعامل آخر أو بعوامل أخرى أفاءت
عليهم طبيعتهم العربية .

ولنحاول أن نفسر ذلك على أساس علمي ، فقد مضى العهد الذي كان يكفي
فيه أن نفاخر بما فينا من سجايا ، وبما لنا من مزايا مفاخرة تستند إلى العاطفة
وحدها ، وأنا وإن كنت من أنصار بعث العاطفة ، فإنني أفضل دائماً أن تزكى
العاطفة بالعقل ، وأؤكد لكم أن من يدرس طبيعة العرب دراسة علمية يجد فيها
وفي هذه الدراسة ما يزكي إيمانه بالعرب والعروبة ، وما يقوى عقيدته بأن للعرب
رسالة مجيدة في حياة الإنسانية كلها .

والناظر إلى خريطة جغرافية للعالم العربي لا يلبث أن تبهره حقيقة واضحة ،
هي أنه على الرغم من أن بحار الجنوب - البحار الحارة - تمتد ذراعين إحداها في
الخليج العربي والأخرى في البحر الأحمر ، تمدهما إلى الشمال لتصافح بحار الشمال
.. فإن المصافحة لا تتم ، وإنما تبقى بحار الجنوب منفصلة عن بحار الشمال ، ولا
بد لمن يريد أن يسير بالبحر بين الشرق والغرب أن يعبر الأراضي العربية . فيعبرها
في مصر ، وهي أقصر المعابر وأقربها ، أو يعبرها في شمال البلاد العربية إلى الخليج
العربي . ومعنى هذا أنه لا يمكن لمن يريد أن يقيم اتصالاً بين الشرق والغرب أن
يتجاهل العالم العربي ، ومعناه من ناحية أخرى أنه أصبح للعرب دور خاص في
الوصل بين الشرق والغرب ، وفي الوصل بين الشمال والجنوب ، فأصبحوا كما

ذكرنا في فصل أمة وسطاً ، حتى في مكانهم الذي يحتلونه على الأرض ، وقد ترتب على هذا أن العرب برزت فيهم صفة خاصة هي أنهم شعروا بوجودهم في قلب العالم ، وبأنهم عنصر أساسي في الربط بين طرفي العالم . وقد غلبت عليهم صفة الربط بين الناس ، لأنهم بحكم هذا الموقع كانوا على اتصال دائم بغيرهم من الشعوب . وكان اتصالهم برياً مع آسيا وأفريقية ، وكان اتصالهم أيضاً بحرياً عن طريق البحر المتوسط من جهة ، وعن طريق الذراعين العظيمتين في شرق الجزيرة وغربها من جهة أخرى . وأدرك العرب أن عليهم رسالة ، واعتادوا الاتصال بغيرهم وألفوه ، فهم لم يكونوا كأهل الصين مثلاً ، بلادهم بعيدة منزوية تقع في نهاية العالم ، ولهم حضارة قائمة بذاتها لم تنتشر من بلادهم إلى العالم الخارجى إلا انتشاراً ضئيلاً . وبلاد العرب لم تكن حتى كبلاد الهند ، فالهند شبه جزيرة لا تنتهى إلا إلى جزيرة سيلان ، والهند كانت نهاية للهجرات التى وصلت إليها ، فليست تقع وراء الهند أية بلاد أخرى غير بعض الجزر في المحيط .

أما بلاد العرب فكانت همزة وصل حقاً ، وكانت همزة اتصال بالبر أو بالبحر . وهذا في حد ذاته طبع حياة العرب ، وجعلهم يشعرون بأن واجبهم أن يصلوا العالم ، وأن يكونوا رباط أمن وسلام بين الأمم والشعوب .

وهناك صفة أخرى أستمحكم في أن أعرضها عرضاً جغرافياً ، وأرجو أن تصبروا معى إلى آخر المطاف مهما طال بنا حديث الجغرافيا ؛ ذلك أننا إذا ما درسنا البيئة الجغرافية نجد أن هذه البيئة تمتاز بوجود الجمل فيها ، والجمل حيوان أليف صبور ، ينطوى على صفات كثيرة لا بد أننا نعرفها جميعاً . فهو حمال أثقال ، وهو خدام ينقل السلع والمتاجر ، وهو يتنقل في صبر وأناة بين بحار الجنوب وبحار الشمال . وهذا كان معناه أن البيئة الجغرافية أمدت العرب بحيوان كان معواناً لهم على أن يحترفوا التجارة ، وهى أشرف المهن ، ومعواناً لهم على أن يسلكوا الصحارى على طول طرق القوافل ، ومعواناً لهم على أن يصبحوا بحق همزة وصل بين الأمم والشعوب .

لنقارن ذلك بما كان في داخلية آسيا في بلاد الهضاب التى تحف بنا من الشمال ، هضاب إيران وما وراءها في تركستان من مواطن الترك والتتر . فهناك في آسيا

الداخلية نجد الحيوان الأصيل هو الحصان وهو حيوان للركوب والعدو السريع والغزو، وليس حيواناً لحمل الأثقال . ولذلك فإن رعاة داخلية آسيا من التتر والترك وغيرهم ألفوا أن يركبوا هذا الحيوان ، وألفوا أن يعاشروه ، وتأثروا به في طباعهم ، فانطلقوا دائماً من مراعيهم غزاة للأراضي من حولهم . كانوا غزاة ولكنهم لم يكونوا رسل تجارة ، ولا دعاة ثقافة ، وامتازت صلاتهم بالعالم المحيط بهم في الصين أو في الهند أو في أوروبا أو في بلاد الشرق العربي – امتازت صلاتهم بهذا العالم كله بأنها كانت صلات غاشمة قائمة على الفتح والغزو الغاشم ، ثموت في أعقابها التجارة ، ويموت الاتصال والتراحم بين الناس .

هذا هو الفرق الطبيعي بين العرب والتتر ، العرب حداة إبل . ولئن كان الحصان العربي قد ظهر في بيئتهم فإنه قد ظهر في أعداد قليلة ، وظهر لتمييز به في العربي بعض الخلال الخاصة من الفروسية والنجدة . ظهر ولكنه لم يغلب الجمل ، وإنما بقي الجمل حيوان العرب الأصيل ، الذي يصل بين الناس ، والذي تلائم طبيعته طبيعة العرب ، والذي كان له دور خطير في الوصل بين بنى الإنسان .

أما التتر ومن البهم فهم في الأصل غزاة من وسط آسيا ، بعيدون في نشأتهم عن البحار ، بعيدون عن الوصل بين القارات ، بعيدون عن طرق الاتصال البرى أو البحرى ، عدتهم الحصان ، وطريقهم في الفتح والغزو طريق غاشم مدمر .

على هذا النحو ينبغي أن نفهم الفرق بين بنى العروبة وبين رعاة داخلية آسيا . بهذا العرض أستطيع أن أتصور معكم وطننا العربى ، وطننا كبيراً متنوعاً متكاملًا ، وأستطيع أن أتصور معكم شعبنا العربى شعباً أصيلاً في بيئته ، مرتكزاً إلى قواعده المختلفة في الوطن العربى ، ولكنه شعب عمل دواماً على الوصل بين الأمم والشعوب . كان شعباً متاجراً ، يعمل في التجارة ، ولكنه إلى جانب ذلك كان صاحب رسالة . وليس أبرز من تلك الحقيقة الخالدة أن نبينا عليه الصلاة والسلام كان تاجراً ثم رسولاً . أما غيرنا من الشعوب ، لا سيما تلك الشعوب في داخلية آسيا ، فهم غزاة بعيدون في نشأتهم عن الشرق الأوسط ، وهم شعوب قامت حياتهم المادية والثقافية في أفق محدود . أما العرب فهم حيث حلوا أقاموا النور ، وبعثوا رسالته قوية ، ورفعوا مشعله عاليًا . والعرب في كل العهود التى

كانوا فيها أقوياء عرفوا كيف يكون الربط بين الشرق والغرب ، وكيف يكون الوصل بين الأمم والشعوب

ولكن موقعنا الجغرافي هذا الذى يقع فى قلب العالم ، والذى يصل بين القارات ويقرب بين المحيطات - هذا الموقع لسوء الحظ لم يكن دائماً ملكاً لنا ، وإنما احتله من وقت لآخر قوم آخرون ، لم يكونوا كالعرب ، فهم لا يعرفون الوصل بين الناس ، وإنما كانوا غزاة طامعين ، استغلوا هذا الموقع الجغرافي لا ليصلوا بين أطراف العالم ، وإنما ليقيموا فيه قوة تسيطر على العالم ، وتحقق ما اصطلاح الناس على أن يسموه «السيطرة العالمية» . وتاريخنا كله من الناحية السياسية ومن الناحية الثقافية ، وحتى من الناحية الروحية ، تمثلت فيه ظاهرة لا تخلو من دلالة ، هى أن العرب فى كل الأدوار التى إنفردوا فيها بالسيطرة على موقعهم الجغرافي كانوا رسل أمن وسلام ونور للعالم كله ، بخلاف العهود التى ضعفوا فيها ، وسيطر غيرهم على بلادهم ، وبنى فيها قوة سيطر بها على العالم . ولأحاول أن أفسر هذا الإجماع ، وأن أختار لحديثى فى هذا التفسير قلب العالم العالم العربى ، وهو مصر ، لأن موقع مصر تتمثل فيه بصورة مصغرة تلك الصورة الكبرى لموقع بلاد العرب كله بين الشرق والغرب .

ونحن إذا نظرنا إلى تاريخ مصر نجد أنه امتاز - فى العهود الفرعونية القديمة التى كان المصريون فيها على اتصال دائم بالحامين والساميين فى بلاد العرب - بأن أرض الكنانة أنشأت مدنية قديمة قوية ، ولكن مصر لم تنزع إلى استغلال موقعها الجغرافي فى سبيل إنشاء سيطرة عالمية . وحتى الفراعنة الأقدمون كانوا يفضلون أن ينفقوا جهدهم الزائد فى بناء هرم كبير بدلاً من أن يشنوا حروباً مدمرة على من حولهم من الشعوب . ولئن كان الباحثون الغربيون يعتقدون أن هذا كان مضيعة للجهود البشرى ، فإن من يتعمق الأمر من الناحية الأخلاقية ، ومن الناحية الاجتماعية ، لا يلبث أن يتفق مع القائلين بأنه من الأفضل لأية أمة من الأمم أن تنفق جهدها الزائد فى بناء هرم كبير عن أن تنفقه فى إثارة حرب على جيرانها فى الشرق أو الغرب أو فى بناء سيطرة عالمية .

ولكن التاريخ العام ، وتاريخ الاتصال بين الشرق والغرب بصفة خاصة ، قد

تغير بظهور رجل كان له أبعد الأثر في تاريخ الإنسانية كلها ، ذلكم هو الإسكندر الأكبر ، الذى كان أول رجل في التاريخ أثار حرباً عالمية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . فقبل عهد الإسكندر كانت هناك مجموعة من مراكز الحضارة والفكر والثقافة منها المركز الحامى السامى الذى يشمل مصر والشرق القريب ، ويشمل نواة ما أصبح يعرف فيما بعد فى العهد الإسلامى بالشرق العربى بالمعنى الواضح لهذه الكلمة . ومنها مركز آخر فى بلاد الإغريق له حضارة خاصة ، ومركز ثالث فى بلاد الفرس ، ومركز رابع فى بلاد الهند ، ومركز خامس فى بلاد الصين . ولم تكن هناك حروب ولا اتصالات واسعة النطاق ، حتى جاء الإسكندر فخرج من بلاد اليونان وجاء إلى المشرق القريب واتجه نحو مصر ، ثم نحو ليبيا ثم عاد إلى المشرق واتجه نحو إيران ، ثم انتقل إلى بلاد تركستان ومنها إلى أطراف بلاد الصين ، ثم نزل إلى الهند ، ثم عاد إلى المشرق حيث مات .

وهكذا كان هذا القائد أول من أثار حرباً عالمية شملت العالم كله . . العالم المتحضر آنذاك . ولكن هذه الحرب العالمية أبرزت قيمة الموقع الجغرافى لبلاد العرب ، ولصغر بنوع خاص . وقد برزت قيمة هذا الموقع فى أنه همزة الوصل ، وفى أنه القاعدة التى يمكن منها أن يسيطر على العالم ، وانعكست صورة ذلك فى تاريخ مصر الطويل ، وفى تاريخ بلاد العرب كله ، لأن التاريخ فى هذا القسم من العالم تاريخ متكامل كما سأعرض عليكم بعد قليل .

وإذا ما رجعنا قليلاً إلى الجانب الروحى ، وإذا ما ذكرنا أن الله تعالى قد جعل لكل شىء سبباً ، وأنه حين أنزل من السماء هذه العقائد الموحدة وهذه الأديان السماوية ، أنزلها فى مواقيت معينة ، وجعل لكل منها طابعاً خاصاً ، فهو سبحانه أنزل أول ما أنزل الديانة اليهودية ، وكان ذلك قبل عهد الإسكندر الأكبر ، وقبل ظهور الاتصالات العالمية . وكان معنى هذا أن اليهود الذين أنزل عليهم هذا الدين كانوا يعيشون فى عهد لم تظهر فيه الاتصالات العالمية ، واحتفظ اليهود بروح الإنطواء وحب العزلة ، وفهموا اليهودية هذا الفهم فهموها على أنها دين خاص بهم ، وفهموها على أنها دين لا يكلف المؤمن به إبلاغ الرسالة . وبقي اليهود على عقيدتهم هذه حتى بعد أن تغيرت الأوضاع فى المشرق العربى ، وحتى

بعد أن برزت قيمة موقعه الجغرافي في الربط بين الشرق والغرب .
واستمر اليهود على هذا النحو القديم في فهم الرسالة الربانية التي انزلت للناس جميعاً . . . ، استمروا على ذلك حتى اليوم . فإن الذى انتشر في العالم إنما هم اليهود أنفسهم ؛ أما الديانة اليهودية فإنها لم تنتشر ، لأن أهلها لم يفهموا عن هذا الدين أنه يكلفهم إبلاغ الرسالة إلى غيرهم .

فلما جاءت المسيحية وجاء الإسلام كان وقت إرسالهما وإنزالهما بعد أيام الإسكندر ، وبعد تلك الحرب العالمية الأولى في تاريخ الإنسانية . وشاء ربك ذلك لحكمة عنده ، ولكنها حكمة ظاهرة بالنسبة لمن يدرس الأمور وبالنسبة لمن يريد أن يزكى إيمانه بالعقل والبحث والعلم ، هي حكمة ظاهرة بالغة ، فالمسيحية إنما تقوم أساساً وفي أصولها الأولى على المحبة بين الناس ، والمسيحيون في الشرق الأوسط ، الذى هو رباط العالم ، فهموا المسيحية على هذا النحو . فعندما ظهر الإسلام كانت المسيحية العربية نصيرة له ، ولا تزال المسيحية العربية تفهم المسيحية على أنها دين المحبة .

أما المسيحية عندما انطلقت من الشرق العربى ، ودخلت أوروبا ، فإنها دخلت أرضاً جديدة ، واعتنقها أناس لم ينشأوا في المشرق العربى . وكان انتقالها عن طريق الانتشار والتسرب الخفيف لا عن طريق هجرة كما حدث في حالة انتشار الإسلام من موطنه الأصيل فيما بعد .

والمسيحيون في أوروبا بحكم موقعهم الجغرافي وبحكم طبيعتهم لم يفهموا المسيحية على أصلها . ولذلك فإن المسيحية في أوروبا لم تمارس كدين محبة . وإنما رأينا المسيحيين في أوروبا يشنون الحروب على غيرهم ، بل يشنون الحروب بعضهم على بعض باسم المسيحية .

وجاء الإسلام في هذا الوطن العظيم الذى اختاره الله ، وجاء ديناً يقوم أساساً على الإخاء بين الناس ، وعلى المساواة بين الجميع . كان الله قادراً على أن يبعث هذا الدين في الصين ، أو أن يبعثه في الهند أو في أوروبا ، ولكنه اختار وطننا لأنه كان أصلح أرض الله لينزل فيه الدين السمح الكريم الذى يقوم على العدل والإخاء والمساواة بين الناس .

على هذا النحو ينبغي أن نبحث في العلم لأنه يزكى إيماننا بالله ، ويزكى إيماننا بديننا ، ويزكى إيماننا بأممتنا وعروبتنا ، ويزكى إيماننا بأن الله تعالى حين اختار أممتنا ، وحين اختار أرضنا إنما فعل ذلك لحكمة بالغة ، وستبقى هذه الحكمة خالدة على مر الأيام .

ولكن لنترك هذا الجانب الروحي ولننتقل إلى جانب السياسة ، ولنركز دراستنا فيما بقى من هذا الحديث على مصر ، لا لسبب إلا لأنها قلب العالم العربى ، ولأن تاريخها يعتبر تاريخاً مصغراً للتاريخ العربى الإسلامى كله .

ومصر منذ عهد الإسكندر حتى الآن انقسم تاريخها إلى نوعين من التاريخ : فإما أنها كانت قوية شديدة الإتصال بالعالم العربى من حولها ، قوية ليس فقط باستغلال مواردها المحلية ، وإنما بتمكين الصلة بينها وبين سائر الوطن العربى ، وفى هذه الحالات كان تاريخ مصر ، وكان تاريخ العروبة كلها ، تاريخاً قوياً حافلاً بالأعجاز . وإما أنها كانت ضعيفة متخاذلة مفككة العرى مع جيرانها وأهلها فى الشرق والغرب فطغى عليها الغزاة ، وتحكموا فى موقعها ، واستغلوا هذا الموقع لأمرين : الأمر الأول هو السيطرة على العالم العربى . والأمر الثانى هو تحقيق السيطرة العالمية . وسأختار لكم أمثلة موجزة لهذين النوعين من التاريخ العربى فى مصر .

النوع الأول هو عهود القوة ، ولنذكر منها عهد صلاح الدين ، هذا الرجل العظيم الذى نشأ فى شمال الشام ، وانتقل إلى مصر حيث بدأ يتخذ لنفسه ولبلاده أسباب القوة . ولو أنه بقى فى سورية لما استطاع أن يحقق ما حقق ، لا لأن سورية ضاقت به وإنما لأن مصر كانت بحكم طبيعة أرضها ووجود النيل فيها أرضاً أخصب ، وكانت أصلح وأقدر على الإنتاج ، وإعداد العدة القوية . لقد ربط صلاح الدين بين سورية ومصر فى حياته ، وكان هذا مقوماً أساسياً من مقومات عظمته التاريخية . لم ينس أصله ، ولم يتصور فى وقت من الأوقات أن انتقاله إلى جزء من الوطن العربى ينسبه الجزء الآخر ، وبذلك تكتل العرب والمسلمون من حوله ، فخرج بجيشه وقوته ، واستطاع أن يرد الصليبيين ، وأن ينقذ العروبة ، وأن ينقذ الإسلام . ولكن حروبه كانت حروباً إنسانية قبل أن تكون حروباً دينية ؛

ذلك أنه تمثلت فيه وفي جيشه وفي رجاله ، وفي رأى العالم العربى إذ ذاك - تمثلت تلك الصفات ، وهى أن العرب ليسوا قوم سيطرة عالمية ، ولكن فيهم من النخوة والرجولة ، والعزة والكرامة ، ما يجعلهم يثورون للحق ويدافعون عنه . على هذا النحو عبر صلاح الدين تعبيراً واضحاً عن روح العروبة الخالدة ورد عن المشرق إثم عدوان سياسى فى حرب يطلق عليها حرب الصليب ، ولكنها فى الواقع كانت حرباً سياسية تهدف إلى السيطرة قبل أن تكون حرباً دينية خالصة لوجه الله .

ومثال آخر من التاريخ العربى أيضاً : جاء التتر والمغول من داخلية آسيا وكانوا مخربين كعادتهم - وكانت حروبهم حروب خراب ودمار ، تختلف كل الاختلاف عن حروب العرب التى كانت حروب تعمير ، وحروب نشر ثقافة ودين ولغة .

جاء التتر والمغول ودخلوا المشرق العربى . وحطموا مركزاً عتيداً من مراكز العروبة والثقافة العربية والإسلامية . حطموا بغداد فى عام ١٢٥٨ الميلادى وأحرقوها ، وأحرقوا مكتباتها ، وهدموا دورها ، وأتوا على كل شىء فيها ، وأظلم نور من أنواء الإسلام المتلألئة ، وبدأ التاريخ إذ ذاك وكأن العروبة والإسلام قد خبا نجمهما أو كاد فى المشرق العربى . ولكن مصر هبت مرة أخرى . كانت هى القاعدة التى إن صمد العرب والمسلمون فيها ، وإن صمدت وحافظت على قوتها ، فإنها تستطيع دائماً أن تنقل الموقف ، وخرجت مصر إلى «عين جالوت» التى ينبغى أن يذكرها كل عربى لأنها نقطة تحول كبرى ، ونقطة نور فى تاريخنا المتلألئ ، وفى هذه الموقعة الخالدة دحرت مصر قوات الشر وأنقذت الحضارة والعروبة والإسلام .

وهناك أمثلة كثيرة يتجلى فيها موقف العرب ، ويتجلى فيها ذلك الدور الذى عرفت مصر كيف تقوم به كجزء لا يتجزأ من العروبة . ولكن لانتقل بكم إلى أمثلة أخرى من ذلك النوع الآخر من التاريخ ، وهى أمثلة إن ذكرناها فإننا ستفهم الموقف العربى فى الوقت الحاضر تفهماً واضحاً صحيحاً يستند إلى عبرة التاريخ .

لنبدأ بالإمبراطورية الرومانية . جاء الرومان وسيطروا على مصر واتخذوا منها قاعدة أصيلة ، استغلوا مواردها لا لتعود على أهلها بالخير ، وإنما لتكون حقلاً ينتج الحبوب لتغذى بها روما جيوشها التى تسيطر على العالم . واستقر الرومان فى

مصر قبل مولد المسيح عليه السلام بثلاثين عامًا أو أكثر قليلا ، ثم اتخذوا من مصر قاعدة أولا للتوسع السياسى والعسكرى فى المشرق العربى ، وثانياً للتوسع التجارى مع الشرق . انتقل «تراجان» من مصر على طول طريق شبه جزيرة سينا إلى بلاد النبط فى جنوب الأردن . وهم أصل العرب من ناحية الثقافة والكتابة العربية قبل الإسلام . واحتل عاصمتهم «البطراء» . والشىء الطريف أنه انتقل بجيوشه من البطراء شرقاً إلى رأس الخليج العربى . ومعنى ذلك أن الروم ، وقد جاءوا من البحر المتوسط ، عرفوا أنهم لكى يحققوا السيطرة على المواصلات البحرية فى العالم ، فإنه يلزمهم بعد أن احتلوا رأس البحر الأحمر أن يضعوا أيديهم على رأس الخليج العربى ، وذلك فى حد ذاته يبرز أمامنا الاتصال القوى فى التاريخ الحربى والعسكرى بين مصر وبين داخلية البلاد العربية وشبائها ، ثم لم يقف الرومان عند ذلك وإنما انتقلوا بجيوشهم من مصر أيضاً إلى أرض فلسطين ثم منها إلى سورية .

وهذا مثال آخر يبين لنا ذلك الترابط العسكرى القوى القديم الذى عاد فانعكس فى العهد الحديث ، حتى فى الحرب العالمية الثانية ، عندما انتقلت جيوش الحلفاء من مصر إلى الشرق القريب وإلى الشرق العربى ، وسارت على الطرق التى سار عليها الرومان قبل ذلك بألفى عام .

تلك كانت قصة الرومان عندما سيطروا على الشرق العربى عن طريق مصر ، وانتقلوا من مصر أيضاً إلى ليبيا غرباً . وانتقلوا بتجارهم عن طريق مصر ، وعن طريق البحر الأحمر والخليج العربى أيضاً حتى بلغوا الهند ، وأقاموا معها تجارة مزدهرة .

وهناك مثال آخر من التاريخ هو ما حدث أيام الأتراك ، فالعهد التركى للأسف الشديد يمثل عهد ظلمة خيمت على الشرق العربى خلال بضعة قرون . وعندما احتل الأتراك الشرق العربى مروا سريعاً فى سورية واتجهوا إلى مصر ، فهى مأخذ هذا الشرق العربى ومأخذ العروبة والإسلام . . . استقروا هناك وبنوا مجداً وقوة . ثم انتقلوا من مصر على طول الساحل إلى شمال إفريقيا حتى بلاد المغرب . وانتقلوا مع النيل جنوباً إلى أسوان ومع البحر الأحمر إلى بلاد الحجاز واليمن . ولكنهم

ركزوا قوتهم في مصر ، واستندوا إليها ، كما أنشأوا قاعدة أخرى في سورية ، وانتشروا إلى سهول العراق ، بل كادت قوتهم أن تأتي على الجزيرة العربية كلها لولا أن صمد العرب الأجداد في بعض بقاع وطنهم العربى ، بقيت مستقرًا للنور وملجأ للعروبة . . . ومنها الوطن العربى الصغير في بلاد الكويت .

طغى الأتراك (وهم الذين لم يكونوا قوم تجارة ولا ثقافة) فحلوا محل العرب في المشرق العربى ، ولكنهم إن كانوا قد سيطروا عليه من الناحية السياسية ، فإنهم لم يكونوا أهل رسالة جديدة . وهم فوق ذلك لم يعرفوا كيف يقومون بدور الوساطة بين الشرق والغرب فعجزوا عن حمل عبء التجارة ، ودعوا بعض أهل البندقية ومدن إيطاليا ، إلى الشرق ومنحوهم من الامتيازات التشريعية ما أصبح فيما بعد أساسًا لتلك الامتيازات الأجنبية التى ورثها الغربيون في العهد الحديث ، وقاسى منها الشرق العربى ، وقاست منها مصر بوجه خاص خلال أربعة قرون .

ولكن لندع هذا العهد التركى ، ولننتقل إلى العهد الحديث . جاء قائد أوربى حديث هو بوناپرت ووجد أن مأخذ الإمبراطورية البريطانية ينبغى أن يكون في الشرق العربى الإسلامى ، وعرف بحصافته العسكرية أن عليه - كى يضرب بريطانيا في الهند - أن يختار نقطة يضرب فيها ، فاختر مصر ، وكان حكيما في اختياره من الناحية العسكرية . جاء إلى مصر لأنه عرف أنها قاعدة السيطرة على المشرق العربى كله ، كما أنها قاعدة السيطرة على المواصلات العالمية ، وخرج من مصر إلى فلسطين ، ولكنه لم يوفق لأسباب مختلفة . وجاءت من بعده بريطانيا التى احتلت هذا الموقع بين الشرق والغرب . جاءت إلى مصر ، نقطة الوصل الخالدة ، فاحتلتها عام ١٨٨٢ ، ثم لم تكد تقيم في مصر خمسة عشر عامًا حتى انتقلت إلى السودان فاحتلته . ثم لم تلبث أن نظرت إلى الشرق العربى . وعلى الرغم من أننى لا أعتقد أن البريطانيين درسوا تاريخ الرومان وحاولوا أن يقلدوه ، فإننى أرى أن الظروف العسكرية والسياسية نفسها هى التى مهدت للبريطانيين أن يسلكوا الطريق الذى سلكه الرومان . فهم إنما جاءوا إلى مصر لغاية تشبه تمام الشبه الغاية التى من أجلها جاء الرومان .

استغلوا موارد مصر أول الأمر. نشروا فيها الزراعة عن طريق الري الدائم ، وتوسعوا فيها ولكن لتنتج مصر القطن الذى يغذى مصانع لانكشير أكثر مما تنتج من الغذاء ما يتغذى به أهل مصر ، وما يرتفع بمستوى المعيشة والرفاهية بينهم . ثم استغلوا هذا الموقع ، فجاءت الحرب العالمية الأولى وانطلق البريطانيون أول ما انطلقوا فى مخاطرة بحرية من مصر عام ١٩١٥ إلى «الآستانة» وإلى «غاليبولي» . وأخفقت هذه الحملة لكن البريطانيين لم يأسوا . وما كان لهم أن يأسوا وهم مسيطرون على موقع مصر الفريد ، فخرجوا من مصر عام ١٩١٧ إلى فلسطين . . . إلى هذا القسم العزيز من الوطن العربى الذى كان دائماً على أتم اتصال بمصر من جهة ، وبسائر الوطن العربى من جهة أخرى . . . خرجوا إلى فلسطين فاحتلوها وامتدوا إلى شرقى نهر الأردن . . . تماماً كما امتد الرومان قبل ذلك بألفى عام . وامتدوا من هناك بجيشهم مرة أخرى إلى بلاد العراق ، وجاءتهم نجدة عن طريق الخليج العربى من الهند ، وسيطروا بذلك على شمال العالم العربى ، بل حاولوا أن يمتدوا أيضاً إلى أرض الحجاز والأراضى المقدسة .

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية ، واستعان الاستعمار بأحلافه ، وأصبحت مصر قاعدة قوية غنية ، استند إليها الحلفاء ، وأمدتهم بخيراتها . استندوا إليها فاتسعوا من هناك إلى ليبيا ، واتسعوا غرباً ، واتسعوا جنوباً عن طريق مصر والسودان إلى أرتيريا وبلاد الحبشة . وتوسعوا بالحرب من مصر إلى بلاد اليونان ، وانطلقوا من مصر أيضاً إلى فلسطين وسورية ، وتواصلت حلقة القوى الإستعمارية فى الشرق العربى مستندة إلى مصر .

وهكذا نرى أن التاريخ وأن الجغرافيا يعلماننا درساً لا ينبغي أن ننساه ! هذا الدرس هو أن موقع مصر مفتاح الشرق العربى ، وأن من يحتل مصر إن كان أجنبياً عن العروبة والعرب ، فإنه يضمن بغير شك ، أن يحتل العالم العربى كله لا قدر الله .

هذا الدرس ينبغى أن نفهمه وأن نعيه تماماً من تاريخنا الطويل . ومن الخير لنا حين ندرس هذا التاريخ ألا نقصر على قراءة الصفحات المجيدة من تاريخنا . إنما الخير والعبرة أن ندرس تلك الصفحات القائمة .

من هذا ترون كيف أننا إذا مدارسنا موقع مصر ، وتاريخ مصر ، نجد أن هذا الموقع إنما هو قلب العالم العربى . هكذا تقول الجغرافيا . وهكذا يقول التاريخ . وما أصدق الجغرافيا ، وما أصدق التاريخ !

على هذا النحو رأى أهل المشرق العربى النور ، وتفتحت أعينهم عليه وعلى هذا النحو عرفت مصر أن عليها أمانة كبرى هى أمانة التضامن والتكامل مع أشقائنا العرب فى كل مكان .

ومصر صورة مصغرة من الأمة العربية الكبرى التى ينبغى أن يؤمن بها كل عربى فى آسيا وإفريقية ، والتى ينبغى أن يعمل لها كل عربى فى آسيا وإفريقية . وقد اختار الله أمتنا وجعلها أمة وسطاً بين الناس ، كما ميزها بوطن هو مهبط الوحى ، وموقع جغرافى فريد جعل من أبنائها همزة الوصل والأمن ، والتراحم بين الناس .

لنذكر أيامنا الماضية عندما ظهر الإسلام ، وكان العرب إذ ذاك أمة ضعيفة هزيلة وكانت هناك قوتان عظيمتان هما قوة الروم وقوة الفرس ، وكما أوردنا فى فصل سابق وكان هناك جباران عظيمان يتطاحنان فى الشرق والغرب ، وأظن أننا لو سألنا عربياً من ذلك العهد : أتظن أن الله سيداول الأيام بين الناس ؟؟ لو سألنا عربياً قبل الإسلام هذا السؤال لما تصور أن العرب ستثول إليهم الأمور بعد قليل . بل إن العرب أنفسهم انقسموا على أنفسهم حين شهدوا صراع الجبابرة ، ونزلت الآية الكريمة : « ألم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » . انقسم رأى العربى ولكن الله قال بعد ذلك : « الله الأمر من قبل ومن بعد » . وكان الله كان يريدنا أن نفهم أن الأمر له ، وأنه مهما اضطرع الروم والفرس ، ومهما انتصرنا للروم على أنهم أهل كتاب فإنه من الخير أن نذكر الله ، وأن نذكر أن الأمر له آخر الأمر ، وأن نذكر أن الله عندما اختار وطننا العربى ، وعندما اختار العروبة وضع فى يدها رسالة النور لتكون خير أمة أخرجت للناس .

هكذا ينبغى أن نذكر الماضى ، وأن نذكره فنرى أننا اليوم فى موقف قد لا يختلف كثيراً عن ذلك الموقف القديم . ليضطرع الناس من حولنا ولكن لنكن نحن خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر . لنكن نحن العرب

الذين يمثلون الإنسانية في أوضح صورها وأقربها إلى ما أراد الله لها أن تكون .
لنؤمن بالله ، ولنؤمن بوطننا ، ولنوقن تماماً أننا إذا ما احتفظنا بهذه الروح الخالدة
فستكون لنا اليد العليا في يوم لعله ان يكون أقرب مما يتصور من لا يعرفون
التاريخ .

« ١٠ »

**مقومات الثقافة العربية ودورها في
حياتنا القديمة والمعاصرة**

مقومات الثقافة العربية ودورها في

حياتنا القديمة والمعاصرة *

في هذا المبحث عن ثقافة العرب أحب أن أبدأ بمقدمة قد تكون طويلة ، ولكنها ضرورية إذا ما أردنا أن نتفهم عن وعى وبصيرة مرامى هذه الثقافة واتجاهاتها في المستقبل . هذه المقدمة سأحاول بها أن أعرف الثقافة ومدلولها . وقد تكون أيسر سبيل لتعريفها أن نبدأ بإبراز الفرق بين كلمة «العلم» وكلمة «الثقافة» .

فالعلم هو البحث عن حقائق الأشياء ، والبحث بصفة خاصة عن حقائق الأشياء الطبيعية التى تمس الطبيعة وتمس الكون وتمس الأشياء ، وقد يمتد العلم أحياناً إلى بحث الحقائق التى تمس حياة الإنسان .

والعلم بهذه الصفة ينبغى أن يكون مجرداً ، فالعلم لا يجوز أن يتأثر بالناحية الشخصية فى الباحث . والعلم فوق ذلك ينبغى أن يكون عالمياً ، وينبغى ألا يكون له وطن ، فهو يطلب فى أى مكان من الأرض ، ويطلب بطريقة واحدة ، وعلى منهج واحد .

فالباحث الذى يبحث عن حقائق الأشياء فى بلد عربى لا يجوز أن يختلف فى غايته ولا فى طريقته ولا فى منهجه عن الباحث العلمى الذى يبحث فى حقائق الأشياء وأصولها فى بريطانيا أو فى فرنسا أو الهند أو الصين . العلم واحد فى كل مكان . وطريقة البحث العلمى يجب أن تكون واحدة فى كل مكان . والعلم ينبغى علينا أن نطلبه فى كل مكان ؛ نطلبه فى بلادنا أو نطلبه فى الصين مثلاً .

هذا عن العلم ، وبهذا التعريف نجد أن الإنسان يزداد علماً كلما انحصر مجال

* هذا حديث ارتجل فى ندوة عقدت بالكويت .

بحثه وكلما تخصص ، وكلما خصص كل وقته وكل فكره وكل عنايته لموضوع صغير يركز فيه جهده ، ويتعمق فيه البحث ، عله يصل إلى حقيقة جديدة يضيفها إلى العلم والمعرفة الإنسانية .

أما الثقافة فتختلف عن كل هذا . فهي تستند إلى المعرفة ، ولكنها تستند إلى المعرفة العامة . والثقافة ليست مجردة ، فنحن لا نكتفى فيها بالبحث عن أصول الأشياء ولا عن الحقائق وحدها ، ولا نبحث فيها بحثاً مجرداً ، لأن الثقافة جزء من الإنسان ، فإذا كان العقل يغذيها فلإنها لا تنبع من العقل وحده وإنما تنبع في النفس البشرية ، وتنبع في الأحاسيس وتنبع في التذوق ، وتنبع أكثر من ذلك في الوجدان ، بل هي أيضاً تتصل بالجانب الأساسى الذى ميز الله به الإنسان عن الحيوان ، ألا وهو الضمير . ذلك الذى لا صلة بينه وبين العلم ، وإذا اتصل العلم به فقد يفسد البحث العلمى ، فالباحث قد يبحث في حقيقة الذرة مثلاً ، ولكنه لا يكاد يهمل أن يترتب على البحث العلمى في الذرة أن تفنى الإنسانية أو يفنى جزء منها ، أو أن يطغى فريق من بنى الإنسان على فريق آخر من بنى الإنسان ، فهو عالم يبحث عن الحقائق وضميره لا يؤنبه كعالم إذا ما تصور أن بحثه العلمى سيجلب عليه فناء جزء من الإنسانية أو استضعافها .

أما الثقافة فتتصل بالضمير ، والضمير أعمق وأروع من العقل ، العقل قد يوجد عند الحيوان ولو بدرجة محدودة ، ولكن الضمير لا يوجد إلا عند الإنسان ، والضمير هو الذى تستند إليه القواعد والنظم الخلقية . هو الذى تستند إليه آداب سلوكنا في الحياة ، هو الذى تتصل به تلك العواطف الكثيرة التى تميز الإنسان عن الحيوان ؛ حتى أنه ليصدق أن يقال عن الثقافة أنها من صميم السلوك الفردى الذى يشمل آداب الخلق ، وضبط النفس ، وتقضى أن يحاسب الإنسان نفسه عن تصرفاته ، ومنها ما يقتضى فوق ذلك وقبل ذلك وبعد ذلك مخافة الله . فنحن إنما نخشى الله بالضمير ، وإن كنا نخافه أحياناً بالعقل ، ولكن مخافة الله بالضمير هي التى تقرب الإنسان إلى أعمق مراحل الإيمان ، وإذا كان للعقل دور في الإيمان فهو إنما يأتى ليزكى الإيمان لا لينشئه إنشاء .

هذه الصفات الكثيرة التى تجعل الإنسان إنساناً إنما تنبع في الضمير . فالثقافة

لاتصالها بالضمير ، ولا اتصالها بأحاسيس التذوق والفكر العام ، ولاتصالها بالمعرفة العامة ، واتصالها بنواحي الإبداع الإنساني كالأدب الذى يؤلفه الكاتب أو الشاعر لا باستخدام عقله وإنما باستخدام خياله ، والشعر الذى نقرؤه فنتذوقه ونتعشقه ونتغنى به لا على أساس الفهم العقلى وحده ، وإنما على أساس الفهم العاطفى قبل ذلك . والموسيقى التى نسمعها فنتعشقها ونعجب بها ونطرب بها ونطرب لها ، والتى تفسد كل الفساد إن حاولنا أن نتفهمها بالعقل تفهيمًا علميًا خالصًا . . . الثقافة بكل هذا تتصل بتكوين الإنسان كإنسان بمعناه الكامل ، وهذه النواحي الثقافية المتعددة لاتستدعى التخصص المتعمق ، وإنما ينبغى فيها الاتساع ، فالثقافة لا يمكن أن تكون ضيقة ، وهى بذلك تختلف بعض الاختلاف عن العلم . وإذا كان العلم لاتمكن فيه الإجابة إلا إذا تخصص العالم فى فرع من فروع العلم ودرسه دراسة متخصصة متعمقة ، فإن المصلحة فى الثقافة تقتضى أن يكون الإنسان واسع الأفق ، قليل التخصص ، قادرًا على أن يتذوق نواحي الإنتاج الفكرى والإنتاج الذوقى والإنتاج الخيالى للإنسان ، وقادرًا على أن يتذوق أكبر قدر ممكن من الإنتاج الإنسانى . فالثقافة هى اتساع للحياة الإنسانية فى اتجاه أفقى ، على حين أن العلم هو تعمق فى اتجاه رأسى .

هذه المقارنة بين العلم والثقافة ضرورية لكى نتفهم معًا ماذا نقصده بالثقافة العربية ، وليس من شك فى أن كلاً من العلم والثقافة ضرورى لتقدم الحياة البشرية وإنشاء الحضارة بمعناها العام . ولكن العلم يتصل باستغلال الإنسان لخيرات الطبيعة ، يتصل بالحياة المادية للإنسان ، يتصل بمقومات الحياة وإرتباطها بالبيئة الطبيعية ، ولكن الثقافة تتصل بحياة الإنسان كإنسان ينشئ الحضارة والحياة المتمدينة كما نفهمها نحن فى الشرق ، تتصل بحياة الفرد من جهة ، وبحياة الجماعة من جهة أخرى ؛ تتصل بالحياة الأولى وتتصل بالحياة الآخرة . فالثقافة إذن أبعد مدى وأخطر شأنًا من العلم ، بل إننا إذا نظرنا إلى التاريخ فلإننا نجد أن الإنسان إذا أراد أن يخلد نفسه فى الحياة فلإن السبيل إلى ذلك هى أن يكون شاعرًا مثلاً ، فيكتب من الشعر ما يقرأ الناس من بعده آمادًا طويلة ، كما نفعل الآن حين نقرأ شعر الجاهلية ، أو يستطيع الإنسان أن يخلد نفسه بين يدى الناس بأن يؤلف كتابًا أدبيًا

رائعاً ، أو يضع أغنية ، أو يلحن قطعة موسيقية رائعة تبقى بإسمه وتخلده على الزمن .

والذين تُخلدوا من رجال الثقافة أكثر كثيراً من الذين تُخلدوا من رجال العلم والبحث العلمى . وليس معنى هذا أن الثقافة أفضل من العلم أو أنها تغنى عنه ، ولكن معناه أن الإنسانية فى مجموعها ، ومن بينها الإنسانية العربية ، والإنسانية الأوربية أو الصينية أو الهندية ، كانت تعرف للابداع الثقافى قدره ، أكثر مما كانت تعرف للإنتاج العلمى قدره ، والسبب فى ذلك هو أن الثقافة تتصل بحياة الناس اتصالاً مباشراً ، فى حين أن العلم يتصل بالطبيعة ، ويتصل بالأشياء ، أكثر مما يتصل بحياة الفرد أو حياة الجماعة .

هناك ناحية أخرى تختلف بها الثقافة عن العلم ، وهى الناحية التى تهمنى نحن فى الوقت الحاضر ، وفى العالم العربى . هذه الناحية هى أنه إذا كان العلم لا وطن له فإن الثقافة لها وطن .

الثقافة لا يمكن أن تتجرد عن المجتمع الإنسانى ولا يمكن أن تتجرد عن الشعب الذى تنشأ فيه ، ولا يمكن أن تتجرد عن البيئة التى تحيا فيها ، وأنا لا أستطيع أن أتصور الثقافة العربية مثلاً دون أن أقرنها مباشرة بالشعب العربى وبالأمة العربية وبالوطن العربى وبالتاريخ العربى وبالأمال العربية . بالماضى وبالحاضر وبالمستقبل فى بلاد العرب . ولا أستطيع أن أتصور الثقافة الأنجلوسكسونية أو الثقافة اللاتينية أو الثقافة الصينية أو غيرها من الثقافات دون أن أقرن كلاً منها بوطن معين وجماعة معينة من بنى الإنسان .

فالثقافة إذن تختلف عن العلم . العلم للإنسانية كلها . ولكن الثقافة هى لأمة بذاتها ، ومن هنا ندرك قيمة الثقافة ، فى تكوين أمتنا العربية . وإن كنا ندرك أيضاً أن الأمر أمر اختلاف ثم تكامل بين العلم والثقافة فى حياة أمة من الأمم ولتكن الأمة العربية . ومن هنا ندرك أننا إذا ما أردنا أن يكون لنا كياننا بين الأمم والشعوب ، فإن علينا أن نعد وسائل تربيتنا وتعليمنا على أساس يجمع بين العلم الذى يمدنا بعدة العمل والإنتاج فى الحياة ، والذى يعرفنا بطبيعة الأشياء ، والذى يعيننا على أن نكافح فى ميدان العمل والإنتاج ، والذى يعيننا على أن نسهم فى تقدم الحياة

الإنسانية على الأرض ينبغي أن نجمع في نظم تربيتنا وتعليمنا بين هذا الجانب ، وبين جانب الثقافة . جانب الثقافة الذى يعرفنا بأنفسنا ، والذى يعين ناشئتنا العربية على أن تتفهم كيانها فى العالم ، وأن تتعرف على وطنها العربى على أساس المعرفة والمحبة لهذا الوطن ، وعلى أساس الإيمان الراسخ بهذا الوطن ، وعلى أساس محاسبة الضمير فى كل ما يمس هذا الوطن ، وعلى أساس كل تلك المعالم المختلفة التى يمتاز بها الإنسان عن الحيوان على أساس الأخوة ، وعلى أساس المروءة ، وعلى أساس التضحية ، وعلى أساس التقدير للوطن وحقوق الوطنية . بل أكاد أقول على أساس التقديس أيضًا . هذه الثقافة فى تكوين جيلنا فى مدارسنا ومعاهدنا هى التى تجعل منهم رجالاً عرباً أو نساءً عرباً ، يؤمنون جميعاً بهذا الوطن العربى ، ويخشون الله فى حق هذا الوطن ، ويخشون ضيائهم ويحاسبون أنفسهم فى العمل لهذا الوطن ، ويجب بعضهم بعضاً ، ويقدر بعضهم بعضاً ، ويتعاون بعضهم مع بعض .

على هذا النحو ينبغي أن نسير فى تكوين جيلنا الجديد ، وينبغي أن نذكر أننا فى نظم التربية والتعليم لا بد أن نهدف إلى غايتين متكاملتين هما التعليم والتربية والغاية الأولى هى أن نمد الناشئ بقدر من العلم يجعل منه إنساناً قادراً على العمل والإنتاج وهذا هو التعليم ، هذا هو الإمداد بالعلم وبالوسائل العلمية ، بحيث يصبح هذا الناشئ ، ولداً كان أم بنتاً ، قادراً على العمل والإنتاج ؛ ويتسلح بعدة العلم ليصبح قادراً على خدمة نفسه ، أو على خدمة غيره ، أو خدمة أمته عن طريق تسخير العلم فى الإنتاج . وأما الناحية الثانية فى التربية فهى أن نعد الناشئ ليصبح مواطناً صالحاً ، وكلمة المواطن الصالح هذه كلمة عامة يصعب تعريفها ولكننى سأختار لكم ما أعتقد أنه أبسط تعريف :

المواطن الصالح فى رأى هو الشخص الذى يعطى وطنه أكثر مما يأخذ منه ، والذى يصبح ديدنه فى الحياة ، فى معاملاته مع أقرانه وإخوانه أبناء وطنه ، مقيداً بذلك الناموس الذى ينبع فى الضمير ، فيعطى كلا منهم أكثر مما يأخذ منه ، أو قبل أن يأخذ منه ، هذا هو المواطن الصالح حقاً ، هذا هو المواطن الذى ثقف ورُبى

بحيث أصبح قادراً على أن يضبط نفسه ، ويكبح عواطفه الحيوانية الغريزية التى تحدد من رغبته فى أن يعطى قبل أن يأخذ ، هذه الناحية فى غاية الأهمية وهى التى يقوم عليها بناء الوطن ، وهى التى تقوم عليها نهضة الأمة ، بل هى التى امتازت بها أمتنا العربية المجيدة فى صدر الإسلام ، عندما جاء المؤمنون وعرفوا أن الموت فى سبيل الله هو أشرف الغايات ، وأن هذه التضحية الكبرى ، التى هى تضحية النفس ، ينبغى أن ترخص من أجل إعلاء كلمة الحق . هذه الروح هى التى ميزت العرب ، وهى التى ميزت تاريخهم ، وهى التى ميزت أفعالهم خلال القرون ، فالعرب عندما جاء الإسلام قامت حياتهم على هذا التهذيب الروحى ، على هذه الثقافة الإسلامية التى جاء بها النور الجديد ، قامت حياتهم ومعاملاتهم مع الأمم جميعاً ، وليس فقط مع أنفسهم ، على أساس العطاء قبل الأخذ . على هذا الأساس عامل العرب العجم ، وعامل العرب العناصر الأفريقية السوداء فى بلاد الحبشة وفيها وراء الحبشة ، وعاملوا العناصر الهندية ، وعناصر الملايو ، وعناصر الصين . بل بهذه الروح التى امتازت بالتسامح ، وامتازت بالإخاء وامتازت بأن التقوى هى أساس المفاضلة بين الناس ، وامتازت بالمرورة والشهامة والنجدة . . بهذه الروح اتسمت أفعال العرب ، حتى فى عهود الكفاح والحروب الطاحنة . والأمثلة كثيرة : فمن هذه الحروب ، الحروب الصليبية ، فهناك تجلت هذه الروح التى لا يمكن أن تنبع إلا فى الضمير ، والتى تمثل فيها تهذيب العرب وثقافة العرب ، والتى دفعت الأمة العربية ممثلة فى شخص محاربيها ، من طور الحمجية الأولى إلى طور الإنسانية الرفيعة ، وهى التى يتمثل فيها جانب الخلود فى حياتنا العربية ، وهى التى ينبغى أن نذكرها دائماً فنفتخر بأننا بين الأمم كنا دائماً أقرب إلى الإنسانية الكاملة ، فكنا بحق خير أمة أخرجت للناس .

هذه هى الثقافة التى جعلت نفراً من أبناء العروبة فى أيامنا هذه والمشتغلين بالعلم وبالباحث العلمى المجرى يميلون شيئاً فشيئاً إلى جانب الثقافة ، هذا الجانب الذى ينبغى أن نعترف بيننا وبين أنفسنا بأننا أهملناه فى نظمنا التعليمية فى مختلف البلاد العربية ، فقصرنا فى جانب التربية والثقافة ، فعلمنا أبناءنا من العلوم ومن المهارة العلمية ما جعلهم أصلح للعمل ، وأقدر عليه ، وعلمنا نفراً قليلاً مختاراً من المبرزين من أبناء العروبة تعليماً راقياً وبعثنا بهم إلى أوروبا ينشدون العلم ويتخصصون فيه

فبرزوا بل تفوقوا على كثير من أقرانهم في أوربا ، ولكنهم جميعًا كانوا علماء ولم يكونوا مثقفين بالقدر الكافي ، كانوا علماء للإنسانية ، ولكنهم لم يكونوا ، أو لم تكن غالبيتهم على كل حال مثقفة ثقافة قومية عربية . وانتهى علم نفر منهم إلى أن تولد في نفوسهم شيء من مركب النقص ، فنراهم مثلاً ، حين يتكلمون أو يتحدثون يفضلون بطريقة آلية لا شعورية أن يتحدثوا بلغة أجنبية أو يتشدقون ببضعة ألفاظ أو مصطلحات أو عبارات من إحدى اللغات الأجنبية ، ونراهم يتهمون اللغة الغربية بما هي منه براء ؛ وبأنها لغة قاصرة عن أن تبلغ بالإنسان مظهر الحياة التقدمية الحديثة . وهذا كله مغالطة غير صحيحة ، وتهمة باطلة ، وليس أدل على ذلك من أننا نستطيع أن نتفاهم باللغة العربية في كل شيء وأن نستخدمها في كل ما يمس الثقافة قطعاً وفي أكثر الأشياء التي تمس العلم . واللغة العربية ، وهى المقوم الأول من مقومات ثقافتنا ، لغة حية مضى على حياتها المتصلة ستة عشر قرناً ، وهى بذلك أقدم اللغات الحية جميعاً ، فنحن إلى الآن نقرأ الشعر الجاهلى ونتذوقه ، ونقرأ القرآن الكريم ونتأثر به إلى أبلغ حدود التأثير . وهذه اللغة بقيت على الزمن ، وهى تجاهد الآن لتجارى تقدم العلم الحديث ، وتجاهد بتوفيق كبير . وإذا ما قارناها بغيرها من اللغات ، فلإننا نجد مثلاً أنه إذا حاول فرنسى فى الوقت الحاضر أن يقرأ كتاباً ألف باللغة الفرنسية فى القرن العاشر أو الحادى عشر أى منذ عشرة قرون أو أقل ، فإنه لا يكاد يفهم منه إلا النذر اليسير . وكذلك الحال فى اللغة الإنجليزية ، واللغة الألمانية ، وأغلب اللغات الأوروبية الحديثة . فاللغة العربية كانت أقدر على الحياة من غيرها . واللغة العربية بها من المرونة واتساع الأفق ما يعتبر مكمناً من مكامن القوة والحياة فيها . واللغة العربية حفظها الله عن طريق القرآن الكريم وسيحفظها أبد الدهر ، وعلى العرب أن يذكروا هذه النعمة الكبرى عليهم ، نعمة اللسان العربى ولغة القرآن .

بعض أولئك الذين تعلموا من أبناء العروبة فى الخارج خلال الجيل الماضى أورثهم تعليمهم فى الخارج مركب النقص فلم يستطيعوا للأسف الشديد بعد عودتهم إلى بلادهم أن يشاركوا مشاركة فعالة فى تنمية النهضة العربية الصحيحة . ولكن الجيل الجديد من أبناء العروبة نُشئوا على نحو عربى قومى . فأبناء الجيل الحاضر من

الناشئة في معاهدنا يربون على أساس تقدير تراثهم وثقافتهم الأصيلة ، وعلى أساس أننا إذا أخذنا عن الغرب فينبغي أن نأخذ من العلم أكبر قدر نستطيع أن نأخذه ، وأن يكون هذا الأخذ عن الغرب غير مقترن مطلقاً بأى مركب نقص ، لأننا إذا أخذنا عن الغرب شيئاً من المعرفة الآن فإننا نسترد بعض ما سبقنا به إلى الغرب من فضل كبير في الإنتاج العلمى والعقلى . نحن إذن نسترد بضاعتنا أو بعضها ، ولا بد أن نفعل ذلك دون أن نحس أدنى حرج ولكن ينبغى ألا يطغى هذا الذى نستعيه من الغرب على أصول حياتنا الفكرية والروحية والثقافية ، كما ينبغى حين نتعلم أن نذكر أن لنا أمجاداً عربية خالدة ، وأن لنا فضلاً على الإنسانية سابقاً ، وأنا قد كان لنا فضل كبير على الإنسانية وإنتاجها الروحى والثقافى ، وأن من تقاليدنا القديمة ما ينبغى أن نحفظ به ، لا على أساس أن نكون محافظين على القديم ، وإنما على أساس أننا نعزز بهذا الجانب الطيب من إنتاجنا القديم . نعزز بثقافتنا ، ونعزز بتراثنا ، ونؤمن بأن ماضينا يتصل بحاضرنا ومستقبلنا ، فنجمع عن طريق ذلك ، بين المحافظة على الطيب من حياتنا القديمة من جهة ، وبين التجديد والاقتباس وبعث حياتنا على نحو جديد عن طريق الاستعارة من جهة أخرى . فحياة العرب إذن وتربيتهم وتنشئة جيلهم الجديد ينبغى أن تتجه في هذين الاتجاهين ، فنأخذ من الجديد أطيبه ، ونحتفظ من القديم بخير ما فيه ، ونحن إذا لم نفعل ذلك فإننا سنخسر كثيراً . وإذا ما حاولنا أن ننبد تراثنا ، فإننا سنجد أنفسنا معلقين فى الهواء ، مع أن لنا أصولاً تتصل بتربتنا الطيبة الخالدة ، وتربطنا بماضيينا وبنظمنا الأخلاقية ، وبحياتنا الروحية وبدنينا الحنيف . لا بد أن نفعل هذا كله ، حين ننقل عن الغرب كل ما يتقدم بنا إلى أمام ، وكل ما يزيد من قدرتنا على أن ننافس الأمم الحديثة .

ونحن فى هذا سنختلف اختلافاً ظاهراً عن الأمم الغربية فالأمم الغربية سواء أكانت فى جنوب أوروبا أم فى شمالها أم فى أمريكا ، هذه الأمم تستطيع أن تتناسى الماضى أو تغض الطرف عنه ، لأنه لا يكاد يكون لها ماض يذكر ، فحياتها كلها فى العهد الحديث ، أما نحن فى المشرق العربى فإننا نتصل بالإنسانية القديمة ، نتصل بالإنتاج الثقافى الإنسانى ، وبالأجداد الروحية للإنسانية عامة ؛ فقد اختار الله تعالى أرضنا لتكون مهبط الوحى ، وهو بهذا الاختيار قد وضع على عاتقنا أمانة كبرى ، هى

أن نذكر هذا الماضي ، وأن نستوحيه ، وأن نعتر به ، وأن نحبيه ، وأن نغذيه بإنتاج الحياة الجديد . على هذا النحو وحده نستطيع أن نبني أمجادنا في المستقبل ، وعلى هذا النحو وحده نستطيع أن نؤدى الأمانة . وليس أفضل في هذه الحياة ، ولا بالنسبة للحياة الأخرى ، من أن يؤدى الإنسان أمانته نحو الله .

وحديث الثقافة حديث يصح أن يطول ، ولكن هناك جانباً من جوانب الحياة الثقافية العربية ، لا أستطيع أن أنهى الحديث دون أن أعود إليه . هذا الجانب هو مقومات هذه الثقافة العربية . فإلى عهد قريب كان المصلحون العرب في مجال التربية والتعليم والثقافة ، أو في مجال الإصلاح الإجتماعى أو غيره ، يرون أن سبيل الإصلاح بالنسبة لهذه الأمة العربية هى أن يبحث كل منا عن نواحي الضعف في حياتنا ليقويها . كنا ننظر إلى الأمة العربية فنقول إن بها من العيوب كذا وكذا ، ثم نحاول أن نصف الدواء لهذه العيوب . ولكن هذا النحو من الإصلاح هو في الحقيقة نحو ناقص ، وينبغى أن يكون مذهبنا الحديث في الإصلاح هو ألا نكتفى بتلمس العيوب والبحث عن الأدواء وإنما يلزم أن نبحث عن مكان من القوة في حياتنا ، ثم نشخذ العزائم لبعث هذه المكان ، ولبعث القوة منها . فيكون سبيلنا إلى الإصلاح أن نقول إن الأمة العربية فيها من مكان من القوة كذا وكذا ، ثم نحاول أن نبعث هذه القوة ونفكها من عقالها ، وبذلك لا نكتفى بالبحث عن النواحي السلبية في حياتنا وإنما نبحث عن النواحي الإيجابية التى تبنى النهضة وتدفع بها إلى أمام .

على هذا النحو عرف العرب قديماً أن يبعثوا أمتهم ، عند ما جاء الإسلام فوجد في الأمة العربية حيوية كامنة ، كانت لا تعرف كيف تتجه الاتجاه السليم ، ولكن الإسلام بعثها من مكنها ، فخرج العرب مؤمنين برسالتهم الجديدة ، عاملين من أجل تعميمها في مختلف أرجاء العالم .

هذا فيما أرى هو مذهب المصلحين الجديد سواء في مجال التربية أو في مجال الإصلاح الاجتماعى . فلا بد أن نبحث عن نواحي القوة في الثقافة العربية ، وعن المقومات التى تقوم عليها نهضتها الجديدة ، وأول هذه المقومات - كما ذكرت منذ حين - هو اللغة العربية ، التى ينبغى أن تكون نقطة البدء في إحياء حياتنا القومية . ومن حسن الحظ ، أن هذه اللغة قادرة على أن تحيا ، ففيها من الحيوية ومن الصلاحية

للبقاء ما يضمن لها الخلود . فقد شاء الله تعالى لهذه اللغة أن يشرفها وأن يكرمها فجعلها لغة القرآن . ومن حسن الحظ أن بهذه اللغة من المرونة ما سمح لها بأن تجمع بين الماضى والحاضر . وبين القديم والجديد . فهى لغة فيها من الألفاظ ما يتصل بالبادية القديمة ، والبادية هى أصل الحياة العربية من غير شك . وبها من الألفاظ ما يتصل ما يتصل بحياة الشرق من الفرس أو الهند أو غيرهم . وبها من الألفاظ ما جاء من ناحية البحر المتوسط وبلاد الروم . والباحثون والعلماء والمتعلمون العرب فى الوقت الحاضر يعملون جاهدين لينحتوا ألفاظاً عربية جديدة تسير العلم الحديث ، وهم موفقون فى ذلك كل التوفيق . والعربية لغة مرنة ، والمرونة هى أصل الحياة ، ثم إن هذه اللغة بها عنصر الجمال وعنصر الروعة . هذه الناحية الجمالية فى اللغة هى التى تجعل منها لغة فصيحة موسيقية يتعشقها الذوق ، وتألّفها الأذن . هذه اللغة التى تجمع بين اللين والقوة ، وتجمع بين كل ما هو رقيق فى مشاعر الإنسان وكل ما هو قوى فى أحاسيسه . هذه اللغة قادرة من غير شك على أن تكون مقوماً أساسياً من مقومات حياتنا الثقافية . والذى أراه هو أن أول ما ينبغى أن نعى به فى نظم تربيتنا وتعليمنا إنما هو هذه اللغة ، فنتعلمها ونتعشقها ، ونحاول فوق ذلك وفى الشرق العربى كله أن نصل إلى المرحلة التى يتكلم فيها الجميع أقرب لهجة ممكنة إلى ما يمكن أن نسميه بالعامى الفصيح ، بحيث يستمع العربى فى المغرب إلى العربى فى المشرق فيفهم عنه ، ويتعشق ما يقول ، ويتذوق أدبه وإنتاجه الأدبى واللغوى . وبذلك تصبح التربية والتعليم وسيلة إلى تحقيق التقارب اللغوى بين مختلف أرجاء بلاد الأمة العربية .

ولن نصل إلى تحقيق حلمنا العظيم ، حلمنا الذى سيتحقق من غير شك بإنشاء الأمة العربية الموحدة ، إلا إذا وصلنا إلى تحقيق هذه اللغة المشتركة ، هذه اللغة العلمية من جهة والثقافية من جهة أخرى . ولعلها أن تكون المقوم الأول فى بناء وحدة الأمة العربية .

هناك مقومات أخرى منها : الإيمان بالأمة العربية والثقة بها ، وهذا الإيمان لابد أن يستمد قوته من الإيمان بالله ، لأن الإيمان بالله هو الأصل ، وهو ينبوع الذى ينبغى أن تبنى عليه العقيدة . ومن أوجه العقيدة ، أن يؤمن الإنسان بأتمته وأن يؤمن العربى

بأن أمته خير أمة أخرجت للناس . والإيمان في كل من المسيحية والإسلام قد دعا إلى المحبة والإخاء . وهو في الإسلام بصفة خاصة يعلم المساواة بين الناس والعطاء قبل الأخذ . فهذا الدين الحنيف يهذب النفس ويثقف الفرد ويجعل منه إنساناً بالمعنى الكامل الصحيح . ففريتنا الدينية ينبغي أن تكون أساساً من الأسس الأولى في تكوين الجيل الجديد .

كنا منذ جيل ننظر إلى التعليم على أنه إما أن يكون تعليمًا دينيًا خالصًا وإما أن يكون تعليمًا مدنيًا خالصًا ، وهذا خطأ أفسد التعليمين الديني والمدني ، وأدخل في حياتنا تلك الثنائية في تكوين الفرد وجعل الجيل المتعلم من أبناء العروبة يعتقد أنه لاصلة واقعية بين الدين والدنيا ، مع أن الإسلام يأمرنا بغير ذلك ، وهو يكاد أن يفرد بأنه العقيدة التي تأمر بالجمع بين الدين والدنيا .

التربية الدينية بمعناها الروحي العميق ينبغي أن تكون أساسًا ، ولا يصح مطلقًا أن نفكر في تربية أو تعليم مدني لا يستند إلى الجانب الروحي ، فإن ذلك يفسد التعليم المدني كما أفسد إهمال العلوم الحديثة التعليم الديني أو كاد .

هناك مقوم آخر من مقومات تربية الجيل الجديد المثقف ، هذا الجانب هو الثقة بالنفس . هذه الثقة التي كدنا أن نفقدها بسبب الاستعمار . هذه الثقة التي زعزعها حقًا عهد الحكم التركي عندما جاءت النظرة التركية إلى العرب على أنهم ليسوا خير أمة أخرجت للناس ، وإنما هم فئة مستضعفة من الإنسانية . وهي نظرة أعجبت الغرب فسار عليها . ويبدو أن فئة من العرب - فئة قليلة لحسن الحظ - استكانت إلى هذا الاستضعاف ، وسعت في ركاب الاستعمار ، أو في طريقه ، فاستعان المستعمر على الغالبية المطلقة من الشعب العربي بأقلية ضئيلة مستضعفة من أبنائه . ظهر من العرب من لا يثق بنفسه ، ومن لا يعرف تاريخه ، ومن لا يؤمن بأن الأمة العربية قادرة على أن تحمي نفسها من جديد . ظهر بيننا المتخاذلون وحاولوا أن يسيروا بالشعب العربي في طريق الاستكانة والضعف . ولكن الله كان قد شاء لهذه الأمة أن تبقى على الزمن ، وها هي ذى تلك القلة القليلة من أبناء العروبة تسير إلى غروب ، وها هو ذا الفجر الجديد يطلع علينا ، فجر الثقة بالنفس ، وفجر الثقة بأننا نحن العرب كنا أمة ذات مجد كبير في الماضي ، وسنحیی أمتنا وقوميتنا وحياتنا وثقافتنا ونبعث أمجادنا في

المستقبل لنحمل أمانة التاريخ بين الأمم من جديد .
ولكن هناك مقومًا آخر أذكره آخر الأمر ، لا لأنه أقل من غيره من المقومات ، ولا على أنه ينبغي أن يأتى كآخر المقومات ، وإنما أذكره لأنه يمثل الناحية التى تجمع بين كل ما تقدم من المقومات . هذا المقوم هو الوحدة .

والوحدة فى هذه الناحية ينبغي أن تكون مستمدة فى أصلها من الإيمان والتوحيد ، فالله تبارك قد خلق هذه الأمة لتسير موحدة . وقد سارت على أمره وبركته فى أول أدوار حياتها ، ولكنها للأسف خرجت عن طريق الحق ، وقطعت ما أمر الله به أن يوصل . هذه الأمة تفككت ، وكان تفككها فى مجال الثقافة بصفة خاصة ، وكان هذا التفكك هو أساس الضعف ، كان هو أصل الانحلال السياسى الذى أصاب الأمة العربية ، فإذا ما أردنا اليوم أن نبعث الوحدة السياسية ، فإن رأى فى ذلك هو ألا نقف بجهودنا على المحاولات السياسية وإنما ينبغي أن نبدأ من حيث يجب أن نبدأ وهو أن نوحّد ثقافتنا ، ونوحّد اتجاهات الفكر واتجاهات الروح واتجاهات الضمير بين أبناء الأمة العربية . وإنما إذا ما نظرنا إلى ماصنعه بنا الاستعمار ، فلإننا نلمس كيف أن هذا الاستعمار قد استطاع أن يدرك أن الأمة العربية يمكن أن تؤخذ عن طريق الثقافة وعن طريق الانحلال الثقافى . فهذا الاستعمار أصاب الثقافة العربية فى صميمها . وقد ذكرت لكم فى مطلع هذا الحديث أنه إذا كان العلم لا وطن له فإن الثقافة لها وطن . والثقافة العربية لها مجال حيوى ينبغي أن تعيش فيه ، وهو مجال يمتد من المحيط الأطلنطى إلى الخليج العربى . وله أطراف تمتد فى ناحية شرق إفريقيا ، وفى تلك الجهات الكثيرة التى انتشر فيها العرب فيما وراء البحار . هذا المجال الحيوى ينبغي أن نوحده فى ميدان الثقافة . وهذه هى السبيل الأكيدة التى ستأتى لنا بالوحدة السياسية فى يومها .

والاستعمار قد قطع هذا المجال إرباً ، فانفردت فرنسا بشمال إفريقيا ، وحاربت اللغة العربية لأن فرنسا كدولة استعمارية كانت تعرف كيف تؤكل الشعوب ، واللغة هى سبيل أكل الشعوب وسبيل إضعافها وسبيل زعزعة ثقافتها بنفسها ، وسبيل قطعها عمن يستطيعون أن يمدوا إليها يد الأخوة ، فأضعفت فرنسا اللغة العربية وأضعفت الثقافة العربية ، وانفردت حيناً من الدهر بذلك الجزء الغربى من الوطن العربى

وحاولت أن توجهه في غير ما أمر به الله .

وبريطانيا حاولت بعد تركيا ، أن تنفرد بمصر ، ونجحت إلى حد ما أن تنفرد بالسودان . وحاولت أن تقطع السبيل بين أبناء النيل وبين أن يثقوا أنفسهم ليؤمنوا بعروبتهم وليؤمنوا بأنهم همزة الوصل بين المشرق العربي والمغرب العربي ، وليؤمنوا بأن مجد مصر إنما قام على أنها موطن عريق قوى من مواطن الثقافة العربية والثقافة الإسلامية .

ونحن إذا ما انتقلنا إلى المشرق العربي وجدنا دولة استعمارية أخرى نجحت لوقت ما - مع الأسف الشديد - في أن تقطع أجزاء من هذا الوطن ، ومن هذا المجال الحيوى للثقافة العربية . فنجحت فرنسا في أن تجتذب فريقاً كبيراً من أبناء لبنان العزيز ، وجاهد أولئك الأبناء الأعمى في لبنان ، جاهدوا من أجل عروبتهم ، ونجحوا بحمد الله في ذلك ، وكان أولئك المجاهدون في ميدان الثقافة بصرف النظر عن عقيدتهم الدينية ، إذا ما وجدوا أن المجال قد ضاق بهم في بلادهم ، وأن الاستعمار لا يسمح للثقافة العربية في لبنان أن تزدهر - كانوا ينزحون ، وينزحون إلى المهاجر البعيدة أو إلى مصر التي احتضنت الثقافة العربية والفكر العربي الذى ضاق بالاستعمار ، واحتضنته في مجال الثقافة ، وفي مجال الصحافة ، وفي مجال التأليف ، وفي مجال إحياء اللغة العربية . وبذلك أتاحت لذلك النفر من أبناء لبنان والشام الأعمى غير المسلمين أتاحت لهم الفرصة أن يجدوا في مصر ملجأ ، لثقافتهم العربية ، وموطناً لهم يشاركون في إضاءة أنوار العربية من جديد .

وكذلك انفردت بريطانيا بأجزاء أخرى من العالم العربي في جنوب بلاد العرب وفي العراق ، وبدأ الاستعمار وكأنه قد نجح في تقطيع المجال الحيوى للثقافة العربية ، وحال بيننا وبين أن نقوم بدورنا التقليدى في الإنسانية ، كما حال بين العالم العربي وبين أن يجدد حياته بعد أن انقشع عنها ظل الاستعمار التركى المظلم . ولكن الأمة العربية كما ذكرت ، أمة قادرة على أن تبعث نفسها ، وهذا البعث ينبغى أن يبدأ من حيث الثقافة ، وينبغى أن يكون هدفنا الأول هو أن نعيد إلى المجال الحيوى للثقافة العربية وحدته . هذه هى نقطة البدء ، فنعيد هذه الوحدة عن طريق توحيد الفكر ، والاتجاهات الفكرية ، وإحياء اللغة العربية ، وبعث الثقة بالنفس والتمهيد بكل

ذلك للوحدة العربية الشاملة .

هذه هى سبيل الحق ، وهذا هو طريق بعث الأمة العربية من جديد .
ولحسن الحظ أننا نجد بلدًا عربيًا قد يكون صغيرًا بحجمه ، أو بعدد سكانه ،
ولكنه نموذج مصغر لما أحب أن أرى عليه الأمة العربية فى المستقبل ، هذا البلد هو
الكويت . هذا البلد الذى يجتمع فى صعيده العرب من مختلف أرجاء العروبة ،
يتعاونون فى العمل من أجل بعث الأمة العربية . هذا الوطن الصغير الذى شاء الله فى
الوقت نفسه أن يلهم أهله أن يسيروا فى طريق وحدة ثقافة العرب .

« 11 »

**مقومات الحضارة الإسلامية وسماتها
في التطبيق العربي**

مقومات الحضارة الإسلامية وسماتها فى التطبيق العربى

مقدمة : الدين والحضارة :

يمتاز الإسلام بين الديانات الأخرى بأنه دين حضارة ، بمعنى أنه كان منذ نزوله دين عبادة لله ودين معاملة بين الناس ، وأنه أنشأ لونا من الحضارة عرف باسمه ، وهو «الحضارة الإسلامية» على حين أن غيره من الديانات السماوية لم يبلغ هذه الدرجة ، ولا هذا المستوى من الأثر الانسانى والتاريخى . فاليهودية مثلا لم تنشأ حضارة يهودية بالمفهوم الحديث لكلمة الحضارة ، وكذلك المسيحية لم تنشأ عنها أو تصاحبها حضارة مسيحية ذات طابع مميز أو موحد ، وكذلك الأديان غير السماوية ، وعقائدها ذات الانتشار الكبير ، لم تقم لأى منها حضارة خاصة مميزة ، وإن كان بعضها قد علق بحضارات أقدم منه أو معاصرة له ، ومن ذلك الكونفوشية التى اتصلت بالحضارة الصينية . والبوذية التى اتصلت أولا بحضارة الهند . ثم رحلت عنها إلى داخلية آسيا الوسطى وأطراف الصين ، أو إلى جزيرة سرنديب (سيلان) أو جنوب شرق آسيا حيث الحضارة هندية صينية ، بل كذلك عقائد الهند ذاتها ، وهى التى اتصلت بألوان من الحضارة الهندية على أساس اقليمى ، ولكن واحدة منها لم تنشأ لونا شاملا من الحضارة المتكاملة ، إلا على نطاق محلى محدود لم يستطع أن يعم الهند كلها فى يوم من الأيام ، بل كذلك أيضاً عقائد إفريقية الفطرية فى مناطقها الحارة والاستوائية ، حيث لا يمكن أن توصف الحضارة التى صاحبت بعضها بأنها حضارة مشتقة من العقيدة أو الديانة أو حتى مصطبغة بالطابع الدينى إلى الحد الذى ينسبها

إلى تلك العقيدة ، وإن كان تداخل الأساطير والخرافات قد أوجد نوعاً من الرباط المشترك بين ديانات إفريقية الوسطى ، وبين ما يتصل بها من نظم اجتماعية إفريقية .

مفهوم الحضارة :

ولا بد لهذا الاختلاف بين الاسلام ومعظم الديانات والعقائد الأخرى ، مساوية وغير مساوية ، من أسباب . ولكننا قبل أن نحاول استجلاء مثل هذه الأسباب والعلل يجدر بنا أن نتفق على مفهوم كلمة «الحضارة» وهو مفهوم تطور مع الزمن ، لاسيما في تاريخ حياتنا العربية والإسلامية . والمفهوم الأصيل لكلمة «الحضارة» في لغتنا أنها تعنى حياة الحضر ، والإقامة الثابتة في القرى والمدن . وعكسها «البداءة» ، وهى حياة التنقل في البادية . ولقد عرف العرب الفارق بين حياة البادية وحياة الحضر منذ كانت بادية وكان حضر . ولكن أول من تصدى لهذا التمييز على أساس من الدراسة والتسجيل والتحليل العلمى هو عبد الرحمن بن خلدون . بل إن هذا العالم العربى كان أول من عالج شئون الحضارة بطريقة علمية تحليلية ، على الرغم من أن البداءة والحضارة في مختلف صورهما وأنماطهما في الحياة كانتا قائمتين منذ أقدم العصور التاريخية .

على أنه إذا كان ابن خلدون قد بلور مفهوم الحضارة عند العرب ، على أنها ذلك النمط من الحياة المستقرة ، والذي يناقض البداءة ، فينشئ القرى والامصار ، ويضفى على حياة أصحابه فنوناً من العيش والعمل والاجتماع ، والعلم والصناعة وإدارة شئون الحياة والحكم ، وترتيب وسائل الدعة وأسباب الرفاهة . إذا كان ابن خلدون قد بلور هذا المعنى التاريخي ، وفصل الفوارق بين البدو والحضر ، واعتبر الحضارة غاية العمران ، فإن مفهوم الحضارة في عصرنا قد امتد إلى ألوان من المعنى هى أبعد وأوسع مما رآه ابن خلدون في عصره ، وفي بيئته العربية ، في انتقالها الاجتماعي والسياسي والمدنى من البادية إلى الحضر . ولئن كان بعض العرب القدامى قد استعملوا لفظ «مدنى» (بمعنى اجتماعي) ، فإن مفهوماً آخر ظهر واتصل بها أصبح الآن يعرف «بالمدينة» ، بل إن ابن خلدون ذاته كان سابقاً أيضاً في هذا المجال

اللفظى ، فاستعمل مفهوم «التمدن» وكان يعنى به «التحضر» . ولقد ورد فى بعض عباراته «ولهذا نجد التمدن غاية للبدوى يجرى إليها» .

على أن تلك المفاهيم اللغوية ، إنما نشأت فى بيئة عربية كانت حياة الحضر فيها تقابل حياة البادية . . . ولكن هذه الحالة من التقابل لا تكاد توجد بصورتها التقليدية الا فى جهات قليلة جدا خارج عالمنا العربى . ولذلك فان لفظ الحضارة فى مفهومه العالمى ، ومفهومه الحديث المعاصر بصفة خاصة ، قد أصبح أكثر اتساعا عما كان يدل عليه اللفظ فى مفهومه اللغوى التقليدي . وقد يكون من المفيد أن نقابل فى لغتنا الحديثة بين ألفاظ ثلاثة هى «المدينة» و«الثقافة» و«الحضارة» . وان نتفق ، ولو على سبيل الاصطلاح على مفهوم كل واحد من هذه الألفاظ . وقد اتصل لفظ المدينة فى مفاهيمنا الجارية بالجانب المادى والمظهرى من الحياة ، وذلك من حيث مقوماتها الطبيعية ، ومنشأتها الملموسة . وكذلك من حيث الأنماط المعيشية فى أسسها المادية وفى صورها المحسوسة فى حياة المجتمع ، وما يتصل بهذه المظاهر المادية والمحسوسة فى حياة الجماعة من قواعد ونظم وأعراف .

أما «الثقافة» فنستطيع أن نصطلح على أنها تشمل ما يقابل «المدينة» من الناحية المعنوية فى حياة الناس ، بما فى ذلك ما يتصل بالروح والفكر والعقل والذوق والمشاعر . وهى حصيلة الحياة الإنسانية فى هذه المجالات كلها ، وتجمع أنماط الحياة الروحية والفكرية واللغوية والأدبية والفنية ، ولها صورها التى تتعدد وتتلاقى بين الشعوب . والتى يتصل بعضها بتراث مشترك للإنسانية ، ويتصل بعضها الآخر بحياة جماعات بذاتها دون سواها . وأما «الحضارة» بمفهومها الحديث فهى الحصيلة الشاملة للمدينة والثقافة معًا ، وهى مجموع الحياة فى صورها وأنماطها المادية والمعنوية ، وهى الخط العريض الذى يسير فيه تاريخ كل شعب من الشعوب على الأرض . ومنها الحضارات القديمة والحضارات الحديثة والمعاصرة ، ومنها الاطوار الحضارية الكبرى التى تصور انتقال الانسان أو الجماعات الخاصة من مرحلة الى مرحلة وهم يحققون كلمة الخالق على الأرض .

على هذا الأساس نستطيع أن نتحدث عما يمكن أن نصطلح على أنه «الحضارة الاسلامية» . وهى حصيلة تاريخ حياة المسلمين على أرضهم ، وفى أوطانهم المتصلة

في النطاق الأوسط من قارات العالم القديم ، بين المناطق الباردة التي تقطنها كثرة من المسيحيين وغيرهم ، وبين المناطق الاستوائية ، التي يقطن أغلبها كثرة من أصحاب الديانات الأخرى أو من الوثنيين - وسيكون بحثنا عن «الحضارة الإسلامية» ومقوماتها في نطاق العصر الذي نعيش فيه منعكسا عن الماضي ، منذ أن ظهر الإسلام وخلع طابعه الإسلامي على حضارة الشعوب التي دخلت فيه . أي أننا سنعنى أكثر العناية بالعهد الحديث ، مكثفين من الرجوع إلى الماضي بالقدر الضروري لفهم معالم حضارتنا الإسلامية ومقوماتها في أوضاعها التاريخية .

المقومات الدينية للحضارة الإسلامية :

ولئن كان الإسلام قد امتاز ، بأنه دين بناء حضارى ، فإن واقع الأمر في الحضارة الإسلامية انها استمدت مقوماتها الأولى والأساسية من الإسلام ذاته . وإذا كان ظهور الإسلام قد سبقته في جزيرة العرب وما جاورها حضارات أقدم منه كما سبقته أيضاً في البلاد التي انتشر إليها ألوان من الحضارات القديمة ذات الطابع المحلى أو الاقليمي ، فإن الإسلام استطاع أن يضيف على البلاد التي شملها جميعاً لوناً مشتركاً من الفكر الدينى والحياة والمعاملات والعلاقات الإنسانية الإجتماعية بل والسياسية ، حتى أصبح هناك قدر حضارى مشترك بين المسلمين في مختلف أقطارهم وديارهم . وهذا القدر المشترك لم يتحقق مثله لأبناء أية ديانة أخرى من الديانات ذات الانتشار .

وإذا نحن حاولنا أن نستجلى علة قيام هذا الطابع الإسلامي العام للحضارة في بلاد المسلمين ، فإننا نستطيع أن نورد العوامل الدينية الآتية :

١ - أن الإسلام قد انطوى منذ يومه الأول على طاقة روحية (قوة دفع ديني) جعلت منه ثورة حقيقية . بل إن ثورته من هذه الناحية شملت حياة الأفراد والجماعات من جوانبها كافة . فهي ثورة روحية ، وثورة في العبادة والطقوس ، وثورة في الحياة العملية والمعاملات ، وفي النظم الاجتماعية ، بل وفي نظم الحكم وصلة الحاكم بالمحكوم ، وكذلك في تشريعات الأسرة والجماعة . والشئ المهم في هذا الدفع الثائر أنه كان اصلاحاً جذرياً يمس أساس الأوضاع في حياة الناس ، وأنه لم يكن مستنداً إلى ما جاء به الكتاب وحده ، وإنما صاحبه السنة النبوية الشريفة ، التي

أصبحت هى أيضاً منذ المراحل الأولى للإسلام مصدراً للاسترشاد والفهم والتفسير والقياس فى حياة المجتمع الإسلامى . وكان من المهم أيضاً أن الدفع الثائر كان يستمد قوته من معينه الأصل الذى لا ينضب ، وانه لم يهدأ فى يوم من تاريخ الإسلام ، وإن كان قد اعتورته دورات من الهدوء النسبى . ثم إن الدفع لم يكن يستمد القوة من العقيدة وحدها ولا من الإيمان وحده ، وإنما كان يستند بحكم العقيدة إلى « العمل » ، والله تعالى يقرن العمل بالإيمان : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . . » ومن هنا كان الإيمان وحده غير كاف ، وكانت الإيجابية الدينية فى الإسلام لا تتم بغير العمل . بل من هنا أصبح الدفع الدينى عاملاً أساسياً فى بناء الحضارة الإسلامية وتجديدها على مر العصور .

٢- إن الإسلام كان منذ يومه الأول أيضاً دين « دعوة » ، أى ديناً تبشيراً له رسالة يجب على المسلم أن يبلغها ، وأن يشر بها بين غير المسلمين . وهو من هذه الناحية يختلف عن ديانة كاليهودية لم يعن أصحابها بنشرها بين الناس ، وإن كانوا هم قد انتشروا فى الأرض محتفظين بعقيدتهم لأنفسهم . وقد يكون من المفيد فى هذه المناسبة أن نذكر أن العصر الذى ارسل فيه محمد عليه الصلاة والسلام ، ليكون بشيراً ونذيراً بين الناس ، كان أنسب العصور ليأتى فيه خاتم النبيين بالرسالة الإنسانية الكاملة ، بل كان أنسب العصور ليتم الله فيه على الناس نعمة الدين فى شموله العالمى . ذلك أن فكرة « العالمية » التى لم تكن موجودة فى عهد أنبياء بنى إسرائيل ، كانت صورتها الأولى قد اكتملت قبيل ظهور الإسلام ، عندما اتصلت حضارات الشرق الأوسط بحضارات الهند والصين ، وكانت حالة الشعوب واتصالاتها قد أهلتها لأن تتلقى الرسالة الإلهية ، التى فرضت على أصحابها أن يشرروا بها بين الناس شرقاً وغرباً . وكان هذا من أهم الظروف التى مهدت لرسالة الإسلام العالمية من أن تنتشر على نطاق لم يتحقق لرسالة غيرها من حيث اتساع الرقعة الجغرافية فى العالم القديم .

ومن الخير أن نذكر أيضاً أن فكرة « الدعوة » فى الإسلام ، وقد واتتها ظروف « الإنتشار » فى النطاق العالمى ، قد مكنت للإسلام ذاته من أن ينتشر طابعه الحضارى كعقيدة ، وكنمط للحياة الإجتماعية فى نظمها المادية والبشرية . ومن

هنا أصبح الدين مقومًا أساسيًا من مقومات الطابع المشترك في الحضارة الإسلامية .

٣- كان الإسلام دينًا « بسيطًا » : غير معقد ولا مركب في عقيدته ونظمه . وكان في الوقت ذاته دينًا « مباشرًا » يتصل فيه العبد بخالقه دون وساطة كهنية أو كنسية . وقد كانت البساطة في العقيدة شاملة للعبادات والمعاملات جميعًا . وما نظن دينًا يطلب إلى الفرد شهادة أبسط من شهادة الإسلام على عمقها وجلالها : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . وقد نزل بالإسلام بهذه الشهادة التي تصوغ أعمق فكرة في أبسط عبارة . كما نزل بآيات محكمات وتشريعات تكملها سنة قائمة على البساطة ، بعيدة عن كل تعقيد أو تركيب ، ومن هنا كان الموقف على عتبة الإسلام موقفًا سهلاً ، وكانت القاعدة الثابتة لدى من يبشر بالإسلام أن الدين يسر لا عسر . ومن هنا أيضًا كان الاطمئنان الروحي والفكري أول ما يستشعره من يدخل في دين الله وإسلامه ، خصوصًا وأن اعتناق العقيدة الجديدة كان لإبد أن يأتي مباشرة ، دون وساطة أو وكالة عن طريق كاهن أو كنيسة ، وأن التكليف في الإسلام كان فرديًا ، وأن روعيت فيه ظروف الفرد والنفس البشرية ﴿ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ (١) .

على أنه من الحق أن نذكر أن هذه البساطة ، وإن كانت قد يسرت انتشار الإسلام ومهدت لاحتفاظه بطابعه الحضاري الموحد (ولو من الناحية الروحية والدينية) ، إلا أنها لم تنته بالضرورة إلى ذلك القدر من « المرونة » الذي قد يشوه التطبيق ، ولعل المقوم الأساسي الذي لم يجعل البساطة تنقلب إلى مرونة مشوهة ، هو أن القرآن كان وعاء للعقيدة ، حفظها على مر العصور ، واضفى عليها الطابع المشترك في مختلف البيئات ، وتحت مختلف الظروف . ومن هنا فإن المجتمعات الإسلامية على تباين بيئاتها الطبيعية والاجتماعية استقت كلها من معين روحي وديني واحد ، واستطاعت في تنوعها أن تحقق للحضارة الإسلامية وحدة لا نجد لها نظيرًا بين الحضارات الأخرى ، التي استمدت طابعها أو بعض مظاهرها المميزة من عقيدة دينية .

(١) سورة البقرة : ٢٨٦ .

٤ - كان الإسلام ديناً رجباً ، يقبل الاجتهاد ، بل ويدعو إليه في حدود أصول العقيدة كما كان إلى ذلك ديناً يدعو إلى سبيل العقل والحقيقة كما يدعو إلى سبيل الضمير والحق . ومن هنا كانت الدعوة إلى النظر وإلى المعرفة أساساً من أسس الدعوة الإسلامية ، وكان التفتح العقلي الذي يقوده الضمير مفتاح الدعوة الحضارية كلها في الإسلام . وعندما خرج المسلمون من بلادهم ووجدوا حضارات أخرى لم يجانبوها لمجرد أنها حضارات سابقة على عهد الرسالة ، وإنما أخذوا منها ما وجدوا فيه الخير ، وما لم يتعارض مع خطوط العقيدة الجديدة . بل إن الإسلام ، وقد جاء في بيئته الأولى ختاماً لرسالات السماء قد أعاد للفكر التوحيدى في المشرق القريب أصالته ، واستطاع بهذه الاعادة والتثبيت أن يجلى بعض معالم الفكر والحضارة في هذه المنطقة ، وأن ينطلق بها جميعاً إلى الشرق والغرب ، ومن فوق الأرض ، وإلى ما وراء البحار . وكان الإسلام في ذلك كله باعثاً ، كما كان منقياً ومجلياً للفكر والحضارة .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الإسلام في رحابته الحضارية استطاع أن يمتص ألوان الحضارة في البلاد التي انتقل إليها ، على مختلف بيئاتها ، وأن يسبغ عليها طابعه الإسلامى الشامل والمميز .

٥ - كان الإسلام ديناً للأخرة وللدنيا في آن واحد . وهو في هذا قد اختلف عن كثير غيره من الديانات والعقائد ، التي ينبع بعضها في ماديات الحياة ، ثم يصفى عليها مسحة من العبادة أو الفلسفة السطحية ، وينبع بعضها الآخر في مجال الروحيات التجريدية التي بقيت منفصمة عن معاملات الحياة الواقعية . وقد ترتب على ما اتصف به الإسلام من جمع بين الروح والمادة أنه أصبح ديناً حياً يلائم الحياة ، مهما اختلفت ظروفها البيئية أو التاريخية . كذلك أصبح الإسلام أكثر التصاقاً بالحياة في مفهومها الحقيقي وصورتها الواقعة . وفي الوقت ذاته أصبحت العقيدة على اتصال دائم بالبناء الحضارى في مجال المدنية المادية من جهة والثقافة الروحية والعقلية ، بل والاجتماعية من جهة أخرى . وكان تقبل الدين الجديد يسراً يسراً بالنسبة لكل من الجماعات التي عرفت الحضارة في صورتها المغرقة في المادية ، وتلك التي عاشت من قبل في نطاق أقرب إلى

الروحيات . ومن ذلك كله أصبح الإسلام أكثر اتصالاً بالبناء الحضارى فى البيئات التى انتشر إليها ، على اختلاف تلك البيئات . وكان ذلك من العوامل التى حققت ولا تزال تحقق ذلك القدر المشترك من المظهر الحضارى فى مختلف بلاد المسلمين .

٦- كذلك كان الإسلام بطبيعته دين « وصل » بين الناس . ولقد كان النبى عليه الصلاة والسلام تاجرًا ، ولم يكن صاحب حرفة أخرى مما يفصل صاحبه عن المجتمع ، أو يجعله فى جانب خاص أو ضمن فئة منعزلة عن الناس . ولقد كانت التجارة كذلك فى كل العصور وسيلة انسانية تربط بين الناس حين يتبادلون السلع ويتبادلون معها ألوان الفكر وأسباب الحضارة . والشىء الطريف أن التجارة كان لها دور كبير فى انتشار الدين الجديد ، حين حمل التجار والملاحون رسالة الإسلام إلى أقطار بعيدة لم يفتحها العرب بالسيف ، وإنما فتحها التجارة والاتصالات الحرة ، فنقلت إليها شهادة الدين الحنيف ، كما كانت فى الوقت نفسه وسيلة لانتقال لون الحضارة الإسلامية فى مظهره المادى والروحى والاجتماعى . وليس من شك فى أن التجارة والملاحة كانتا وسيلة الربط المكين بين أقطار المسلمين خلال أعصر التاريخ ، على نحو شارك فى بناء الطابع المشترك للحضارة الإسلامية .

٧- وأخيرًا فإن الإسلام كان دين « قيم » وضوابط سلوكية مادية ومعنوية ، وهذه القيم يتصل بعضها بحياة الأفراد ويتصل بعضها الآخر بحياة الجماعات . وإذا نظرنا إلى الحضارة على أنها لابد أن تقترن بنمط معين من الحياة فإن الإسلام عاون بقيمه وضوابطه على أن يعطى حياة أهله وحضارتهم بعض مميزات ذلك النمط المشترك ، بل إن الإسلام امتاز بأن أعطى نظامًا متكاملًا للحياة ، سواء أكان ذلك من وجهة نظر الفرد أم من وجهة نظر الجماعة ، وهذا النظام شمل علاقات الأفراد ، وكثيرًا من نواحي الحكم ذاته ، وقد يكون من أبرز القيم التى استند إليها نظام الحياة الإسلامية فكرة القيمة الذاتية للإنسان الفرد ، واستنادها إلى فكرة المسئولية الفردية فى نطاق الحرية . ثم فكرة الإخاء التى تجعل المسلم فى أى قطر يشعر بأنه ينتمى إلى جماعة المسلمين على أساس من المساواة ، والتى كانت من

وراء « حس المشاركة » الذى تستشعره جماعة المسلمين على اختلاف اللغة أو الجنس ، أو حتى الولاء الوطنى أو السياسى . وقد يوجد مثل هذا الحس المشترك بين جماعات من أهل الأديان الأخرى ، ولكنه لا يبلغ قوة « حس المشاركة » بين المسلمين . ثم منها فكرة العدل ، الذى ينبع من قاعدة المساواة أصلاً بين الأفراد ، ويميز التفاوت بينهم على أساس العمل ، وهذه قاعدة تشعر المسلم بروح الإنصاف ، وهى أساس التماسك الاجتماعى المستند إلى الاقتناع . ومنها كذلك فكرة الساحة وعدم التمييز على أساس من العنصر أو الجنس أو المال ، وذلك جعل الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً على أساس التكافؤ والإندماج ، ومهد لأن يكون نظام الحياة والحضارة فى الإسلام نظاماً جامعاً رحباً ، راسخاً فى معايير ، التى لا يغيرها الزمن ولا تشكلها الظروف . ثم منها ما يمكن أن نسميه التكافل الإنسانى الإسلامى . ذلك الذى أرسى للجماعات التى تحيا الإسلام وتمارسه قواعد الحياة الدنيوية فى ارتباطها بالدين ، ومكن لها من أن تبرز بطابع حياتها الإسلامية ، عقيدة ونظاماً وحضارة فى آن واحد .

المقومات البيئية للحضارة الإسلامية :

وإذا كان الدين ذاته قد أعطى حياة المسلمين وحضارتهم تلك المجموعة من المقومات الأصلية ، فإن البيئة بعواملها المحلية وبموقعها الجغرافى ، قد ساعدت هى أيضاً على إعطاء الحضارة الإسلامية ما كان لها من طابع ، بل ومن مكانة ، فى النطاق العربى الذى يتوسط العالم القديم ، ويمتد فيه من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق عبر الجزيرة العربية .

ولقد كانت الجزيرة العربية ذاتها - موطن الإسلام الأصيل - منطقة « وصل » بين أطراف العالم ، عندما تلتقى القارات الثلاث فى العالم القديم ، ومن شواطئها ومفارقها تمتد بحار الشمال بادئة بالبحر المتوسط ، وبحار الجنوب بادئة بالبحر الأحمر والخليج العربى . وقد كان عدم اتصال المياه بين الشمال والجنوب سبباً فى أن شبه جزيرة العرب كانت نقطة تغيير فى وسائل المواصلات ، وفى ظهور دور « الوساطة » الذى كتب للعرب أن يقوموا به ، بل دور « الرسالة » الذى كتب الله بنزول الإسلام فى

بلادهم أن يضطلعوا به . والواقع أن الحكمة الإلهية من نزول الإسلام في الأرض الوسط ، لا يمكن أن يعادها إلا حكمة الأمانة التي حملها تعالى للأمة الوسط : «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً» (١) . ولم يكن الأمر في ذلك بالطبع مجرد التوسط الجغرافي على أهميته ، وإنما كان الأمر أوسع وأعمق ، فهو توسط من ناحية الطبيعة البشرية ومن ناحية السلوك الإنساني ، ومن ناحية الاعتدال في كل ما يتصل بالمادة والمعنى في الحياة . وهى أمور اتصلت كلها بطبيعة البيئة العربية الإسلامية في ظروفها وقت نزول الإسلام وبعد نزوله .

ومن هذه البيئة الوسط انتشر الإسلام شرقاً وغرباً ، بالبر والبحر على حد سواء . ولعلنا نستطيع أن نرى كيف أن عاملاً قوياً من عوامل ذلك الانتشار تمثل في موقع شبه الجزيرة العربية ، وفي سهولة اتصالها عن طريق البرازخ والمعابر البرية من جهة ، والمفارق والخلجان البحرية من جهة أخرى . ثم إن هذه الظروف الجغرافية لم تكن مقوماً عاملاً ميسراً لانتشار الطابع الإسلامى في الحياة فقط ، وإنما كانت كذلك عامل تواصل بين أطراف العالم الإسلامى ، بحيث إن جماعات المسلمين ، حتى في الجهات النائية من جنوب شرق آسيا مثلاً ، لم تنعزل في حياتها أو ثقافتها وتاريخها عن الوطن الأم للإسلام ، لا في التجارة ولا في الحج ، ولا حتى في الهجرات وتواصل الأرحام . ومن هنا كان التماسك الحيوى والحضارى العام بين المسلمين في مختلف أقطارهم حتى في العصور التي لم يكن هناك فيها أى تواصل سياسى أو اقتصادى . بل من هنا كان « التفاعل » بين المسلمين ، تفاعلاً أصبح قوياً للطابع الحضارى الإسلامى على مر العصور .

وفوق ذلك فإن الوطن الأصيل للإسلام في بلاد العرب ، إن كان يمثل منطقة ربط بين أقطار المسلمين وبيئاتهم ، فإن الوطن الإسلامى الكبير في مجموعه كان يمثل نطاقاً متوسطاً من العالم ، بين المناطق الحارة والمناطق الباردة وبين الجهات التي تقطنها العناصر البيضاء والشقراء وتلك التي تقطنها العناصر السمراء والسوداء ،

(١) سورة البقرة : ١٤٣ .

ومن هنا كانت « مكانة » العالم الإسلامى فى استنادها إلى « موقع » ذلك العالم من جهة ، وإلى تكوين سكانه وسطا بين الشعوب من جهة أخرى . وظاهر أن حكمة الأمة الوسط إن كانت تنطبق على الأمة العربية فى خصوصها ، فإنها تنطبق كذلك وبصفة عامة على الأمة الإسلامية ، فى مجموعها الكبير بين أمم العالم .

المقومات التاريخية والبشرية للحضارة الإسلامية :

على أنه إلى جانب المقومات الدينية والمقومات البيئية للحضارة الإسلامية كانت هناك مقومات تاريخية وبشرية تتصل بالعصر الذى ظهر فيه الإسلام وانتشرت عقيدته ، ثم بالعنصر البشرى والتكوين السكانى للمجتمعات الإسلامية . فأما عن العصر ، فإن الإسلام كان ختام الديانات السماوية ، وكان بذلك رابطاً لها من الناحية التاريخية ، كما كان فى الوقت ذاته يمثل تصدياً روحياً جديداً لصور من الديانات السماوية السابقة التى شوهدت فى الزمن ، وكان على الإسلام أن يصححها وينقيها ويرد إليها أصالة الفكر التوحيدي . ولقد كان هذا التحدى الذى واجه الإسلام منذ يومه الأول ، ولا يزال يواجهه فى معرض المقابلة مع الأديان السابقة له ، مصدر القوة والدفع بالنسبة للفكر الإسلامى ، وما اتصل به من حضارة . وكذلك كان الأمر بالنسبة لتصدى الإسلام لمعتقدات أخرى غير سماوية ، وجدها فى بيئة الجزيرة العربية أولاً ، ثم فى البيئات الآسيوية والإفريقية التى انتقل إليها الدين الجديد من جهة أخرى . فهذا التصدى كله كان الحافز للفكر الإسلامى والنظم الاجتماعية الإسلامية فى أن تحتفظ بأصالتها من جهة ، وأن تجدد حيويتها ، وتوسع نطاق رحابتها الحضارية من جهة أخرى . ومن هنا انطوى التفاعل الإسلامى مع ألوان الحضارة التى التقى بها فى بلاده الجديدة على قوة غلبت كل التحديات . فانتشر طابع الحضارة الإسلامية فى فعالية لم تعرفها أية ديانة أخرى ، حاولت أن يكون لها طابع حضارى . وظاهر من هذه الناحية أن تأخر ظهور الإسلام عن كل من المسيحية واليهودية مثلاً ، ثم عن ظهور ديانات أخرى كالבודהية أو ديانات الهند أو أطراف الصين وجنوب شرق آسيا كان هذا التأخر الزمنى عاملاً من عوامل نجاح الإسلام وتفوقه فى التوسع والانتشار ، وعاملاً من عوامل احتفاظ الإسلام بحيويته فى مواجهة التحديات .

ولنذكر مرة أخرى أنه عندما ظهر الإسلام كانت فكرة « العالمية » ، واتصال الشرق بالغرب سواء أكان بالتجارة والوسائل السلمية ، أم كان بالاحتكاك العنيف « والحروب العالمية » التى بدأها الأسكندر الأكبر لأول مرة فى التاريخ لقد كان ظهور فكرة العالمية واستقرارها قبل نزول الإسلام عاملاً مهماً ، فتح مجال التوسع والانتشار على نطاقه العالمى أمام دين الله الجديد . وتلك فرصة أتاحت غير كاملة للمسيحية ، التى لم تحقق فى عهودها الأولى (وقبل عصر الاستعمار الحديث) مثل انتشار الإسلام ، ولم تتح لا لليهودية ولا لأديان جنوب آسيا وشرقها ، التى بقيت محصورة فى نطاقها الجغرافى الآسيوى ، ولم تصبح فى يوم من الأيام ديانات عالمية الانتشار .

على أن قوة الإسلام فى انتشاره ، وترسيخ معالم حضارته الروحية ، قد تضاعفت بفعل مقوم انسانى آخر ، هو تنوع السلالات التى دخلت فى الإسلام . فهو لم يكن منذ أيامه الأولى دين عنصر أو جنس أو سلالة معينة من الناس ، وإنما جمع الناس وساوى بينهم . وربط برباط الأخوة الإسلامية والتكامل الإنسانى بين الأبيض والأسمر والأسود ، واستمر فى انفتاح أفقه إلى العناصر الصفراء وغيرها من العناصر المختلطة الدماء حين انتشر بعيداً عن بيئة شبه جزيرة العرب . وهو من الناحية الاجتماعية أيضاً جمع بين الناس وساوى بينهم على جميع المستويات . ومن هنا كانت « جماعة المسلمين » قادرة أبداً على التوسع واستيعاب كل من يدخل فيها . ولم يكن الأمر فى المجتمع الإسلامى أمر بلد أو منطقة أو جنس أو طبقة اجتماعية أو عنصر سياسى أو لون ثقافى ، أو غير ذلك مما يعرقل التكامل الحضارى بين مجموعات السكان . ومن هنا كتبت للإسلام الغلبة فى مواجهة كل الظروف التاريخية والاجتماعية ، وكتبت لحضارته وحدة الطابع الروحى والفكرى والإنسانى العام فى كل منطقة انتشرت إليها من الوطن الإسلامى الكبير .

ثم أن هناك ظاهرة أخرى ترتبت على كل هذه الجوانب والعوامل الإنسانية ، هى ظاهرة الاتصال والاستمرار الزمنى فى الحضارة الإسلامية . ذلك أنه رغم فترات الضعف السياسى ، محلياً أو على نطاق واسع تلك الفترات التى انتابت الإسلام وحياة المسلمين ، فإن هذا الدين احتفظ بكيانه وحيويته وقدرته على بناء

الحضارة ونشرها . بل إن مما يستحق أن نسجله أن فترات الضعف السياسى والعسكرى للمسلمين كانت من أبرز فترات انتشار الدين الحنيف . فقد حدث مثلاً أنه أيام غزوات التتر والمغول ، وغلبتهم على قواعد المسلمين فى الشرق الأوسط ، استطاع الإسلام بروحانياته وقيمته الإنسانية أن يغزو قلوب الغزاة والفاتحين ، وأن ينتشر بين قبائل آسيا الداخلية إلى حدود منغوليا فى الشرق البعيد .

مستقبل الحضارة الإسلامية :

وإذا كان ذلك تاريخ دين الله ، وما اتصل به من طابع حضارى اتسع نطاقه ، واستمر اتصاله على مر الزمن ، وامتاز بالشمول الإنسانى الاجتماعى ، والتماسك والوحدة الروحية ، رغم كل الظروف المكانية والتاريخية والبشرية ، فما هو المستقبل بالنسبة للحضارة الإسلامية فى عالمنا المعاصر ؟ إن هذا المستقبل مرتبط أشد الارتباط وأقواه بأمرين : هما طبيعة الإسلام الذى أعطى الحضارة طابعها المميز ، ثم طبيعة الحضارة ذاتها وقدرتها على البقاء والاستمرار والتجدد والنمو . وإذا كان الله تعالى قد قال وهو أحكم القائلين : « إنا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون »^(١) فإن المفهوم الشامل لهذه الآية الكريمة أن الله يحفظ الذكر قولاً ومدلولاً ورسالة . وما دام هذا المعين باقياً على الأرض ، فإن مصب الحضارى فى حياة الناس لا يمكن أن يحف أو يغيض . والواقع أن شريعة الإسلام قد أثبتت قدرتها على البقاء وملاءمة العصور والمراحل الحضارية رغم اختلاف الظروف . وهذه الحيوية ذاتها هى سر القوة فى الإسلام وتعاليمه ، وفى كل ما يتصل بالإسلام من بناء حضارى ، لاسيما فى حياة الناس ونظمهم الاجتماعية ، وهى أعز ما فى المفهوم الحضارى من تراث . وبالإضافة إلى ذلك فإن الإسلام دين يمكن أن تميزه بين الأديان بأنه دين « توق حضارى » ، يدفع من يمارسه ، لا إلى العمل وحده ، وإنما إلى ما هو أهم من ذلك وهو « الاتقان » : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » . وهذا الاتقان هو مفتاح الإجابة والتجويد والبقاء والاستمرار الحضارى . بل هو أساس التطلع إلى ما هو

(١) سورة الحجر : ٩ .

أحسن وأفضل وإلى التوق إلى بلوغ الإبداع في العمل الحضارى . والتاريخ يعلمنا أن المسلمين كلما خلصوا لدينهم ، ومارسوه بمفهومه العميق الذى يجمع بين الإيمان والعمل ، نجحوا في إقامة الحضارة ، وإحياء تراثها ، والانطلاق بها إلى آفاق المجد التاريخي . ومن هنا كانت جماعات المسلمين دائماً تجد في المقومات الدينية دافعها إلى العمل الحضارى المجيد ، وحافزها عليه .

فأما عن طبيعة الحضارة الإسلامية ذاتها ، فأنها حضارة متكاملة يعيش أصحابها لدنياهم ولآخرتهم جميعاً . والتاريخ يعلمنا أيضاً أن الحضارات التى تجمع بين المادة والروح ، والتى يكون الدين فيها متكاملًا مع حياة اليوم المادية وحياة الغد الروحية . مثل هذه الحضارات هى أقرب الحضارات إلى البقاء والخلود . ومن الخير أن نذكر هنا أنه حتى حضارة المصريين القدماء تلك التى عرفت التدين في صورته الساذجة المختلطة قبل التوحيد ، قد استطاعت أن تبقى على وجه الزمن في حالتها المزدهرة خلال بضعة الآف من السنين شبه متصلة ، وهى فترة أطول كثيراً مما بقيته حضارة اليونان أو حضارة الرومان ، وهى أضعاف أضعاف ما مارسته حضارة أوروبا في صورتها الحديثة والمعاصرة . وقد يكون السبب الأكبر في استمرار حضارة الفراعنة تلك القرون الطوال أن المصريين القدماء كانوا يعيشون لآخرتهم ، كما تصوروها ، بقدر ما يعيشون لدنياهم . ولقد أقاموا معابدهم ومقابرهم من الحجر ، بناء أو نحتاً ، فبقيت على الزمن ، كما تركوا آثار عملهم المادى اليدوى فى الأرض والحياض التى لا تزال نزرعها بعدهم حتى اليوم . وتلك صورة من الخير أن نذكرها ، لأنها تلقى الضوء على ما يمكن أن يكون من مستقبل حضارة الإسلام ، تلك التى تجمع بين الدين في صورة من التوحيد والعمق والضياء الروحى الذى أتم الله به نعمته على الناس ، وبين الدنيا في صورة من العمل الذى يبنى الحضارة ويقيم دعائمها ويحقق كلمة الله بال عمران فى الأرض .

ومجال المقابلة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى ، قديمة وحديثة ، مجال يمكن أن يفتح لكثير من القول الذى يقوى إيماننا بمستقبل حضارة الإسلام . ولكننا حتى إذا ما نظرنا إلى بعض نواحي الضعف في حضارتنا الإسلامية ، فإننا لانبث أن نجد لها من النوع الطارئ ، أو الذى يمكن أن ينقلب إلى مصدر قوة .

ولنأخذ ظاهرة « الجمود » على سبيل المثال . فقد كانت حياة المسلمين توصف في القرن الماضي بأنها حياة جامدة غير متطورة ، ولكن من يتأمل تلك الحياة لا يلبث أن يرى في جمودها إذ ذاك نوعاً من الانطواء على الذات في مواجهة تحديات الفكر الأوربي الاستعماري وفي مواجهة تيارات التغلغل الأجنبي ، التي كانت تعمل من أجل زعزعة إيمان المسلمين بقيمتهم الحضارية . ولا شك أن روح الجمود إذ ذاك كانت نوعاً من الدفاع عن الذات ، وأنها حفظت على المسلمين وحضارتهم كيانها ، ولو في حالة توقف حضارى ، صان الحضارة من الانحراف في تيار حضارات دخيلة ، وحفظ عليها شخصيتها وسط الانواء والعواصف الفكرية ، حتى تجمع للمسلمين من العزة الذاتية ، ومن عوامل اليقظة الفكرية والروحية ، ما مكن لهم من أن يقفوا على أقدامهم ، قبل أن ينطلقوا قدماً وفق إرادتهم ، وفي هدى من قيمهم الروحية والاجتماعية والحضارية على طريق الغد المرموق .

لقد صاغ المسلمون حياتهم وحضارتهم في ظل الدين الحنيف منذ نزول الإسلام وجددوا هذه الحياة مرة ومرة خلال تاريخهم المتصل ، وهم قادرون بإذن الله على أن يعيدوا صياغة التاريخ في غدهم القريب والبعيد .

خاتمة :

وبعد : فهذا بحث لم يقصد به أن يكون دراسة مفصلة لمقومات الحضارة الإسلامية ، بقدر ما قصد به أن يعطى إشارة إلى أهمية هذا المنحى من الدراسة والبحث ، بالنسبة لماضى الحضارة الإسلامية ومستقبلها . كذلك فإننا لم نحاول أن نضمن هذا البحث تفصيلاً لمظاهر حضارتنا في صورها التي ملأت التاريخ خلال أكثر من أربعة عشر قرناً ، والتي عمرت الأرض وامتد ضياؤها إلى خارج العالم الإسلامى بحدوده الجغرافية المعروفة . ولكننا نأمل أن نكون قد وفقنا لاسترعاء النظر إلى أهمية هذا اللون من الدراسة ، لعل فيما ذكرنا ما يستثير الاهتمام ويدعو إلى مزيد من البحث والاستقصاء ، وإلى توجيه البحث العلمى نحو استجلاء دور الإسلام في بناء حضارة أشرق بها وجه الزمن ، وأشرقت بها حياة الأمة العربية بصفة خاصة ، ولم تكن من أجل المسلمين وحدهم - وإنما كانت كذلك - وستبقى ، من أجل الإنسانية جميعاً .

« ١٢ »

**خطط الإصلاح الإجتماعى والأوضاع
التاريخية والثقافية فى المشرق العربى**

خطط الإصلاح الاجتماعى والأوضاع التاريخية والثقافية فى المشرق العربى

يسير الإصلاح الاجتماعى فى البلاد المتقدمة على أساس دراسة المجتمع ونظمه فى أوضاعها الحالية ، ومحاولة رسم الخطة للإصلاح فى ضوء هذه الدراسة ، ويحاول بعض من يتناولون الإصلاح هناك أن يتبعوا بعض النظم الاجتماعية من حيث تاريخها وتطورها على الزمن وقابليتها للتجديد والإصلاح . ولكن هذا المنحى من الدراسات التى تتصل بالتاريخ الاجتماعى فى بلاد الغرب لا يؤخذ به إلا بقدر محدود . ذلك أن النظم والأوضاع هناك معظمها مستحدث نسبياً ، لا يكاد تاريخه يرجع إلى أكثر من قرون قليلة . بل إن كثيراً من تلك النظم لا يرجع إلى أبعد من عصر النهضة الصناعية الحديثة فى تلك الأقطار . وبعبارة أخرى ليس للنظم الاجتماعية التى يراد تناولها بالإصلاح هناك تاريخ طويل معقد ، فضلاً عن أن أغلبها نظم متجانسة لأنها نشأت فى عصر حضارى واحد .

ويسير المشرق العربى الآن نحو دراسة الأحوال الاجتماعية ومحاولة تناولها بالإصلاح ورسم الخطط العملية لذلك . والاتجاه السائد هو أن نفتى أثر أمم الغرب وأمريكا فى هذا الميدان ، فندرس المجتمع فى أوضاعه ونظمه « الحالية » ، ونرسم خطة الإصلاح فى ضوء الدراسة . ومع ذلك فإن للمشرق ظروفه الخاصة التى تجعل اتباعنا هذه الطريقة واكتفاءنا بدراسة الأحوال الراهنة غير كافيين لرسم خطة حكيمة ومستنيرة للإصلاح الاجتماعى .

وليبيان ذلك نود أن نستعرض بعض ما انتهت إليه الدراسات خلال السنوات الأخيرة . وانصب أغلبها على البحث فى مقومات الحضارة وحياة المجتمع ونشأة نظمها

الأساسية في مصر وبعض بلدان المشرق العربى . وكان طبيعياً أن يتبين من هذه الدراسة أن كثيراً من أوضاعنا ونظمنا الحالية إنما هى تراث الماضي في أدواره المتعاقبة . فأهم المشرق تجمع في حياتها ونظمها القائمة بين الماضي والحاضر ، بل إنها من بعض النواحي تعيش في الماضي بقدر ما تعيش في الحاضر أو في المستقبل . ومع ذلك فإن استمساكنا بالقديم ونظمه ليس معناه بالضرورة أننا محبون للمحافظة على القديم ، وإنما الصحيح أن كثيراً من نظمنا الإجتماعية قد نشأ في بيئاتنا نشأة طبيعية أصيلة ، ولم يكن مستعاراً من الخارج كما هى الحال في غير قليل من النظم الإجتماعية والثقافية والدينية في غرب أوروبا أو في أمريكا . ولما كانت تلك النظم في بلاد المشرق قد نشأت في البيئة وتغلذت بلبانها ، فقد عاشت وعمرت لأنها كانت صالحة للبقاء والتعمير . ولذلك فإن أهل المشرق ، لا سيما جماعاتهم الزراعية في بلد كمصر ، لم يجدوا ضرورة ملحة إلى أن يغيروا كثيراً من تلك النظم . وليس من المقبول أن نفسر استمرار النظم واستقرار الأوضاع وصعوبة تناولها بالأصلاح والتغيير في بلاد المشرق العربى على أنه راجع إلى حب المحافظة على القديم ، فذلك تعليل ، إن صح من بعض نواحيه ، فهو أبسط من أن يفسر ما حدث في تاريخنا الطويل ، وما اكتنف ذلك التاريخ من أحداث جسام ، اهتزت لها وتغيرت بسببها جوانب أخرى من حياة أبناء المشرق . وإذا نحن اتخذنا مصر على سبيل المثال ، فإننا نجد أن من الصعب أن نسلم بأن المجتمع المصرى مجتمع جامد محافظ على القديم ، ونحن نعرف أن المصريين قد غيروا لغتهم التى يتكلمون والتى يكتبون أكثر من مرة خلال تاريخهم ، واستبدلوا بدينهم ديناً آخر مرة أو مرتين ، وجمعوا بين القديم والحديث في كثير من مظاهر حياتهم وألوان ثقافتهم ، واتصلوا بالعالم الخارجى واقتبسوا عن أهله وحضاراته في الشرق والغرب على السواء . بل إن المصريين كانوا مجددين حتى في الجانب المادى والعمل من حياتهم وحضارتهم ، فالزراع المصرى في الحقل جدد أدواته في الزراعة والرى ونوع فيها على مر الزمن ، وجدد أنواع محصولاته فأضاف إليها نباتات جديدة من وقت لآخر ، لاسيما بعد إدخال نظام الرى الدائم وظهور ما يمكن أن نسميه الثروة الزراعية المصرية في القرن التاسع عشر ، كما جدد أنواع الحيوان المستأنس وأضاف إليها ما لم يكن معروفاً من قبل . وكل ذلك قلب نظام العمل والاقتصاد الاجتماعى في الريف والحقل

المصري وكاد يغير معالمه تغييراً شاملاً . وحتى القرية ذاتها قد تغير فيها كثير من الأوضاع ، لا سيما في العهد الحديث . فبعد أن كانت القرى مركزاً متجمعة ، تقام فوق كومات صناعية من التراب يتضافر أفراد المجتمع القروي ويتعاونون في إقامتها والمحافظة عليها لتبقى القرية بمأمن من غوائل الفيضان ، جاء نظام الري الدائم وتضاءل خطر الفيضان وانعدم رى الحياض أو كاد ، فتفرقت القرى وظهرت «العزب» الصغيرة المتناثرة ، ولم تعد بالمجتمع القروي المصري حاجة إلى أن يتضافر أفرادهم ويتعاونوا من أجل إقامة كومات التراب والمحافظة عليها . وبذلك كله تغيرت أوضاع القرية واهتز كيانه كوحدة للمجتمع الريفي في مصر ، وظهرت مشكلات اجتماعية وقومية خطيرة ، هي التي نحاول الآن أن نتناولها بالإصلاح ، ولكن تشخيص الداء فيها يحتاج ولا شك إلى دراسة عميقة في الماضي وفي تاريخنا الاجتماعي الحافل بالتغيرات والأحداث .

ومع ذلك فنحن إذا توسعنا في الدراسة من نطاق مصر الضيق إلى نطاق المشرق العربي عامة ، فإننا نستطيع أن نلمس عدداً من النواحي الأساسية في تاريخ المجتمع أو المجتمعات البشرية في هذا القسم الخطير من العالم القديم . وقد يكون من المفيد أن نشير إلى كل من هذه النواحي إشارة مجملة لتبين مبلغ قيمتها بالنسبة لمن يريد تفهم التاريخ الاجتماعي والثقافي لهذا المشرق ، وقيمة ذلك بالنسبة لرسم خطط الإصلاح الاجتماعي في المستقبل .

وأول ما نلاحظه عن تاريخ المشرق أنه تاريخ طويل ، امتاز بالقدم والاستمرار وإن كانت ظاهرة الاستمرار تختلف من حيث مدى انطباقها على مختلف جهات المشرق العربي ، فهي في مصر واضحة تماماً ، إذ أن المجتمع الريفي مثلاً تابع حياته في القرية وعمله في الحقل والزراعة دون انقطاع خلال فترة تقارب السبعة آلاف سنة ، أي منذ العصر الحجري الحديث ، ولذلك فإن نظمه استقرت وتبلورت على مر الزمن . أما في جهات أخرى من الشرق العربي ومراكز حضارته القديمة كالعراق الأوسط مثلاً فإن ظاهرة الاستمرار لم تكن بمثل ما كانت عليه الحال في مصر ، فالغزوات المختلفة وعهود الأضمحلال كثيراً ما أدت إلى انقطاع الحياة الزراعية المستقرة في بعض جهات العراق . ولذلك فإن التاريخ الاجتماعي للعراق الأوسط لم يكن

مطرداً ولا مستمراً ، وإنما هو قد تشكلت نظمه وتغيرت بعض أوضاعه من عصر لآخر ، مما يجعل الدراسة عسيرة على من يريد أن يرسم خطة للإصلاح في ضوء دراسة تاريخ النظم التي تحكم حياة المجتمع . وهناك مناطق أخرى في المشرق العربي تبين من الأبحاث الحديثة أن نشأة الحياة المستقرة والمدنية لم تكن فيها من القدم بما كانت عليه الحال في مصر أو في العراق ، ولكنها مع ذلك اتسمت باستمرار نظمها واستقرارها وتبلورها في بيئتها المحلية على مرور الزمن . ومن تلك البلاد هضبة اليمن التي تمتعت بترية صالحة ومناخ ممطر مناسب ، فانتقلت إليها القبائل البدوية من قلب الجزيرة ومن الشمال ، ثم استقرت فيها واشتغلت بالزراعة دون انقطاع ، ولكنها مع ذلك احتفظت بغير قليل من نظمها البدوية والرعوية . وقد تتيح دراسة التاريخ الحضارى وتاريخ الاقتصاد الإجتماعى بين قبائل اليمن المستقرة ما يفيد المشتغلين بالإصلاح الإجتماعى ويرسم الخطط فيما يتصل بتوطين القبائل البدوية والانتقال بها من حالة البداوة إلى حالة الاستقرار في جهات أخرى من المشرق العربى في الوقت الحاضر . فتجربة اليمن من هذه الناحية كانت تجربة تاريخية ناجحة ، زواج بها أصحابها بين مجموعتين مختلفتين من النظم في حياة البداوة وحياة الاستقرار . ولا شك أن لنجاحها أسباباً طبيعية وبشرية يحسن الإلمام بها عند التفكير في تجربة مماثلة في بعض جهات المشرق العربى في الحاضر أو في المستقبل .

وثانى ما نلاحظه في تاريخنا الحضارى والثقافى والإجتماعى أنه ، وإن كان تاريخاً مستمراً وحافلاً بالتجديد ، ولو بدرجات تفاوت مداها من منطقة إلى أخرى ، فإن «الجديد» في ذلك التاريخ لم يكن دائماً لينسخ «القديم» . وإنما جمع سكان هذا المشرق العربى في حياتهم المتجددة بين كثير من النظم القديمة والنظم الجديدة التي عاش بعضها إلى جانب بعض . وقد ترتب على ذلك ، وعلى التوفيق بين القديم والجديد ، أن أصبحت نظمنا الإجتماعية في جملتها معقدة بعض التعقيد ، رغم ما قد يبدو من بساطة ظاهرة . بل إن بعض مجتمعات المشرق العربى الحديث ، ومنها مجتمعات المدن في مصر مثلاً ، يعيش فيها أكثر من جيل واحد . فالمجتمع الحالى هنا يأتلف من مجموعة من الأجيال المتعاصرة ، وذلك من حيث النظم ومناحى الفكر والاتجاهات والنزعات بين أفرادها . وقد أدى هذا إلى تفاوت كبير في النظرة إلى الحياة

وغاياتها ووسائلها المشروعة ، مما يعقد مهمة المشرع أو المصلح الاجتماعى ، بل بما قد يجعل نقطة البدء فى أية حركة جديدة للإصلاح فى بلدان المشرق أن نعمل جاهدين للتقريب بين مختلف الأجيال ، التى يعاصر بعضها بعضاً فى الوقت الحاضر ، وفى أغلب بلدان المشرق الحديث ، وذلك حتى يمكن أن نهيء الرأى العام لتلقى رسالة موحدة للإصلاح ، يؤمن بها ، وتعمل فئاته وأفراده على تحقيقها بوسائل متجانسة وبجهود متكاملة . وهكذا يبدو أن المشكلة الإجتماعية فى المشرق العربى ، وإن لم يكن أساسها اختلاف الطبقات وتعددتها كما هى الحال فى جهات أخرى من العالم كالهند مثلاً ، فإن أساسها ذلك التفاوت بين « الأجيال » التى تعيش فى وقت واحد ، ولكن بتقاليد أو بعقليات وثقافات متفاوتة ، ولا شك أن تعميق دراسة مدى ذلك التفاوت وسرعة تجديده ضروريان لتأتى خططنا للإصلاح الاجتماعى متنسقة مع احتياجات هذا المجتمع المعقد التكوين ، ولئن نحن سلكنا هذه السبيل من الدراسة فستتجه خططنا بالضرورة أول ما تتجه نحو الحد من ذلك المدى وتضييقه ، لاسيما فى ميدان الثقافة والتعليم وبث الروح الاجتماعىة السليمة ، وغير ذلك من وسائل التقريب بين « الأجيال » ، على غرار ما يعمل غيرنا فى التقريب بين « الطبقات » .

وهناك أمر ثالث نلاحظه ونسجله فى تاريخنا الطويل . ذلك أن المشرق العربى امتاز بالاتصال الثقافى والحضارى الشامل بين مختلف أجزائه وأقطاره . وكثير من النظم التى نشأت فى إحدى جهاته انتقلت إلى بقية أرجائه . فالبادية كثيراً ما أثرت بنظمها وتشريعاتها فى أرض الحضر والاستقرار . والمناطق الزراعية المستقرة كثيراً ما نفذت منها معالم المدنية وألوان الفكر والثقافة إلى قلب البادية . والجهات الداخلية كثيراً ما طردت عناصرها وسكانها وقذفت بهم إلى السواحل . والسواحل ذاتها كثيراً ما نفذت أهلها إلى جوف الجزيرة العربية ، يمدون الطرق ويمهدون للاتصال ، أو يسعون بالتجارة بين البحار المعتدلة فى الشمال والبحار الدفيئة فى الجنوب . لذلك كله فإن انتقال المؤثرات والنظم من جهة إلى أخرى فى داخل نطاق المشرق العربى كان ظاهرة قديمة متجددة ، قد أثرت فى تاريخنا الاجتماعى وكيفته وطبعته بطابع عام هو الذى يجمع اليوم بين أقطار هذا المشرق ويؤلف منها إقليماً واحداً كبيراً من الوجهتين التاريخية والاجتماعية ، أو الثقافية على أقل تقدير . ولئن فرضت هذه الظاهرة على

المشتغلين بالإصلاح الإجتماعى شيئا ، فلإنها تفرض التعاون فى دراسة تلك التيارات الثقافية والمؤثرات الإجتماعية التى نفذت عبر المشرق العربى من جهة إلى أخرى ، والتى قربت بين أقطاره تقريباً يتحتم معه أن تنسق الخطط عند ما نتناول هذا المشرق ومجتمعاته بالإصلاح . فضلا عن أن هذا المشرق كان على الدوام إقليما تتجاوب فيه الأصداء ، فما من حركة للإصلاح فى أحد أقطاره أو إحدى جهاته إلا وكان لها شىء من الصدى فى الجهة المجاورة أو المقابلة . كان هذا شأن المشرق فى تاريخه القديم والوسيط ، وسيبقى هذا شأنه فيما نحن مقبلون عليه من أيام .

والأمر الرابع والأخير الذى نود أن نسجله عن تاريخنا الإجتماعى والثقافى العام هو أن أقليم المشرق العربى يقع برمته فى قلب العالم القديم ، ويحتل بأقطاره بقعة هامة عند التقاء قارات ثلاث لكل منها مكانتها فى تاريخ البشر ، وعند مفرق بحار تختلف فى أوضاعها وسكانها ، فمنها بحار الشمال التى تقع فى المنطقة المعتدلة وتبدأ بالبحر المتوسط ثم تتجه إلى ماوراءه فى بحار الغرب والشمال . ومنها بحار الجنوب والمنطقة الدفيسة والحارة التى تبدأ بذرعين فى الخليج العربى والبحر الأحمر وتتجه إلى بحر العرب والمحيط الهندى وما وراءه فى أقصى الشرق . ولذلك كله تعرض المشرق العربى فى تاريخه الحافل لتيارات وهجرات ومؤثرات حضارية وثقافية أتته من هضبة ايران وما وراءها من بلاد الهند وتركستان ، ومن هضبة الأناضول وأرمينيا ، ومن البحر المتوسط وجزره وشواطئه اليونانية واللاتينية ، ومن شمال إفريقيا ، أو حتى من قلب إفريقيا السوداء - كما أتت أيضاً فى فترات معينة من بحار العرب الجنوبية وشواطئ المحيط الهندى . وقد أثرت تلك العوامل والتيارات الخارجية فى الشرق العربى بدرجات متفاوتة ، فتركزت فى بعض أطرافه ، ولكنها بلغت فى بعض الأحيان قلب الجزيرة الصحراوى ، ونفذت خلاله من جانب إلى الآخر . وقد يكون مفيداً فيما نحن بصددده أن نميز أهم مناطق الإحتكاك بالخارج ، ومنها العراق الذى اتصل فى تاريخه بهضبة ايران وكردستان وما وراءهما وتأثر بذلك فى نظمه وحياة سكانه تأثيراً أدى إلى تعقيد تاريخه فى أكثر من جانب واحد ، خصوصاً وأنه تلقى مؤثرات كثيرة أخرى عن طريق حدوده الغربية الملاصقة لبادية الشام أو عن طريق الخليج العربى والبحر . ومن مناطق الإحتكاك كذلك ساحل لبنان الذى يصح أن يعتبر من أهم

مناطق الإحتكاك الثقافي وأشدّها طرافة بالنسبة للباحث . ففى هذه الشقة الجبلية الساحلية التقت حضارات البر وحضارات البحر ، وزاوج أهل هذا الساحل والجبل بين ألوان مختلفة من الثقافة بل ومن النظم . وظهر أثر ذلك التزاوج منذ أيام الفينيقيين الذين اتخذوا من هذا الساحل ومرافئه الصالحة مقراً وقاعدة نشروا منها ثقافة الشرق إلى الغرب ، ونقلوا إليها بعض ما كسبوا من إحتكاكهم التجارى والفكرى . كذلك تلقى هذا الساحل غير قليل من مؤثرات الفكر الأغريقى ثم الفكر اللاتيني بعد ذلك إلى جانب ما كان يتلقا دائماً من ظهيره الإقليمى فى داخل أرض سورية والجزيرة ، بل وما كان يتلقاه من وقت لآخر من هضبة الأناضول وبلاد الحثيين القدماء فى الشمال . لذلك كله كان لبنان مثالا للجمع بين المؤثرات الثقافية والتوفيق بينها ، على نحو يعتبر أنموذجاً لما تسعى إليها الإنسانية من مزاجية بين ألوان الفكر البشرى . ولكن ترتب على ذلك أن أصبح هذا البلد على صغر حجمه جامعاً من حيث نظمه الإجتماعية واتجاهاته الثقافية ، ومن حيث تنوع ألوان الفكر ومذاهب الطوائف . ولا شك أن هذا مما يجعل أمر الدراسة التاريخية معقداً وعسيراً ، ولكن نجاح ما قد تتكشف عنه تلك الدراسة من خطط الإصلاح قد يكون فى لبنان أكثر ضماناً منه فى غيره من البلاد ، ذلك أن أهله قد طبعوا بحكم صلاتهم الواسعة على رحابة الفكر واتساع الأفق والاستعداد للأخذ بوسائل التجديد .

ومثال آخر من مناطق الإحتكاك الثقافى والإجتماعى فى المشرق العربى هو مصر، أرض الزاوية التى التقى عندها اليابس وافترق الماء . وقد قام تاريخ مصر الطويل على الأخذ والعطاء ، فتأثرت بالعالم المجاور بل والعالم البعيد وأثرت فيها ، وظهرت المؤثرات الخارجية فى مصر وتركزت فى بعض جهاتها على وجه الخصوص . فعلى حافات الدلتا مثلاً التقت نظم البداوة ونظم الإستقرار ، وعلى الساحل الشمالى ظهرت المؤثرات البحرية التى بدأت بالأنصال بالعالم الأغريقى ، ثم تجددت فى العهد الحديث بالأنصال بالعالم الأوروبى ، وتسربت تلك المؤثرات من الساحل إلى الداخل لاسيما فى المدن حيث التقت ثقافة الغرب بثقافة الشرق . وحتى الريف المصرى الذى يبدو لأول وهلة بعيداً عن المؤثرات الأجنبية لم يكن فى يوم من الأيام بمعزل عن تلك المؤثرات ، حتى فى أيام الإغريق والرومان . وها هو قد أخذ يشارك

الآن في تلقى مؤثرات التجديد والإحتكاك بالعالم الخارجى لإحتكاكا يمس حياة الريفيين وفكرهم مساساً بالغاً وعميقاً من بعض الوجوه - وظاهر أن دراسة مثل هذه المؤثرات في المجتمع المصرى لا تقل أهمية عن دراسة الأسس والمقومات الأصيلة في البيئة المصرية ، وما كان لها من أثر في طبع الحياة والحضارة في مصر بطابعها الخاص الذى ميزهما على مر الأيام .

تلك كلها أمور ومسائل عامة نلاحظها في تاريخ المشرق العربى ومختلف أقطاره . وهناك مسائل أخرى عديدة نستطيع أن نجرى في سردها وتتبعها ، ولكنها كلها تشهد بأن « الحاضر » في هذا المشرق لا يمكن أن ينفصل عن « الماضى » ، وبأن دراسة هذا الحاضر ونظمه دراسة عميقة لا يمكن أن تتم ولا أن تثمر إلا إذا عدنا بتلك النظم إلى أصولها الأولى ، وعند ذلك تتكشف لنا الأوضاع الصحيحة لتلك النظم ، فنقبل على رسم خطط الإصلاح عن بصيرة ونور . ومع ذلك فيحسن بنا أن نسجل هنا نتيجة مبدئية وصلت إليها تلك الدراسات لاسيما في مصر وبعض جهات العراق ، وهى نتيجة قابلة لشيء من التعديل بعد أن تتسع الدراسة وتزداد عميقاً ، ولكنها على كل حال تنير السبيل أمامنا إذا نحن أردنا أن يحىء رسمنا لخطة الإصلاح متمشياً مع الأوضاع التاريخية والثقافية في بلدان المشرق العربى وفي بلد كمصر أو كالعراق بالذات .

وهذه النتيجة هى أن دراسة تاريخنا الإجتماعى والثقافى تتيح لنا أن نميز في خطط الإصلاح بين ما يتناول منها النظم « الأصيلة » في البيئة المصرية ، وما يتناول النظم « الدخيلة » عليها . فبعض النظم الإجتماعية في مصر أصيل في بيئتها الطبيعية ، فيها نشأ وعلى مقوماتها استند وعاش خلال العصور . ومثل هذه النظم عريق في القدم ، وقد يرجع بعضها إلى أعصر ما قبل التاريخ . ومن ذلك ما يتصل بالحياة الريفية وأوضاعها القروية ، ومنها ما يتصل حتى بالمدن وحياة مجتمعاتها المدنية . وإذا نحن درسنا فترات التحول الإجتماعى في تاريخنا المصرى الطويل فسنجد أن مثل هذه النظم الأصيلة لا تقبل التحوير والتغيير إلا في رفق وفي حدود معينة ، وهى على كل حال لاترضخ للتحول السريع ولا للثورة العنيفة . ولذلك ينبغى أن نرسم الخطط لياتى إصلاحها عن طريق التطور البطيء والتقويم الرفيق ، فضلاً عن أن بعضها قد يمثل

مصدراً من مصادر القوة والحيوية في حياة المجتمع ، مما يحسن معه الاحتفاظ به أو بعثه وتقويته إن كان قد جرى عليه الزمن ، فالإصلاح كثيراً ما يقوم على إعادة البناء بمثل ما يقوم عن الإنشاء والتجديد .

ومن أمثلة هذه النظم الأصلية ما أشرنا إليه من روح التضامن والتعاون بين سكان القرية المصرية التى نشأت في الأصل على كومة من التراب يتعاون أهل القرية جميعاً على رفعها فوق مستوى الفيضان ، كما يتعاونون في المحافظة عليها وإقامة الجسور حول حياض الزراعة من حولها وترتيب المواصلات المائية بين القرية وما جاورها إبان ارتفاع ماء الفيضان وغير ذلك من المرافق التعاونية التى عاشت بها القرية المصرية على الزمن آلاف السنين . وعندما جاء الرى الدائم وحل محل رى الحياض تغيرت الأوضاع ، ولم تعد هناك حاجة إلى أن تقام القرية في مستوى أعلى من مستوى الأرض الزراعية ، بل لم تعد هناك حاجة إلى أن يتجمع السكان في قرى كبيرة ، وظهر نظام «العزب» الصغيرة المتفرقة التى أشرنا إليها من قبل . وبذلك كله دخلت القرية المصرية الكبيرة في دور من الانحلال يرجع في أصله إلى زوال الدافع الأصلي إلى التعاون والتكاتف والتماسك بين سكان القرية الواحدة ، فانحلت الروابط وتضعضع نظام الإدارة القروية وطغت الإدارة المركزية العامة عليه ، وظهرت على الجملة مشكلة إجتماعية هى من أعصب ما تعرض له ريف مصر خلال تاريخه الطويل . وقد يكون طريق الإصلاح ، إذا ما نحن فهمنا علة الداء على هذا الوجه ، أن نعود إلى القرية فنحوضها عما فقدت من دوافع التعاون ، ونضع مشروعات قروية تدفع بأهل القرية الواحدة إلى التضامن والترابط والعمل المشترك في إقامة مركز إجتماعى للقرية مثلاً أو في ردم البرك إن وجدت أو تحقيق مشروعات قروية مشتركة أو نحو ذلك . ويكون انجاز هذه الأعمال بمثابة وازع إلى الوحدة يقوم مقام ذلك الوازع الذى اختفى وتوارى بدخول نظام الرى الدائم إلى مصر .

ثم مثال آخر للنظم الأصلية العريقة التى يصعب تغييرها تغييراً شاملاً وسريعاً ، والتى تخفق في وجهها التشريعات والقوانين المستحدثة مهما اشتدت . تلك هى العادات الجنائزية التى ترجع في مصر إلى العهد الفرعونى أو حتى إلى ما سبقه من عهد ما قبل الأسرات . ولقد حاول المصلحون أن يتناولوها عن طريق التشريع

العنيف فلم ينجحوا في ذلك الا بقدر يسير . ولعل من الطريف أن نذكر أن القضاء على هذه العادات الجنائزية لم يبلغ غاية النجاح حتى بين الفئة المثقفة والمستنيرة استنارة عالية في مصر . وغاية ما حدث أن تلك العادات قد اتخذت صورة مخففة ومهذبة ، فصارت نعيًا يطول في الجرائد على نحو لا يكاد يكون له مثيل في غير صحف مصر ، أو انقلبت إلى حفلات تأبين طويلة ومؤثرة ، هي في واقع الأمر استمرار معدل للعادات الجنائزية التي جرى عليها شعب مصر خلال العصور .

كل هذا عن النظم الأصيلة في البيئة المصرية . ولكن هناك نظماً أخرى كانت دخيلة عليها ومستعارة من الخارج . وهذه إنما دخلت مصر في أوقات مختلفة ، وكثيراً ما حل بعضها محل بعض . وإذا نحن رجعنا إلى فترات التحول في تاريخنا المصري ، فنانا نجد أن هذه النظم الدخيلة كان يسهل على المجتمع دائماً أن يغيرها أو أن يستبدل بعضها ببعض . ولذلك فإننا نستطيع ، إذ نرسم خطط الإصلاح الحديث ، أن نتناوّلها بالتجديد واثقين أن المجتمع يتقبل ذلك دون غضاضة أو ممانعة . وقد يكفي أن نذكر هنا من أمثلة هذه النظم حجاب المرأة ، فهو غريب عن البيئة المصرية ، ويكاد ألا يكون له أثر في البيئة الريفية . فلما بدأت حركة الإصلاح من هذه الناحية نجحت ، وكان نجاحها في صورة سريعة ظاهرة ، تكاد تشبه الثورة من بعض الوجوه . وكذلك الحال في بعض النظم المصرية المستحدثة ، فهي كلها يمكن التحوير والتعديل فيها في صور شاملة سريعة .

ولكننا قبل أن نختم يصح أن نشير إلى أمثلة أخرى من بلد كالعراق . وقد تبين من الدراسة المبدئية أن النظم الأصيلة في العراق ، على العكس من مصر ، قليلة نسبياً ، ولا تتمثل بوجه غالب إلا في بعض بقاع العراق الأدنى ، في أرض سومر القديمة وفي بلاد المستنقعات التي يصعب التوغل فيها واقتحامها بجماعات ونظم جديدة من الخارج . أما باقي العراق فتكاد تغلب عليه النظم الدخيلة والمستعارة من المناطق المجاورة . وربما كان مرجع ذلك إلى أن العراق يختلف عن مصر في أن الجهات المحيطة به ليست صحراوية قاحلة قليلة السكان كما هي الحال في صحارى مصر ، وإنما هي مناطق رعاة خرجت منها الهجرات بكثرة ، واستوطن أهلها بلاد العراق في موجات متلاحقة . ولكن الشيء الطريف أن مصادر الهجرة إلى العراق

متعددة . فهناك بادية الشام وبلاد العرب وأهلها من الساميين في ثقافتهم ونظمهم الاجتماعية ، وهناك هضبة كردستان في الشمال وأهلها لهم ثقافتهم وحياتهم الخاصة ، ثم هناك هضبة إيران في الشرق وأهلها نظمهم وتقاليدهم وتاريخهم الخاص . ولذلك فإن من يريد تتبع نظم العراق الدخيلة ، ومن يريد بصفة خاصة دراسة حياة القبائل البدوية والمستقرة استقراراً جزئياً ، سيجد أنها نظم متباينة بحسب الجهة التي نزحت منها كل قبيلة . ولا يمكن أن يتناول المصلح الاجتماعي مثل هذه النظم عن طريق وضع تشريعات عامة وشاملة تنطبق على جميع هذه الألوان من النظم القبلية في العراق . ولذلك كله فإن تجربة تحضير البدو وتوطينهم واستقرارهم تحتاج إلى دراسة وافية ومحلية لكل جهة يراد أن يتناولها الإصلاح في أرض العراق ، خارج المنطقة التي استقر بها السكان منذ أمد بعيد .

تلك كلها أمثلة ومختارات أردنا بها أن نكشف عن أهمية هذا الاتجاه الخاص في دراسة المجتمع قبل أن نعالج مشكلاته الاجتماعية أو نتصدى لتناولها بالإصلاح . وقد تبين لنا ، فيما أرجو ، كيف أن دراسة التاريخ الاجتماعي والحضاري العام للمجتمع في منطقة كالمشرق العربي هي ضرورية لفهم مايسوده الآن من نظم ، بعضها صالح وقوى ، وبعضها الآخر يكاد يتصدع أمام ضغط الأحداث وتطورها في عهدنا الحديث . وظاهر أن دراسة المجتمع وأوضاعه التاريخية تعيننا في الحالة الراهنة من جهة ، وفي رسم خطط الإصلاح على أساس من الإستئارة والتوجيه السليم من جهة ثانية . ذلك أن تلك الدراسة ترد النظم إلى أصولها وتثير السبيل أمامنا ، لاسيما إذا ما نحن عنيينا بدراسة فترات التحول والتغير الاجتماعي في الشرق وتاريخه . فقد لا تختلف حالنا الآن عما مر به الشرق في بعض أدواره من تحول وتغير أمام اختلاف الظروف وضغط العوامل الخارجية التي أتته من العالم المجاور في أحيان كثيرة ، والتي أتته حتى من العالم البعيد في بعض الأحيان .

إن محاولة الإصلاح الاجتماعي أمر خطير لا يجوز أن يكتفى فيه بمجرد النقل عن الغير ، أو الدراسة العارضة التي تتناول المظاهر والأعراض دون العلل والأسباب . وليس يكفي في بلدان المشرق أن ندرس الحالة الراهنة ثم نضع الخطة لإصلاحها ، لأننا في هذه الحالة قد لا نتعدى القشرة إلى النواة ، وقد ينتهي الأمر إلى نكسة

تضعضع الأمل عند من يقومون على الإصلاح وتضعف الثقة عند من توضع الخطط لخدمتهم وإصلاح حالهم . ولذلك فقد لا يكون كثيراً أن نطالب في المشرق بضرورة الأهتمام بدراسة الأوضاع التاريخية والثقافية لنظمنا الإجتماعية القديمة والمستحدثة ، وأن تكون تلك الدراسة أساساً لما يوضع للإصلاح من خطط .

« ١٣ »

تاريخ يعيد نفسه في منطقة شرق
نهر الأردن

تاريخ يعيد نفسه في منطقة شرق نهر الأردن

يتفق الجغرافيون والمؤرخون فيما بينهم على كثير من الأشياء ولكنهم يختلفون على أمر واحد خطير ، يتصل بتقدير ما بين الإنسان والبيئة من علاقة ، وبتفسير حوادث التاريخ واتجاهاته الأساسية . فهل البيئة الجغرافية بمظاهرها المختلفة هي المسئولة الأولى عن توجيه نشاط الإنسان ، أو تحديد مجرى التاريخ ، أو اتجاهاته ؟ أم إن الإنسان ، فردًا كان أو جماعة ، هو سيد الطبيعة ، والمسيطر الأول على الحوادث والتاريخ . وأصحاب الجغرافيا مهما اختلفت نزعاتهم مبالغون بحكم دراساتهم إلى تغليب أثر البيئة ، بل يذهب بعضهم إلى إقرار ما يسمونه « بالهتيم الجغرافي » ، فالجماعات البشرية في نظرهم مسيرة بحكم ما تعيش فيه من ظروف طبيعية ؛ والإنسان مهما كدح ومهما اجتهد فإن الطبيعة هي الغالبة . ولئن كان هذا الإنسان قد استطاع أن يحوّر بعض مظاهر الطبيعة بين حين وحين ، فإن ذلك التحوير لم يخرج بها عن قواعد الثابتة وقوانينها الحاكمة . وغاية ما هنالك أن الإنسان استطاع بذلك أن يستغل موارد الطبيعة الصالحة ، فبدأ كأنه المتحكم فيها ؛ مع أن الأمر قد يكون غير ذلك ؛ فالطبيعة ذاتها كثيرًا ما توحى إلى الإنسان طريق الاستغلال ، فتوجهه من حيث لا يشعر .

وأما أصحاب التاريخ فيندر بينهم من يبدأ بالبيئة ، أو يسلم لها بأكثر من تأثير ثانوى . وكثرتهم تفضل بحكم الدراسة أيضًا ، أن تبدأ بالإنسان على أنه كائن حر التصرف ، في حدود ما تقضى به القوانين والنظم الوضعية ، أى التى تواضع عليها الناس . بل إن حوادث التاريخ في نظر كثير من هؤلاء المؤرخين إنما ترتبط ارتباطًا مباشرًا بأعمال الناس ، التى توجهها فى الغالب إرادة نفر قليل هم قادة المجتمع وكتّاب التاريخ .

ولكن الحق أن هذا الاختلاف بين الجغرافيين والمؤرخين لا يشملهم جميعًا ؛ وإنما

هناك فئة من أولئك وهؤلاء ترى في هذا الاختلاف لوناً من ألوان التعصب الفكرى لأمسوخ له ، ولا نفع فيه ؛ بل هو يناقض ما تقضى به روح العلم الصحيح من اتساع الأفق ورحابة الفكر ، ومن الاستعداد دواماً للأخذ والعطاء وتقليب الفكر بين الإقناع والاقتناع . وليس أضر على العلم والمتعلمين ، ولا أشر على البحث والباحثين ، من ضيق الفكر والتعصب لرأى معين أو مجموعة معينة من الآراء . ومن يدرينا فقد تكون التفرقة بين الإنسان والبيئة في حد ذاتها أمراً لا مسوخ له ؛ بل قد يكون الفصل بينهما وهما لا وجود له في الواقع . فالإنسان عنصر أساسى من عناصر البيئة بمعناها الأشمل ، وبدونه لا تكتمل صورتها العامة ، ولا يكون للحياة على سطح الأرض طابعها المميز من وجهة نظر الجغرافى والمؤرخ على السواء . وليس من الممكن عقلاً أن نتصور تاريخاً يجرى في الطبيعة لو أنها عقلت من الإنسان ، ولا أن نتخيل أن الإنسان يستطيع أن يخلق تاريخاً لو أنه عاش في الفضاء . وإذن فقد يكون عبثاً أن نفصل بين الاثنين ، أو حتى أن نحاول المفاضلة بينهما ؛ فقد تكون الطبيعة هى العنصر الغالب في مكان ما ، وفي زمان معين ، فيجرى النشاط البشرى في حدود معينة مرسومة ؛ أو قد يكون الإنسان هو العامل الأول فيستغل الطبيعة حيناً ، ويستجيب لها بمحض إرادته حيناً آخر . ولكن الشئ المهم أن النشاط البشرى في جملة إنما هو نتيجة لما يتم بين البيئة والإنسان من تفاعل ، لا يهم فيه كثيراً أن تكون الطبيعة موجبة والإنسان سالباً ، أو أن يكون الأمر عكس ذلك .

وإذا نحن نظرنا إلى تاريخ البشر هذه النظرة ، فقد يعيننا ذلك على تلمس ما قد يكون هناك من حقيقة في الحجة القائلة بأن التاريخ يعيد نفسه . ذلك أن التفاعل بين البيئة والإنسان مهما اختلفت ظروفه التفصيلية فهو لا يخلو من بعض العناصر الأساسية الدائمة . فطبيعة البيئة الجغرافية من جهة ، وطبيعة النفس البشرية من جهة أخرى ، لا تتطور إلا في ببطء شديد ، ولا تتحول إلا بقدر معلوم ؛ وإذن فلا بد من أن تتشابه نتائج التفاعلات بينهما من عصر إلى آخر ، في المكان الواحد والمجتمع الواحد على الأقل .

وبقدر ما يطول التاريخ البشرى في إقليم ما ، تتعدد الأدلة والشواهد فيه على تشابه الحوادث وتكرارها على مر العصور . وظاهر أن الشرق الأدنى أحد تلك

الأقاليم التي يطول فيها التاريخ . وقد يكفيننا أن نبحث منه منطقة واحدة صغيرة لتبين تشابه بعض أوجه التاريخ وصوره من عصر إلى عصر . وسنختار إحدى مناطقه الداخلية ، والتي كانت بمثابة حلقة اتصال بين أطرافه في الشرق والغرب وفي الشمال والجنوب تلك هي المنطقة الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن ، التي كان تاريخها إلى حد بعيد صورة واضحة من تاريخ الاتصال بين مختلف أجزاء ذلك الشرق ، وارتباطها بعضها ببعض ارتباطاً شمل نواحي الحياة التجارية والثقافية والسياسية جميعاً .

وتقع منطقة شرق الأردن في قلب القسم الشمالي من الشرق الأدنى ؛ وتحتل الحافة الشرقية لمنخفض البحر الميت ، وهي مرتفعات مؤاب الوسطى ، وما يليها جنوباً في بلاد إدموم القديمة ووادي العرابة ، وشمالاً في شعاب اليرموك وروافده التي تنتهي إلى سهل الأردن . ويبلغ بعض مرتفعات مؤاب أكثر من ١٥٠٠ متر فوق سطح البحر ؛ وهي تتلقى الرياح الغربية الممطرة في الشتاء ، فتتصرف مياهاً في أودية عميقة شديدة الانحدار نحو البحر الميت من جهة ، وفي أودية أخرى قليلة الانحدار ، تتجه نحو بادية الشام وأطراف صحراء النفود من جهة أخرى . وهذه المرتفعات تكسو جوانبها الخضرة والأعشاب في أشهر الشتاء والربيع ؛ وتجدو في أوديتها وأحواضها التربة ، ويطيب الغرس والزرع ولو في بقاع محدودة بالنسبة للمساحة الكلية . ولذلك كانت هذه المرتفعات قاعدة حياة تمثل فيها جانب البداوة والتنقل ، وجانب التحضر والاستقرار . وقد حماها البحر الميت ومنخفضه ؛ فمنع عنها ما وقعت فيه أرض فلسطين من اضطرابات شغلت التاريخ إلا أقله ، كما حماها البادية والفيافي من الشرق ، فتمت لها بذلك الوقاية ، وضمن لها الهدوء النسبي من الغرب والشرق . ومع ذلك فقد اتصلت هذه المرتفعات ببقية الشرق الأدنى اتصالاً منتظماً عن طريق الجنوب والشمال ؛ وأصابتها من ذلك الاتصال خير كثير وشر غير قليل . بل إن موقعها الجغرافي جعل منها عقدة التقت عندها روابط الشرق ، وتعاقدت أواصره ؛ واحتكت فيها البادية بالحضر احتكاكاً لم يخل من عنف في بعض الأحيان ، ولكنه مع ذلك أنتج أطيب الثمرات .

وللى الجنوب من مرتفعات شرق الأردن ووهاده تأتى الطرق من نواح متفرقة ؛

فيأتي طريق من الخليج العربي وشمال نجد والجوف ودومة الجندل ، ويأتي طريق آخر من اليمن والحجاز وعين صالح وجبال مدين في شمال الحجاز (وهو طريق رحلة الشتاء والصيف في الجاهلية وطريق الحج بعد ذلك) ، ثم طريق ثالث من البحر الأحمر ورأس خليج العقبة حيث قام ميناء أيلة القديم وحيث تقوم العقبة الآن ، ويأتي طريق رابع من مصر وشبه جزيرة سيناء أو من ميناء غزة إلى أطراف فلسطين الجنوبية ثم وادي عرابة وأرض بطرا والنبط القدماء . أما من شمال مرتفعات شرق الأردن فيأتي طريق من العراق الأوسط وبادية الشام إلى اليرموك وشمال مؤاب ، وطريق آخر من العراق الأعلى وتدمر إلى دمشق وعمّان ، وطريق ثالث من سورية الشمالية وحلب وحمص إلى دمشق وأرض حوران ثم الجنوب ، وطريق رابع من شمال فلسطين عبر الأردن حتى يلتقي بطريق الشام ويمتد إما جنوباً وإما شرقاً وإما صوب الشمال . وهذه الطرق التي أسلفنا جميعاً يلاقى بعضها بعضاً ، أو تتقاطع على الأقل ، في أراضي شرق الأردن . وقد سلكها التجار وحداة الإبل منذ أقدم العصور ؛ وجاء هؤلاء التجار من جميع أطراف الشرق الأدنى يحملون السلع ويجمعون في الأسواق ، فيتبادلون الفكر وألوان الثقافة ، وبذلك تعارف الشرق وتآلف في كثير من الأحيان . كذلك سلكت الغزوات والحملات هذه الطرق ذاتها ، وهي التي قامت عليها الحاميات ، وأقيمت فوق روابيها القلاع ، تشرف على الطرق وتحمي المسافرين وتنظم اتصال البادية بال حضر ، واحتكاك الرعاة والبدو بوسطاء التجارة والقائمين على نقط التبادل والأسواق .

وهكذا كانت الأرض شرق نهر الأردن موقع اتصال واحتكاك منذ القدم ، واستمرت كذلك على مر العصور . نفذت إليها السلطة المصرية من وقت إلى آخر ، وامتد إليها النفوذ العراقي أحياناً أخرى ، وحاول أهل الشام وأهل فلسطين الشمالية وما وراءهما أن يفرضوا سلطانهم عليها بين حين وحين ، بل إن أهل جنوب بلاد العرب والحجاز توسعوا في أطرافها الجنوبية واستقر بهم المقام في أكثر من مكان هناك . ولم يكن الأمر مقصوراً على هذه العناصر جميعاً ، وإنما امتدت الأيدي إلى شرق الأردن من أقاصي الأرض ، لأنه كان عقدة الشرق الأدنى ورباطه من الناحية العسكرية ، فنفذت إليه جحافل الرومان وأقامت حامياتها وعبدت طرقها في ربوعه ،

ثم اهتمت به بيزنطة فتدخلت في شؤونه العسكرية والسياسية إلى أبعد الحدود . ثم جاء عهد صارت فيه شؤون هذا الإقليم إلى أهله وسادته من أمويين وغيرهم . حتى إذا جاء الصليبيون من جديد إلى بعض قلاعهم فأقاموا بها ، وكانت حامياتهم هناك شوكة في جنب العرب والمسلمين . فإذا ماجاء الأتراك العثمانيون اهتموا بأمره كطريق للحج ومنفذ إلى الأرض المقدسة . وأخيراً جاءت الإمبراطورية البريطانية ، فاتخذت رسلها ومبعوثيها إبان الحرب العالمية الأولى قيادتهم في فيافي هذا الإقليم الداخلي . وانتهى الأمر في أعقاب تلك الحرب بأن حصلت بريطانيا على حق الانتداب على هذه المنطقة العسكرية الهامة ، التي غدت قاعدة حربية من الدرجة الأولى ، وقد برزت أهميتها بل تضاعفت إبان الحرب العالمية الثانية .

ولن نستطيع هنا أن نسوق أكثر من أمثلة محدودة تبرز لنا قيمة هذه المنطقة من مناطق المشرق العربي ، تبين لنا كيف أن التاريخ قد استعاد في عهده الحديث بعض صوره واتجاهاته الأساسية في بعض أعصره القديمة . ولم يكن ذلك إلا لأن قيمة هذه المنطقة كواسطة اتصال ونقطة سيطرة على طرق الشرق الأدنى وعلى منافذ أقطاره المختلفة كانت قيمة دائمة لا طارئة ، وكانت عاملاً أساسياً باقياً ، أفاد منه واستجاب له سكان المنطقة نفسها ، كما أفاد منه واستغله كثير من الطامعين في السيطرة العالمية ، ومن امتدت أيديهم إلى الشرق الأدنى في تاريخه القديم وتاريخه الحديث على حد سواء .

وقد يكفينا في هذا الصدد أن نعننى عناية خاصة بالموازنة بين عهد الإمبراطورية الرومانية وعهد الإمبراطورية البريطانية . فكلتا الإمبراطوريتين كانت لها يد أي يد في تصريف شؤون الشرق الأدنى وتوجيه تاريخه . وكلتا الإمبراطوريتين كانت لها مصالح مادية فيما وراء ذلك الإقليم ذات اليمين وذات الشمال . وكلتاها لم تقنع بأن تكل أمر الوساطة التجارية بين المشرق والغرب إلى العرب وغيرهم من سكان هذا المشرق ، وإنما فرضت نفسها وسلطانها عليهم فرضاً ، وتدخلت في شؤونهم بما يضمن لتجارها الشرقية مروراً آمناً ورواجاً مضموناً . وإذا كان التاريخ قد استعاد بعض فصوله في هذا الإقليم بين هذين العهدين المتباعدين ، فإن ذلك لم يكن لمجرد المصادفة أو محض الاتفاق ، وإنما هو قد ترتب على إجتاع عدد من الظروف والعوامل الطبيعية والبشرية الواحدة أو المتماثلة في الحالتين .

ولكننا قبل أن نصل إلى الإمبراطورية الرومانية ينبغي أن نشير إلى من سبق الرومان في منطقة شرق الأردن ، أو في جانب كبير منها على الأقل . أولئك الأنباط أو النبط الذين ازدهرت حضارتهم خلال ستة قرون ، كان أعظمها ازدهاراً ذلك القرن الذي يتوسطه مولد المسيح عليه السلام . وكانت قاعدة ملكهم في سلاع أو بطراء التي تقع على الحافة الشرقية لودى العرابة ، والتي لا تزال آثارها باقية منحوتة في الصخور الرملية الوردية اللون ؛ وهي التي أشارت إلى أصحابها بعض آيات القرآن الكريم . وكانت البطراء هذه عند ملتقى عدد من طرق التجارة التي أشرنا إليها من قبل ، فكانت سوقاً هامة أفاد أصحابها من التجارة والوساطة التجارية في الشرق ، وأصابهم من اتصالهم بالعالم الخارجى خير كثير ، تمثل في تلك الحياة الثقافية والفنية الراقية التي امتازت بها مدينتهم العتيقة ، حيث انعكست في بيوتها المنحوتة مؤثرات الفن الآشورى والفن المصرى البطلمى والفن الإغريقى ، بل حيث تأثرت الحياة العامة فيها بضروب مختلفة من المدنية المادية والتنظيم الاجتماعى ، وبألوان متباينة من الثقافة العقلية والفكر الدينى ، بعضها سامى خالص توارثه النبط عن أسلافهم من الساميين القدماء في بادية بلاد العرب نفسها ، وبعضها سامى غير خالص أخذوه عن الآشوريين في الشمال وعن السبئيين والحميريين في أقصى الجنوب وفي مستعمرة عين صالح في شمال الحجاز ، ثم بعضها مصرى قديم أو بطلمى مختلط ، وأخيراً بعضها إغريقى أو إغريقى روماني أتى عن طريق شرق البحر المتوسط . ومع ذلك كله فإن اختلاط المدنية والفكر والثقافة لا يجوز أن يتقص شيئاً من قيمة حضارة النبط ؛ لأن الواقع أن شرق الأردن كان بحكم موقعه النقطة الوحيدة التي يمكن أن تلتقى فيها تيارات الثقافة المختلفة . وقد أثمر هذا الاختلاط ثمراته الطيبة ؛ وكانت ثقافة النبط وكتابتهم على وجه الخصوص أساساً من أسس الثقافة العربية والكتابة العربية التي ظهرت فيما بعد . والثابت الآن أن الخط العربى المعروف قد تطور عن الخط النبطى القديم .

وعندما ظهرت أطماع الإمبراطورية الرومانية في الشرق القريب ، واقرنت تلك الأطماع بمصالحها التجارية في الهند ، ومصالحها الأخرى في بلاد الشرق الوسيط ، لم يقتنع أباطرة روما بأن تكون لهم قدم راسخة في مصر وشمال البحر الأحمر ، وإنما أدركوا أن حماية المصالح حماية كاملة تقتضى أن تمتد يدهم إلى شرق البحر المتوسط

وشمال بلاد العرب ، ليضمنوا السيطرة على طرق القوافل ويؤمنوها للمسافرين من جهة ، وليمدوا أيديهم من هناك إلى رأس الخليج العربى ويشرفوا على بعض موانيه من جهة أخرى - والخليج العربى كان إذ ذاك ، كما هو اليوم ، أحد الطرق المؤدية إلى الهند ، بلاد الثروة والغنى ، ومورد كثير من النفائس والطيبات ! - وهكذا استقر رأى تراجان إمبراطور روما على أن يضع يده على مملكة النبط ؛ فغزا بلادهم فى عام ١٠٦ الميلادى ، واستولى على عاصمتهم ثم على مينائهم فى أيلة ؛ ومد يده آخر الأمر إلى طرف الخليج العربى .

وتحولت بلاد شرق الأردن إلى ولاية رومانية ؛ وبقيت كذلك ، أو فيما يشبه ذلك ، بضعة قرون . وعنى الرومان بشأنها خاصة ؛ لأنهم أدركوا قيمتها العسكرية والتجارية إدراكًا كاملاً صحيحًا . وقد وطدوا نفوذهم فيها وحافظوا على سيطرتهم عليها بعدة وسائل : منها أنهم أقاموا الحاميات القوية فى عدد من مواقعها الهامة ، حيث بنوا القلاع والثكنات ، وشيدوا الهياكل والملاعب وغيرها مما لا يزال قائماً فى جرش شمال عمان ، وفى فيلادلفيا وهى عمان نفسها ، ثم فى بترا وهى سلاع أو البطراء التى تعرف الآن بوادى موسى . ومن وسائل الرومان أيضاً أنهم مدوا الطرق الرومانية المعبدة والمرصوفة رصفاً جيداً يسمح بمرور العربات الحربية وانتقال الجند ونقل العتاد وغير ذلك ، ولا تزال بقايا تلك الطرق قائمة حتى اليوم . ومنها أنهم جندوا الأعراب والبدو ، واتخذوا منهم جنوداً مرتزقة ، هم أقدر على العمل ، وأقوى فى الحرب وأعمال الحراسة وحملات التأديب فى البادية من جنود الإمبراطورية غير الأعراب . ومنها أنهم شجعوا حياة الحضر المستقرة على حساب حياة البادية المتنقلة ، فحفروا الآبار وبنوا الصهاريج ، وشجعوا الملكية الصغيرة ، فاستوطن البدو ، وبنوا بيوت الحجر الشائبة بدلاً من بيوت الشعر المنقولة ؛ فسهل بذلك حكمهم ، وسلس قيادهم . ثم منها كذلك ، وقبل ذلك ، تشجيع الرومان لعناصر « التمدن » واللوان الثقافة الجديدة فى أن تتوغل فى حياة الأعراب ، لا سيما بعد أن اعترفت الإمبراطورية بالمسيحية فى القرن الرابع ، فانتشرت هذه الديانة بين أعراب البادية تدريجياً منذ أواخر ذلك القرن ، وانتشر معها شئ من روح المسالمة بين أعراب كان كفرهم من قبل منكراً ، وكان مراسهم شديداً . كل هذه وغيرها وسائل عمد إليها الرومان

الغربيون والبيزنطيون الشرقيون من بعدهم لضمان سيطرتهم على هذا القسم من بلاد العرب . ولكن الشيء الغريب - أو لعله ليس غريباً - أنها كلها تذكرنا ببعض ما اتبعته الإمبراطورية البريطانية في الإقليم نفسه من مسالمة للبدو كان القصد منها أن تؤدي إلى غاية رمى إلى مثلها الرومان منذ قرون وقرون .

ولكن الرومان لم يلبشوا أن أدركوا أنهم لن يستطيعوا أن يشابروا على حكم البلاد كولاية رومانية ، وأنه خير لهم وأبقى أن يستعينوا بالبدو أنفسهم وبسادتهم في حكم البلاد . وهكذا صالح الروم القبائل ورحبوا بتسوخ من قضاة ، عند ما جاءوا من جنوب بلاد العرب إلى الخليج العربي ثم حدود الفرس فحدود الروم حيث نزلوا في أواسط القرن الثالث الميلادي ، كما رحب الروم بعد ذلك بظهور الغساسنة ، وتأسيس ملكهم على حدود الإمبراطورية ، وفي ظل حكم بيزنطة الاسمي . وقد وجد الروم في إمارة الغساسنة ومملكتهم بعد ذلك أداة طيبة تحمي حدودهم من ناحية البادية ، وناحية الفرس وعملاء الفرس في أرض الحيرة المقابلة على الجانب الآخر من بادية الشام . وبلغ من تشجيع بيزنطة لغسان أن توجت المنذر بن غسان ملكاً على العرب حول عام ٥٨٠ الميلادي . . . ولكن المهم أن نهضة غسان لم تكن كلها راجعة إلى الروم وتشجيعهم ، وإنما هي كانت راجعة أيضاً إلى العرب أنفسهم إذ ذاك . فقد عرفوا كيف يستفيدون مما حولهم من ظروف ، وتحكموا في تجارة الروم وإمبراطوريتهم الشرقية ، وأفادوا من موقعهم الجغرافي إلى حد بعيد ، وأقاموا مجدهم على أساس من النهوض بالحياة في مظاهرها المختلفة ، لا سيما ناحية الفكر والثقافة . فكان بلاط غسان مركزاً تطور فيه الأدب والفكر العربي قبل الإسلام ، وكان صنوه في ذلك بلاط ملوك الحيرة اللخمين على حدود إمبراطورية الفرس في العراق .

فإذا ما نحن تركنا هذا العهد ، وانتقلنا إلى عهدنا المعاصر ، وظهور نفوذ الإمبراطورية البريطانية في هذا القسم من الجزيرة العربية ، وجدنا صورة من التاريخ امتدت فصولها ، وتطور مظهرها النهائي ، ولكنها قريبة الشبه بما حدث في عهد الرومان الغربيين والروم الشرقيين . وقد بدأ البريطانيون يلتفتون إلى الشرق القريب في أعقاب حملة نابليون . وحاولوا أن يمدوا يدهم إليه ، ولكنها كانت محاولات مترددة . فأتوا إلى مصر مرة أو مرتين في مطلع القرن التاسع عشر ، ولكنها ردت عنها أو ارتدوا

عنها ؛ لأنهم لم يكونوا فيما يظهر جادين في أمرهم ، كما كان الرومان تماماً أيام جاء بوليوس قيصر إلى مصر ثم رجع عنها . ثم جاء البريطانيون إلى مصر مرة أخرى في أيام الثورة العربية ؛ ولكنهم كانوا قد استيقنوا من أمرهم وأمرها ، وآمنوا وصدقوا بقيمتها ، ففقدوا النية على أن تكون لهم هذه المرة ! وكذلك تماماً فعل الرومان أيام واقعة أكتيوم ! وفوق ذلك فقد قنع الانجليز بمصر وبقناة السويس وطريق البحر الأحمر ، وبقوا كذلك ثلث قرن كامل قبل أن يفكروا بطريقة جدية في أمر طريق الهند الآخر عبر بلاد العرب الشمالية إلى رأس الخليج العربي . ومثل هذا حدث أيام الرومان وإن كانت الفترة بين فتح مصر وفتح البطراء والوصول إلى الخليج العربي طالت إذ ذاك إلى قرن وثلث قرن .

وحانت الفرصة مواتية لبريطانيا إبان الحرب العالمية الأولى . ولعل هذه الحرب ، وما طمعت فيه ألمانيا من الوصول إلى الهند عن طريق أملاك الإمبراطورية التركية والعراق بنوع خاص ، هى التى استعجلت اهتمام بريطانيا بشمال الجزيرة العربية ، وجعلت البريطانيين يسبقون الرومان في ذلك ؛ مع أن الرومان ، والحق يقال ، لم يكونوا أقل من غيرهم حذقاً لشؤون السيطرة وفنونها . وقد بدأت بريطانيا سبيلها إلى التدخل العسكرى في شؤون العالم العربى بأن استعانت بالعرب أنفسهم ، واستنجدتهم ضد الأتراك ، بعد أن بذلت لهم من الوعود ، وأخذت على نفسها من العهود ما هو معروف . وقد أرسلت بريطانيا عملاءها ومبعوثيها ، وبينهم لورانس الشهير ، فعجنوا البدو وسلحوا الأعراب في قلب البادية ، وهاجوا مؤخرة الجيوش التركية في جنوب شرق الأردن ووسطه ، وكأنهم بذلك قد دللوا على حصافة هبشة قيادتهم ، وحسن استقراءها للظروف الجغرافية العسكرية ، عندما وضعت أصابعها على مفتاح الموقف في الشرق العربى الشمالى . ومهما قيل عن القيمة النهائية لمناوشات لورانس وأصحابه في قلب البادية ، فليس من شك في أن أقل ما فعلته أنها نفخت في أعراب البادية ، وألهمت فيهم روح الثورة والكفاح ، مما انتهى آخر الأمر إلى إذكاء ثورة العرب ، وزعزعة حكم الأتراك من الأساس .

وعندما استقر الأمر لبريطانيا بالانتداب على شرق الأردن عمدت إلى تمكين سلطتها وسلطانها بوسائل كثيرة : منها أنها أقامت الحاميات والمعسكرات والقواعد

الجوية في كثير من مواقعه ، لا سيما عمان نفسها ، التي لم تلبث أن برزت قيمتها من جديد عندما جعل منها الأمير عبد الله عاصمة للإمارة . ولا يملك من يزور عمان ، خليفة فيلادلفيا ووريشة موقعها ، إلا أن يلحظ على إحدى ربوات المدينة موقع الحصن والحامية الرومانية القديمة ، وأمام آثارهما بأسفل الوادي مدرج الملعب الروماني القديم ، وكنيس كان الجند فيما يظهر يؤدون فيه بعض ما عليهم من عبادة . فإذا انتقل الزائر إلى ربوة أخرى من ربوات المدينة وصعد إلى سطحها المستوى وجد قاعدة قوة الطيران (البريطانية إذ ذاك) ، ووجد قبل ذلك معسكر الجيش العربى ، وإلى أسفله مسجد هذا الجيش . فإذا دقق الزائر استطاع أن يتعرف على آثار الطرق القديمة ومعالم اتجاهاتها الأساسية ، وهى الطرق التى حددت موقع المدينة منذ نشأتها الأولى ، ولا تزال الطرق الحديثة تتبع الاتجاهات القديمة ، فتشخص إلى الشام وبغداد ، أو تأتي من فلسطين أو تتجه نحو الجنوب إلى رأس خليج العقبة . وقد مد البريطانيون من الطرق العسكرية مثل ما مد الرومان من قبلهم . وكثيراً ما يلحظ المسافر على الطريق الحديث آثار الطريق الروماني المرصوف تجرى في محاذاته . ولم يكن الرومان في إدراكهم قيمة شق الطرق وتعبيدها كأداة للفتح والاتصال أقل من خلفائهم البريطانيين ، بل إنهم ربما كانوا أحذق منهم إذا راعينا الزمن الذى عاشوا فيه ، وهذه بعض طرقهم لا تزال قائمة بعد أن مضى عليها ما يكاد يقارب ألفى عام .

كذلك لم يقف البريطانيون عند شرق الأردن ؛ وإنما مدوا نفوذهم إلى الخليج العربى كما نعلم ، وكذلك إلى خليج العقبة نفسه ، حيث مكنوا لإمارة شرق الأردن من أن تحتفظ بميناء العقبة ، لأنه مهم من وجهة نظر الأسطول البريطانى ، وكذلك لأنه قاعدة لتهريب الأسلحة بالبحر إلى البدو في الصحراء . وربما كان هذا هو السر فى أن بريطانيا وقفت إلى جانب شرق الأردن عندما طالبت المملكة العربية السعودية بذلك المرفأ على أنه تابع لساحل الحجاز ومملكته السابقة .

ثم إن بريطانيا قد استعانت بالبدو فى حراسة الطرق وتأمينها ، وفى تمكين الأمن ونشره ، كما فعل الرومان تماماً . وهذاها ذلك إلى تأليف الجيش العربى ، والإنفاق

على تسليحه من الخزانة البريطانية . وتولت قيادته هيئة من الضباط البريطانيين . كما يقال إن بريطانيا استخدمته إذ ذاك وأفادت منه في إخماد ثورة العراق في الشرق ، وفي احتلال سورية والشام في الشمال ، وفي حراسة حدود فلسطين ضد تهريب اليهود ، كما أنجذت به ، أو ببعضه ، جيشها الثامن في مصر يوم تخرجت الأمور في الحرب العالمية الثانية . ولعل هذا في حد ذاته يكشف لنا عن قيمة موقع منطقة شرق الأردن كقاعدة عسكرية يمكن أن تنبعث منها الجيوش والقوات إلى مختلف أرجاء المشرق العربي الشمالى في كل اتجاه .

كذلك انتهى الأمر ببريطانيا - أو لعله بدأ معها - لأن البريطانيين كانوا أحكم من الرومان من هذه الناحية - بأن أدركت أن من غير الممكن ولا اليسير أن تحكم الإمبراطورية منطقة شرق الأردن كما تحكم الولايات والمستعمرات ، فالعرب وأهل البادية منهم بصفة خاصة ، لم يخلقوا مثل ذلك ، ويظهر أن الله لم يجعلهم على ما جبل عليه غيرهم من أهل المدينة والحياة الناعمة ، فهم لا يتقبلون الضيم ولا يرضون الحكم الخارجى المباشر . ولذا عمدت بريطانيا منذ البداية إلى ما لم يعمد إليه الرومان إلا بعد حين وبعد دروس . فتركت بريطانيا حكم البلاد الداخلى لأُمير شرق الأردن وسيدَه الجديد ، ومدت إليه يد المعاونة في أن يوحد الأعراب ويجمع كلمتهم في هذا الوطن الناشئ الصغير ، الذى لم يزد سكانه أول الأمر على ثلث مليون . وفوق ذلك فإن العرب من جانبهم لم يدعوا كل أمورهم للبريطانيين ، وإنما أخذوا كثيراً من أسباب نهضتهم بأيديهم ، واستطاع أميرهم إذ ذاك أن يشيع في بلاده وشعبه نهضة مادية وأدبية وقومية عامة يلمسها من يزور هذا القطر العربى . والطريف أن هذه النهضة التى تابعها أخلافه تشبه من وجوه كثيرة ما سبقها من نهضات في عصور التاريخ الغابرة ، وأنها تستعيد نهضة ألفى سنة سبقت بنوع خاص . فالأراضى الزراعية بدأت تتسع على حساب الفيافى والقفار، لا سيما في وادى الأردن نفسه ، وفي بعض الأودية والبقاع المرتفعة حيث يزيد المطر زيادة نسبية ، وحيث تجود التربة في كثير من الجهات . وحياة الزراعة والاستقرار بدأت تعم على حساب حياة البادية والتنقل وراء الكلا والمراعى ، وبيوت الحجر أخذت تظهر وسط بيوت الشعر وخيام الوبر . وطرق التجارة بدأت تفتح وأسواقها تروج وتعمر . وثروة البلاد المعدنية بدأ

البحث عنها واستغلالها . وموقع البلاد الجغرافي كقاعدة للتبادل والتجارة مع داخلية بلاد العرب أخذ يبرز من جديد ، ويفيد من أصحاب البلاد وسكانها . والنهضة الاقتصادية بصفة عامة ظهرت آثارها ودلائلها لكل زائر ، حتى لو كان سائحاً لايعنى بغير المظهر . ويكفى أن يسير المرء في شوارع عمان أو غيرها من مدن شرق الأردن ، أو حتى أن يزور بعض نجوع الأعراب ليرى بنفسه كيف أن مستوى الكسب والمعيشة في هذا القطر الداخلي من العالم العربي لا يقل عنه في نظرائه من أقطار بلاد العرب بما في ذلك مصر^(١) . كذلك نهضة البلاد التعليمية والثقافية تسير على منهج يشتر بخير كثير .

أرأيت معي يا صاحبي القارئ كيف أن التاريخ يعيد نفسه في شرق الأردن ؟ وكيف أن الحاضر ، وما يلبسه من ماض قريب ومن مستقبل قريب أيضاً ، يمكن أن يعتبر مرآة لبعض ما كان في الماضي البعيد من صور ومن فصول ؟ ثم أرأيت معي أيضاً أن تجد التاريخ واستعادته نفسه أمر طبيعي في كل هذا المشرق القريب ذي الحضارة العريقة والتاريخ الطويل ؟ إن كان ذلك فلعلك توافقني على أن من المفيد أحياناً أن ندرس بعض تاريخنا ، وأن نراجع صفحاته ، فقد يكون في ذلك ما ينير السبيل أمامنا في استشفاف بعض ما ينتظر أن يكون عليه المستقبل ! وما أشد حاجتنا في هذا المشرق العربي كله إلى أن نستبين معالم هذا المستقبل ، ولومن بعيداً^(٢)

(١) أمضى كاتب المقال أياماً متنقلاً في شرق الأردن في عام ١٩٤٥ ؛ ولمس فيها استطاع أن يلمس هذه الناحية بالذات . ويكفى أن نذكر أن متوسط أجر العامل العادي في عمان لا يقل إذ ذاك عما يعادل ضعف الأجر في بلد قريب كمصر . وقد ساعدت الحرب على رفع الأجور ، ولكنها لم تكن العامل الوحيد في ذلك ؛ فارتفاع الأجور في شرق الأردن إذ ذاك يمثل ارتفاعاً حقيقياً في مستوى الكسب والمعيشة العامة ؛ أو على الأقل هو أدنى إلى أن يمثل ذلك من الحالة في بلد كمصر .

(٢) هذا البحث كان قد كتب في عام ١٩٤٧ مستنداً إلى دراسة ميدانية أجريت عام ١٩٤٥ ثم جاءت بعد ذلك نكسة حرب فلسطين التي ترتب عليها هجرة الأعداد الكبيرة من أبناء فلسطين حيث أقاموا في ربوع شرق الأردن ، وحيث اندمجت الحياة الاقتصادية في كل من الضفة الغربية ومنطقة شرق الأردن ، مما كان بداية لنهضة اقتصادية كبرى فيها أصبح يعرف بالملكة الأردنية الهاشمية .

« ١٤ »

الكويت وأخواتها الخليجيات
مطل العروبة على البحار الجنوبية

الكويت وأخواتها الخليجيات مطل العروبة على البحار الجنوبية

تشغل العروبة موطنًا جغرافيًا فسيحًا يقع في قلب العالم القديم ، ويمتد من الخليج العربى وجبال زاغروس في الشرق إلى شواطئ بحر الظلمات القديم (المحيط الأطلنطى) في الغرب ، ومن البحر المتوسط في الشمال إلى المحيط الهندى وشرق إفريقيا وداخليتها وراء الصحراء الكبرى في الجنوب . ويطل هذا الوطن الفسيح بمطل كبير على شواطئ البحر المتوسط وما يتفرع عنه من بحار صغيرة ، وبمطل آخر أصغر منه اتساعًا ، ولكنه يعتبر في واقع الأمر مكملًا له بالنسبة لصلات العروبة التاريخية بالعالم الخارجى . وهذا المطل الثانى هو مطل الخليج العربى ، وما يقع وراءه من خليج عمان وبحر العرب وخليج عدن الذى يعتبر امتدادًا للبحر الأحمر. . . ومن الخير أن نذكر دائمًا أن هذين المطلين هما في حقيقة الأمر متكاملان ومتربطان من حيث مكانة العروبة وموطنها الكبير (بجناحيه في آسيا وإفريقية) ، ومن حيث الدور التاريخى للعرب كأمة وسط بين العالم الآسيوى والعالم الإفريقى والعالم الغربى بمفهومه الأوربى الحديث . وقد كان دور العرب وأسلافهم الأقدمين دورًا تاريخيًا حضاريًا منذ كان استقرار العناصر البشرية في هذا الجزء الخطير من قلب العالم القديم . ولعل بدايات ذلك وأصوله الأولى أن ترجع إلى العصر الحجري الحديث على أقل تقدير ، عندما ظهرت حرفتا الزراعة والرعى ، واتخذت الحياة والحضارة طابعهما المميز في قلب العالم القديم ، كما اتخذت الشعوب ، «السامية» وشقيقاتها «الحامية» صورتها العتيقة التى تمثلت في اللغة وبعض ألوان الفكر والنظم الاجتماعية التى سادت تلك الجماعات لأجيال طويلة ، خرجت بها من عصر ما قبل التاريخ إلى العصر التاريخى ، بل خرجت بها كذلك من النشاط البرى الخالص إلى

نشاط بحرى امتد إلى ما وراء البحار . وكان ذلك الامتداد على الجبهتين البحريتين في البحر المتوسط والخليج العربى . فأما عن جبهة البحر المتوسط فإن نشاط العروبة فيها اختلط بنشاط أمم أخرى ، لاسيما من الشاطئ الشمالى للبحر . وكان هذا الشاطئ الشمالى أصلح للنشاط البحرى وادعى إليه بحكم طبيعته وبحكم تعرج ساحله وانقسامه إلى أشباه جزر ، هى البلقان (اليونان) وإيطاليا وأيريا ، وقد كان لها جميعاً نشاطها البحرى الكبير خلال فترات متعاقبة من التاريخ . أما الجبهة الخليجية فقد كان النشاط « العربى » (غرب الخليج) فيها أظهر منه فى الشواطئ المواجهة فى إيران التى كان شاطئها الجنوبى غير صالح للنشاط العام والنشاط البحرى بصفة خاصة ، كما أن العرب كانوا أسبق إلى التوسع نحو الشاطئ المقابل ، فدخلوا أرض عربستان عند طرفه الشمالى واستقروا فى بعض الموانئ فى وسطه مثل ميناء « سيراف » فى القرن العاشر الميلادى وما بعده ، وذلك قبل أن يتوسع الايرانيون بالهجرة إلى الشاطئ العربى فى القرون الأخيرة بصفة خاصة ، وفوق ذلك فلم تلبث الجبهة العربية من الخليج أن أثبتت قدرتها على نشر الحضارة العربية والإسلامية إلى ما وراء البحر والمحيط . . . إلى الهند والشرق البعيد ، وإلى شرق إفريقيا ، ثم أثبتت قدرتها بعد ذلك على بناء التعاون التجارى والحضارى العام مع الغرب فى عهد البترول ، بل إن نشر الحضارة الإسلامية العربية فى المحيط الهندى بصفة عامة كان الفضل الأول فيه لتجار الجزيرة العربية فى جبهاتها الشرقية والجنوبية ، فى حين لم يبلغ النشاط الإيرانى (الفارسى) فى نشر الحضارة والفكر الإسلاميين إلا قدراً محدوداً فى هذا الاتجاه .

ولعل هذه الاعتبارات التاريخية والحضارية أن تكون مبرراً لأن نختار الجبهة البحرية الشرقية والجنوبية الشرقية لأرض العروبة لكى نتناولها بشئ من العناية ، كنموذج للتوسع العربى الحضارى عن طريق البحر . وسنكتفى فى هذا المجال بأن نختار مجموعة من المواطن الشاطئية التى امتزج فيها النشاط العربى التقليدى فوق البر بالنشاط البحرى المتوسع فيما وراء البحار . وقد تكون أرض الكويت نقطة البدء الصالحة فى هذه الدراسة ، لاسيما وأن هذه البقعة من الأرض قد اختلطت فيها أصول البادية بنشاط البحر منذ كانت الحياة فى الكويت . ذلك أن أصول الحياة التى استقرت فى الكويت إنما ترجع فى بداياتها الأولى إلى اختيار هذه البقعة فى ركن اليابسة

كمطل على الخليج العربى وعلى خليج الكويت الصغير اختيارها لتكون نقطة استقرار يستند السكان فيها إلى البادية من جهة وإلى الشاطئ من جهة أخرى ، كقاعدة للنشاط البحرى فى صيد الأسماك وفى الغوص من أجل اللؤلؤ ، ثم تبادل بعض منتجاتهم مع أهل الجزر المواجهة ، وأهمها جزيرة فيلكة التى كانت بعض العناصر قد استقرت فيها منذ أيام اليونان واتخذتها نقطة للتجارة ، فى جزيرة تحميها المياه من كل جانب . ولكن فيلكة هذه ما لبثت أن أضمحلت وأخذ النشاط يدب على شاطئ الكويت المواجه ، حيث أصبحت البادية ظهيرا إقليميا للميناء يتسع فيه مجال التجارة والتبادل بين البر والبحر . حتى أصبحت الكويت مقرا لنشاط برى وبحرى وتجارة متنامية ، بل أصبحت فى وقت من الأوقات مقرا لتجارة عبور ونقطة توزيع تجارى للطرف الشمالى من الخليج العربى . وقد أصبحت الكويت فيما بعد مدينة شاطئية يحيط بها سور كبير يحمى حياتها وتجارها ، ويخرج منها تجار البر إلى داخلية البادية وقلب الجزيرة أو إلى أطراف العراق الجنوبية ، كما يخرج منها صيادو السمك واللؤلؤ إلى مياه الخليج ، ويخرج الملاحون ورجال التجارة البحرية إلى أعماق الخليج وما وراءه من بحار الهند . واتخذت الكويت مكانتها فى شمال الخليج وعند رأسه كنقطة اتصال تجارى ذات موقع له قيمته الاستراتيجية التى لم تلبث أن أغرت بعض الطامعين . فسعت بريطانيا إلى أن تكون لها يدها فى هذا الموقع البحرى الفريد من نوعه ، وقامت علاقة استعمارية مخففة بين الكويت وبريطانيا استمرت حتى جاء عهد البترول ، فأضفى على الكويت أهمية مضاعفة ، لأن الأسطول البريطانى تزايد اعتماده على بترول الخليج ، الذى ساهمت فيه الكويت بنصيب تنامى على مر الأيام حتى أصبحت الكويت من أهم مراكز إنتاجه على نطاق لم ينقص منه تزايد إنتاج إيران إلى الشرق والسعودية إلى الجنوب والعراق إلى الشمال ، وإن كان احتياطى البترول فى الكويت لا يكاد يضارع غيره من البلاد المشار إليها ، التى فاقت الكويت فى كميات الإنتاج ولكنها لم تكد تنتقص من قيمته النسبية فى التجارة العالمية المتزايدة . وقد استمرت ظروف الصلة بين الكويت والقوة البريطانية حتى استطاعت الكويت أن تستقل بشئونها ، وتم ذلك بطريقة سلمية تتفق وطبيعة الكويت التى قامت حياتها على التجارة وصلات السلام . فبدأت تبنى مكانتها واستقلالها القومى والعسكرى وتوثق صلاتها بجيرانها العربيات وغير العربيات . ثم دعمت هذا

الاستقلال المادى والاقتصادى والمالى ببناء نهضة ثقافية وتعليمية . . . بل وعلمية أيضاً ، حتى اتخذت طريقها إلى أن تقوم منارة عالية للفكر والثقافة العربية ، ونشرت نورها إلى بقية شقيقاتها العربيات فى الخليج وما وراءه (فى اليمن وجامعة صنعاء مثلاً) بعد أن كانت قد استكملت أسباب استقلالها السياسى والاقتصادى فى وقت مبكر. وهكذا تكرر فى الكويت تقليد العروبة فى أنها تجمع دائماً بين التجارة وبين الثقافة والنمو الحضري والحضارى معاً . بل إن ريادة الكويت لم تلبث أن امتدت إلى أوسع من النطاق الخليجى أو العربى العام . . . فامتدت إلى النطاق الإسلامى ، فكان لها دورها المرموق فى العالم الإسلامى ومنظّماته الفكرية والحضارية والسياسية العامة ، ولا غرو فإن مثل هذا الدور « الإسلامى » كان العرب يعتبرونه دائماً مكملًا للدور « العربى » الخالص .

وإلى الجنوب من الكويت يمتد ساحل المملكة العربية السعودية القديم فى التاريخ ، وهو ساحل كان له دوره الحضارى كمطل على البحر وكنقطة ارتكاز تربط البحر بالداخل فى منطقة الاحساء والهفوف قديماً ثم منطقة الظهران ومنابع البترول فى العهد الحديث . وقد كانت « القطيف » القديمة قاعدة اتصال بحرى وبرى واسع النطاق . ويبدو أنها لا تبعد كثيراً عما يرى بعض الباحثين أنه القاعدة القديمة لنشاط يبدو أنه كان على اتصال بالنشاط الفينيقى العتيق الذى قامت قاعدته التاريخية على شواطئ « لينطة » والبحر المتوسط . فظاهر أن بعض النشاط العربى القديم كان عن طريق يقطع الجزيرة العربية بين الشرق والغرب ، ويربط عالم البحار الشرقية والجنوبية بالبحار الشمالية وما وراءها . ولعل القواعد القديمة على ساحل السعودية الشرقى أن تمثل السند الإقليمى القديم الذى كان من وراء ظهور الموانئ والمرافئ السعودية الحديثة فى عهد البترول ، وذلك من أمثال موانئ الخبر والدمام ورأس التنوره ، وهى كلها مخارج ومداخل لإقليم البترول فى الظهران ، وما يشهده هذا الإقليم كله من نهضة فى مجال التعدين والتصنيع والزراعة ، ثم الخروج إلى العالم الخارجى بعيداً فيما وراء البحار .

ولقد صمدت هذه الواجهة السعودية على الشاطئ الغربى للخليج أمام كل المواجهات الإيرانية من الشاطئ الشرقى للخليج - وعندما اتجه بعض سكان هذا الشاطئ الإيرانية فى العهد الحديث نحو الشاطئ العربى فى غرب الخليج فإن

محاولاتهم قد توقفت عند جزر البحرين ، حيث كانت هجرات الإيرانيين قد استقرت فيها ولم تكد تتجاوزها إلى الشاطئ السعودي إلا في أضيق الحدود . والحق أن هذا الشاطئ السعودي قد وقف في العهد الأخير في وجه محاولات العدوان ، وصمد في موقفه ، بل تعدى ذلك إلى ربط نفسه مع البحرين عن طريق جسر برى لم تكن إقامته إلا تعبيراً وتوكيداً للرباط التاريخي المكين مع البحرين . . . بل توكيداً لرباط آخر أقامته الطبيعة (حتى قبل العهود التاريخية ، ومنذ ما يعرف بالعصر المطير في الزمن الجيولوجي الرابع) ، ذلك أنه في رأى بعض أهل العلم من الباحثين في المياه الجوفية أن الأمطار التى تسقط على هضبة نجد وما يقع إلى الشرق منها تنوغل في الصخور الجوفية (لاسيما طبقات الحجر الرملى) وينحدر جانب منها نحو الشرق وتسرى على عمق تحت المياه الضحلة للخليج العربى ، حتى تصل أرض البحرين ، فتعود تلك المياه الجوفية إلى الانبثاق إلى الطبقات السطحية في أرض البحرين . . . وبذلك تكون هناك صلة طبيعية وحيوية تربط ما بين البحرين والشاطئ العربى القريب . وهذه ظاهرة تعرف باسم ظاهرة الأوانى المستطرقة للمياه الجوفية ، ويتكرر حدوثها في أجزاء أخرى كثيرة من الوطن العربى الكبير . فهناك مثلها في الصحراء العربية المصرية ، حيث أن الأمطار الساقطة (والتى كانت تسقط في العصر الجيولوجى المطير في الزمن الجيولوجى الرابع) على الجبال الواقعة شمال شرقى تشاد تتسرب في طبقات الحجر الرملى النوبى حتى تصل إلى واحات مصر وليبيا ، فتنبثق من جديد في هيئة عيون أو آبار ارتوازية . . . وهذه ظاهرة تتكرر كذلك في جهات أخرى من الصحراء الكبرى العربية حيث يوجد خزان جوفى «حفرى» يرجع إلى العصر المطير المشار إليه ، ولا يزال يمد واحات العرب بمخزونه حتى الآن . ويبدو أن جانباً من مياه الخزان الجوفى في شرق الجزيرة العربية هو كذلك خزان «حفرى» من العصر المطير ، الذى كان يمتد ليشمل كل الجزيرة العربية بل الصحراء الكبرى الأفريقية - العربية . . . وهذه ظاهرة تميز الوطن العربى الكبير وتؤكد التشابه فيه بين الظروف الطبيعية والتاريخية هنا وهناك .

كذلك فإن البحرين كان لها دورها الخاص كمطل على بحار الشرق والجنوب ، وهى كانت في هذا الدور مرتبطة أشد الارتباط بالشاطئ العربى ذى النشاط التاريخى المتجدد . وإذا كان الجانب الإيرانى قد حاول التوسع والضغط في العهد الحديث على

البحرين فلإن الرباط الطبيعي والتاريخي والاقتصادي والسياسي بين البحرين والشاطئ العربي السعودي وسائر المنافذ العربية على الخليج ، كان أقوى من أن تهزه مثل هذه الأحداث الطارئة والدخيلة .

وهناك إلى الشرق والجنوب من البحرين نقطة ارتكاز عربى أخرى ، ومطل عربى على البحار الشرقية والجنوبية الشرقية . تلك هى شبه جزيرة قطر التى كان لها أيضًا دورها الخاص ، وإن كان هذا الدور قد تأخر بعض الشيء عن الجزر التى تقع كلها فى مياه الخليج . وكذلك عن بعض النقاط الأخرى على الشاطئ العربى . ويبدو أن صلة قطر بالبادية كانت أقل نسبيًا من صلتها بالبحر واتجاهها نحوه ، ذلك أن البرزخ الأرضى الذى يفصل شبه الجزيرة عن داخلية البر قد ساعد أيضًا على أن يجعل توجيه قطر الجغرافى نحو البحر أظهر منه نحو البر أو نحو داخل البادية . وعندما جاء العهد الحديث وظهر البترول ارتبطت مصالح قطر أكثر وأكثر بتصدير هذه المادة التى غير ظهورها توجيه الحياة المادية والاقتصادية والتجارية نحو البحر وما وراءه إلى المحيط .

وللى الجنوب من ذلك نجد أن اتجاه شاطئ دولة الامارات يتغير فيصبح من الغرب إلى الشرق فى ساحل طويل تقع الجزر إلى شماله . وبذلك تتداخل حياة البادية وبعض واحاتها مرة أخرى مع حياة الجزر البحرية المقابلة . وفى عهد الاستعمار وقبل ظهور البترول كان تدخل بريطانيا شاملاً لهذا الساحل كله ، وهو الذى أسموه شاطئ الإمارات المتصالحة . وقد بقى الدور التاريخى لهذا الشاطئ محدودًا نسبيًا حتى جاء عهد الاستقلال ، ف شعر أهل الامارات بأن الدفاع عن كيانهم ودفع الأطماع عنهم لا يتحقق بصورة مأمونة إلا فى ظل التكتل والتجمع ، لاسيما وأن الطامعين فيهم وفى موقعهم على الطريق إلى مضيق هرمز جاءوا من مصدرين ، هما أصحاب الاستعمار السابق الذين يهتمهم الحصول على البترول والسيطرة على طريق تصديره إلى خارج الخليج العربى ، ثم الإيرانيون الذين اتسعت أطماعهم لتشمل المنطقة الحساسة بالنسبة للنقل البحرى وللسيطرة على مخرج الخليج وجزره الحاكمة . ومن هنا فقد كان الترابط والاتحاد هو السبيل الحق إلى حماية الاستقلال والحفاظ على الكيان العربى لهذه المنطقة الهامة من الشواطئ العربية .

ونصل أخيرًا إلى شاطئ عمان المطل على خليج هرمز إلى خليج عمان . ثم إلى شواطئ بحر العرب وما وراءه فى المحيط الهندى ، الذى يجمع بين شواطئ الهند

وشواطئ إفريقيا الشرقية . . . ومنطقة عمان هذه منطقة لها شخصيتها الجغرافية المميزة في جنوب شرق شبه جزيرة العرب ، ولها أوضاعها في التاريخ الحضارى للعروبة ، حتى قبل أن يظهر العنصر العربى بمدلوله التاريخى . وهناك دلائل على أن المنطقة كانت معمورة في العصور الحجرية القديمة والحديثة ، ولكن أول الدلائل المعروفة والموثقة بالآثار يرجع إلى عصر النحاس فيما يبدو أنه الألف الثالثة قبل الميلاد ، وإن كانت العلاقات قد قامت قبل ذلك بين عمان ورأس الخليج في أرض العراق وما وراءها . ويقال أن بعض الهجرات قد خرجت من جبال العراق الشرقية وربما من قرب أرمينيا فوصلت إلى أرض عمان عن طريق توسع بحرى قديم ، أدخل إلى عمان سلالة ذات قامة طويلة وأنف أشم مستقيم ، لا يزال يميز بعض سلالات شواطئ عمان وبعض قبائلها حتى الآن . وقد استقرت تلك العناصر في الركن العمانى وأنشأت حضارتها المميزة ، مستفيدة من بعض مظاهر النشاط البحرى القديم . وما لبث هذا النشاط المتجدد على شواطئ عمان أن أنتقل بالملاحين العمانيين مع الشاطئ الجنوبى للجزيرة العربية وجزره في اتجاه شاطئ ظفار القاحلة وشواطئ حضرموت ، التى قامت بها قواعد بحرية وصل إليها (من جهة أخرى) ملاحو الشمال من اليونان ، وعملاء الرومان ، وهم الذين استعانوا بملاحى حضرموت وعمان في الكشف عن بعض أسرار الرياح الموسمية الهندية ، والتى ركبها أولئك الملاحون جميعاً إلى بلاد الهند وشاطئ بلوخستان (جنوب باكستان) في الطريق . كذلك فإن ملاحى بحر العرب وخليج عمان عادوا في العهد الأوروبى الحديث وعهد الملاحين البرتغاليين فكان لهم دورهم في إعادة الكشف عن طريق الهند الملاحى . والواقع أن ملاحى عمان كان لهم نشاط خاص تجدد في القرن الثامن عشر الميلادى وما بعده ، حيث نقلوا تجارة العرب وفكر الإسلام وعقيدته ، وثبتوها على شواطئ بلوخستان والهند الغربية ، بل إن سلطان عمان بقيت له السيطرة والسيادة على جانب من شواطئ بلوخستان حتى أوائل هذا القرن . ومن جهة أخرى فإن ملاحى حضرموت وتجارها خرجوا بالإسلام وتجارته وحضارته وعقيدته إلى الملايو وأندونيسيا والعالم الجزرى في أقصى جنوب شرق القارة الآسيوية . وإذا كان الحضارمة قد ساروا في ركب التوسع الأوروبى (لاسيا من جانب هولندا وإنجلترا وأسبانيا) فإن من الطريف أن نذكر أن أوروبا إنما حملت إلى جنوب شرق آسيا السيطرة الاستعمارية وما سار في ركبها من تجارة

واستغلال . ولكن إضافة الأوربيين إلى الفكر والثقافة كانت في بدايتها محدودة نسبياً وبقي الجانب الأكبر والأظهر من الفضل في نشر الثقافة والفكر والدين لأولئك الملاحين المسلمين المسالمين ، ممن فتح الله عليهم جنوب شرق آسيا دون أن يكون لهم سلطان مادي كبير أو قوة عسكرية تذكر .

وهناك اتجاه آخر أطل به ملاحو شواطئ عمان على العالم الخارجي ، ونقلوا إليه معالم الفكر والحضارة ذلك هو الاتجاه إلى شاطئ شرق إفريقية وجزره وبعض البقاع فوق سطح هضبته . ومن المعروف أن سلطان عمان قد امتد بنفوذه إلى جزيرة زنجبار وبعض الجزر والشواطئ المجاورة والمقابلة . وقد بدأ التوسع في القرن الثامن عشر (وربما قبل ذلك) واستمر السلطان خلال القرن التاسع عشر والقسم الأول من القرن العشرين حتى بدأ ذلك النفوذ ينحسر مع بداية حركات الاستقلال الإفريقي وظهور دولة تنزانيا التي شملت زنجبار ومستعمرة تنجانيقا السابقة . ولكن الشيء الطريف أن السر في ذلك قد يكون راجعاً إلى أن النور الذي انبعث من المظل العماني ووصل لإشعاعه إلى شرق القارة الإفريقية كان نوراً بعيد الجذور في التاريخ ، ويرجع إلى الأصول الأولى لاتصال أهل جنوب الجزيرة العربية عامة بمنطقة القرن الإفريقي وهضاب إفريقية الشرقية من أيام الهجرات الحامية القديمة ، ثم الهجرات السامية التي جاءت في أعقاب ذلك . فهو إذن انتشار سلالى وحضارى قديم ومتصل على الزمن .

تلك إذن هى قصة المظل الحضارى لبنت العروبة في جبهته الشرقية والجنوبية الشرقية الممتدة من رأس الخليج العربى القديم إلى الكويت وأخواتها الخليجيات على شاطئ السعودية الشرقى وجزره وأشباه جزره ، ثم شاطئ الإمارات ثم شواطئ عمان وهضابها ومرافئها الممتدة على خليج عمان وبحر العرب إلى أرض حضرموت وأطراف اليمن وخليج عدن . وهى قصة حاولت الجغرافيا الحضارية هنا (وهى المنحى الجديد عن المنظور الجغرافى الحديث) حاولت أن تبرزها في عجلة تخطط التفاصيل لتخرج بالدرس العام الذى يجمع بين الأصول الجغرافية والاتجاهات العامة للتاريخ الحضارى على هذا المظل العربى الشرقى والجنوبى الشرقى العظيم ولعلنا أن نكون قد خرجنا من هذا الاستعراض العام بأن هذا المظل كان له دوره الحضارى العتيد في تاريخ الانتشار الحضارى ، والصلات التى حملت التجارة والفكر

والدين في رباط واحد إلى ما وراء البحار في كل جنوب آسيا وجنوبها الشرقى وجزره إلى جنوب الفلبين من جهة ، ثم إلى القرن الإفريقى وشرق إفريقيا وشواطئه وجزره وبعض مواقع هضبته من جهة أخرى . وكان هذا الانتشار الإفريقى مسيرة متصلة منذ عهود ما قبل التاريخ إلى حاضرتنا المعاصر . ومن الخير أن نذكر أن هذا الوجه الجنوبى من الانتشار العربى والإسلامى الحضارى قد امتاز على الدوام بأنه انتشار «سلمى» قام به التجار والملاحون الذين وهبوا بعض أنفسهم لنشر الفكر والثقافة والدين . ولم يسمع التاريخ عن أية « حملات » بحرية أو عسكرية تذكر صحبت هذا الانتشار أو أدت إليه ، وإنما كانت هذه الحركة التاريخية خالصة لله ولل فكر والدين والاتصال الحضارى السمح . . ولعلها بذلك أن تكون فريدة من نوعها في التاريخ .

ولكن من الحق أن نعترف أن هذه الصفحة من صفحات الانتشار العربى الإسلامى من المطل الشرقى والجنوبى لبيت العروبة على بحار الهند وآسيا وإفريقية . . . هذه الصفحة لا تزال مجهولة بين جماهير العلماء والجغرافيين بعامة . وقد غطى عليها ما هو معروف عن تاريخ المطل الشمالى للعروبة على البحر المتوسط وما وراءه من أرض أوربا والغرب . والسبب الظاهر في ذلك أن حوض البحر المتوسط بشواطئه الآسيوية والإفريقية والأوربية كان مركز اهتمام علمى منذ قديم ، في مجالات الآثار والتاريخ والدراسات الحضارية بعامة . ومن هنا فقد أدى الاهتمام به إلى توافر المعلومات التى تجمع بين كل العهود الحضارية تقريباً ، ابتداء من عصر ما قبل التاريخ إلى فجر التاريخ ثم قيام الحضارات التاريخية المتعاصرة أو المتعاقبة حول حوض البحر المتوسط ، فضلاً عن أن الاتصالات الحضارية في الحوض لم تكن كلها من النوع « المسالم » الذى يمر دون أن يلحظه الناس وأن يسجلوا عنه ملاحظاتهم وتعقيباتهم ، وإنما كانت بعض صفحات ذلك الاتصال عنية المشاحنات والمنافسات والحروب ، وهى كلها مظاهر تركت طابعها على صفحة التاريخ ، ويذكرها الناس في كل عصر وزمان . ومن هنا فقد كان اهتمام الباحثين والمدققين في شئون الجغرافيا الحضارية والتاريخ الحضارى في البحر المتوسط أمراً مفروغاً منه ، ولا يحتاج إلى استعراء النظرة الفاحصة من جديد . ولعل هذا كله أن يكون من وراء اهتمامنا بأن نستعرض النظر - ونظر الباحثين والجغرافيين العرب - خاصة - إلى الأهمية التاريخية والحضارية لهذا المطل الشرقى والجنوبى الشرقى للعروبة على بحار الجنوب .

« ١٥ »

بين الجغرافيا والتاريخ في أرض العراق
وما جاورها

بين الجغرافيا والتاريخ فى أرض العراق وما جاورها

الوطن العربى من أكبر أوطان الشعوب فى العالم . وهو يشغل قلب العالم القديم ، ويمتد فوق مساحات شاسعة من القارتين الكبيرتين فى هذا العالم . فيغطى شمال إفريقيا كله ، وكل الصحراء الكبرى تقريباً مع امتدادات تتوغل فى أطراف إفريقيا المدارية ، لاسيما فى السودان الشرقى وبعض أطراف ايريتريا وبعض مناطق القرن الإفريقى . وهو يشمل كل الجزيرة العربية فى جنوب غرب آسيا ، مع امتدادات منها إلى قواعد جبال طوروس وجبال زاغروس فى غرب إيران ، وكذلك امتداد عربستان فى غرب هضبة إيران . . وهو يطل على كل جنوب البحر المتوسط وجنوب شرقيه ، وكانت له امتدادات فى جنوب هضبة إيبيريا (بلاد الأندلس) بل وامتدادات حضارية إلى بعض جزر ذلك البحر فى صقلية ومالطة وغيرها ، ولكنها امتدادات أصبحت خارجة عنه الآن . ثم إن المشرق العربى كان مقرراً لحضارات قديمة يرجع أساسها إلى العصر الحجري القديم ثم العصر الحجري الحديث الذى بدأ فيه الإنسان يستقر فى الزراعة ويتعلم فنون الرعى ويقيم الحضارات التى اكتملت مع اقتراب فجر التاريخ . وكانت حضاراته القديمة متقاربة فى بداياتها ، فالعصر الحجري الحديث وما كان فيه من استقرار ربما رجعت مقدماته الأولى مع بداية الألف التاسعة (أو الثامنة) قبل الميلاد ، وإن كانت بعض حضاراته المستقرة لم تبدأ إلا بعد ذلك بألفى عام أو نحو ذلك . وقد استندت فى جنوب غرب آسيا إلى زراعة القمح أول ما عرف الإنسان زراعته ، واستندت فى جهات كشمال شرق إفريقيا إلى زراعة الشعير ، كما اتجهت فى حوض البحر المتوسط إلى زراعة أشجار الفاكهة القابلة للتجفيف أو العصير والتخزين ، كالكرام (العنب) والتين والزيتون وما يصاحبها فى الأطراف الدفيئة من النخيل المثمرة . وقد كانت معظم تلك الزراعات مما يعتمد على مياه الأمطار ، وإن كان بعضها من النوع الذى يحتاج إلى السقيا ، فيقتصر على بطون الأودية أو قيعان منخفضات الواحات .

على أن الشيء المهم هو أن تلك الحضارات جميعًا لم تلبث أن تكاملت واتصل بعضها ببعض ، وأصبحت في مجموعها تحتل منطقة حضارية كبرى في قلب العالم القديم . بل لعلها أن تمثل أقدم تلك المناطق الحضارية كلها في العالم إذا ما اعتبرنا أن « الاستقرار » هو البداية الحقيقية للحضارة التاريخية المعروفة . وقد كانت هذه المنطقة المتوسطة في العالم التاريخي القديم هي وما جاورها مباشرة من شمال حوض البحر المتوسط بمثابة « المنطقة النواة » في عالم الحضارات القديمة . ولكن الشيء الذى يجب أن نذكره أن منطقة النواة هذه كانت في حقيقتها منطقة « مركبة » ، لأنها كانت تأتلف من مجموعة من المناطق الإقليمية التى كان لكل منها دورها التاريخي في نشأة الحضارة وتطورها القديم ، وفي صلات العالم القديم كله ببعضه ببعض .

والمنطقة الإقليمية التى نحن بصدددها الآن هي منطقة العراق ، وتقع عند الطرف الشمالى الشرقى من الوطن العربى . ويطلق عليها بعض الجغرافيين « كتف العروبة » أو « جناحها » ويقابلها في الطرف الشمالى الغربى « الجناح الغربى » للعروبة . وإن كان هناك فارق واضح بين الجناحين ، ذلك أن الجناح الغربى كان عرضة لمؤثرات وغزوات جاءت من جهات بعيدة عن العالم العربى ، كما كان في غزوة الفندال القديمة من شمال أوربا ، أو في توغل البربر الذين أتوا في الأصل من شرق إفريقيا وعبروا الصحراء الكبرى عن طريق جبال تبستى إلى الأطلس الأعلى وأطراف المغرب . وبذلك كان اختلاط عرب المغرب بعناصر دخيلة جاءت في الأصل من بعيد ، ولكنها هُضمت في النهاية واندججت مع سكان المغرب . ولكن المهم أن الضغط الأتى في الأصل من بعيد كان قد ضعف عندما وصل في النهاية إلى المغرب ، وعلى ذلك فإن العروبة قد غلبته ولو في صعوبة أو عسر . ولم نسمع بمعارك طاحنة أو مخربة كتلك التى تعرض لها الجناح العراقى للعروبة . خصوصًا وأن العراق كانت تجاوره إلى الشرق منه مباشرة أرض حضارية عريقة أخرى هي أرض فارس القديمة ، كما أنه كانت إلى الشمال الشرقى من إيران منطقة حضارية أخرى ذات حضارة رعوية في داخلية آسيا (بما فيها تركستان) خرجت منها موجات متلاحقة من الرعاة أيام الهون ومن تلاهم من التتر والمغول والأتراك السلجوقيين ثم الأتراك العثمانيين . وقد استطاعت تلك العناصر الرعوية جميعًا أن تتولى في موجات متلاحقة خلال التاريخ القديم والوسيط ،

فضلاً عما كان يجاور العراق من الشمال والشمال الغربي من قبائل الحيثيين القدماء ثم الأكراد بعد ذلك بقرون ، وكذلك الأتراك أنفسهم في الأناضول ، وهؤلاء جميعاً استطاعوا أن يطغوا في فترات متلاحقة على أرض العراق . . . بل إن الجناح العراقي لم يسلم فوق ذلك من بعض توسعات سكان البحر المتوسط الشرقي وأرض اليونان القديمة ، وذلك كله على خلاف الجناح المغربي للعالم العربي ، الذي كان ما يقع إلى الغرب منه هو بحر الظلمات وعالمه الذي يكاد أن يكون فارغاً من الحضارة المستقرة أو القادرة على الانتشار في اتجاه العالم القديم . وهكذا فإن بعض الجغرافيين يرى بالمقارنة أن جناح العراق كان في الحقيقة جناحاً مكشوقاً ، وإن كان له من القوة الذاتية ما جعله يصمد في وجه غزوات العالم المجاور وما وراءه . . . وذلك كله جعل بعض الجغرافيين يفضل أن يصف العراق على سبيل المجاز بأنه « كتف العروبة » التي لا يستطيع أحد أن يأخذ العروبة منها بسهولة . وما هذا المثال الذي لمسه في السنوات الأخيرة حين نشط العداء الفارسي القديم والدفين في نفوس أهل إيران ذوى المذهب الشيعي الذي عادى العروبة وأهل السنة منذ أيام مطلع الإسلام - وحتى قبل أن يطلع الإسلام . . . لقد استطاعت « جبهة العروبة » الشرقية أن تثبت وأن تصمد ، رغم ما أصابها من تدخل مشرقى في عهود سابقة . .

وينقسم الأثر الجغرافي في أرض العراق قسمين أساسيين : هما أثر « البيئة الجغرافية » في الحضارات التي قامت فوق أرض العراق ، ثم أثر « الموقع الجغرافي » في علاقات العراق وحضاراته بالحضارات المجاورة من جهة ، والحضارات البعيدة من جهة أخرى . . فأما عن أثر البيئة الجغرافية فإننا نلاحظ أن العراق في جملته سهل كبير مستطيل تحفه الجبال العالية إلى الشرق والشمال ، وينفتح على السهوب والصحارى العربية إلى الغرب والجنوب الغربى . ولكن هذا السهل يجرى عليه نهران كبيران بخلاف أرض مصر مثلاً . وهى التي كان يجرى فوقها نهر واحد هو النيل وله « واديه » الواضح المحدد ودلتاه الواحدة الفسيحة والمثلثة الشكل والتي تحدها جبهة شاطئية طويلة ، قامت عليها المرافئ الواقعة على البحر مباشرة . أما العراق فقد كان يجرى عليه كل من نهر الفرات ونهر دجلة ، وروافدهما التي كان من أبرزها من الناحية التاريخية الخابور بالنسبة للفرات وقارون بالنسبة لمنطقة شط العرب . ويلاحظ أن

النهرين وروافدهما في العراق تجرى جميعاً من الشمال إلى الجنوب ، وتفيض في أشهر الربيع حين تذوب الثلوج فوق الجبال العالية عند المنابع . وقد كان لهذا الجريان ومواعيده أثره في قيام الحضارات القديمة وفي حركات الاتصال بين المجتمعات والمناطق الحضارية القديمة في العراق . ويحسن أن نقارن بين أنهار العراق ونهر النيل وفروعه في مصر . فالمجاري النهرية في العراق كان أثرها محدوداً نسبياً كشریان للاتصال وتكوين « وحدة شاملة » وواسعة النطاق بين الحضارات الأولى في العراق - أما نهر النيل فقد كان يجري « من الجنوب إلى الشمال » في حين أن نظام الرياح السائدة في مصر كان من الشمال إلى الجنوب . وبذلك أصبح نهر النيل ونظام رياحه السائدة سبيلاً وسبباً قوياً في قيام الوحدة القديمة بين سكان مصر في الصعيد وفي الدلتا ، والنهر في حالة مصر كان شرياناً للاتصال والربط بين الوجهين القبلي والبحري في مصر منذ أقدم العصور ، وبذلك كانت الوحدة الأولى بين وجهي أرض مصر . . بل هكذا قامت في مصر أقدم وحدة بين سكان الجنوب وسكان الشمال ، لأن انتظام جريان المياه وسريان الرياح كانا عاملين « متكاملين » في مصر قبل أن يبدأ التاريخ ، بل وخلال التاريخ كله ، بخلاف العراق حيث قامت عدة مناطق لحضارات الاستقرار القديم ، ولم يتيسر قيام « دولة واحدة موحدة » في أرض العراق القديم ، فكانت هناك منطقة « أور » القديمة قرب المصببات السفلى للنهرين (لاسيما الفرات) ، ثم تليها منطقة « أكاد » إلى الشمال منها ، وكانت الحضارة فيها مختلطة تجمع بين حياة الاستقرار قرب النهر وحياة البادية المجاورة والتي لم تنقطع صلتها بأرض الاستقرار وأرض « السواد » . وإلى الشمال من ذلك كانت حضارة « بابل » التي تركزت في منطقة اقتراب النهرين الواحد منهما من الآخر . ولكن حضارة بابل هذه كانت أحدث من حضارة « أور » أو « أكاد » (أو عقاد) . ولم تأخذ زينتها وقوتها الحضارية إلا بعد أن دالت دولتا الجنوب أو كادت الحياة فيها أن تندثر ثم إلى الشمال مرة أخرى وعلى ضفاف روافد دجلة التي تجاور الجبال الشالية الشرقية ، حيث قامت حضارة آشور التي تأخرت في ظهورها وبلغ شأوها بعض الشيء عن حضارات الجنوب . وخلاصة الصورة في العراق القديم أن مراكز الحضارية لم تأتلف في حضارة واحدة كالحضارة الفرعونية . بل قامت في العراق مجموعة « متتابعة » من الحضارات

القديمة . وحتى بعد ذلك عندما ظهرت مراكز حضارية صغيرة تحت النفوذ الدخيل إلى العراق قامت منطقة بغداد على انقاض منطقة « المدائن » التي استقر فيها الأثر الإغريقى أيام « كتيذيفون » القديمة التي تأثرت في مرحلة لاحقة بالأثر الفارسى أيام كسرى (ومنطقة « طاق كسرى » إلى الجنوب قليلاً من بغداد الحالية) . وكذلك الحال في منطقة شط العرب الذى أطلقت عليه هذه التسمية لأن المنطقة عمرتها بعض العناصر العربية حتى قبل أن تجئ العناصر الإغريقية القديمة التى أنشأت ميناء « شاراكس سبازينو » التى أصبحت في العصور اللاحقة ميناء « المحمرة » . كذلك فإن النشاط الإغريقى استقر في بعض الجزر القريبة من الساحل ، ومنها جزيرة « فيلكه » (التابعة للكويت) ، وقد عثر فيها على آثار للتجار الإغريق الذين استقروا في الجزيرة التى كانت بعيدة وآمنة من غزوات البدو من الناحية الغربية ، أو من العناصر الفارسية . التى كان يصح أن تأتى من جهة الشرق . كذلك كانت هناك منطقة استقرار عربى في المنطقة الواقعة إلى الشرق والجنوب الشرقى من الشط ، وهذه هى المنطقة التى نعرفها الآن باسم « عربستان » وهى تسمية مركبة من « عرب » و « ستان » (ومعناها بلاد) . وقد بقيت هذه المنطقة خلال التاريخ موضع نزاع بين العرب والفرس . ولئن كانت الثقافة والقومية العربية قد غلبت عليها ، فإن إيران كانت في موقع يعين على التمسك بهذا الإقليم رغم ملاحه العربية الظاهرة ، والتى كان ينبغى أن تحفظ للإقليم الصغير صفته الحضارية العربية .

ولنتقل الآن إلى الموقع الجغرافى وأثره في حياة العراق عبر التاريخ . ولقد كان للعراق أربع جبهات يطل منها ، ويؤثر ويتأثر بها جاوره بل وما يقع وراء كل جبهة من اصقاع قريبة أو بعيدة . فأما الجبهة الأولى (ولعلها أن تكون أهم الجبهات من ناحية الأثر الحضارى) فهى الجبهة العربية إلى الغرب من سهول العراق . وهى جبهة مفتوحة ليس لها حدود ظاهرة أو مميزة ، لأن الصحراء هنا لم تكن صحراء جافة ، كما كانت الحال بالنسبة للصحارى المجاورة لوادى النيل الأدنى ، وإنما كانت منطقة رعى وأعشاب وسهوب تقطنها القبائل المتحركة ، وتجتازها قوافل التجارة التى تربط القرن العراقى بالقرن الشامى من الهلال الخصيب . بل إن هذه السهوب العربية الشمالية كانت المصدر الأساسى الذى زود العراق بجانب كبير من سكانه الذين

استقروا في « أرض السواد » . كذلك فإن هذه السهوب (وامتداداتها إلى الجنوب) كانت معبراً لكثير من القبائل النازحة من بعيد من داخل الجزيرة العربية ، وحتى من جنوبها ، حيث يقال إنه بعد أن تحطم سد مأرب (في شرق هضبة اليمن) فإن بعض القبائل التي كانت تعمّر اليمن الشرقي وأطراف حضرموت انتقلت عبر الجزيرة العربية حتى دخلت أرض العراق واستقرت فيها ، وهي علامة ربط قديم بين العراق وأقصى داخلية الجزيرة العربية ، وهي الرباط الذي أضفى على العراق « عروبه » العتيقة التي انطبعت فيه منذ العهد الجاهلي البعيد ، ولا تزال معه حتى الآن . وظاهر أن « الوجه القبلي العربي » للعراق هو الوجه الذي ميزه خلال أعصر التاريخ وحتى أيامنا المعاصرة . كذلك فإننا إذا ما رجعنا إلى عصر ما قبل الإسلام ، فإننا نجد أن استقرار « اللخمين » على الجبهة الغربية للعراق قد عادله استقرار جبهة « الغساسنة » على الواجهة الشامية للهِلال الخصيب . فكان اللخميون هم واجهة دولة الفرس ، وكان الغساسنة هم واجهة دولة الروم ، وكان لكل من الامارتين العرييتين دورها التاريخي في صلات القوتين العظميين في ذلك الوقت ، سواء من ناحية تاريخ التجارة وتبادل السلع أم من ناحية الحرب . وما كان من تصادم بين الفرس والروم ، استمرت إشاراتهما حتى مطلع العصر الإسلامي ، وحتى انتهى التصارع بين العملاقيين إلى أن أورث الله الموقف كله للعرب المسلمين أيام الأمويين على الجانب الشامي والعباسيين على الجانب العراقي .

كذلك فإنه من الناحية الفكرية والثقافية والحضارية العامة فإننا نجد أنه كانت للعرب مدائنهم ومراكز حضاراتهم وفكرهم على الجانب الشامي (وأهمها بطراء النبط وبصرة القديمة ثم دمشق العاصمة الأموية) كذلك كانت لهم مدائنهم ومراكزهم الفكرية والحضارية على طول الواجهة العراقية ، ومن أبرزها الحيرة والكوفة وكربلاء حتى نصل إلى البصرة الحديثة . وقد ورثت هذه المراكز كلها مدائن العصر السابق في أور ومدن الفرات القديمة ، والتي كانت كلها مراكز اتصال بين أرض العراق وأرض بادية الشام . وهكذا كانت الواجهة الغربية للعراق واجهة اتصال حضارى وتواصل بين أرض الاستقرار وأرض البداوة . وهي ميزة أضفت على العراق « عروبه » البدوية المختلطة التي تمثلت في الأطراف الغربية من أرض العراق بأكثر مما تجلت في بعض

جهات الوطن العربى الأخرى التى غلبت عليها صفة الاستقرار الخالص أو صفة البداوة الخالصة . ولكن العراق (فى القسم الغربى والأوسط منه) قد جمع أهله بين ما فى الحياة المستقرة وما فى حياة البداوة من وصفات عرف بها العرب منذ قديم .

وتأتى بعد ذلك الواجهة الثانية لأرض العراق ، وهى الواجهة الشرقية ، حيث كان العراق يواجه الحافة الغربية لهضبة إيران . وهى منطقة أعجمية فى سكانها وحضارتها وفكرها القديم بل واتجاهاتها الفكرية المعاصرة . وقد كان خط الاتصال هنا خط صراع حضارى ، كان العراق يسعى من وقت لآخر كى ينفذ خلاله بأهله وحضارته ، كما كان أهل إيران يسعون خلال التاريخ ليفرضوا سلطانهم على أهل السهول المجاورة من أرض العراق . . ولعلنا نذكر خروج سكان السهول العراقية بحضارتهم القديمة حيث استقرت الحياة فى أرض آشور ، ونشأ لون من الحضارة يجمع بين بعض معالم حضارات العراق القديمة ، وبعض مظاهر حضارة الهضاب .

ولكن طريق آشور ذاته استمر بعد ذلك حين تجدد على طوله خروج حضارة العهد الإسلامى ، وانتشر المسلمون عن طريق همدان إلى شمال إيران وما وراءها إلى أرض تركستان وسيحون وجيحون ، بل وإلى أبواب تركستان الوسطى والشرقية وأبواب الامبراطورية الصينية . كما تفرع انتشار العرب المسلمين من شمال إيران إلى شمال غرب الهند وأفغانستان ، فكان العراق بذلك كله وبفضل موقعه الجغرافى طريق انتشار الإسلام إلى قلب القارة الآسيوية ، بل وحامل الفكر العربى الإسلامى الخصب وناشره إلى مواطن الحضارات الآرية والهندية والتركية القديمة ، بل والصينية القديمة أيضًا على أطراف تلك الاصقاع .

ولكن هذا المخرج الحضارى للعراق عاد فى بعض عهود التاريخ فأصبح مدخلاً إلى العراق ، اندفعت عن طريقه تيارات الغزو وعواصف السلطان من الهضبة وما وراءها إلى أرض شمال العراق وسهوله . وكانت بدايات ذلك التوسع الشرقى القديم قبل الهكسوس ومن سبقهم من رعاة آسيا الداخلية وهضابها إلى أرض العراق وما وراءه من أرض الشام وحتى أبواب مصر . ثم تكررت أيام التوسع الفاريسى الذى جاء من فارس الوسطى والجنوبية وأقام سلطانه على بعض تراب العراق القديم فى أجزائه الوسطى . ثم تجدد الغزو فى العصور الوسيطة ، ولكنه جاء فى هذه الحالة من

داخلية آسيا البعيدة ، حين تقدم التتر والمغول ونزلوا إلى عاصمة دنيا المشرق إذ ذاك وهي بغداد ، فاحرقوها عام ١٢٥٨ الميلادي . . . وحتى إذا ماجاء عهدنا الحديث جاءت محاولة أخيرة من هضبة إيران ذاتها وحاولت الجبهة الشيعية أن تخترق درع العراق من هذه الناحية ، بل وعلى طول الجبهة العراقية الشرقية . . . ولكن العراق أثبت أنه ليس درع العروبة الذى يسهل اختراقه أو اجتياحه ، ولكنه تلك الجبهة القوية التى حفظت للعروبة صمودها التاريخي .

كذلك كان للجبهة الشرقية للعراق منفذ آخر هو الذى يصل بين شط العرب وأرض عربستان التى كانت منذ قديم امتدادًا حضاريًا وطبيعيًا لدنيا العرب . ولكن الشيء الطريف أن هذا الجزء الجنوبي من الجبهة الشرقية للعراق لم يتصف في عهده القديم بالعنف وإنما كانت هذه الجبهة جبهة توسع وانتشار حضارى وسلمى بصفة عامة ، وكان طبيعيًا أن تغلب فيه الحضارة العربية بعد أن قويت بالإسلام وحملت كتابه بالحسنى وبالتجارة المسالمة عبر أبواب الخليج العربى كله . . . وتجلت في ذلك سماحة الفكر العربى والنزعة العربية القائمة على أخوة الإسلام والفهم الصحيح لدوافع رسالته ، فكان استقرار العرب المسلمين على هذا الجزء الجنوبي من الجبهة استقرارًا حضاريًا مسالمًا في جملته في وبصفة عامة . . . حتى إذا ما جاء عهدنا المعاصر ، وجاء المفهوم الإيراني المتطرف للإسلام تغيرت طبيعة الاحتكاك على طول الجبهة كلها ، بل وحاول الإيرانيون أن ينكروا عروبة شط العرب كله فحاولوا الاستقرار على شاطئ «الفاو» وحاولوا أن يدقوا أبواب البصرة ذاتها ، وهنا أثبتت هذه الواجهة مرة أخرى إنها الكتف التى تحميها مستنقعات شط العرب ، وأنها درع الأمان بالنسبة للعرب والعروبة في هذا الجزء العتيد والخطير من أرض المشرق العربى .

أما عن الواجهة الثالثة للعراق ، وهى الواجهة الشمالية ، فقد كان الوضع فيها من بعض نواحيه أكثر تعقيدًا من الواجهة الشرقية . ذلك أنه ، إلى جانب الجوار الإيراني في الركن الشمالى الشرقى والجوار التركى في الركن الشمالى الغربى ، كانت هناك جبهة كردية في وسط الشمال مع امتداد وتداخل في الركنين . وكانت للأكراد صفتهم الخاصة في السلالة والثقافة والاتجاه القومى . بل إن مشكلتهم كانت تمتد إلى ثلاث جبهات فرعية ، فهم أصحاب مشكلة قومية مع إيران ، وهم أصحاب مشكلة مع

تركيا ، ثم هم أصحاب مشكلة ثالثة مع العراق . وهم رغم إسلامهم المشترك مع الجميع ، فإنهم إذا أرادوا أن يتأقلموا مع القوميات والثقافات المجاورة فإن جهدهم في هذه الناحية لابد أن يتفرق اشتاتاً ثلاثة ، وهو ما انكروه ولم يسلموا به إلا عن غير رضى منهم . ولقد مرت صلتهم بالعراق في عدة أدوار خلال المرحلة التاريخية المعاصرة ، ومنذ استقلال العراق بشئونه . وكان موقف أكراد العراق يتأرجح بين المسالمة والاندماج في فترات قصيرة ، تلتقى فيها الثقافة الكردية بالثقافة العربية ، وتلتقى فيها المشاعر الوطنية التقاء « متردداً » بالمشاعر العربية في سائر العراق ، ويقوم نوع من التهادن بين الأكراد والعرب في عراق يهدف جهد طاقته لاقامة الوحدة الوطنية العراقية في نطاق الوحدة القومية العربية . ولكن هذا السعى إلى الوحدة الوطنية كثيراً ما اكتنفته ثورات التمرد الكردي على هذه الوحدة . وكان مثل هذا التمرد تزداد حدته تعقيداً في فترات النزاع بين العراق وجارته الشرقية ، كما حدث في أيام الحرب المعاصرة مع العراق ، وإن كان العراق وتركيا من ناحية أخرى قد استطاعا أن يوفقا الأمور بينهما ، فقام تعاون مؤقت بين جارتين عتيدتين سبق أن جمع بهنما الإسلام وظروف التاريخ في صورة مختلفة عما قام بين العراق وإيران من نزاع تضرب جذوره بعيداً في التاريخ .

وأخيراً نصل إلى الواجهة الجنوبية لحدود المستطيل العراقي ، وهي الواجهة المطلة على الخليج العربي . وهذه الواجهة كانت مطلقاً ومخرجاً للعراق على الخليج وما وراء مياهه أكثر منها مدخلاً إليه . فنحن لا نعرف عن هجرات واسعة دخلت إلى أرض العراق عن هذا الطريق . وكان وجود المستنقعات والأهوار المائية في جنوب العراق حاجزاً حماه من أى احتمال لدخول الهجرات عن هذا الطريق . والذي حدث هو أن العناصر البدوية جاءت من الجزيرة واستقرت في أطراف العراق الجنوبية الغربية ونفذ بعضها عبر شط العرب إلى أرض عربستان التي يبدو أن بعض العناصر العربية جاءت أيضاً من شمال الخليج ذاته . كذلك فإن الواجهة الشاطئية لجنوب العراق قد كانت موطناً أيضاً لاستقرار بعض العناصر الإغريقية القديمة ، لاسيما في منطقة المحمرة القديمة . ومعروف كذلك أن شط العرب ذاته كان طريقاً مائياً لوصول التجارة إلى العراق وخروجها منه . واستمرت الحال على ذلك خلال العهد القديم ثم

العهد العربى كله وحتى وقتنا الحاضر ، وقد عرف عن شط العرب أنه كان موضع خلاف قائم بين العراق وجارته إيران ، كما أنه كان مدخلاً للغزو البحرى بالنسبة للعراق الحديث كما حدث فى غزو بريطانيا له قادمة باسطولها من الهند فى اعقاب الحرب العالمية الأولى . ثم تكرر هذا الغزو بصورة قاصمة عقب الغزو الطاغى وغير المبرر من جانب العراق لجارته الكويت حين جاءت أساطيل الحلفاء الغربيين وطيرانهم المحمول فذلك أعماق العراق وأجبره على الانسحاب مدحوراً إلى خارج الكويت .

وفوق ذلك فإن السوابعه الجنوبيه للعراق كانت واجهته «البحريه» الوحيدة . ولولا وجودها لتغير تاريخ العراق وصلاته الخارجيه ، ولكان العراق بلدًا بريًا داخليًا لا يكاد يعرف البحر ونشاطه البحرى فى التجارة والثقافة والحضارة بعامه ، ولولا هذه السوابعه البحرية لانعزل العراق عن جاراته الجنوبيات من بلاد الخليج القريب والبعيد على حد سواء . بل لما كان لحضارات العراق القديمة والوسيطه دورهما التاريخى فى النشاط البحرى وامتداد الاتصال إلى ما وراء البحار .

ولنحاول الآن أن نرسم الصورة العامة للعراق القديم والعراق الحديث بالنسبة لهذا الجزء العتيق من أرض العربيه ، وكيف كان تفاعل العامل الجغرافى والعامل التاريخى نموذجًا طيبًا لتكامل هذين العاملين وتداخلهما فى رسم الشخصية الإقليمية والحضارية للعراق فى حد ذاته ، ثم لكل ما جاوره واتصل به اتصالاً مباشرًا فى البر أو البحر ، بحيث إننا لا نستطيع أن نتفهم دور الجغرافيا فى الأرض العراقية دون الرجوع إلى المعالم الكبرى لمسيرة التاريخ ، والعكس صحيح بالنسبة لتفهم مجرى التاريخ فى هذه البلاد . ولقد رأينا أن العامل الجغرافى قد جمع كلا من أثر البيئة المحلية والموقع الجغرافى ، كما رأينا أن البيئة الجغرافية المحلية للعراق قد أضفت عليه شخصيته الحضارية المركبة المظاهر ، فلم تكن للعراق فى عهده القديم الأول دولة واحدة تشمل أراضيه كلها كما كانت لمصر التى ظهرت فيها الوحدة الشاملة منذ فجر العهد الفرعونى فى أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد . أما العراق فقد اشتمل على عدد من المناطق الحضارية المستقلة فى سومر وأكاد وبابل وأشور وغيرها من مراكز الاستقرار والسلطة التى تعاقبت على التاريخ ، الواحدة منها تلو الأخرى . وعلى الرغم من أن

كل واحدة من هذه الكيانات الإقليمية القديمة (إن جاز لنا أن نستخدم مثل هذا التعبير) كان لها دورها الخاص في بناء الشخصية الحضارية التاريخية للعراق ، فإن المهم أنها كانت الأصل في « تنوع » الطابع الحضارى التاريخى للعراق ، ومثل هذا التكوين المركب يدل من جهة أخرى على «تنوع» المصادر الحضارية الاقليمية ، مما «اثرى» حضارة العراق القديم وجعل منها حضارة جامعة تأثرت بحضارة البادية ، واحتفظت بكل ما اتصل بها من شيم البادية وأهلها ونظمهم الاجتماعية ومعالم ثقافتهم العربية القديمة ، كما كانت حضارة العراق الأوسط جامعة لمعالم الحياة القديمة كما نشأت في أرض « الرافدين » بكل ما أضفته على الحياة والحضارة من أصالة الطابع السومرى والاكادى ثم البابلى ذى المدنية المتميزة في مدائنه القديمة . وكانت حضارة الحافة الشرقية للعراق مزيجاً من حياة أهل « السهل » وحياة أهل « الجبل » وإن كان أثر السهل أقدم في أصوله التاريخية ، وتتميز بانتشار المدنية والثقافة من سهل الرافدين إلى شعاب الأودية المتوغلة في جبال زاغروس وهضابها ، كما حدث مع الحضارة الآشورية . فضلاً عن أن الجبهة الشرقية كانت هى جبهة «التوسع الحضارى» بالنسبة لتاريخ العراق ، وهو التوسع الذى أثمر انتشار الحضارة والفكر الإسلاميين إلى ما وراء هضبة إيران ، وإن كان قد صاحبه كثير من مظاهر الصراع الحضارى ، الذى لا نزال نلمس بعض آثاره في الوقت الحاضر من تاريخ العراق المعاصر .

وهكذا كان تداخل العوامل الجغرافية المحلية وعوامل الموقع الجغرافى من وراء الدور التاريخى الذى اضطلع به العراق في صلات العالم العربى بالعالم الإيرانى وعوالم آسيا الداخلية إلى مشارف تركستان والهند والصين جميعاً . بل هكذا كان التكامل بين الجغرافيا والتاريخ من وراء الدور الذى قام به القرن العراقى من الهلال الخصيب خلال العهد العربى الإسلامى ، حين أصبح العراق قاعدة للخلافة العباسية بعد أن دالت دولة الأمويين في القرن الشامى من الهلالى الخطيب . ولقد بقى العراق لفترة طويلة ، قاعدة للوحدة الرمزية للخلافة الإسلامية ، وذلك على الرغم من قيام قواعد محلية صغيرة لبعض مظاهر سلطة الخلافة العباسية في بلاد أخرى . ولكن المهم أن الخلافة حين قامت بالعراق ، كانت قاعدة لما حققته

الخلافة الإسلامية من قوة حضارية تمثلت على الخصوص في تلك النهضة العلمية والفكرية والحضارية التي ترجم العرب خلالها أروع معالم الحضارة اليونانية ، وأضافوا إليها ما أثرى الفكر والعلم والفلسفة جميعًا ، وترك للعالم العربى والإسلامى ، بل وللعالم الأوروبى آخر الأمر ، ما جمع للإنسانية بين تراثها اليونانى القديم وبدايات تراث عهد النهضة الأوربية الحديثة .

ولكن ما عبرة كل هذا الدور التاريخى لحضارة العراق القديم والوسيط ؟ إنها عبرة يجمل بأن يتذكرها العرب في يومهم الحاضر . ذلك أن العراق كان بحكم الجغرافيا والتاريخ معًا ، قاعدة العروبة في المدنية والحضارة والفكر والسياسة والحرب جميعًا . ولكن من الخير في هذا المقام أن نذكر ما أكدته التاريخ في أن إقامة الوحدة الحضارية الشاملة بين اصقاع العراق كانت على الدوام تستلزم قدرًا كبيرًا وأساسيا من الجهد القومى للربط بين المراكز الحضارية المختلفة والمتفرقة في أرض العراق . فضلاً عن أن العراق وإن كان في العهد الإسلامى قد أصبح قاعدة للمذهب السنى (والأمام أبى حنيفة) إلا أنه وقع تحت التأثير الشيعى منذ اتخذ الإمام على وأخلافه واتباعه أرض العراق ملاذًا لهم . ومن هنا قام بالعراق نوع من الثنائية بين السنة والشيعه ، لا يزال أثره باقياً حتى الآن .

« ١٦ »

**أزمة الخليج (١٩٩٠ - ١٩٩١) : رؤية
جغرافية تحليلية**

.

إزمة الخليج (١٩٩٠-١٩٩١) : رؤية جغرافية تحليلية (*)

الندوة التى نجتمع من أجلها اليوم هى خاصة بمنظور جغرافى لأزمة الخليج - عشنا كلنا أزمة الخليج وعشنا حرب الخليج ، ولكن المهم هو أن هناك رؤية جغرافية أو منظورا جغرافيا للأحداث المؤسفة التى مررنا بها . هذه الرؤية الجغرافية تنبه لها بعضنا ، فالقى بعض المحاضرات ونشر فى المجلات والصحف أو غير ذلك . انما الشئ الباقى هو أن المنظور الجغرافى لا يتكشف فى العادة إلا بعد أن ينتهى الحدث فى مظاهره الملحوظة لنا - بحيث يكون الحدث قد انتهى ظاهرياً وشكلياً ، ويكون هناك اتفاق على توقف الحرب ومحاولة النظر للإصلاح ، فيما حدث أو إصلاح جانب منه ، ثم بعد ذلك يكون النظر الى المستقبل . ثم ماذا ؟ - وأنا فى الحقيقة لى نصيب فى الندوة محدود لأن النصيب الأكبر سيأتى من جانب طائفة كبيرة من زملائنا الجغرافيين اعضاء الجمعية وأعضاء اتحاد الجغرافيين العرب ، سيتحدثون فى هذا الموضوع من وجهات نظر مختلفة - ولكن يهمنى ألا أفوت هذه الفرصة لكى اعطيكم انطباعى ، لا لشئ إلا لأنى عاصرت مقدمات هذه الأزمة قبل أن تحدث بسنوات طويلة ، ربما بلغت الأربعين أو زادت عليها ، وكانت بعض معالم هذه الأزمة تختمر ، وأنا كنت شاهداً عليها ، بخلفياتها التى لا نستطيع ان ننكرها ، بل ولايجوز لمثلنى أن يسكت عنها ، لأنه وقد شهد العصر وشهد عليه أو أصبح بعبارة أصبح «شهيذاً» عليه .

(*) هذا حديث عام ارجله صاحبه صفو الساعة فى ندوة اقامتها الجمعية الجغرافية المصرية فى يومى ٢٣ ، ٢٤ من ابريل ١٩٩١ . وهو ينشر الآن بنصه كما ارجل ولذلك فإن أسلوبه يختلف بعض الشيء عن أسلوب الكتابة فى سائر فصول الكتاب .

والشهيد هو المشارك في الأحداث ، أما الشاهد فهو الذى يلحظ الأحداث فقط .
 أى أن الشهيد يكون له دور إيجابى ، وأنا كنت شهيدا ، أى كان لى دور فى مناقشات
 كثيرة فى عالمنا العربى : فى الكويت وفى العراق ، وفى الجامعة العربية وفى اجزاء
 أخرى من العالم العربى لها صلة وثيقة بأحداث الخليج . ولا أستطيع أن اسكت
 لأنى للأسف الشديد بحكم صلاتى ، قد استدرجت استدراجاً إلى أن يكون لى رأى
 معلن فى الموضوع الذى انتهى إلى الأزمة . وما دمت قد دخلت فلا بد أن أشهد قبل ان
 يفوت الوقت والعمر . من هنا فانى استمحيكم فى ان الموضوع كما سأعالجه أنا
 سيكون شبه نموذج لإسلوبى الشخصى فى النظر - ذلك ان الشئ الواحد ينظر إليه
 أكثر من شخص ، ولكن كل شخص له نظرة ينفذ بها إلى عمق معين . بحسب
 خلفيته الفكرية . وفى حالتى أنا كان نفاذى للأحداث عن طريقين : الطريق الأول
 هو نفاذ الدارس العالم المتجرد ، الذى يدرس الأشياء بطريقة موضوعية ، فلا يتأثر
 ولا يتفعل بأكثر من اللازم ، وإنما ينظر إلى الحقائق كما هى : المرمر والحلو حلو ،
 وإنما المذاق قد يختلف من حالة إلى حالة . أما الطريق الثانى فهو أنى عربى مثقف
 والحمد لله ، لى حظ من الثقافة ، أو انى يحاول فى مجال الثقافة العربية والفكر
 العربى . من هنا فانى لا أستطيع أن انظر إلى هذه الظاهرة الخطيرة تاريخياً نظرة المؤرخ
 فقط لأن هذه قد تكون نظرة موضوعية وليست شخصية - إنما الناحية الخاصة بى ،
 وهى الناحية الفكرية والقومية فى آن واحد ، بل هى ناحية الثقافة وليست ناحية العلم
 المجرد . وإذا كان العلم لا وطن له فإن الثقافة لها وطن : الفكر الثقافى له وطن
 والثقافة هى السلوك الشخصى والوطنى بل والقومى معاً . العلم هو السلوك العام
 المجرد الذى لا ينحاز ولا يتأثر بشئ ويزن بميزان معين ، يعنى لا يختلف فيه عن
 أى عالم آخر يدرس هذه الظاهرة . إنما عندما آتى من المنظور الثقافى فلا بد ان تكون
 لى نظرة شخصية تتأثر بعاطفتى ، وتتأثر بتاريخى ، وتتأثر بسلوكى فى الحياة . وسلوك
 العربى يختلف عن غيره : سلوك العربى الأساس فيه [وهذه نقطة هامة ينبغى ان
 اذكرها لأننا سنعود إليها بعد ذلك عندما نحلل الظاهرة نفسها] . . . العربى ،
 خصوصاً البدوى أو من له أصل بدوى - ومعظمنا لنا أصول بدوية فى البادية -
 فالبادية لها تأثير فى انها تجعل من العربى شخصاً لا يقبل أمرين أبداً : فهو حر الفكر

والسلوك والعاطفة ، لا يقبل ابداً أن «يقاد» ، ولا يقبل أن «ينقاد» لغيره مهما كان ، فرجل البادية انسان حر ، بل إن النموذج الحق للانسان الحر هو العربي البدوي . وغيرنا قد ينتحل الحرية ، وهناك بلاد كثيرة تكون الحرية فيها مطلبا عاما بمعنى ان كل الناس تطمع فيها . في الغرب مثلاً كل الناس يتصرفون كاحرار يستمسون بالحرية كحق مكتسب في الحياة المعاصرة ، ولكن الحرية لدى البدوي العربي «سجية» ، وأصل من أصول الحياة ، وهذا هو الاصل الذي ورثه العرب عن البادية ، كل منا وراث نصيبا منها : قد يكون متواضعا وقد يكون كبيرا . إنما «الأصل» في فكرنا هو الحرية - والحرية لا «تنقاد» وفي الوقت نفسه إذا كنت في مجتمع لا يقبل احد فيه أن ينقاد - وما دمت لا تقبل لنفسك ان تنقاد ، فلا يجوز أن تقبل هذا لغيرك ، وبالتالي فلا يجوز أن «تقود» . . . والذي يقود في العالم العربي يكون في العادة شخصا متأثرا بالعالم الخارجى : نوازح خارجية تنتهى إلى الدكتاتورية ، وهى ليست من طبيعة العرب ، حقيقة أنه قد وجد اشخاص دكتاتوريون من عصر إلى عصر أو في مكان أو آخر في العالم العربي ، ولكن هؤلاء كانوا يمثلون «النشاز» ، أى «حالة ناشزة» . والذي يطمع في أن يقود دائماً يكون متأثرا بعوامل غير عربية ، لأن العربي الحر الذي لا يقبل لنفسه أن ينقاد لا يجوز أدبياً أن يقبل ان ينقاد له شخص آخر ، خصوصاً إذا كان من بنى جلدته . من هنا فان فكرة الدكتاتورية فكرة مرفوضة بالنسبة للأصل العربي . لا أقبلها ، ولا يقبلها أى عربى في أى ركن من أركان الجزيرة وامتداداتها ، خصوصاً بالنسبة لأهل البادية أو من هم من أصل بدوى . ومن المعروف عن الحكومات العربية أن أهل البادية يستمسون في العادة بحريتهم كاملة ، فكل بدوى هو «ملك زمانه» ، ولا يكاد يعترف بالحكومة إلا مجاملاً أو مضطراً أو مسائراً لرأى القبيلة ، من هنا فان هذه الناحية بالذات مهمة جداً في تصورنا للموضوع الذى نتحدث فيه - وأحب ان اضيف شيئاً آخر إلى هذا ، وقد درجت عليه أنا شخصياً منذ حوالى أربعين عاماً وبالسذات منذ عام ١٩٣٨ ، عندما كنت أول من درّس موضوع «القومية العربية» في كلية الآداب (بجامعة القاهرة) . وفي ذلك الوقت كان للسفارة البريطانية عيون في الكلية ، فبلغ الخبر السفير البريطانى في ذلك الوقت . وكانت مصر قد استقلت استقلالها الجديد بمعاهدة سنة ١٩٣٦ - فخشى

السفير أن يكون أمر تدريس القومية العربية سبباً في فتنة . فهذا شاب جديد يدرس في كلية الآداب ، وهو مدرس يتكلم كلاماً حراً وصريحاً أكثر من اللازم ، بخصوص «الوحدة العربية» ، فيثير هذا النوع من الفكر الذى كان في ذلك الوقت في بداية جذوره بالنسبة لتفكير الناس السياسى ، وانتهى الأمر بأن قامت أزمة بين السفارة البريطانية وبين الحكومة ووصلت إلى مستوى رئيس الوزراء ، بأن هناك اتجاهات بين الشباب . وكنا قد بدأنا عصر «جديدا» في التعاون مع بريطانيا بعد المعاهدة - فهناك آراء جديدة فيها شيء من المساس بالناحية السياسية . وهى تثير شجوناً سابقة بالنسبة لما مارسه مصر مثلاً في أيام إتصالها بالعالم الغربى وأيام الاستقلال الأول عن الأتراك : الثورة الأولى على الأتراك في عام ١٨٠٥ حين كان الشعب المصرى هو الذى اختار محمد على لينصبه والياً على مصر . حين لم يرض بأن ينصب الأتراك والياً على مصر . لقد انتهى ذلك العصر - وكانت تلك بدوراً جديدة من الفكر ، وكان ذلك الفكر متوارثاً أصلاً عن الفكر العربى المستقل ، ومنقولاً أصلاً عن روح «البادية» .

وعلىنا أن نذكر أننا دخلنا إلى مصر من الصحارى المجاورة لنا من الشرق : فالغزوات كانت تأتى بعادات قديمة ولكنها تحمل منها إلى وادى النيل الزراعى المستقر بذور الحياة الرعوية أو حياة البادية ، بكل ما فيها من شيم وقيم : شيم الحرية والنجدة ، الحرية المطلقة والفردية . نحن نؤمن تماماً بما جاء فى القرآن الكريم من أن كلاً منا سيأتى ربه فرداً - فلا نلقى الله تعالى جماعات ، بل ننقلب إليه أفراداً وهذه سنة الخليقة : الحرية هى للفرد أساساً والشخصية هى للفرد . نحن مجموعة أفراد : والميزة الكبيرة فى الشعب العربى أنه مجموعة أفراد من الأحرار كل منهم حر ، فإذا كان زعيماً فإن الزعيم يُنصب شيخاً بحكم أن الفردية فيه أقوى . ولكن «الفردية» ليس معناها الأنانية ، أبداً ، على العكس : فالفرد هو الذى يضحي لأن التضحية جزء من كيانه - هو المستعد لأن يضحي بحياته من أجل المجتمع ومن أجل الجماعة . وفى القبائل الآن هناك الشاب البدوى المستعد لأن يضحي بأى شيء من أجل القبيلة وليس من أجل نفسه ، فالفردية هنا لا تفهم إطلاقاً بعيداً عن روح التضحية . الفرد هو الذى يضحي بنفسه - يضحي بالمال - يضحي بالروح ، بنفسه فى القتال ، أو يمكن أن يهب حياته كلها للعلم مثلاً إذا كان عالماً أو استاذاً فى الجامعة ، فحياته كلها من

أجل هذا - لأمته وليس لمجد شخصه ، بل إن العالم الحق بين العرب هو الذى يعمل ويكون عمله فى الدنيا وأجره فى الآخرة - أجر الدنيا هذا للعيش والأجر الحقيقى عند الخالق سبحانه وتعالى فى الآخرة . معنى هذا أن الزعيم عندنا كنا نسميه بصراحة «الزعيم المزعوم» ومعنى هذا بعبارة أخرى أن الإنسان لا يجوز أن يتزعمه إنسان مثله ، فهو لا يوجهه إلا الله ، المصدر الأصيل للخلقة كلها . من هنا كانت الفكرة أن الزعيم الذى يوجهه الشعب هو أقرب الزعماء إلى الشعب ، والزعيم السياسى لأبد أن يراعى الشعب ولا يفرض رأيه عليه ، والحق أن هذه الصفة ظاهرة فى بعض من البلاد العربية ، فكان بعض زعمائنا من هذا النوع - يستجيبون «لواجب القبيلة» الذى ورثوه عن البداوة . وعندما يأتى زعيم فى العصر الحالى ويقيم لنفسه قوة وسلطاناً وسيطرة وجبروتاً . . . فإن ذلك لا يكون من طبيعة العرب . وإن الشخص الذى لا يقبل أن ينقاد ويقبل أن «يقود» ، هو شخص خارج ومناقض لطبيعة العرب والعروبة . وهذه صورة لا بد أن تكون واضحة قبل أن نتطرق إلى أزمة الخليج وحرب الخليج وما دار فيها .

وأحب أن أكرر - بعد هذه المقدمة المتصلة بفلسفة الموضوع - أن حديثى إليكم ليس حديث معلومات . إنما هو حديث «تأملات» ، أنا أتأمل الأحداث وأخذ الدرس منها ، وأحاول أن أنقله إليكم ، فإننى واحد أفاء الله عليه بنعمة أن يرى النور. وإذا هو لم ينقل كل ما عنده يكون قد قصر فى حق الله سبحانه وتعالى ، ويخشى أن يكون حسابه عن ذلك عسيراً .

فإذا ما عدنا إلى موضوع الندوة ، وهو أزمة الخليج من منظور جغرافى ، فإننا نجد أن الأزمة تركزت فى منطقة الخليج وامتدادها إلى أرض العراق . وهذه معاً تمثل جبهتنا العربية الشرقية . ويحتمل بنا أن نميز فيها بين العراق الذى جاء منه العدوان من جهة وبين رأس الخليج حيث وقع العدوان على الكويت من جهة أخرى . فأما عن القسم الأول من واجهتنا الشرقية وهو العراق ، فقد يكون من المفيد أن نلاحظ الفرق بينه وبين منطقة عربية أخرى مشابهة له من الناحية الظاهرية والناحية التاريخية ، ولكنها مختلفة عنه فى مسيرتها الحضارية العامة ، ألا وهى أرض مصر . فأرض العراق فيها نهران كبيران (بخلاف الروافد) فى حين أن أرض مصر ليس فيها غير نهر واحد .

الطبيعة في مصر . والنهر وحده عامل كان في صالحنا - فجاء الإنسان وأقام الحضارة . من هنا فان دور الانسان مهم جدا في الحياة . فاذا ما انتقلنا الى العراق فاننا نجد ان التطور لم يكن كذلك ، كان جريان الماء في العراق مذبذباً : فيضاً أقل انتظاماً ، أما الفيضان في مصر فكان دائماً في آخر الصيف وكان منتظماً بصورة غريبة : الصيف حار جاف ثم الفيضان في آخر الصيف بعد انحسار الفيضان في أول الخريف وهو موسم انبات القمح والشعير ثم يأتي المطر في ديسمبر ويناير فيغذى هذه النباتات بالماء بعد انحسار الفيضان ، معنى هذا أن هناك تكاملاً بين عناصر البيئة . وقد استفاد الإنسان من ذلك ، إذ دخل في الدورة بعمله واستكملت الدورة : عناصر طبيعية وعناصر بشرية وقامت الحضارة وقامت الوحدة . لكن العراق ليس كذلك ، في العراق يأتي الفيضان عندما تذوب الثلوج في جبال زاغروس وجبال تركيا . عندما يذوب الثلج في الربيع يأتي الفيضان آخر الربيع أو أول الصيف حين يكون القمح قد قارب النضج فيطغى عليه الفيضان ويدمره . ففيضان العراق مدمر للزراعة ولا يزال مدمراً ومن يدرى فلعل فيضان سيدنا نوح قد حدث في مثل هذه الأرض أو في منطقة قريبة منها؟ ، وربما كان الفرات معرضاً للفيضان أكثر لأن سهل منبسطة أكثر من سهل دجلة ، فمن هنا كان للفيضان أثره الأكثر تدميراً . من أجل ذلك قامت الحضارة ولكنها كانت متقطعة في العراق وليست مستمرة . معنى هذا أن العراق كان أرضاً يصعب فيها انشاء حضارة مستقرة ومستمرة ، بخلاف مصر . فإذا رجعنا إلى العراق فاننا نجد أن الذي تكون في العراق من حضارات قديمة ليس بحضارة واحدة مثل مصر التي توحدت حوالي سنة ٣٢٠٠ ق.م تقريباً عندما جاء رجال مثل مينا (نامر) وأهل الصعيد ووجدونا - لكن العراق ليس كذلك . العراق نشأت فيه حضارات في الجنوب ، ولم يكن شط العرب موجوداً في العصر الذي أكلكم عنه - ومن أجل ذلك سمى « شط العرب » ، عندما جاء العرب وعبروا منه إلى عربستان التي هي ليست إيرانية ، والحقيقة أن بادية الكويت وما في شمال الكويت هي التي عبر منها العرب إلى شط العرب ، وهذه نقطة مهمة من الناحية التاريخية - تأتي في شمال شط العرب فنجد منطقة اسمها « سومر » وكان فيها سكان اسمهم الكلدانيون وأقاموا بها بلدا اسمه « اور » وغيره . وإلى شمالها حضارة

«أكاد» أو «عقاد». إلى الشمال من «سومر» مستقلة عنها ولها شخصيتها ولا تزال إلى الآن لها شخصيتها ، ثم إلى الشمال من هذه تأتي «بابل» وعندها يقترب النهران أحدهما من الآخر - ثم في الشمال الشرقي «آشور» وهي مركز آخر للحضارة في التاريخ المتأخر . فهذه حضارات ليست متعاصرة ، وإنما هي «متعاقبة» ، سلسلة من الوحدات المتعاقبة . من هنا كان العراق الأوسط (والذي هو العراق الحقيقي) . . . كان هو «أرض الفُرقة» التي تعددت فوقها الحضارات . ولم تعرف الوحدة التاريخية بينها إلا في العصور التاريخية المتأخرة . .

كانت هذه «الفُرقة» موجودة بصفة خاصة في هذه المنطقة . فكيف تنتظر من هذه المنطقة العراقية الوسطى أن تنشأ فيها زعامة وقوة «توحد» وهي لم تستطع أن «توحد» إلا متأخرًا في التاريخ - والخلاف لا يزال قائمًا في بعض أجزائها : المدن المختلفة ومراكز الحضارة المختلفة في الكوفة والبصرة وغيرهما كلها حضارات وأفكار غير مترابطة . فلن تكون نموذجاً يرسم الوحدة العربية التي ننشدها في كل عالمنا العربي . في الوقت نفسه أدى هذا الشقاق إلى نوع من التعصب أو العصبية الإقليمية بحيث إنه إذا ظهر زعيم فإنه ينتسب إلى إقليم واحد من هذه الأقاليم - يرتبط به ويتزعم وحدته ، ويكون له عصبية متصلة به . فإذا كان من إقليم معين في الشرق أو إقليم على حافة الجزء الأوسط - فهذا يكون له نوع من التعصب الفردي هناك في موطنه . ومن هنا نجد أن العراق في تاريخه الطويل نشأ فيه أفراد لهم زعامات فردية إقليمية . سمها «شعوبية» إذا أردت ، أو سمها «إقليمية» - هذه الزعامة أولاً تسير على غير المفهوم العربي العام الذي قلته من قبل ، وهو أن العربي الحق لا «ينقاد» ولا «يقود» - العربي له شيء آخر أنا سميت به - في السنوات العشر الأخيرة بصفة خاصة - «الريادة» فهو يرود بالمبادئ التي يدعو لها والتي يضحى من أجلها - هذه هي «الريادة» - المطلوبة في العالم العربي . وهي ليست «قيادة» ولا «زعامة» ولكن «ريادة» . وإذا حاول أي قطر في العالم العربي أن يتصدى للزعامة . ولو في العراق كما ظهر أخيراً . فهذا شيء - في تفسيرى أنا ، وفي أسلوبى الذى أتبعه معكم في تأصيل الوحدة العربية وتأصيل الحياة العربية . . . هذا معناه أن العالم العربي ليس من صالحه أن يسعى وراء «زعامة» أو ينقاد وراء زعامات أو يخلق زعامات قوية فردية من هذا

النوع ، انما يسعى إلى ان يحقق «ريادات» . من هنا فعنصر القوة في الوحدة العربية التى نحن بصدددها ليس هو الزعامة وليس القيادة وانما الريادة (بل الريادة الفكرية) . فعلماء الأمة العربية ومثقفو الأمة العربية ومفكرو الأمة العربية . . . هؤلاء هم الذين سيبنون عنصر الريادة الذى تسير فيه الأمة العربية نحو أهدافها . والوحدة العربية اذا تحققت في مستقبل نرجو ألا يكون بعيداً فهي اما أن تتحقق بأسلوب خاطيء وهو أسلوب القوة وهو أسلوب الفرض ، ولن نقبله نحن كعرب - فإى واحد تجرى في عروقه نقطة دم بدوية ترده دائماً إلى أصله البدوى الذى يجعله لا يقبل الانقياد ويرفض القيادة وإن كان مستعداً لأن يقبل «الريادة» - لاسيما «ريادة التوجيه» . ومن هنا يجي دور المثقفين ودورنا بالنسبة للأزمة الحالية .

هذا هو التحليل الجغرافى . نتصورولقد تعقدت الأمور أكثر بأن ظهرت هناك ادعاءات تاريخية غير علمية . كأن نتصور ان شط العرب والكويت جزء من العراق ، هذا تصور غير مؤصل تاريخياً والتصور الصحيح هو أن هذه المنطقة لا كانت خارج العراق في التاريخ القديم ، شط العرب ورأس الخليج عُمرأ أساساً بعناصر بدوية قادمة من الصحراء . وإذا كان هناك من يدعى لنفسه مثل هذا الحق فإن أهل البادية أولى بأن يكون لهم هذا الحق . بل انه قد يكون حقاً شارك فيه غيرنا بعض المشاركة . فأول تعمير قديم لرأس الخليج كان على يد تجار وملاحين من اليونان . ولعلكم ستستغربون لهذا الكلام ، ولكن اليونان ورثوا النشاط الفينيقي . والفينيقيون ، انفسهم اما انهم بدءوا في شواطئ الخليج وامتدوا إلى البحر الأبيض أو بدءوا في البحر المتوسط وامتدوا إلى الخليج ، وكونوا علاقات مع شواطئ الخليج ، انما من جاء بعدهم في هذا الموقع لم يكونوا عربا خالصين وانما كانوا هم الاغريق الذين اختلطوا بالعرب ، وذهبوا إلى منطقة المدينة التى تسمى الآن «حرم شهر» - واسمها العربى «المحمرة» - واسمها قبل ذلك «شراكس سبازينو» . وقد انشأها اليونان ، وكان لليونانيين أيضاً نشاط مختلط بالعرب في جزيرة «فيلكة» وهى اقدم في العمران من الكويت نفسها . واختلط اليونان هناك ببعض العناصر العربية التى جاءت من البادية وكان ذلك على الشاطئ وفي بعض الجزر وهى هذا نشاط تاريخى لا نستطيع أن ننكره وما زالت الآثار موجودة في «فيلكه» . أنا اعرف الكويت منذ عام ١٩٥٣

وكننت دائماً أحرص على زيارة فيلكة - اذكر نفسى بالتاريخ العربى الاقدم الذى اختلطنا فيه بعناصر حضارية . أقدم منها ، والميزة الكبرى للحضارة العربية انها حضارة متعاونة مع غيرها - ليست لديها مركبات نقص ، لا تستنكف أن تقتبس من الخارج ، حتى ألفاظ اللغة العربية فيها مثل هذا والعربى لا يستنكف أن يأخذ من غيره فى غير حرج ، وهو يعطى غيره من غير منّ ويأخذ عن غيره من غير وجل وفى غير شعور بمركب النقص - وفوق كل هذا ربما كان الإنسان الوحيد الذى سما فوق الشعور بمركب النقص هو الانسان العربى ، خصوصاً الإنسان العربى المسلم الذى وصل إلى الإسلام ، لأن هذه الأصول كلها عربت وقننت فى الشريعة الإسلامية - أصبحت قواعد مؤسسة فى حياتنا . وإذا كنا نخرج عنها من وقت لآخر ، فهذا خروج على طبيعتنا . من هنا فان ذكر هذه الأشياء كلها يذكرنا بالحقائق التاريخية التى يجب أن نذكرها .

وهذا الشكل تنتقل من منطقة العراق إلى منطقة الخليج ، المنطقة الثانية، وهى التى حدث عليها العدوان - ولا تصدقوا أن الخطة كانت بالنسبة للكويت وحدها ، فأنا عاصرت هذه المرحلة منذ سنوات طويلة - منذ أوائل الخمسينيات وعشت هذه التجربة مع الحضارة والحياة العربية فى الكويت ، والحضارة والحياة العربية فى العراق ، ليس مع الافراد فقط . وأنا سعدت بعلاقة طيبة مع اخواننا العرب جميعاً ، إنما نحن فى هذا ينبغي ان نعود بصدق وصراحة إلى أصولنا . ولا ينسينا هذا سجننا العربية . يبدو ان الخطة كانت ستمتد إلى الظهران وإلى مناطق البترول ، بل وربما إلى أطراف اليمن ولقد كانت هناك صلة قديمة جدا بين عمان والعراق - والعمانيون هم ناقلون للفكر والحضارة للخارج . هؤلاء هم الذين نقلوا الفكر العربى الاسلامى إلى شرق إفريقيا والذين نقلوه أيضاً إلى الهند واندونيسيا ، وإنما شرق إفريقيا أساساً كان مجال حركتهم . لاشك أن العراق كان سيستغل هذا الموقف كله لينتقل منه إلى شرق الجزيرة العربية وإلى المحيط الهندى - انها العيب فى أن الإنسان يجب أن يعلم قدر قوته واقعياً . . ما هى قدرته ؟ هل أنت تستطيع أن تتحكم فى موارد البترول فى العالم ؟ - بعض هذه الأفكار متخلفة عن زمنها ، فكرة التوسع هذه لو أنها جاءت من ٢٠٠ سنة أو ١٥٠ سنة ، قبل أن تظهر قيمة البترول ، فيمكن أنها كانت تنجح . إنما

هى لا يمكن أن تنجح الآن - بعد أن ظهرت مصالح مستقرة بالنسبة للبترول الذى أصبح هو أساس القوة العسكرية . ولقد كان الإنجليز أول من أنتبه لذلك . فسفن الأسطول بدلا من أن تحمل الفحم بكميات ضخمة ، تحمل الآن بترولا بكميات تكفى فترة أطول ، وتزود نفسها بالبترول من سفن فى البحر تقترب من السفن الحربية وتزودها بالبترول فى سهوله . والبترول الآن تقوم عليه الصناعات فى أوروبا . فكيف اغفل عن كل هذا وادخل فى عملية عسكرية كهذه . واسلحتى مستوردة وكلها مشتراة لا تصنع هنا . يجب اذن أن نفهم العصر ، ونفكر على مستوى العصر . لقد كاد هذا التفكير أن يكلفنا الكثير والكثير ، بل إنه كاد أن يكلفنا الكويت - وهى جوهرة بنيناها بمجهود أكثر من ٤٠ سنة من عمل العرب . ولا نستطيع فى العصر الذى نعيش فيه أن نتصور أن نقيم الحضارة ونوجه التاريخ وحدنا مستقلين عن غيرنا - لأننا لا نفرد بالموقف . هذا الموقف أدركته مصر منذ قديم . لأن مصر كانت قد أدركت منذ أيام الاسكندر أنها لا تملك مصيرها وحدها . وأول حرب عالمية ظهرت هى حرب الاسكندر وقبل ذلك كانت مصر مركزاً حضارياً وكان الشرق الأدنى مركزاً حضارياً وكانت اليونان مركزاً حضارياً آخر - وكان شرق إفريقيا مركزاً آخر وإلى الشرق من ذلك كانت إيران مركز حضارة - والهند مركز حضارة - والصين مركز حضارة - وتركيا مركزاً مستقلاً . وكانت الصلات بين هذه المراكز أن كل مجموعة تتصل بها جاورها فقط - أقصى ما حدث من حروب قديمة عندما كانت الحروب بين مصر والفرس فجاء قمييز هنا - ومع ذلك استطعنا بمعونة الصحراء أن ندفن جيشه تحت رمال الصحراء ، لأننا كنا عند نهاية المشوار من إيران إلى حدود مصر الغربية فانقطع «نفسهم» ، كما يقال . . . هكذا كانت الاتصالات القديمة . مناطق متجاورة يتصل بعضها ببعض بحكم الجوار . أما فى العصر الحديث فالأمر ليس كذلك . ونذكر أنه عندما جاء الاسكندر عبر من اليونان إلى آسيا الصغرى ثم إلى الشام ثم إلى مصر ووصل إلى حدود ليبيا (سيوة) - ثم عاد شرقاً إلى إيران وتركستان والهند ووصل حدود الصين ، فاحتكت كل هذه المناطق بعضها ببعض ، فكانت صحوة . هى أول صحوة عالمية فى التاريخ . وانقسم تاريخ مصر بعد ذلك قسمين كبيرين هما عصر مصر الفرعونية . والعصر اليونانى والرومانى والعصر الاسلامى بعد ذلك .

وانعكست صورة ذلك على تاريخ الشرق العربى كله . وحتى فى عصرنا الحاضر ، فان العرب لا يستطيعون أن يعتبروا المشكلة عربية / عربية فقط ، فهناك عالم له مصالح ومصالح حيوية وهو مستعد لأن يحارب من أجلها . والذين ساعدونا ساعدونا لسببين : السبب الأول أننا طلبنا ذلك والسبب الثانى أن مصالحهم تقتضى ذلك . ولو لم تكن قد دعوناهم لكانت المصالح قد أتت بهم إلى موقعنا .

بهذا الشكل اعتقد اننى درت حول الموضوع ولكننى لم اذكر معلومات بقدر ما سردت لكم بعض الانطباعات فى الجغرافيا العامة . ونحن هنا فى هذه الجمعية بل وفى اتحاد الجغرافيين العرب نكون مدرسة متكاملة ، ليس فيها نواز فى الفكر الجغرافى العربى .

نحن نحس ان علم الجغرافيا هو أقرب العلوم إلى الفكر الإنسانى ، وهو الذى يجمع بين العلم والثقافة ، ففيه كلام يميز بين «الصواب والخطأ» وكلام يميز بين «الحق والباطل» . نحن فى هذه المدرسة وهذه الندوة مطلوب منا أن نقلب أوجه الأمر بالنسبة للمنظور الجغرافى لأزمة الخليج — والصورة التى تنتهى إليها منتشر ويقرأها الناس وأرجو أن يقرأها الساسة فى البلاد العربية كلها .

ونحن فى ذلك كله طلاب «ريادة» ونرجو أن يكون الساسة فى العالم العربى كله طلاب «ريادة» لا طلاب «زعامة» ولا طلاب «قيادة» ولا طلاب «راى مفروض» . فالشعب العربى لا يحب أن «يقاد» وإنما يرحب دائماً بأن «يراد» إلى سبيل الحق وسبيل الخير . والله يوفقنا جميعاً ويسدد على درب التاريخ خطانا .

« ١٧ »

فى بلاد اليمن السعيد

فى بلاد اليمن السعيد (*)

يعرف الناس عن بلاد العرب أنها بلاد صحراوية جافة ، يندر بها المطر ولا يتنظم سقوطه ، وتقل فيها النباتات ، ويصعب استنباتها إلا حول العيون والآبار ، ويشغل أهلها بالرعى والانتقال وراء الأبل والأنعام ، سعياً إلى مواطن الكلا والمرعى ، ويعمل فريق منهم فى النقل التجارى على طرق القوافل ، حيث تتباعد المسافات ، ويشق السفر والانتقال إلا على الجمال مع حداثها من رجال البادية الأشداء . والصورة العامة التى تحضر الذهن عندما نسمع اسم الجزيرة العربية أنها بيداء شاسعة ، تنشر مواطن الكلا لاسيما فى بطون أوديتها ، ولا تثمر تربتها الرملية غير النخيل وقليل من الحب أو الثمر ، ويعيش أهلها عيشة البدو والأعراب ، فى بيوت من الشعر أعدت ليتنقل بها أصحابها خفيفة فوق ظهور الجمال ، ولا تستقر الحياة فيها ولا تتركز إلا فى واحات قليلة هنا وهناك .

ولكن الذى يدرس الجزيرة العربية يجد أن هذه الصورة لا تصدق إلا على مناطق معينة من تلك البلاد الشاسعة . وهى تصدق بصفة خاصة على المناطق الداخلية والوسطى من شبه الجزيرة . أما فى الشمال فهناك ما يعرف بالهلال الخصيب ، وقد اشتهر بأنه موطن المدنية المستقرة منذ أقدم العصور ، ويشمل بلاد العراق والشام بمعناها الأوسع . وأما فى الجنوب فهناك عمان وحضرموت واليمن ، وكلها من مواطن المدنية والاستقرار القديم . واليمن وحياة أهلها هى موضوع هذا البحث . ولا بد لنا إن نحن أردنا أن نتفهم الحياة فى بلاد اليمن من أن نستعرض شيئا عن ظروفها الجغرافية العامة . فالبيئة الجغرافية كما نعرف هى مسرح النشاط البشرى .

(*) هذا بحث فى الجغرافيا التاريخية والمقصود «باليمن السعيد» هو ما أطلق عليه كتاب الرومان Arabia Felix أو بلاد العرب السعيدة وهو ما يعرف الآن باليمن الشالى أو الجمهورية العربية اليمنية قبل أن تتوحد مع اليمن الجنوبية (عدن والمحميات سابقا) .

وكثيراً ما تتكيف حياة الناس وأعمالهم بظروف هذا المسرح الطبيعي . ولذلك وجب علينا أن نشير إلى عوامل البيئة الأساسية التى أثرت ، ولا تزال تؤثر فى حياة الناس وتاريخهم فى ذلك الركن من الجزيرة العربية .

وتختلف بلاد اليمن عن بقية البلاد العربية بأمور أساسية . أولها أنها هضبة عالية تسببت فى الأصل عن انكسار البحر الأحمر وارتفاع حافته فى بلاد العرب من جهة ، وفى الحبشة وشمال شرق إفريقية من جهة أخرى . وكان الارتفاع ظاهراً فى بلاد اليمن بصفة خاصة ؛ لأن السطح أضيفت إليه طبقات من اللابة (اللافا) والتكوينات البركانية ، التى زادت من سمك الطبقات وارتفاعها . ويتراوح متوسط ارتفاع هضبة اليمن العليا بين ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ متر ، وإن كانت بعض جهاتها ، كمنطقة جبل النبى شعيب الواقعة إلى الغرب من صنعاء ، تزيد على ٣٥٠٠ متر ؛ وربما كان هذا الجبل أعلى القمم فى بلاد العرب كلها ما عدا بعض الجبال غير المعروفة فى بلاد عسير ؟ وقد ترتب على ارتفاع بلاد اليمن أن امتازت بمناخها المعتدل ، رغم أنها تقع فى منطقة حارة . فضلاً عن أن هذا الارتفاع أدى إلى ازدياد الأمطار الموسمية الصيفية ، التى تزيد فى بعض جهات الهضبة ، لاسيما ركنها الجنوبي الغربى ، على أكثر من ٥٠ سنتيمتراً فى العام ، ولا تقل على الجملة فى مختلف جهات الهضبة العليا عن ٤٠ سنتيمتراً ؛ وهو قدر يكاد يوازي عشر أمثال متوسط الأمطار فى الجهات الصحراوية الحارة من شبه الجزيرة ؛ بل هو قدر يكفى لنمو النباتات والأشجار التى تكسو معظم الهضبة ، ما عدا أطرافها الشرقية الداخلية ، حيث يقل المطر ، وما عدا منطقة تهامة ، وهى سهل ساحلى ضيق يمتد على طول شاطئ البحر الأحمر ، ويختلف فى مظهره الطبيعي وحياة سكانه عن الهضبة اليمنية بالمعنى الصحيح .

وهناك عامل جغرافى آخر ميز اليمن السعيد عن غيره من جهات الجزيرة العربية ، وذلك أن معظم صخوره من المواد البركانية التى تسربت من باطن الأرض فى شقوق عدة حتى بلغت السطح فغطته بطبقات سميكة (مما يسميه الجيولوجيون باللابة الغطائية) ؛ أو التى ظهر بعضها فى هيئة براكين مخروطية الشكل تكونت فى آخر الأعصر الجيولوجية ، ولم يزل بعضها ثائراً مضطرباً حتى خلال العصر التاريخي . ولقد تفتتت هذه المواد البركانية بفعل العوامل الجوية والأمطار ، فكونت تربة صالحة

للزراع والانبات ، بل صالحة للاحتفاظ بالرطوبة وتغذية النبات بها ، حتى بعد أن ينقضى موسم المطر . وتلك التربة الغنية تشبه التربة التى توجد فى الجهات المقابلة من الهضبة الحبشية ؛ بل تشبه إلى حد ما التربة الغنية التى يجلبها النيل إلى مصر ، وفى ذلك يمتاز اليمن عن معظم البلاد العربية ، حيث تسود التربة الرملية أو الجيرية أو التربة المتبلورة الجرداء ، ما عدا مناطق قليلة هنا وهناك .

فخصب اليمن السعيد وإيناعه وغناه بالنبات والخضرة والخيرات الزراعية يرجع إلى ارتفاعه وكثرة أمطاره وتربته الصالحة . وتلك كلها قد جعلت منه «بلاد العرب السعيدة» كما كان يسميه قدماء الكتاب من الجغرافيين فى عهد اليونان والرومان . ولقد ساعد على تميزه بصفة خاصة سقوط أمطاره فى الصيف أى فى الفصل الذى يشتد فيه القيظ وتقسو الطبيعة على ما قد يكون بالأرض من نبات ، فىأتى المطر ليسعف النبات بالماء فى الوقت المناسب ؛ وذلك بخلاف الحال فى شمال بلاد العرب مثلاً حيث تسقط الأمطار فى أشهر الشتاء ، ويمتاز الصيف بارتفاع الحرارة واشتداد الجفاف فى آن واحد . فضلاً عن أن التربة فى بلاد اليمن كانت كما ذكرنا من النوع الذى يحتفظ بالرطوبة ، ويخترنها بين ذراته من فصل إلى فصل . ولذلك لم يكن غريباً أن يمتاز هذا الركن المطير الخصيب من الجزيرة العربية بأنه كان موطن حياة زراعية مستقرة منذ أقدم العصور ، تختلف عن تلك الحياة الرعوية المتنقلة ، والتى عرفت عن معظم أنحاء الجزيرة العربية . بل لم يكن غريباً أن يصبح اليمن موطناً للحضارات والمدنات القديمة والمستقرة ؛ والتى عرفت منها حتى الآن الحضارات المعينية والسبئية والحميرية . وقد استمرت كلها خلال ما يقرب من ألف وخمسمائة سنة قبل أن يظهر الاسلام ؛ كما بقى اليمن خلال العهد الاسلامى موطناً لحياة متقدمة ، ومدنية لا تقل عما نعرفه من بقية العالم الاسلامى العربى الشالى . وتابع اليمنيون حياتهم ونشاطهم فى استغلال بيئتهم وتربة أراضيهم ؛ فاستقروا على سفوح الجبال ، وأنشأوا على منحدراتها مدرجات منتظمة تحفظ التربة وتمنع الأمطار من أن تجرفها فى انحدارها إلى الأودية ، وغرسوا أشجار البن والفاكهة ونباتات الحبوب المختلفة التى أهمها القمح والشعير والذرة ؛ وارتبطت حياتهم بالأرض ارتباطاً قوياً ، واستقرت كل قبيلة من قبائلهم فى بقعة من الأرض تفلح تربتها وتستمسك بها

وتتخذها موطناً ومستقراً . وبذلك كله امتازت حياة اليمنيين على مدى العصور بأنها كانت حياة مستوطنة مستقرة ، بل كانت حياة قرى وحضر أكثر مما هي حياة رعى وتنقل وارتحال .

وكان هناك عامل جغرافي آخر ميز الحياة في بلاد اليمن ؛ ذلك هو موقعها الجغرافي في ركن من الجزيرة العربية ، تحيط به الصحارى والمناطق الجافة الوعرة في الشرق (والشمال الشرقي) ، أى في اتجاه صحراء الربع الخالى ، حيث الرمال والكثبان والأرض الوعرة الجرداء ؛ وفي الشمال أى في اتجاه بلاد عسير والحجاز ، حيث تسود الصخور البلورية القديمة وتقل الأمطار كلما اتجهنا بعيداً عن الركن اليمنى . ولقد ساعد موقع بلاد اليمن واختلافها عما جاورها من أرض الجزيرة على أن تحتفظ تلك البلاد بطابع وكيان خاص . فضلاً عن أن وقوعها في أقصى الجنوب الغربى ، وفي مواجهة بلاد الحبشة وشرق إفريقيا قد وجهها توجيهاً خاصاً ، فاتصلت حياتها بالبحر الأحمر وتجارتها منذ أقدم العصور . وكانت تؤلف جزءاً مما نسميه بلاد « بونت » ، وهى البلاد القديمة التى اتصل بها قدماء المصريين ، والتى يرى الباحثون أنها تشمل إلى جانب بلاد اليمن بلاد الحبشة والصومال . ولقد توثقت الصلات القديمة بين اليمن وشواطئ أرتريا والحبشة . والثابت الآن أن كثيراً من عناصر اليمن القديمة قد هاجرت إلى شرق إفريقيا واستقرت هناك ؛ وأن الساميين القدماء إنما هاجروا إلى الحبشة وسكنوها عن طريق بلاد اليمن وباب المنذب ؛ وأن بعض ملوك اليمن الأقدمين لاسيما في العهد الحميرى قد وسعوا ملكهم في الشواطئ الإفريقية المقابلة ؛ كما أن الأحباش بعد ذلك غزوا اليمن واستقروا فيه حيناً قبل أن يظهر الاسلام . ولاتزال صلات التجارة والثقافة والمهاجرة قوية بين الشواطئ اليمنية والإفريقية على جانبي البحر الأحمر وخليج عدن .

كذلك تمثلت قيمة الموقع الجغرافي لبلاد اليمن في أنها كانت تشرف على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، وعلى الصلات البحرية التى تربط بين أهل الشمال والبحر المتوسط والمناطق المعتدلة من جهة ، وأهل البحر الأحمر وبحر العرب وما يليهما من المحيط الهندى والمناطق الحارة من جهة أخرى . وكان ذلك الموقع مصدر خير لليمن وموانيه القديمة في العصر التى كان اليمن فيها قوياً ، فخرج ملاحوه إلى البحار

ونقلوا المتاجر بين الشرق والغرب ، وأفاد اليمن من ذلك إلى حد كبير ، كما حدث في أواخر العهد الاغريقي الروماني ، وفي بعض أدوار العهد الاسلامي . ولكن هذا الموقع نفسه كان مصدر بلاء في أعصر ضعف اليمن ، عندما طمع العالم الخارجي فيه أو في بعض موانيه على الأقل . ولقد حاول الرومان أنفسهم أن يغزوا قلب اليمن ؛ ولكنها كانت غزوة قصيرة محدودة النجاح . كما طمع الغزاة في بعض الموانئ والنقط الساحلية في الأعصر القديمة والحديثة على حد سواء . وكان آخر الأمثلة استقرار البريطانيين في عدن ؛ لأنها تقع على طريق الهند وتصلح قاعدة للأسطول في تحكمه وحمايته لطرق التجارة مع الهند من جهة ، ومع شرق إفريقيا من جهة أخرى . كذلك طمع البريطانيون واستقروا في بعض الجزر الهامة التي تواجه سواحل اليمن وأهمها جزيرة بريص . كما طمع الفرنسيون في نقطة الشيخ سعيد الواقعة في ركن باب المندب اليمنى بالذات .

إلى هذه العوامل الجغرافية المختلفة ، والتي لم يكن الموقع الجغرافي إلا واحداً منها ، نستطيع أن نرجع ما امتازت به بلاد اليمن عن بقية الأقطار العربية من أنها لم تكن صحراء ولا منطقة بدو ورعاة ، وإنما كانت هضبة عالية ، غزيرة الأمطار الصيفية غنية التربة ، مكسوة بالنباتات الطبيعية والمزروعة ، يعيش أهلها عيشة الاستقرار يفلحون الأرض وينشئون المدنات العريقة المستقرة ، ويشرفون من هضبتهم وموانئهم على طرق النقل والتجارة ، ويهاجر ملاحوهم بعيداً عن بلادهم ، ينقلون معهم ثقافتهم السامية أول الأمر ، ثم ثقافتهم العربية الاسلامية بعد ذلك ، إلى شرق إفريقيا أو إلى بلاد نائية بعيدة في الشرق الآسيوي الأقصى .

على أن هذه العوامل الجغرافية قد ميزت بلاد اليمن من ناحية أخرى ، فأعطتها طابعاً خاصاً من الحياة ، يختلف عما نراه في بقية أرض الجزيرة ، بل أضفت عليها شخصية إقليمية متميزة ، تمثلت على الخصوص في ميدان الثقافة . وهى الشخصية التي احتفظ بها اليمن حتى بعد أن دخل إليه الاسلام ، وبعد أن صار للجزيرة العربية كلها دين واحد ولغة واحدة وثقافة موحدة إلى حد كبير . وليس من شك الآن في أن اليمن قد استطاع بموارده العظيمة وتراثه العريق في الثقافة أن يؤثر في بناء الثقافة الإسلامية نفسها قبيل ظهور الإسلام وبعده . ولكن اليمن وقد أعطى بلاد

العرب ما أعطى من ألوان الثقافة قبل أن يظهر الإسلام ، أبى في العهد الإسلامى إلا أن يحتفظ بحياته الخاصة ، وشخصيته التى كانت في واقع الأمر مشتقة من بيئته الجغرافية المميزة ، ومدنيته التى ارتبطت منذ أقدم العصور بتلك البيئة . ولذلك فإن اليمن قد استطاع بموارده العظيمة وتراثه العريق في الثقافة أن يؤثر في بناء الثقافة الإسلامية نفسها قبيل ظهور الإسلام وبعده . ولكن اليمن وقد أعطى بلاد العرب ما أعطى من ألوان الثقافة قبل أن يظهر الإسلام ، أبى في العهد الإسلامى إلا أن يحتفظ بحياته الخاصة ، وشخصيته التى كانت في واقع الأمر مشتقة من بيئته الجغرافية المميزة ، ومدنيته التى ارتبطت منذ أقدم العصور بتلك البيئة . ولذلك فإن اليمن لم يلبث أن أصبح قاعدة لجماعة الزيديين ومذهبهم الذى اشتق في الأصل من المذهب الشيعى ، ولكنه سرعان ما اتخذ صبغته الاقليمية الظاهرة ، فأصبح يميز حياة اليمنيين ومذهبهم في الدين والسياسة حتى يومنا الحاضر .

ولقد نشأ المذهب الزيدى أول ما نشأ في أوائل القرن الثانى للهجرة ، أى في أيام زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فأسس مذهبه الذى ينتسب إليه أتباعه الزيديون حتى الآن . وقد توفى في عام ١٢٢ الهجرى ، وخلفه مع فترات انقطاع ، عدد متلاحق في الأئمة من أهل الشيعة والزيود من سلالة على رضى الله عنه . واختار أغلب هؤلاء الأئمة بلاد اليمن مقاماً لهم حتى تركز المذهب وأتباعه في بلاد اليمن ، واقتصروا عليها بالتدريج ، وأصبح الزيود في الهضبة اليمنية يجتازون إمامهم ويباعونه ، كما تقضى به الشريعة الإسلامية ، وكما جرى عليه العمل في عهد الخلفاء الراشدين ، ويركزون في يديه السلطتين الروحية والمدنية . ولا يزال العمل جارياً على هذا التقليد في هضبة اليمن العليا حتى الآن .

وقد انتشر المذهب الزيدى في بلاد اليمن ، لاسيما المناطق الجبلية العالية منها . ويتبعه الآن أكثر من مليونين ونصف مليون من سكان اليمن الذين يبلغون حوالى أربعة ملايين أو أكثر . ويتركز الزيود وتشتد عصبيتهم لمذهبهم في الجهات الجبلية ، لاسيما في شمال اليمن وقلبه . ولكن الزيود أقل تركزاً وأقل استمساكاً بمذهبهم كلما اتجهنا نحو الشرق أو الغرب أو الجنوب . ويتبع باقى سكان غرب اليمن ، ويقدرعون بأكثر من بنحو نصف مليون أو أقل ، المذاهب السنية ، وأهمها مذهب الإمام

الشافعى ، الذى ينتشر على الخصوص فى منطقة تهامة المنخفضة ، التى تقع على ساحل البحر الأحمر بما فيه ميناء الحديد ، كما يوجد أيضاً فى بعض أطراف اليمن الجنوبية الشرقية . وذلك كله بخلاف سكان اليمن الجنوبي (عدن وحضر موت) .

على أن الشيء المهم والطريف أن اختلاف الهضبة اليمنية وتميزها من بقية الجزيرة العربية فى الحياة والفكر والثقافة والدين كان فيها يبدو صورة منعكسة من تميزها واختلافها من الناحية الجغرافية الطبيعية ؛ ذلك الاختلاف الذى امتدت آثاره وبرزت نتائجه واضحة جليلة فى حياة اليمن فى العهد الحديث . فقد امتد سلطان الخلافة العثمانية إلى المشرق العربى كله ، ولكنه كان فى اليمن ضعيفاً متضائلاً ، رغم ما امتازت به تلك البلاد من غنى وثروة وجودة فى الطبيعة والمناخ . ولقد بقيت سلطة الخلافة العثمانية اسمية على اليمن ، وكان ذلك بالطبع راجعاً إلى بعد تلك البلاد وصعوبة الوصول إليها عن طريق الحجاز البرى الشاق ، أو عن طريق البحر الأحمر الذى لا تملك تركيا القوة البحرية للاشراف عليه ؛ ولكنه كان راجعاً أيضاً إلى نفور أهل اليمن وهضبتهم من نظام الخلافة السنى ، واستمساكهم بنظامهم الزيدى بل اعتزازهم به . وقد احتفظ أهل اليمن خلال العهد التركى بامامهم الخاص ، وإن كان نفوذه لم يتعد الناحية الروحية ، وبعض شؤون الدنيا فى جهات خاصة ومحدودة من هضبة اليمن . وقصة كفاح الإمام يحيى بن حميد الدين هى صورة مصغرة من كفاح اليمن ليحتفظ بكيانه وشخصيته المميزة ، بل ليحتفظ باستقلاله وليسير على طريقته الخاصة مهما اختلف فى ذلك عن بقية أجزاء العالم العربى وأقطاره . وقد ولد الإمام فى صنعاء سنة ١٢٨٦ هجرية ، وأخذ فنون العلم والدين بتلك المدينة حتى اضطر أن يهجرها مع والده الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى فى سنة ١٣٠٧ هجرية . ولما توفى المنصور بالله فى سنة ١٣٢٢ هجرية بايع العلماء الإمام يحيى ، واتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين الإمام المتوكل على الله رب العالمين يحيى بن حميد الدين . وكانت مبايعة الإمام يحيى فى ظروف تحفزه إلى أن يتزعم الحركة الدينية والقومية فى البلاد ضد الأتراك ونظامهم فى الخلافة والحكم . فلم يلبث أن ألب القبائل وجمعها من حوله ، وناصب الأتراك العداء ، واستطاع سريعاً أن يدخل صنعاء بالذات وأن يستقر بها إلى حين ، واضطر الأتراك إلى أن ينقلوا مركز قوتهم ومعسكرهم وسلطانهم إلى قلعة مناخه فى

الجبال الواقعة إلى الغرب من صنعاء . على أن الأتراك ما لبثوا أن جمعوا قواتهم وأخرجوا الإمام من صنعاء ، فتراجع نحو الشمال واتخذ مركزه وقاعدته بين الجبال لاسيما حول صَعْدَة في شمال اليمن . حتى إذا ما شبت الحرب العالمية الأولى ، وشغل الأتراك بكفاحهم في الشمال من جهة ، وانقطعت مواصلاتهم في قلب الجزيرة وفي البحر الأحمر الذي يشرف عليه البريطانيون من جهة أخرى ، نجح الإمام وأتباعه من الزيدود في أن يدخلوا صنعاء مرة أخرى في عام ١٣٣٧ الهجرى أى في أواخر تلك الحرب . ومنذ ذلك الحين مهدت السبيل لأن يستتب الأمر بالتدريج للإمام وقواته في المناطق الجبلية والداخلية ، حيث يسود المذهب الزيدى ، ثم في المنطقة الساحلية حيث يسود المذهب الشافعى .

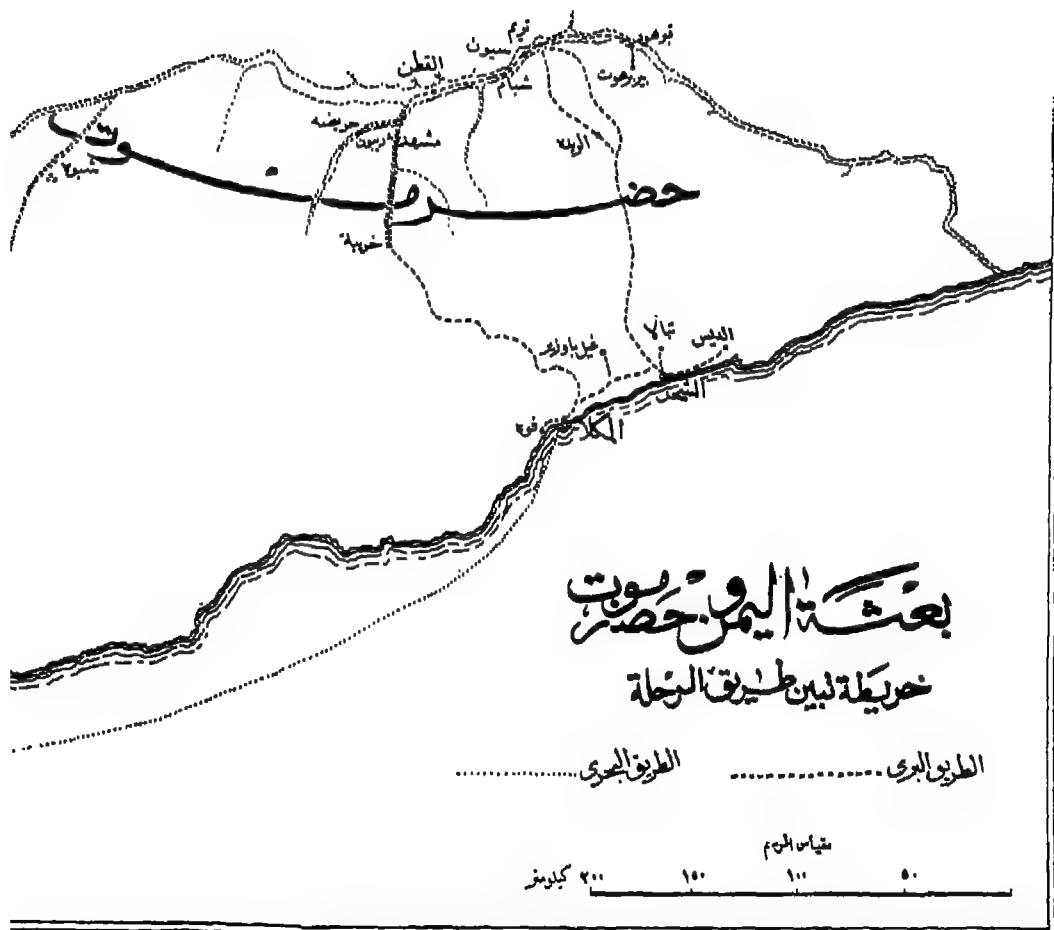
ومع ذلك يمكننا أن نقسم جهاد الإمام يحيى بن حميد الدين في سبيل إقامة دولة اليمن الحديثة إلى مراحل ثلاث : أولاها مرحلة الكفاح ضد الأتراك ، وقد بدأت بتولية الإمام يحيى في أوائل القرن الحالى ، واستمرت حتى أوائل الحرب العالمية الأولى . وكان ختامها أن طرد الأتراك وحل الإمام محلهم على رأس السلطة المدنية المركزية في صنعاء . ولكن الشيء الطريف أن جهاد اليمن في هذه المرحلة كان جهاداً قائماً بذاته ، ومستقلاً إلى حد ظاهر عن جهاد بقية الأقطار العربية ضد سلطان الأتراك ، وفي ذلك صورة منعكسة من شخصية اليمن ومقوماتها الجغرافية التى أشرنا إليها . والمرحلة الثانية في الجهاد هى التى قضاها الإمام ورجاله ومعاونوه في توحيد البلاد داخلياً والقضاء على العناصر النافرة والقبائل التى اعتادت الفوضى والتى أفسدت وحدتها نظم الحكم أيام الأتراك . وقد استمرت هذه المرحلة قرابة خمسة عشر عاماً ، جاءت في أعقابها المرحلة الثالثة التى أراد فيها الإمام أن يحدد مملكته ، وأن ينظم علاقاته بالعالم الخارجى ، ولكن في أضيق نطاق ممكن . وكان الإمام في هذه المرحلة ممثلاً صادقاً لروح اليمن الذى عاش أهله أجيالاً متلاحقة خلال العهد التركى بمعزل عن العالم ، بما في ذلك البلاد الإسلامية العربية نفسها . وكان طبيعياً مع ذلك أن يحتك الإمام الراحل أول ما احتك ببريطانيا التى كانت قد وطدت أقدامها خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين على سواحل بلاد العرب الجنوبية ، واتخذت عدن قاعدة لأسطولها وميناء لسفنها التى تجرى بالتجارة بينها وبين الهند وشرق

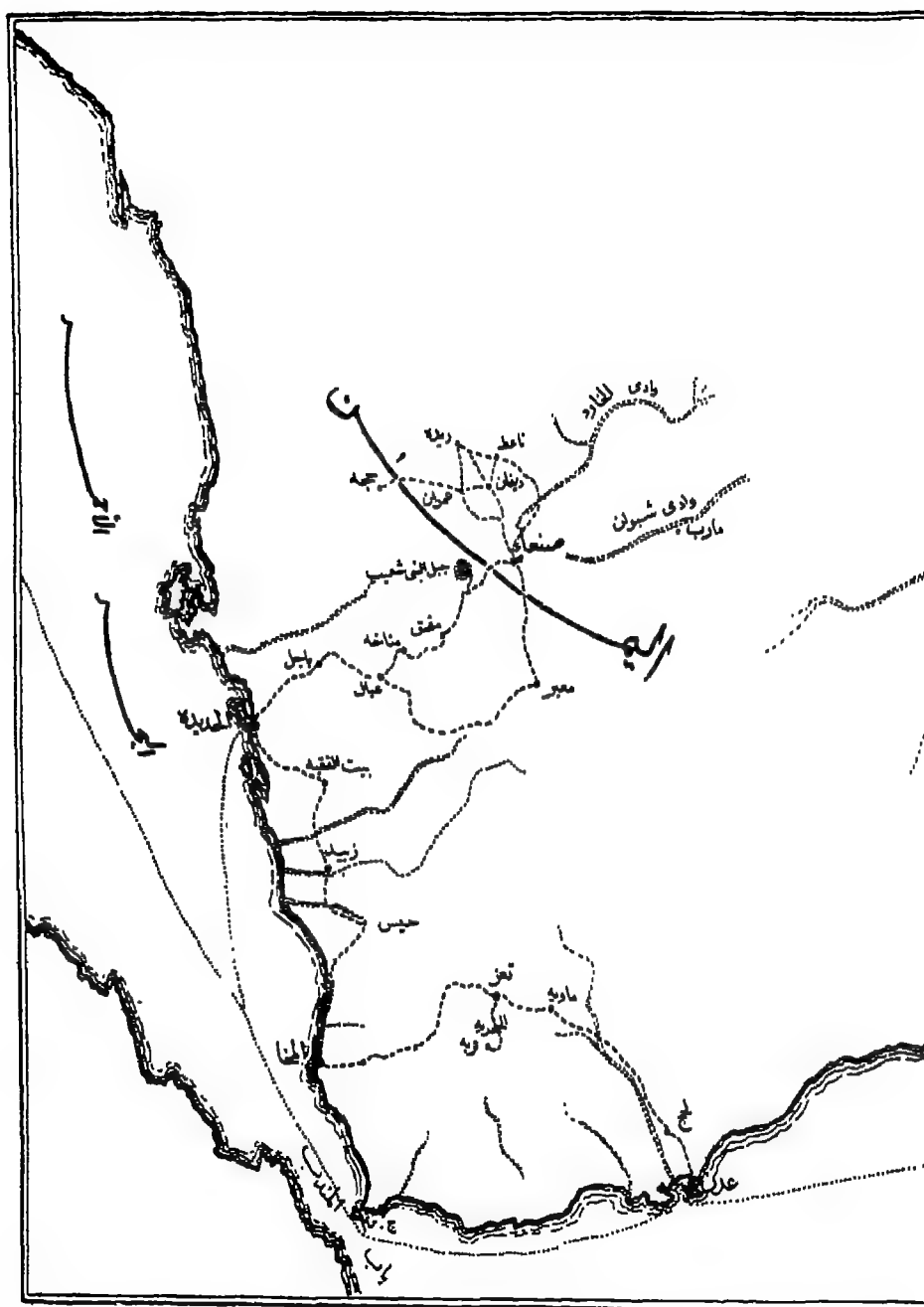
إفريقية ، كما وسعت نفوذها فيما أصبح يعرف بمناطق الحميات ، وهى التى تقع إلى شمال عدن وتمتد إلى أراضى سلطنة لحج وسلطنات حضرموت القديمة ، وهى توحدت فيما بينها وكونت اليمن الجنوبي ثم تمت وحدتها جميعاً مع سائر اليمن السعيد وأصبحت جميعاً جمهورية اليمن الموحدة .

« ١٨ »

**بعثة الجامعة المصرية إلى اليمن
وحضرموت (١٩٣٦)
تقرير عن دراسة ميدانية رائدة**

بعثة اليمن وحضرموت





بعثة الجامعة المصرية إلى اليمن وحضر موت (١٩٣٦)

تقرير عن دراسة ميدانية رائدة (*)

هذا تقرير عن النتائج العلمية والثقافية التي توصلت إليها بعثة اليمن وحضرموت ، وهي البعثة التي اشتركت في إيفادها كليتا الآداب والعلوم بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة) وكانت مكونة من أربعة أعضاء ، هم صاحب هذا الكتاب (رئيسا) والدكتور خليل يحيى نامى ، عن كلية الآداب ، والدكتور نصر شكرى والأستاذ محمد توفيق الدسوقي ، عن كلية العلوم ، كما كان لها غرضان أساسيان : الأول اجراء بعض البحوث العلمية الخاصة بالجيولوجيا ، والجغرافيا ، والآثار القديمة ، ودراسة الأجناس (الانثروبولوجيا) ، وعاداتها ، ولهجاتها ، ثم علم الحشرات . والثاني تمكين أو اصر الصلات الثقافية بين مصر وهذا الجانب من الجزيرة العربية ، وتعريف أهل اليمن وحضر موت ببعض نواحي النهضة المصرية الحديثة (**).

ولدى عودة البعثة تشرفت في العام التالى بتقديم تقرير إدارى ومالى إلى إدارة

* في عام ١٩٣٥ حصل المؤلف على درجة الدكتوراه من جامعة مانشستر بإنجلترا عن دراسات عربية ومصرية ومنحته الجامعة جائزة « لانجتون » لاجراء بحوث لاحقة بالدكتوراه ، وكان ثاني طالب غير بريطاني يحصل على هذه الجائزة . وعندما عاد صاحبكم إلى مصر أول يناير ١٩٣٦ رأى المغفور له أستاذنا أحمد لطفي السيد مدير الجامعة المصرية أن ذاك (جامعة القاهرة) فيها بعد (تخصيص مبلغ ألف جنيه مصري) وكانت قيمته أن ذاك تعادل ألف جنيه استرليني أو تزيد (ليرأس العضو الجديد في هيئة تدريس كلية الآداب بالجامعة بعثة علمية نحو سبعة أشهر (أبريل - نوفمبر ١٩٣٦) لاجراء بحوث ميدانية في اليمن وحضرموت وكان ذلك ردًا على ما قرره جامعة مانشستر . وهكذا كانت هذه البعثة أول تجربة لاجراء بحوث ميدانية مصرية في أرض العرب .

وقد رأينا من المناسب (ولو على سبيل التذكير التاريخي) أن نعيد إثبات هذا التقرير في ختام كتابنا عن «أرض العروبة» . سليمان حزين .

(*) كانت هذه من أوائل بعثات البحث العلمية الميدانية التى أوفدها الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) إلى بلاد العرب . وقد سبقتها قليلاً بعثة بحرية أخرى هى بعثة الباخرة «مباحث» إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي . وكانت تلك سنة حميدة للجامعة في عهدها الأول .

الجامعة ، مفصلاً برنامج الرحلة وأوجه الانفاق في سبيل انفاذه ، ومبيناً في الوقت نفسه بعض التفاصيل المتعلقة باستقبالنا في كل من اليمن وحضرموت وفي ولاية عدن ، وما لقينا من مساعدات من الحكومة والهيئات هناك . والآن وقد تمت مراجعة المواد والمجموعات الدراسية التي عادت بها البعثة ، وأمكن حصر النتائج العامة ، فإنني أتشرف بأن اسجل الخلاصة الآتية عن الناحيتين العلمية والثقافية من نشاط البعثة ، تاركا التفاصيل إلى البحوث الأخرى التي سأشير إلى بعض نتائجها فيما بعد .

استغرقت الرحلة قرابة سبعة أشهر ما بين أبريل ونوفمبر سنة ١٩٣٦ . وكان طريقنا ، كما هو موضح بالخريطة المرافقة لهذا ، من عدن إلى الحُج ثم إلى تعز واقليم الحجرية في جنوب اليمن ، ثم من تعز إلى المخا على ساحل تهامة الغربى لليمن ، ثم إلى ميناء الحديدية في شمال تهامة ، ثم من الحديدية اتخذت البعثة الطريق الجديد فوق الهضبة العليا إلى صنعاء ، مارة بباجل وسوق العبيد والمعر ، ثم من صنعاء قامت برحلتين إلى شمال اليمن ، واحدة إلى وادى الخارد وناعط وريدة ، والأخرى إلى عَمْران وكحلان وحُجة . ثم عادت من صنعاء إلى الحديدية عن طريق القوافل القديم ، مارة بجبل النبى شعيب ومفحق والمناخة وحجيله ثم باجل والحديدية . ومن هذه الأخيرة اتخذت البعثة طريق البحر إلى جزيرة بريم ثم عدن ثم المكلا ، ثم بالبر إلى الشحر التابعة لها ، ثم اتخذت قافلة البعثة طريق السيارات الجديد فوق هضبة الحموم إلى وادى حضرموت حيث زارت تريم ، ثم سارت شرقاً على طول الوادي إلى قبر هود وبئر برهوت ، ثم عادت إلى تريم ، ومنها غرباً إلى سيون وشبام والقطن وحريضة ثم المشهد وخرائب ريسون ، ثم على طريق القوافل في وادى دوعان إلى الخريبة ثم فوق هضبة الجول إلى كور سيبان ثم المكلا مرة أخرى ، ومنها بالبحر إلى عدن ومصر .

وقد قطع الأعضاء أثناء هذه الرحلة حوالى ٢٥٠٠ كيلو متراً ، منها نحو الثلثين بالسيارات والباقي على ظهور الدواب أو سيراً على الأقدام . وعادت البعثة بكمية وفيرة من المواد الدراسية والمجموعات العلمية التى تحتاج دراستها إلى توافر الوقت ووسائل البحث ، وقد أمكن حتى الآن حصر النتائج العلمية العامة بصفة مبدئية يمكن تلخيصها في الأبواب الآتية (*) :

(*) كان هذا وقت كتابة التقرير لأول مرة في عام ١٩٣٨ انظر كذلك: مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، ١٩٣٨ .

وقد نشرت بعد ذلك بعض النتائج الأخرى في مقالات ونشرات متفرقة .

الجيولوجيا والفيزيوغرافيا :

كان من بين الأغراض الأولى للرحلة اجراء بعض البحوث الخاصة بعلم طبقات الأرض ، خصوصاً وأن الجامعة أوفدت قبل ذلك بعثة علمية بحرية إلى شواطئ البحر الأحمر ، فكان من المرغوب فيه أن تستمر بعثتنا الجديدة في هذه البحوث على شواطئ البحر الأحمر الجنوبية . وفعلاً تم ذلك ، وتوصلنا إلى تتبع خط الانكسارات الجيولوجية على طول شواطئ تهامة الغربية لليمن وفي منطقة لحج العليا خلف عدن ، وينتظر أن تلقى دراستنا في هذه المناطق غير قليل من الضوء على التاريخ الجيولوجي للبحر الأحمر وعصور تكون انكساراته . كذلك زارت البعثة جزيرة بريم عند مدخل باب المندب ، وحددت تاريخها الجيولوجي بوجه أقرب كثيراً إلى الدقة مما كان معروفاً من قبل . كما استطاعت أن تدرس بالتفصيل تكوينات السلايا الغطائية ، وأنواع الصخور النارية المختلفة التي تكون هضبة اليمن نفسها ، وقد جمعت من هذه الصخور بضعة آلاف من العينات الجيولوجية . كذلك جمعنا كمية كبيرة من الحفريات وبقايا الكائنات البحرية القديمة التي وجدت في طبقات الصخور الراجعة إلى العصر الجوراسي (الزمن الجيولوجي الثاني) بشرق اليمن ، خصوصاً من المناطق التي لم يزرها جيولوجي من قبل . وفوق هذا فإن البعثة عيّنت بدراسة جيولوجية الزمن الرابع (أوعصر البلايستوسين) ، واستطاعت أن تثبت وجود دورين مطيرين ، تفصلهما فترة جافة أثناء هذا العصر ، وقد امتازت هذه الفترة الجافة باضطرابات بركانية كثيرة في شرق اليمن ، خصوصاً جهات همدان وما إلى شياها . وهذه الأبحاث الأخيرة يمكن أن تعتبر فريدة في بابها ، وهي تساعد على ربط الأحداث الخاصة بدبذبات المناخ واضطرابات القشرة الأرضية في ذلك العصر مع ما هو معروف من شرق إفريقية وشياها من ناحية ، ومن الهند من ناحية أخرى .

أما في حضرموت فقد درست البعثة المنطقة الساحلية وبقايا الأرصفة البحرية هناك ، كما جمعت منها كمية من القواقع . ثم انتقلت إلى الهضبة الداخلية حيث تسود الرواسب الجيرية التي ثبت أنها ترجع إلى أوائل عصر الأيوسين (أول الزمن الجيولوجي الثالث) ؛ ولو أنها تتركز في كثير من المواضع على رواسب رملية أو

كوارتسيه ترجع ، على ما يظهر إلى أواخر العصر الكريتاسي (آخر الزمن الثانى) . وقد توصلت البعثة هنا إلى اكتشاف بعض آثار يرجح أن تكون لثوران بركانى فى بداية الايوسين ، و ينتظر أن تسفر الدراسات التفصيلية لعينات الصخور التى جمعناها من حضرموت ، ومقارنتها بعينات اليمن إلى تحقيق بعض النقاط الهامة فيما يختص بتاريخ الثورات البركانية فى هذا الجزء من الجزيرة العربية خلال العصر الجيولوجية .

أما فيما يختص بالجيولوجيا الاقتصادية فإن البعثة لم يكن فى برنامجها أن تبحث عن الثروة المعدنية . ولكنها مع ذلك أجرت بعض الأبحاث بصفة عرضية . وتستطيع مما جمعتها من الأدلة أن تجزم بأن ما يشاع عن الثروة المعدنية الهائلة لجنوب غرب بلاد العرب عمومًا ، وجبال اليمن على وجه الخصوص لا ينتظر أن تثبت صحته الأبحاث التفصيلية فى المستقبل ، إذ أن الجهات التى تحتوى على صخور ينتظر أن تطوى معادن فى المناطق التى مررنا بها محدودة المساحة للغاية ، ولا توجد المعادن بها بكميات تجعل من الممكن أن تستغل استغلالاً اقتصادياً مجدياً . وفى اعتقادنا أن منطقة عسير الواقعة داخل حدود المملكة السعودية ربما كانت أغنى ثروة من اليمن وحضرموت . على أننا قد وجدنا فى بعض جولاتنا أدلة على وجود معدن الجرافيت بكميات متوسطة فى شمال اليمن ، كما أن هناك أدلة على وجود بعض آثار للبتروى فى جهات مختلفة من اليمن وحضرموت ، ولكنها لا تزيد على كميات محدودة نسبياً(*) . ومع هذا فإنه يمكن القول بأن اليمن تستطيع أن تزيد من ثروتها القومية كثيراً إذا ما عملت على استغلال الأملاح الكثيرة الموجودة على شواطئ تهامة الغربية ، والتى كان الأتراك يستغلونها بكميات وفيرة أيام احتلالهم لليمن ، وقد يكون الملح من أسهل معادن اليمن استغلالاً ، نظراً لوفرة ملاحاته ، وقرب بعضها من ميناء الحديدة (كملاحات الصليف) ، مما يسهل أمر النقل والتصدير .

(*) ولكن تكوينات البتروى أمكن استغلال بعضها فيما بعد وهى توجد إلى الشمال من الحديدة ، كما ينتظر أن يوجد بعضها قرب الحدود مع المملكة العربية السعودية .

الجغرافيا العامة :

عنيت البعثة من هذه الناحية بدراسة البيئة الجغرافية للمناطق التي زارتها ، وتأثير هذه البيئة في الحالة العمرانية العامة . فلقد اشتهر الركن الجنوبي الغربى من الجزيرة العربية بثروته الطبيعية وموارده التى تجعله يختلف اختلافاً ظاهراً عن داخلية بلاد العرب ، وكان على البعثة أن تتبّع أوجه هذا الاختلاف على أساس دراسة البيئة الجغرافية ، وقد استطاعت من هذه الناحية أن تجمع من المعلومات ما يمكنها من تقسيم الركن الجنوبي الغربى من بلاد العرب إلى الأقاليم الجغرافية (الطبيعية) الآتية :

١ - إقليم تهامة الساحلي . وهو سهل منخفض أقل من مائة متر فوق سطح البحر ورملى يمتد على السواحل الغربية على وجه الخصوص ، ويتراوح عرضه ما بين الشاطئ وقاعدة الجبال بين ٦٠ ، ١٠٠ كم . والتربة هنا إما رملية أو ملحية ، وفى مناطق محدودة جداً تعلوها طبقة من الطمي جلبتها السيول المتدفقة من الجبال أيام كان جريانها أكثر انتظاماً مما هو الآن ، أي أثناء العصر المطير الذى حدث في (البلايستوسين) (راجع القسم السابق الخاص بالجيولوجيا والفيووغرافيا) . وقد تبين أن جانباً كبيراً من أراضي تهامة كان يقع تحت سطح البحر إلى عهد جيولوجي قريب ، بدليل وجود القواقع البحرية فيما يشبه الأرصفة البحرية . والظاهر أن الشاطئ كان يمتد على حساب البحر بواسطة تكون حواجز مرجانية على مسافة معينة من الشاطئ ، ثم تحمل الرياح الآتية من ناحية الأرض الرمال وتلقي بها ما بين الشاطئ والحاجز المرجاني ، حتى تردم الشقة الواقعة بينهما ، وبذلك يزداد عرض سهل تهامة الساحلى وهكذا .

٢ - منطقة قاعدة الجبال (أو البيدمونت) . وهى التى تمثل منطقة المرور بين تهامة والجبال . وترتبتها مكونة من رواسب هائلة حملتها مياه الوديان القديمة من الهضبة ، وارسبتها عند قاعدة الجبال ؛ وهذه الرواسب على نوعين : (أ) الحصباء والرمال التى تكون المصاطب النهرية القديمة ، والنّى تصل إلى ارتفاع ٣٠ متراً أو أكثر فوق مستوى قاع الوديان الحالية ، وهى كلها عبارة عن أراض

غير صالحة للاستغلال إلا في أغراض الرعى العامة . (ب) التربة الطميية التي تكون مدرجات داخلية لا يزيد ارتفاعها على ٨ أمتار فوق مستوى قاع الوديان الحالية ، والتي تمتد أحياناً على شكل دالات فوق سهول تهامة . وعلى هذه الرواسب الطميية تقوم الزراعة وهي تعتمد على المطر وعلى الري في بعض الجهات المحدودة ، ويمكن زيادة الأراضي المنزرعة إذا أدخل نظام خزن المياه ببناء سدود ولو صغيرة عبر بعض الوديان ، حيث يمكن أن يتجمع الماء من موسم المطر إلى موسم الجفاف .

٣ - منطقة الجبال نفسها . وهي تمتاز بتنوع الطبيعة والمناظر فيها بدرجة عظيمة ، ويختلف ارتفاعها من ٥٠٠ إلى أكثر من ٣٠٠٠ متر فوق سطح البحر . وهي مكونة من قمم الجبال العالية ، ومنحدراتها والهضاب الواقعة بينها والتي تقطعها وديان يتبع بعضها الانكسارات الجيولوجية ، وإن كان أغلبها من النوع التحتاني العادي . وأهم ما يلاحظ في منطقة الجبال عامة الثروة الزراعية الكبيرة ، التي لها أثر بالغ في الحياة العمرانية ، فالسكان هنا يعيشون على الزراعة التي أهم محاصيلها البن والحبوب بأنواعها (خصوصاً الذرة) وبعض الفواكه . وقد ساعد على تقدم الزراعة خصوبة التربة ، التي هي من الصخور البركانية المفتتة بفعل عوامل التحلات ، وهي توجد ليس فقط في بطون الوديان وإنما أيضاً على منحدرات الجبال ، ولكي يحافظ الأهالي على هذه التربة ضد السيول الجارفة فإنهم يدرجون منحدرات الجبال وسفوحها بواسطة مدرجات صناعية تعرقل سير السيول ونقل التربة . وفي دراسة منطقة الجبال عيّنت البعثة بملاحظة الفروقات المحلية بين مختلف أجزائها ، خصوصاً الغرب من ناحية ، والشمال والشرق من ناحية أخرى .

٤ - مناطق القيعان الداخلية . ولفظ قاع يطلق في اليمن على الجهات السهلية المستوية السطح ، والتي تكون عادة محاطة بالجبال من أغلب جهاتها ، وهي إما أن تكون مستديرة على شكل حيضان أو مستطيلة على شكل سهول رسوبية أو وديان عريضه ، وتتمايز بها الجهات الوسطى والشرقية من اليمن ، وتغطي سطحها رواسب ترابية دقيقة الذرات عظيمة الخصوبة ، جلبتها السيول أو

الرياح ، وتقوم عليها الزراعة التى تروى بواسطة الأمطار أو الآبار . والحياة بها مستقرة ، وتشبه إلى حد كبير الحياة الزراعية في منطقة الجبال نفسها ، إذ أن أغلب القيعان يقع عل ارتفاع يزيد على ١٥٠٠ متر فوق سطح البحر .

٥ - إقليم الجوف والمشرق . وهو منطقة منبسطة تقع في شرق اليمن ؛ وتبدأ على شكل هضبة مكونة من صخور جيرية من العصر الجوراسي ، تتاخم الجبال اليمنية وتنحدر منها إلى الشرق ، كما تقطعها بعض الوديان التى لا بد وأن كانت أكثر ماء وأقدر على النحت ونقل الرواسب أثناء الزمن الجيولوجي الرابع ، ولو أن بعضها لا يزال يجري بقليل من الماء وبصفة شبه دائمة إلى الوقت الحاضر . وتنتهي هذه الوديان في الشرق الأقصى بمناطق سهلية أو دلتاوية ، هي التى قامت عليها حضارات اليمن الأولى في عهد معين ثم عهد سبأ ، ويلاحظ أن أغلب الآثار اليمنية القديمة توجد في هذه المنطقة التى تتراوح في ارتفاعها بين ١٢٠٠ ، ١٨٠٠ متر .

٦ - الأحقاف وحدود الربع الخالى . وهى تمثل مناطق رملية وملحية في بعض الأحيان . ومع أن أحد طرق القوافل القديمة يقطعها من الشمال إلى الجنوب فإنها تكاد تكون الآن خلواً من السكان ، فيما عدا بعض القبائل التى تعمل في استغلال الملح ، أو في الرعى المؤقت عقب موسم المطر . كل هذا عن الأقاليم الطبيعية العامة في اليمن نفسها . أما حضرموت فقد أمكن التمييز فيها بين ثلاثة أقاليم أساسية :

(أ) الشاطئ والمنخفضات المتصلة به . وهنا يلاحظ أن حافة الجزيرة العربية الجنوبية عبارة عن انكسار جيولوجى هائل ، يصل أحياناً إلى الشاطئ نفسه ، وابتعد عنه أحياناً أخرى بمقدار ٥٠ كيلو متراً أو أكثر ، فيحصر بينه وبين البحر منطقة ساحلية منخفضة ، كثيراً ما تأتيناها الوديان من الداخل فتقطع سطحها في بعض الجهات أو تغطيها بالرواسب في البعض الآخر فتحولها إلى شبه سهول رسوبية . والحياة في هذه الجهات الساحلية خليط بين الاعتماد على صيد البحر، والقيام بقليل من الزراعة ، وقد كان لتنوع موارد الحياة على هذا النحو أثره في

الحالة الصحية العامة ، بالرغم من تفشي بعض الأمراض ، خصوصًا بالجهات التي توجد بها المستنقعات .

(ب) المناطق المعروفة بالجلول . وهو لفظ يطلق هناك على الهضاب الصخرية المنبسطة والمكونة من حجر الجير (الإيوسيني ؟) . وتقطعها الوديان العميقة الجوانب ، على نحو ربما كان من أفضل الأمثلة المعروفة للهضاب الجيرية المقطعة . ويبلغ إرتفاعها في بعض الجهات أكثر من ٢٠٠٠ متر فوق سطح البحر ، ولكنها لا تزيد في المتوسط على ١٢٠٠ متر ، ويصل عمق الوديان التي تقطعها إلى أكثر من مائة متر؛ وقد استطاعت البعثة أن تدرس في سطح هذه الهضاب ووديانها عدة دورات فزيوغرافية للتحات والأساب ، يرجع بعضها إلى العصر المطير في الزمن الجيولوجي الرابع ، والبعض الآخر إلى ما قبل ذلك . والأمطار في الوقت الحاضر قليلة بجهات حضرموت ، خصوصًا في الشرق والداخل ، ويزيد على الجفاف فوق هضاب الجلول ان طبيعة صخورها الجيرية المسامية تساعد على تسرب المياه الساقطة من السطح إلى الطبقات السفلى وإلى قيعان الوديان ، ولذلك فإن سكان الجلول من نوع القبائل الرحل ، ولو أن لكل قبيلة منها أرض خاصة بها ومراكز تفي إليها للتزود بالماء أو لجمع المحاصيل كثمر النارجيل وبعض النخيل المتفرقة في شبه واحات بالوديان .

(ج) وادي حضرموت وفروعه ، وأهمها وادي دوعان (دوعن) ووادي عمد . وهذه الوديان عبارة عن مجارى هائلة يبلغ عرضها في بعض الأحيان خمسة كيلو مترات أو أكثر ، كما يبلغ عمقها في وادي حضرموت نفسه ، نحو ٣٠٠ متر ، وقد حفرتها المياه الجارية (والمجاري السفلية عن طريق الأذابة) في الصخور الجيرية الإيوسينية ، ووصلت إلى الصخور الكوارتسية ، التي لم توجد بها حفريات ، ولكنها ترجع في الغالب إلى نهاية العصر الكريتاسي . وقد ردمت قيعان الوديان بالحصباء الغليظة في أعالي الوديان والدقيقة نسبيًا في أسافلها ، وتعلو الحصباء طبقة سميقة من الطمي الناعم خصوصًا في أسافل الوديان وعند ملتقياتها .

والوديان جميعها جافة في الوقت الحاضر لا يجري بها الماء إلا في موسم السيول ، على أنه قد ثبت وجود تيار مائي دائم يجري تحت السطح في طبقة الحصباء المشار

إليها ، وهذا التيار يرجع في أصله إلى الأمطار الساقطة فوق الهضبة والسيول التي تجري متقطعة في فصل المطر . ولجريان المياه تحت الأرض فائدة كبرى ، إذ أن ذلك يقلل من تبخرها وضياعها بسبب التعرض للشمس والهواء ، كما يساعد على توزيع مواردها على طول السنة بدلاً من قصورها على فصل واحد . وتحفر الآبار في طبقة الطمي حتى تصل إلى طبقة الحصباء التي يستمد منها الماء . ويلاحظ أن الوديان والروافد الجانبية تنحدر إلى وادي حضرموت الأساسى ، وأن هذا الأخير ينحدر من ارتفاع ١٠٠٠ متر في الغرب إلى مستوى البحر في الشرق ، ولذلك فإن المياه الأرضية تتجمع في مجرى وادي حضرموت الأسفل ، وتظهر هناك على السطح بصفة دائمة ، ولقد زارت البعثة بعض هذه المناطق السفلى من الودادى ، ودرست مجراه إلى قبر النبى هود . والحياة في الوديان بحضرموت زراعية مستقرة ، إذ تزرع المحاصيل الدفيئة والحارة وأهمها النخيل والذرة وبعض الفواكه . بالإضافة إلى هذه الموارد المحلية هناك عدة مدن هامة يقطنها كبار التجار من الحضارمة الذين يهاجرون إلى الشرق الأقصى ، فيجمعون ثروات طائلة ، ثم يعودون للحياة الهادئة في وطنهم الأصلى ، حيث ينفقون ما جمعوا في جهادهم الطويل ، وحيث يزدون من مظاهر العمران في هذا الودادى الذى تطول غيبة بعضهم عنه أربعين عامًا أو أكثر في بعض الأحيان .

دراسة المناخ :

وبالإضافة إلى الدراسات الجغرافية العامة كان على البعثة أن تقوم ببعض التسجيلات الخاصة بالمناخ ، نظرًا لأن هذا الأخير يكون عنصرًا هامًا من عناصر البيئة الجغرافية ، كما أن الحالة المناخية لهذا الجانب من الجزيرة العربية مسئولة إلى حد كبير عن الفرق الهائل بينه وبين وسط بلاد العرب وشمالها ؛ فلقد كان من المعروف دائمًا أن الجنوب أكثر مطرًا ، وإن تساقط الأمطار فيه له صفة موسمية ، فهو يقع في أشهر الصيف وأوائل الخريف ، أما وسط بلاد العرب وشمالها فالمطر فيه من النوع الطارئ غير المنتظم ، كما أنه في أقصى الشمال يسقط في أشهر الشتاء دون الصيف . ولقد كان من خطة البعثة المرسومة أن تتفق زيارتها وموسم المطر في الجنوب ، نظرًا لأن أغلب البعثات الأجنبية كانت تختار فصل الشتاء الجاف لملائمته من الوجهة

الصحية ، وقد استطاعت البعثة أثناء الأشهر التي أقمناها باليمن وحضرموت أن تجمع من المعلومات ما يساعد على اعطاء صورة صحيحة بقدر الإمكان عن الحالة المناخية لإبان هذا الفصل الهام من السنة ، والذي يتركز فيه أغلب نشاط السكان .

وكان على البعثة أن تتبّع هذا البحث من نواح ثلاث :

١ - أخذ القياسات وجمع الاحصائيات العلمية الدقيقة عن حالة المناخ ، وذلك بقراءة الآلات المتيورولوجية ، وتسجيل درجات الحرارة ، والضغط والرطوبة ، وكميات المطر الساقطة ، واتجاهات الرياح وقوتها ، إلى غير ذلك من ظاهرات الطقس ثلاث مرات في كل يوم ، إلا في أيام الارتحال ، أو في حالة التعذر الشديد ، حيث يكتفى بأخذ القياسات وقراءة الآلات وتسجيلاتها مرة واحدة أو مرتين في اليوم . وهذه الآلات جميعها تكرمت مصلحة الطبيعيات المصرية بأعارتها للبعثة مدة عملها .

٢ - جمع المعلومات من الأهالي عن حالة الطقس والمناخ وتقلباتها ، وعن مواسم الحرارة والبرودة النسبية ، والمطر والجفاف ، والرياح وشدتها ، والضباب وانتشاره وغير ذلك ، ثم عن الدبذبات المناخية والكوارث الجوية التي قد تحدث من عام إلى آخر .

٣ - إجراء بعض الدراسات التاريخية والمباحث الأثرية الخاصة بتطور المناخ في عصور التاريخ ، خصوصاً أثناء الحضارات المعينية والسبئية والحمرية باليمن في الألف السابقة للميلاد والقرون الخمسة التالية له .

وقد عادت البعثة من الناحيتين الأوليين بسجلات علمية دقيقة ، تشتمل على تسجيلاتها وقراءاتها للآلات العلمية بقدر ما سمحت به ظروف السفر والارتحال ، وكذلك بملاحظات وافية جمعتها على طول الطريق . وكنا نعرف أن دراسة هذه السجلات والملاحظات ، ومقارنتها بقياسات الطقس والمناخ في البلاد المجاورة ، خصوصاً إفريقية الشرقية ، تستلزم مجهوداً كبيراً ، ولكن المأمول أن تلقى تلك الدراسة المقارنة غير قليل من الضوء على أحوال المناخ وتقلباته في هذه المناطق جميعاً ، وإن يساعد ذلك على اتمام الدراسات الخاصة بمنابع النيل (ومواسم الفيضان) في إفريقية الشرقية . أما من الناحية الثالثة من البحث (وهى الناحية التاريخية) فقد

امكن الوصول إلى نتائج علمية طريفة ، إذ أثبتت البعثة وجود دور ممطر أثناء قيام الحضارات اليمنية والحضرية القديمة . ومع أن زيادة المطر إذ ذاك عنها في الوقت الحاضر لم تكن كبيرة من حيث كميتها ، فإنها كانت عظيمة من حيث تأثيرها الفعلى في أزيداد المراعى وانتشار الزراعة في أراض شديدة الجفاف في الوقت الحاضر . ولقد كان تدهور الحضارات القديمة وتشتت القبائل وانبعاث الهجرات من تلك الجهات في العهد السابق للإسلام مباشرة مرتبطاً ، على ما يظهر ، ارتباطاً وثيقاً بتغيرات المناخ وذبذباته وعودته إلى الجفاف النسبى بعد الحالة الممطرة . وهذه النتائج ستساعدنا على اجراء المقارنة بين ذبذبات المناخ في جنوب بلاد العرب وشمالها أثناء هذا الدور الهام من تاريخ المشرق العربى .

الأثار والنقوش القديمة :

وكانت مهمة البعثة في اجراء الأبحاث الأثرية تقع في شطرين :

(أ) البحث عن آثار عصر ما قبل التاريخ ، وهي عبارة عن آلات حجرية توجد عادة في التكوينات والرواسب أو على السطح ، وأوانى فخارية بين الأكوام الأثرية وما إليها من مخلفات ذلك العهد القديم . وقد كان البحث عن مثل هذه الأثار ، وتحقيق بعض النقاط الخاصة بعصر ما قبل التاريخ من الأغراض الأولى التي فكرت البعثة من أجلها في القيام بهذه الرحلة ، إذ أن رئيس البعثة (س.أ.ح .) كان قد قام ببحث لرسالة الدكتوراه خاص بأصل الحضارة المصرية ، واتصالاتها الأولى بالبلاد المجاورة لها في عصر ما قبل التاريخ ، وثبت من هذا البحث أن الحضارة المصرية في أسسها الأولى منذ نهاية العصر الحجري القديم (وأثناء العصر الحجري الحديث وعصر ما قبل الأسرات في مصر) هي حضارة مصرية ، نشأت وترعرعت في حوض النيل نفسه ، كما ثبت أن اتصالاتها مع العالم المجاور في شمال الشرق العربى من ناحية ، وفي داخلية الصحراء الكبرى وشمال إفريقية من ناحية ثانية ، ثم في النوبة والسودان من ناحية ثالثة ، قد اتت كلها متأخرة نسبياً ، أي بعد أن تم تكوين الحضارة المصرية وتطورها الأول محلياً ، ولذلك فإن العناصر الأجنبية لم تطغ على العناصر الأصلية ، ولم

تطمس مسحتها المصرية الصميمة ، وإن كانت قد زادت من تنوع المظاهر المادية للحضارة المصرية . وكان هذا الرأي مخالفاً للرأى السائد في ذلك العهد ، على أنه لم يكن بالامكان الجزم به بصفة نهائية حتى تستكشف الجهات الجنوبية من المشرق العربى (التى اشتهرت بحضاراتها القديمة) ، لعلنا نعثر فيها على آثار يمكن أن تعتبر أصلاً للآثار المصرية أو لبعض مظاهرها .

وقد بذلت البعثة جانباً من مجهودها ووقتها في البحث عن مثل تلك الآثار ، بأجراء الحفائر في التكوينات والرواسب القديمة وفي الأكوام الأثرية والكهوف والغيران التى يحتمل فإن يكون الإنسان الأول قد قطنها . ومع أننا عثرنا على كميات ضئيلة من آثار العصر الحجري القديم بالهضبة اليمنية وبحضرموت ، فإن الصلة بينها وبين الآثار المصرية لم تكن واضحة . كما أننا عثرنا بحضرموت وولاية لحج (خلف عدن) على كميات كبيرة من الآثار والآلات الحجرية الأحدث عهداً ، ولكننا استطعنا باستقصاء البحث أن نثبت أنها تختلف في صناعتها عن الآثار المصرية ، وإنها أقرب ما تكون إلى ما عرف من الآثار في شرق إفريقيا ، وعلى الأخص مستعمرة كينيا والحبشة الشرقية . ولم تقف البعثة عند هذا الحد ، وإنما واصلت بحثها بين آثار حضرموت (خصوصاً خرائب ريون قرب المشهد بوادى دوعان) ، حتى استطاعت أن تثبت أن هذه المخلفات متأخرة في تاريخها كثيراً عن مثيلاتها من الآثار في مصر . وعلى ذلك فلم يبق شك في أن هذه الأخيرة قد سبقت بفترة طويلة جنوب بلاد العرب وشرق إفريقيا . ويسرنا بهذه المناسبة أن نذكر أن بعثة بريطانية توجهت إلى حضرموت في عام ١٩٣٨ ، وقد بلغنا من رئيسها أن نتائج بحوثها وحفائرها تتفق تماماً مع ما توصلت إليه بعثتنا من قبل (وقد نشرت خلاصة لبحوثنا في عام (١٩٣٧) بمجلتى Nature الأنجليزية و L' anthropologie الفرنسية حفظاً للأسبقية) ، (انظر الإشارة إلى ذلك فيما بعد) .

(ب) البحث عن الآثار التاريخية واجراء الحفائر في بعض خرائب اليمن وحضرموت . وقد كان برنامجنا يقضى في أول الأمر أن نصل إلى مأرب عاصمة سبأ ، ولكن ذلك للأسف لم يكن بالامكان نظراً لحالة القبائل في تلك الجهات

المتطرفة من اليمن أثناء إقامتنا هناك ، ثم لبعض صعوبات إدارية جعلت من المتعذر على الحكومة اليمنية ضمان إجراء الحفائر على الوجه المرغوب فيه هناك ، لذلك استعضنا عن زيارة اقليم مأرب بإجراء أبحاث مختلفة في شمال اليمن ، وعلى الانحص في مدينة ناعط ، حيث كشفت البعثة عن هيكل من العهد السبئي ، كما عثرت على أكثر من ستين نقشًا بين الخرائب ، وهي كلها بالطبع من النقوش التي لم ينشر عنها شيء من قبل ، وعدد منها وجد محفورًا على صخور بأسفل الحفائر . وبالرغم من ضيق الوقت ، فقد أجرى الحفر بعناية تامة ، بحيث اخذت رسوم وصور كافية للتحقق من طبيعة البناء وفن الهندسة . ولعل أهم ظاهرة في الهيكل المذكور ، وجود عدد من (أو الأعمدة ذات القطاع المربع) التي يظهر أن نظام إقامتها وطريقة نحتها قد تأثرت بفن العمارة مصر (في العصر البطلمي على الأرجح)

وفي غير ناعط درست البعثة عدة مواقع أثرية باليمن ، كما جمعت نحو أربعين نقشًا حميريًا يذكر بعضها القبائل وألتهها ، كما يشير البعض الآخر إلى الحالة السياسية في العهد الحميري . كذلك صرحت الحكومة اليمنية للبعثة بدراسة المجموعة الأثرية بمتحف صنعاء وتصويرها ، وقد استطعنا من هذه الدراسة أن نصل إلى نتائج تلقى بعض الضوء على تطور فن النحت من زمن المعينيين والسبئيين الأول ، حين كان هذا الفن رمزيًا في أساسه ، إلى زمن الحميريين الذين كانت لهم صلات وثيقة بالعالم الشمالي والفن الأغريقي ، مما ساعد على أن يصبح فنهم فنًا تحقيقيًا إلى حد كبير .

وفي حضرموت أجرت البعثة بعض الدراسات والحفائر السطحية خصوصًا بخرائب ريبون التي أشرت إليها من قبل ، كما جمعت عددًا من النقوش الحميرية بين الخرائب . ولعل أطرف ما عثرنا عليه بعض الحروف والنقوش المحفورة على قطع الفخار ، بدلاً من الحجر ، مما لم يكتشف مثله من قبل في جنوب بلاد العرب . كذلك عثرت البعثة على عدد كبير من المخربشات (أو الجرافيتي) على الصخور ، خصوصًا قرب مدينة شبام بوادي حضرموت الأوسط ، وهذه المخربشات من عمل الرعاة والتجار إذ ذاك ، وهي تصور لنا الحياة الشعبية ، والنشاط الرعوى والتجارى ،

خصوصاً وأنها تصطبّح بغير قليل من رسوم الحيوانات والصور الرمزية ، مما نقلته البعثة وصورت ما أمكن تصويره منه . وقد تبين أن هذه المخريشات تشتمل على أكثر من ١٥٠ نقشاً حضرمياً قديماً ، وأن عددًا كبيراً منها يمثل أسماء أعلام ، وهذا في نفسه سيكون مفيداً ، لأنه يعطينا فكرة عن الأسماء الشعبية الشائعة في ذلك الوقت . كذلك في طريق عودتنا من خرائب حضر موت الداخلية إلى الشاطئ عثرنا على عدد من النقوش التي حفرها التجار والمسافرون القدماء على الصخور في ذات الطريق الذي تستعمله القوافل الآن بين وادي دوعان (دوعن) والمكلا ؛ وقد كان هذا دليلاً طريفاً على أن الطريق الحالي هو بعينه الذي كانت تستعمله القوافل في عهد الحضارات الحضرمية القديمة .

دراسة السلالات البشرية :

كذلك كان من المعروف إجمالاً أن العرب الجنوبيين يختلفون عن العرب الشماليين في الأصل والسلالة الجنسية . وقد وكل إلى البعثة تحقيق هذه النقطة بواسطة المقاييس الانثروبومترية ، وهي عبارة عن مقاييس تؤخذ بواسطة الآت خاصة لأبعاد الرأس والوجه والقامة والأطراف ، وبعض الصفات الجنسية العامة كلون البشرة والعينين ، ولون الشعر ونوعه . . . الخ . وقد استطاعت البعثة أن تدرس نحو ١٣٥٠ شخصاً ، بمعدل حوالي ٢٥ مقياساً (وملاحظة) للشخص الواحد ؛ وسجلت كل هذا على فيششات خاصة ، كما أخذت صوراً فوتوغرافية أمامية وجانبية لأربعمائة شخصاً من بين هؤلاء . ومن الأشخاص الذين أخذت مقاييسهم ٨٠٠ باليمن ، ٥٣٠ بحضرموت ؛ وهم موزعون على جميع أجزاء الركن الجنوبي الغربي للجزيرة ، بحيث أنهم يمثلون جميع القبائل الهامة هناك تقريباً ، ويمكن أن يعتبر السجل الذي لدينا الآن من المقاييس والملاحظات والصور ممثلاً لسكان هذا الإقليم تمثيلاً صادقاً إلى الحد المطلوب . ومع أن دراسة الأرقام التي لدينا ، وحساب المتوسطات اللازمة ، ثم مقارنتها بما هو معروف من الاحصائيات والمقاييس في شمال بلاد العرب سيستغرق مدة طويلة ، فقد أمكن الحكم إجمالاً بأن جنوب غرب بلاد العرب لا يختلف فقط عن الشمال من حيث الجنس والمميزات الجنسية ، وإنما هو فوق ذلك يمثل منطقة

مختلطة ، تسكنها عناصر مختلفة ، لأبد وأنها وصلت إلى هذا الجانب من الجزيرة في أكثر من موجة سلالية واحدة ، أثناء الهجرات القديمة .

فشمال اليمن (ووسطه) تقطنه عناصر متوسطة القامة ، متوسطة الرأس ، طويلة الوجه ، متموجة الشعر (موجات قصيرة) ، شفاء الأنف ، ليس في فمها أى بروز زنجى ، وهذه العناصر تقرب في ملامحها وميزاتها العامة من سكان شمال بلاد العرب ، فهم يمثلون على الأرجح هجرة (سامية) قديمة من الشمال ، احتلت شمال اليمن واستطاعت بعض طلائعها أن تتوغل إلى أرض يافع خلف عدن . كذلك وجدت البعثة أن بعض القبائل اليمنية والشالية تمتاز نسبة من بين أفرادها (٨ - ١٢ ٪) بميل لون عيونها إلى الزرق ، وشعرها إلى الشقرة ، وبشرتها إلى البياض ، مما يدعو إلى افتراض أن هذه العناصر تمثل هجرة أخرى قديمة من الساميين المختلطين ببعض العناصر الشقراء من الهضبة الطورانية أو ما وراءها (مثل بعض اليهود القدماء) . ومن الطريف حقاً أن تكون هذه العناصر الشقراء متمثلة في المناطق التي لاحظت البعثة بها من الآثار القديمة ما يؤكد الاتصال الدقيق مع الشمال (مثل منطقة ناعط) .

أما جنوب اليمن فتقطنه عناصر متوسطة القامة ، مستديرة الرأس ، عريضة الوجه نسبياً ، قصيرة الأنف ، وبينها عدد من الأشخاص ذوى الفم البارز ، وهؤلاء بالطبع يختلفون عن سكان المناطق الشالية ، ولابد وأنهم يمثلون موجة مختلفة من الهجرات القديمة ، أو على الأقل هم يمثلون عنصرًا أكثر اختلاطاً من سكان اليمن الشاليين ، ويلاحظ على الخصوص أنهم يشتركون في بعض المميزات السلالية مع سكان حضرموت الداخلية ، الذين يمتازون بشدة استدارة الرأس وقصره (كنتيجة لانبطاح مؤخرة الجمجمة) ، كما تقصر قاماتهم ، وتقصر أنوفهم ، وتزيد نسبة بروز الفم بينهم ، ويغلب على الظن أن اليمنيين الجنوبيين هم نتيجة اختلاط المهاجرين الشاليين بعناصر أخرى أقدم منها ، أتت من الشرق ، أى من ناحية حضرموت ، وقد استطاعت البعثة أن توازن بين محوري الهجرة الأساسيين (الشرقي - الغربي من ناحية والشالي - الجنوبي من ناحية أخرى) ، وأن تثبت بما يقرب من اليقين أن

العنصر الشرقي أقدم في بلاد العرب الجنوبية من العنصر الشمالى . كما تتبع البعثة بنوع خاص ظاهرة بروز الفم ، نظرًا لاحتمال مجيئها من إفريقية الزنجية أى من الغرب ، ولكنها استطاعت أن تثبت أنه ، بصرف النظر عن تهامة اليمن على شاطئ البحر الأحمر ، المواجه لإفريقية مباشرة ، فإن نسبة بروز الفم بين اليمنيين الجنوبيين (من سكان منطقة الجبال) والحضارة تزداد كلما اتجهنا نحو الشرق ، على عكس ماكان منتظرًا لو أنها كانت مكتسبة من إفريقية ، وهذا نفسه يدعو إلى الترجيح بأن بروز الفم صفة شرقية ظهرت فى جنوب بلاد العرب كنتيجة لهجرة أتت من الشرق ، ولا يرجع إلى الاختلاط مع أية عناصر زنجية يمكن أن تكون قد هاجرت من إفريقية . بل أن لدينا أدلة إضافية على أن تلك الهجرة الشرقية القديمة قد حملت إلى حضرموت بعض مميزات جنسية أخرى أظهرها انبطاح مؤخرة الرأس ، على نحو يجعله قريب الشبه من الرأس الارمنى ، الذي ينتشر أيضًا بدرجة خفيفة فوق هضبة إيران ويمتد ، على ما يظهر ، إلى الدكن بالهند .

أما الجهات الشاطئية من حضرموت فتقطنها عناصر تمتاز على العموم بالرأس المتوسط أو المستطيل أحيانًا ، وبالأنف المتوسط ، والفم البارز ، والقامة الطويلة نسبيًا . وهذه العناصر تقل تدريجيًا كلما اتجهنا نحو الغرب حتى نصل إلى تهامة اليمن ، حيث نشاهد عناصر مختلطة تمامًا ، ويظهر بينها الأثر الإفريقي كنتيجة للهجرات من ناحية ، ولجلب العبيد الزنوج من ناحية ثانية ، ولكن المهم أن الأثر الإفريقي ، كما ذكرنا ، لا يعدو منطقة تهامة اليمن الساحلية ، ولا يتوغل إلى منطقة الجبال الخالية تقريبًا من الأثر الزنجي ؛ وحتى فى بعض جهات حضرموت ، حيث يشاهد أثر الزنوج ، تميل العناصر الحضرمية إلى عدم الاختلاط بالعناصر السوداء ، الذين يمثلون مستعمرات ، ويعيشون فى شبه عزلة عنصرية ، ويعمل الرجال منهم كجنود فى الغالب ، اللهم إلا فى بعض جهات ساحلية (كالمنطقة الواقعة غرب المكلا) حيث استوطن الزنوج ، واشتغلوا بالزراعة ، واختلطوا بالأهالى الأصليين منذ أجيال عديدة ، ويلاحظ أثرهم فى ظهور عنصر خليط ، تغلب الصفات الزنجية فيه من حيث لون البشرة ، ولفلة الشعر (أو شدة تجعده) ، واستعراض الأنف وانفطاسه .

وبالإضافة إلى هذه الحقائق التي تمس التوزيعات العامة للسلاسل والمميزات السلافية في جنوب بلاد العرب ، استطاعت البعثة أن تدرس أمثلة محلية خاصة ببعض الأقليات ، وأهمها اليهود الذين لهم مستعمرات متفرقة باليمن (خصوصاً صنعاء) ، دون حضرموت حيث لا أثر لهم بالمرّة تقريباً . وهم ينقسمون فريقين : فمنهم من كان يمتاز بالصفات السامية ، وبشكل الأنف (اليهودي) الخاص ، وهم العنصر المهاجر ، ومنهم من لا يختلف في شيء عن السكان اليمنيين في المناطق المجاورة ، فهم يمينيون متهودون لا أكثر ولا أقل (ولعلهم من سلالة من يهود من الأهالي تحت حكم بعض ملوك حمير الذين اعتنقوا الديانة اليهودية) .

ويمكن أن نخرج من هذه الدراسات الجنسية التفصيلية بما يأتي :

١ - أن التفرقة بين عرب الجنوب والشمال تنبني ، ليس فقط على أساس ثقافي وتاريخي ، وإنما أيضاً على أساس سلالي تثبتته المقاييس الانثروبومترية ، والملاحظات المتعلقة بها .

٢ - أن جنوب بلاد العرب يمثل منطقة اختلاط سلالي ، ولابد وأنها كانت معبراً لكثير من الهجرات ، التي يرجح أن أهمها جاء من الجانب الآسيوي نحو إفريقية . انتهت البعثة من دراسة توزيعات العناصر السلافية باليمن وحضرموت ، وبدأت في عمل المقارنات على المناطق المجاورة وغير المجاورة وأهمها :

(أ) : شمال بلاد العرب وخصوصاً صحراء سوريا ، بجانيها العراقي والشامي ، ويظهر من البحوث المبدئية أن التشابه الجنسي بين جنوب بلاد العرب وبعض قبائل الشمال يرجع إلى سببين : (١) هجرة قديمة لبعض العناصر السامية من شمال الجزيرة العربية إلى شمال اليمن ، تلتها بعض هجرات أخرى لليهود وغيرهم . (٢) هجرة في اتجاه مضاد من اليمن (خصوصاً شرقها) نحو شمال بلاد العرب ، ويظهر إنها كانت عن طريق جنوب نجد وأقليم الحسا (الأحساء) ، وهي التي يعرف بعضها باسم هجرات قضاة التي حدثت قبل الإسلام بنحو أربعة قرون .

(ب) : هضبة إيران والهند . وقد اثبتت بعض البحوث السابقة صلة الأولى منهما بسكان جبل عمان في جنوب شرق الجزيرة . وترمى بحوث بعثتنا إلى اثبات

صلة كل من إيران والهند بحضرموت وجنوب اليمن وسيكون لهذه النقطة أهمية خاصة في دراسة تاريخ الهجرات الآسيوية .

(جـ) : إفريقية الشرقية . وعلاقتها الزنوجية ، كما ذكرنا ، مقصورة (فيما عدا بعض المستعمرات في داخلية حضرموت) على الجهات الساحلية ، خصوصاً في تهامة اليمن والجهات الواقعة غرب المكلا على الساحل الجنوبي . على أن من المنتظر ، في الوقت نفسه ، أن تثبت الصلة القوية بين سكان هضبة اليمن وبعض سكان إقليم المرتفعات في الحبشة ، حيث تذكر الأساطير والتواريخ القديمة هجرات القبائل السامية (أو التي تتصف بأنها كذلك) من بلاد العرب الجنوبية إلى تلك المنطقة .

دراسة الاثنوغرافيا واللهجات :

ولم يكن في برنامجنا عمل دراسة تفصيلية لحالة السكان فيما يتصل بالاثنوغرافيا ، أو علم وصف الشعوب ، ولكننا جمعنا المعلومات الاثنوغرافية العامة في الجهات التي مررنا بها على قدر الإمكان ، فتعرفنا على بعض مظاهر الحضارة المادية كنوع السكن ، وأدوات المعيشة عند القبائل ، ثم مظاهر النشاط الزراعي أو الرعوي ، وأدوات كل منهما ، إلى غير ذلك من الدراسات المتعلقة بنوع التحضر المادي ودرجته .

كذلك درسنا بعض النظم الاجتماعية على الخصوص في حضرموت ، حيث يوجد نظام الطبقات بشكل أوضح جداً منه في اليمن ، التي يسود بها نظام القبائل على النحو المعروف ، ولا يكاد يوجد بها أثر لنظام الطبقات ، فيما عدا التمييز بين البدو (الرحل) من أهل المشرق وبين القبائل المستقرة من أهل الجبال (الزراعيين) ، أو نحو ذلك من ضروب التفرقة على أساس أقليمي أكثر منه اجتماعي . أما حضرموت فتمتاز بالتفرقة بين الطبقات على أساس اجتماعي ، وعلى نحو يختلف عما هو معروف في بقية الجزيرة العربية ، بل إنه يشبه نظام الطبقات في الهند من بعض الوجوه وبدرجة مخففة . وقد أمكن التمييز في حضرموت بين الطبقات الآتية (فيما عدا أسرات السلاطين السابقين من آل القعيطي وآل الكثيري) :

١ - « السادة الأشراف » . وهم ذرية النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ويمثلون أبرز الطبقات ، وأبعدها نفوذاً ، خصوصاً بعض البيوتات الكبيرة التى لم تقصر نفوذها على الجانب الدينى وتراثه القديم ، وإنما عملت في التجارة خارج حضرموت فجمعت ثروات طائلة أضافت بها إلى شرف النسب وجاهة الحسب . وعلى رأسهم جميعاً بحضرموت السادة آل الكاف .

٢ - « المشايخ » . وهم الطبقة المثقفة من غير الأشراف ، ويمثلون في الغالب جماعة التجار وأهل العلم من متوسطي الحال أو المتيسرين ، ولهم في بعض الأحيان شىء من النفوذ الإداري .

٣ - « العبيد » . وهم عبارة عن مستعمرات من الزنوج الذين جلبوا من إفريقية لاستخدامهم كعبيد أو جنود للحراسة في أول الأمر ، ولكنهم استأثروا بالسلطة العسكرية ، خصوصاً في جهات حضرموت الداخلية البعيدة عن نفوذ آل القعيطى ، حيث يرتزق العبيد مما يجبون أو يفرضون من شبه جزية على الأهالي والحكومات المحلية .

٤ - « الضعفاء والمساكين » (هكذا يعرفون) . وهم عامة الشعب في المدن والقرى الزراعية وعلى الساحل ؛ وهم ذوو الحرف العادية الدارجة أو الحقيبة ممن تقوم في الحقيقة على أكتافهم الحياة الانتاجية بالبلاد .

٥ - « القبائل » . وهم البدو البعيدون عن السلطة في قيافي حضرموت ، وبعض جهات الوادى المتطرفة في الشرق والغرب . وهم يحترفون الرعى وقليلاً جداً من الزراعة ، كما أن بعضهم يحترف نقل المتاجر واحتكار الطرق ، أو على الأقل جباية ضرائب المرور في الأراضي الواقعة تحت نفوذهم .

وقد عينا بنوع خاص بتتبع أصل كل من تلك الطبقات ، ودراسة نظمها الاجتماعية ، وعاداتها ، وتقاليدها ، وعلاقة بعضها ببعض من جهة ، ثم علاقاتها جميعاً بالسلطات المحلية والعالم الخارجي من جهة أخرى .

كذلك عينت البعثة بناحية جديدة من البحث ، تتعلق بدراسة اللهجات التي تستعملها القبائل والجماعات المختلفة في كل من اليمن وحضرموت . فجمعت قوائم طويلة من الألفاظ والمصطلحات ، خصوصاً الغربية منها عن العربية ، مما كان

موروثاً عن اللهجات القديمة قبل الإسلام ، ومتصلاً باللهجات الحبشية القديمة والحديثة ، كما هي الحال باليمن ، أو دخيلاً من ناحية الهند والملابار خصوصاً بين أهل حضرموت . كذلك درسنا التراكيب وطرق النحت والتصريف والإعراب ، وقد ألفت كلها غير قليل من الضوء على مشكلة اللهجات واختلافها في جنوب بلاد العرب عنها في الشمال . كما سجلت البعثة عددًا قليلاً من أسطوانات الشمع ، لاثبات اللهجة في النطق ، ولو أننا نأسف لأن استعدادنا بالآلات العلمية الخاصة بالتسجيل وغيره لم يكن بقدر ما كنا نحب (*) .

دراسة الحيوان والحشرات (الانتمولوجيا) :

ولم تكن دراسة البعثة مقصورة على البيئة الطبيعية فيما يختص بالجيولوجيا والجغرافيا ، ثم دراسة الإنسان في سلالاته وجماعاته وآثاره ، وإنما كان علينا أيضاً أن نجتمع الحيوانات ، خصوصاً الصغيرة منها ، والحشرات بنوع خاص . ذلك أن هذه المنطقة لم تكن قد درست من هذه الناحية قبل الآن . وفعلاً جمعت البعثة حوالي ٦٠٠٠ عينة من الحيوانات الصغيرة ، وأهمها أنواع الذباب والفراش والجراد ، وبعض الآفات الزراعية الأخرى . وهذه المجموعة تمثل الحياة الحيوانية الصغيرة في جميع أنواع البيئة ، من ساحل البحر إلى أعلا قمم الجبال باليمن ، ومن المناطق المطيرة بجنوب غرب الهضبة اليمنية إلى الشديدة الجفاف بشرق حضرموت وشمالها . وقد جمعت البعثة إلى جانب الحيوانات عينات من النبات تمثل البيئة التي تعيش عليها كل مجموعة من الحيوانات ، كما أخذت صوراً عديدة تمثل مناظر تلك البيئة .

وللمجموعات الحيوانية والمعلومات التي عدنا بها قيمة مزدوجة ، فهي تهمننا من الناحية العلمية البحتة ، لأنها تضيف عددًا غير قليل من الأنواع الجديدة ، التي لم تكن معروفة للعلم من قبل ، كما أنها تبين عن بعض النواحي الجديدة من هجرات الحشرات المختلفة بين إفريقية وجنوب غرب آسيا ، ثم إن لها في الوقت نفسه قيمة عملية ، فيما يختص بعلاقة بعض الحشرات والآفات بالنباتات الزراعية ، خصوصاً

(*) يلاحظ أنه في ذلك الوقت (عام ١٩٣٧) لم يكن نظام التسجيل على أشرطة الكاست قد عرف بعد .

في حالة الجراد ، الذى تتبعته البعثة أماكن توالده ، وطرق هجرته بجنوب بلاد العرب ، ومواسم انتقاله ، وغير ذلك مما له صلة بالبحوث التى تجريها وزارة الزراعة المصرية الآن بالسودان الشرقي والصحراء الشرقية ، والتى تجريها حكومات المستعمرات البريطانية السابقة في شرق إفريقيا .

وعندما تنتهى دراسة مجموعاتنا الحيوانية ، وترتيبها بمتحف قسم الحشرات بكلية العلوم (جامعة القاهرة) ، ستكون من غير شك من أئمن المجموعات التى من نوعها . بل إن القائمين بأمر قسم الحشرات بكلية العلوم يتظنون أن يؤدي تحقيق الأنواع الجديدة ، ومراجعة المعلومات التى عدنا بها ، ومقارنتها بما هو معروف عن البيئات والحيوانات في المناطق المجاورة ، إلى نتائج طريفة ، وإضافات جديدة في الدراسات الخاصة بحشرات المناطق الحارة والدفيئة .



ذلك ملخص النتائج العلمية العامة ، التى توصلت إليها البعثة في دراساتها التمهيدية للمجموعات والمعلومات التى عادت بها من رحلة اليمن وحضرموت . وهذه الدراسات كما ذكرت لا تزال غير متسوفة في كثير من نواحيها ، خصوصاً وأن الأعضاء وغيرهم ممن يساهمون في هذه الدراسة لا تسمح لهم ظروفهم بالتفرغ لبحث ما لديهم من المواد ومراجعة المذكرات بأكثر من فترات متقطعة . ومع اعترافنا بضرورة التعجيل بنشر النتائج العلمية ، حتى لا تضيع على الجامعة أولوية البحث في هذه المناطق النائية وغير المعروفة نسبياً ، فإننا نخشى أن تؤدي العجلة المفتعلة إلى سلق الحقائق سلقاً ، وإبراز النتائج العلمية في صورة مموهة ، لا تلبث أن تنكشف ، فيؤدي ذلك إلى عكس الغرض من الرحلة ، التى إننا قامت بها الجامعة وكلية الآداب لتكون دعاية صالحة ، وعنواناً دائماً ، بما تضيف للعلم من نتائج ملموسة قد محصت ونوقشت وصفيت على نحو ينقيها من الشوائب ، ويجردها من عناصر الإيهام ، ويبرزها للناس في صورة أقرب إلى الحقيقة ، وأبعد عن الشك ، مما يخرج به على الناس في كل يوم عامة الرحالين (*) .

(*) تمت بالفعل بعض الدراسات التفصيلية على مدى سنوات بعد عودة الرحالة ونشرت (لاسيا باللغة الإنجليزية) خصوصاً في مجال الحشرات وبعض النواحي الجغرافية والجيولوجية .

لذلك كانت سياسة أعضاء البعثة ألا يستغلوا سفرتهم في النشر السريع ، أو الدعاية الصحفية الشعبية ، التي أقل ما يقال فيها إنها لا يمكن أن تكون خالصة للعلم دون سواء ، وإنما عمدوا في هدوء إلى دراسة نتائجهم ، وتمحيصها بقدر ما تسمح به أوقات عملهم . وبالرغم من ضيق ما لديهم من الوقت ، فإنهم ليذكرون بالخير للجامعة ، وكلية الآداب على الخصوص ، ما سمحت لهم به من وقت ، وما هيأت لهم من ظروف البحث حتى الآن . وإن في النتائج التي عرضتها نيابة عن إخواني الأعضاء في هذا التقرير العام لبعض ما يكشف عما بذل كل منا من مجهود بطئ ولكنه متصل ، وهذه النتائج بالطبع ستبقى عرضة لقليل أو كثير من التعديل كنتيجة لاستمرار بحوثنا ، والوصول بها إلى النهاية ، ولكننا مع ذلك نطمح أن يمثل جانب من هذه النتائج على الأقل إضافات متواضعة للعلم في بعض نواحي الدراسة الخاصة بالأقليم الذي زرنه .

وخوفاً من أن تضيق على الجامعة الأسبقية العلمية كما ذكرت ، فقد نشرت البعثة بعض نتائجها بصورة موجزة ، ولاتزال تعمل على ذلك ، بادئة بالبحوث التي تخشى عليها من تأخير النشر . ويمكن تلخيص عملنا من هذه الناحية على الوجه الآتي :

« أ » بحوث نشرت بالفعل :

- ١ - مقال في مجلة Nature الإنجليزية (سبتمبر سنة ١٩٣٧) .
- ٢ - خلاصة عن النتائج العلمية بمجلة L' Anthropologie الفرنسية (العدد الأخير سنة ١٩٣٧) .
- ٣ - بحث عن الجراد وأنواعه التي اكتشفتها البعثة بمجلة جمعية الحشرات الملكية المصرية (بالإنجليزية سنة ١٩٣٨) .
- ٤ - بحث عن التاريخ الجيولوجي لتكوينات الحجر الجيري بحضرموت . نشر بعدد ١٩٣٨ من : Comptes rendus de L'Académie des Sciences, Paris
- ٥ - تقرير مبدئي عن النتائج العلمية للرحلة بالمجلد الرابع من مجلة كلية الآداب (بالإنجليزية) .
- ٦ - ملاحظات عامة ومقارنات بين أقليم الصحراء الأفريقية وبلاد العرب ،

ضمن مقال عن عصر ما قبل التاريخ (بالإنجليزية) . في عدد سنة

١٩٣٧ - ١٩٣٨ من مجلة المجمع العلمي المصري . Bull . de L'Inst .

. d'Egypte.

« ب » بحوث في سبيل الاعداد للنشر (أو كانت في سبيل الاعداد عند كتابة هذا التقرير وتم نشرها الآن بالفعل) :

١ - تقرير عام مفصل عن الرحلة ، والمناطق التي زرتها ، وطريقة البحث التي أتبعها الأعضاء ، والنتائج العامة بشيء من التفصيل (بالعربية) .

٢ - بحوث تفصيلية عن مجموعة الحفريات الجيولوجية التي عدنا بها من اليمن وحضرموت ، وتحديد التاريخ الجيولوجي للتكوينات الرسوبية هناك .

٣ - بحوث تفصيلية عن مجموعة الحشرات والحيوانات الصغيرة التي عادت بها البعثة من اليمن وحضرموت (وتجري هذه الأبحاث تحت إشراف قسم الحشرات بكلية العلوم جامعة القاهرة) .

٤ - بحث عن الأعمال والاكتشافات الأثرية للبعثة بحضرموت ، ومقارنتها بآثار إفريقية الشرقية ، مع عناية خاصة بتطور فن الرسم والنقش على الحجر في ذلك الوقت .

٥ - بحوث ومقارنات عن النقوش السبئية والحميرية التي اكتشفتها البعثة باليمن وقد قام ببحثها أحد أعضاء البعثة (خليل يحيى نامى) بالقاهرة وبرلين لمدة عامين ، ثم تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه (أمام كلية الآداب) ، ومنح عنها الدرجة .

٦ - بحث خاص بالعناصر السلالية بين سكان جنوب بلاد العرب (وقد ألقى بالفعل في مؤتمر العلوم الانثروبولوجية الذي انعقد بكونينهاجن في صيف سنة ١٩٣٨ ؛ ونشرت خلاصته والمناقشات اللاحقة به في تقرير المؤتمر) .

٧ - بحث خاص بتطورات المناخ في الزمن الجيولوجي الرابع ، والأدلة الفزيوغرافية الخاصة به في اليمن وحضرموت (وقد ألقاه رئيس البعثة بالفعل في مؤتمر الجغرافيا الدولي الذي انعقد بأمستر دام في صيف سنة ١٩٣٨ ، ونشرت خلاصته والمناقشات اللاحقة به في تقرير ذلك المؤتمر) .

وسبيداً بنشر ما يقتضى الأمر التعجيل بنشره من هذه البحوث ، ويرجأ ما قد يكون من الحكمة زيادة التدقيق في تمحيصه ، والأناة في نشره .

* * *

وقبل أن نختم هذا التقرير ، لابد أن نشير بكلمة موجزة إلى الناحية الثانية من مهمة البعثة ، وهى الناحية الثقافية . فقد كان علينا ، كما ذكرت في بداية هذا التقرير ، أن نحمل رسالة مصر الحديثة الناهضة إلى هذا الركن من الجزيرة العربية ، وأن نعرف القوم هناك ببعض مظاهر النهضة المصرية الحديثة . ومع أن رحلتنا أنفذت في وقت عصيب ، إذ كانت الحرب الحبشية (بين إيطاليا والحبشة) مستعرة ، كما كانت الحالة الدولية شديدة الاضطراب في جنوب البحر الأحمر ، فلمن مهمتنا لم تكن من الصعوبة بما كنا نتصور ؛ فلقد استقبلتنا الحكومات والهيئات هناك أجمل استقبال ، كما أظهرت استعدادها في كل مكان للتعاون معنا ، والعمل المشترك في سبيل انجاح مهمتنا . وفيما عدا بعض الصعوبات التى صادفتنا باليمن ، نظراً للظروف الخاصة التى كانت تواجهها حكومة الامام يحيى بن حميد الدين في الداخل والخارج وقت زيارة البعثة ، فلمن برنامجنا العلمى والثقافى أنفذ على وجه هو أقرب ما يكون إلى الكمال .

وليس هذا مجال الافاضة والتفصيل فيما قوبلت به وفادتنا من ترحيب ، وما أظهره إخواننا اليمنيون والحضارمة من تقدير خالص لرسالتنا الثقافية ، ولا فيما بذله الأعضاء من مجهود ليكونوا عند حسن ظن الجامعة بهم حين شرفتهم بأن يكونوا رسل هذه الدعوة الثقافية . وإنما يكفى أن نأتى على خلاصة موجزة لأوجه نشاطنا في تبليغ الرسالة ، على وجه يجمع بين الواجب القومى من ناحية ، والغرض الاسمى من رسالتنا ، التى ترمى إلى إنهاء الوحدة الثقافية بين أمم المشرق العربى ، من ناحية ثانية .

ويمكن باختصار أن نلخص أوجه نشاطنا في النقاط الآتية :

١ — بدأت البعثة في عدن بالاتصال بالهيئات العلمية والثقافية ، والتعرف على القائمين بشئون النوادى العربية المختلفة بتلك المدينة ، التى كانت تعتبر أهم

مركز للنهضة الثقافية الحديثة في جنوب غرب بلاد العرب ، إذ هي تمثل نقطة الاتصال بالعالم الخارجى ، والقاعدة الأولى لكل دعوة ثقافية .

٢ - ثم زارت البعثة المنشآت التعليمية باليمن ، وتعرفت إلى القائمين بشأنها . كما طلب إليها أولو الشأن هناك إبداء بعض الملاحظات الخاصة بالتوجيه القومى وعلاقته بنظم التعليم الحديثة ، التى بدأت اليمن باقتباسها فى عدد صغير من المدارس فى تلك السنوات .

٣ - عملت البعثة على أثبات رغبتها فى التعاون المشترك مع وزارة المعارف اليمنية (إذ ذاك) . وذلك بأن اختارت ثلاثة من الشبان اليمنيين المتعلمين ، والذين ثبت حسن استعدادهم للاستفادة . وقد انضم هؤلاء الأعضاء إلى البعثة بقصد اعطائهم فكرة ولو مبدئية ، عن البحوث الحديثة وطريقة القيام بها وتدريبهم على بعض نواحي الدراسة التى يستطيعون الاشتراك فيها على قدر مؤهلاتهم ، كجمع الحشرات والآفات الزراعية ، وتعرف أنواع النباتات ، أو نقل النقوش القديمة ، وإجراء بعض الدراسات اللغوية باللهجات . . . الخ . ولعل هذه أول مرة تتبع فيها بعثة علمية من البعثات التى زارت اليمن هذه الخطوة ، التى نعتقد أنها أثبتت لآخواننا اليمنيين أن بعثتنا المصرية تختلف تمامًا فى حسن استعدادها للتعاون المشترك عن البعثات الفرنجية ، التى لا تجد الحكومة وأولو الشأن هناك طريقًا إلى تعرف شىء عن برامجها وخططها ، ولا عن طبيعة البحوث التى تقوم بها ، مما يؤدي فى كثير من الحالات إلى الشك فى أغراضها ، والريبة فى مراميها الحقيقية .

٤ - اتصل أعضاء البعثة بكثير من أفراد الطبقات المثقفة باليمن وعدن وحضرموت ، وأنشأوا معهم علاقات شخصية ، لا يمكن إلا أن تكون لها ثمارها فى توطيد اتصال هؤلاء الأفراد بمصر ، وتيسير الطريق لهم فى مداومة تتبع أوجه التقدم فى النهضة المصرية الحديثة .

٥ - اشتركت البعثة - بقدر ما سمح به وقتها - فى الاحتفالات الحكومية ، والمحافل الشعبية على طول الطريق ، وفى المدن الكبرى باليمن وحضرموت . وكان الأعضاء على الدوام يظهرون على نحو نرجو أن تكون قد تحققت به الدعاية

الطبية لمصر ، والمثل الصالح لما ينبغي أن تكون عليه بعثة علمية مصرية في بلاد عربية إسلامية شقيقة .

٦- لاحظت البعثة أن تفشى بعض مظاهر المدنية الحديثة بدون رقابة في جنوب غرب بلاد العرب ، في السنوات الأخيرة (خصوصاً بعد إدخال وسائل المواصلات الحديثة كالسيارة) قد أدى إلى شيء من القلق في نفوس بعض قادة الفكر هناك ، خصوصاً باليمن (وحتى في عدن نفسها) . وكان من نتيجة ذلك للأسف أن ظهر شيء من الريبة في شأن النهضة العصرية في بلد كمصر ، وصورت تلك النهضة على غير حقيقتها ، فكان ذلك مثاراً لشيء من الشك في إمكان انسجامها والروح الإسلامى انسجاماً كافياً ، بل وداعياً إلى غير قليل من الحذر من عواقب تفشيها من مصر إلى العالم العربى الإسلامى . ولكن البعثة بذلت كل جهدها في تبديد هذه الوسوس والمخاوف ، وفي إظهار جانب الحق من النهضة المصرية ، وإزهاق ما يحوم حولها من أراجيف . ونعتقد أننا ، والحمد لله ، وفقنا من هذه الناحية إلى حد كبير .

٧- وفي حضرموت زارت البعثة المنشئات التعليمية ، بما في ذلك جامع الرباط بتريم ، وهو أكبر معهد دينى بحضرموت . كما عنت بالتعرف إلى عدد كبير من الشباب المثقف هناك ، ومن قادة الفكر ، والداعين إلى النهضة . ويلاحظ من هذه الناحية ان الحضارمة بحكم اتصالهم بالعالم الخارجى ، وكثرة أسفارهم للعمل في التجارة ، قد أصبحوا أكثر استعداداً لاقتباس معالم النهضة الحديثة ، والأخذ بوسائل التقدم الحديث . وقد سهل ذلك بالطبع مهمتنا الثقافية بينهم إلى حد كبير .



من كل هذا يتبين إن البعثة قد حاولت أن تجعل إقامتها باليمن وحضرموت نافعة ومفيدة بقدر الإمكان ، فهي لم تقصر عملها على ناحية البحث العلمى في الأوقات المخصصة لذلك ، وإنما استفادت أيضاً من أوقات فراغها ، ومن ظروف الاستقبالات الرسمية وغيرها مما كان لزاماً عليها أن تساهم فيه كبعثة مصرية في بلاد عربية تربطها بمصر صلات الثقافة والجوار وصلات التاريخ منذ القدم . وقد

لأنبالغ إذا قلنا أن توفيقنا من هذه الناحية الثقافية لم يكن ليقبل عن توفيقنا من الناحية العلمية الصرفة . ولقد خرجنا من مناقشاتنا وأحاديثنا مع إخواننا العرب هناك بعدد من الاقتراحات العملية لما ينبغي أن يعمل للمستقبل ، وما يجب أن يبدأ به كخطوة أو خطوات عملية في سبيل توثيق العلاقات الثقافية وإنائها بين مصر وهذا الجانب من الجزيرة . ولكننا قبل أن نورد تلك الاقتراحات نحب أن نشير إلى نقطة خاصة نرى لزماً علينا أن نفصلها بالذات . ذلك أن موضوع الحديث الأول في مناقشاتنا مع مضيفينا باليمن وحضرموت كان دائماً يدور حول مكانة مصر الثقافية في المشرق العربي ، ومع أن الجميع كانوا يعترفون بهذه المكانة ، فإن الكثيرة منهم لم تكن لترى فيما تقوم به مصر الآن وفاءً كافياً لما يتبع هذه المكانة من واجبات والتزامات . فمصر حقيقة هي المركز الأول للثقافة العربية في عهدها الجديد ، وهي أسبق بلدان المشرق في مضمار التقدم الحديث ؛ ولكن شئونها ونهضتها أصبحت اليوم شديدة التعقيد بما اقتبسته من مظاهر الحياة الأوروبية الحديثة ، وبما قد ترمى إلى إحيائه من مظاهر الحضارة المصرية القديمة ، كما أن ثقافتها أصبحت في العهد الأخير شديدة الاتصال بشئونها الوطنية البحتة . وقد أدى ذلك في نظر محدثينا إلى أمرين هامين : (١) أن النهضة المصرية الحديثة أصبحت من التقدم والتعقيد بحيث يصعب تقليدها واقتباسها في بعض البلدان العربية الناشئة ، خصوصاً بلدان الجنوب كاليمن وحضرموت ، التي كانت بحكم موقعها الجغرافي أبعد عن العالم الأوروبي وأقل مقدرة على إقتباس معالم حضارته الحديثة وضمها من بلدان الشمال كالعراق وسورية وفلسطين . (٢) أن مصر نفسها أصبحت (أو كانت إلى عهد قريب جداً) شديدة الانهماك بشئونها الخاصة ، إلى حد لا يكاد يسمح لها بأن تقوم بحقوق الريادة بين أمم المشرق على وجه يحقق الخير للجميع . وفعلاً صارحنا عدد من ذوي الرأي ممن تحدثنا إليهم باليمن وعدن بأنه قد يكون أدنى إليهم ، وأسهل منالاً ، أن يتخذوا مثالهم في النهضة عن بلد كالعراق الذي كان إذ ذاك يضع الدعاية بين الأمم العربية في الموضع الأول من سياسته القومية ، فهو قد دعا اليمن إذ ذاك إلى إرسال بعثتين من الطلبة اليمنيين إلى مدارس العراق ، واحدة منهما للتخصص في الفنون العسكرية ، والأخرى لتلقى العلم المدني الحديث ، وهو قد تكفل بتعليم عدد من تلاميذ عدن في

مدارسه وإدعاء مصاريقهم (أو الجانب الأكبر منها) في الذهاب والاياب والأقامة بالعراق^(١).

ونعود إلى دور مصر في « الريادة » الثقافية بالشرق العربى ، وقد كانت أسبق أمر الشرق في احتكاكها بالغرب ، منذ أكثر من قرن من الزمان ، وهى بمواردها الجمة ، وتراثها الثقافى العظيم ، ثم باختباراتنا ومقدرتها (التقليدية) على هضم عناصر الثقافة الغربية الحديثة ، وصبغها بصبغة شرقية تستسيغها الأمم الإسلامية الراغبة في النهوض ، تستطيع أن تتولى « الريادة الثقافية » عن جدارة وحنكة ، وإن تضطلع بمهامها ومسئولياتها على نحو فاعل ومفيد . ولقد كانت العراق نفسها في سنوات لاحقة أولى الأمم العربية استعانة بمصر في نهضتها الحديثة ، واقتباساً للنظم المصرية التى إنما قامت على أساس التجربة - والتجربة القاسية أحياناً - خلال أجيال .

ولعل خير ما نستطيع أن نختم به هذا التقرير هو أن نتقدم ببعض الاقتراحات العملية ، التى يصح أن تبدأ بها مصر كخطوات مبدئية في سبيل قيامها بواجب الأمانة نحو أمم المشرق العربى الشقيقات واللائى يتبعنها في نهضتها الثقافية الحديثة . وهذه الاقتراحات يمكن تلخيصها في النقاط الآتية :

١ - أن تؤلف لجنة مشتركة ، أو مجلس أعلا مشترك ، يكون بين أعضائه من يمثلون مختلف البلدان العربية ، وبينها مصر ، ويوكل إليه رسم السياسة العامة لتوحيد مظاهر الثقافة بقدر الامكان ، وتوجيه النهضة الحديثة في البلدان العربية المختلفة توجيهاً يضمن التعاون المشترك والفائدة المشتركة . ولا بأس أن تنعقد تلك اللجنة على شكل مؤتمر دولى في مختلف عواصم المشرق العربى ، ولكننا نقترح أن يكون مكتبها الدائم بمدينة القاهرة (*).

(١) هذه الفقرة من التقرير الحالى كانت قد كتبت قبل أن تبدأ وزارة المعارف (التربية والتعليم) المصرية في الأخذ بأبواب توثيق علاقاتنا الثقافية بجنوب المشرق العربى ، وذلك بقبولها بعثة مؤلفة من عشرات التلاميذ من أبناء عدن (واليمن) بالمجان بالمدارس المصرية في العام الدراسى ١٩٣٨ - ١٩٣٩ . ثم في الأعوام التى تلت ذلك .

(*) يلاحظ أن هذا رأى أبدي قبل أن تبدأ جامعة الدول العربية ومنظماتها الثقافية وغيرها في عام ١٩٤٥ .

٢ - أن تؤلف لجنة مصرية قومية ، يكون بين أعضائها من يمثلون مصر في اللجنة المشتركة التي أشرنا إليها ، وتوضع تحت إشراف وزارة المعارف بصفة مؤقتة (وإلى أن تنشأ وزارة أو مصلحة للثقافة في مصر) (*) . ويوكل إلى هذه اللجنة تحديد نصيب مصر والتزاماتها حيال ريادتها الثقافية للمشرق العربي ، والإشراف على تنفيذ برنامجها العملي في الدعوة الثقافية .

٣ - أن تتابع الجامعة المصرية ، وكلية الآداب على الخصوص ، إيفاد البعثات العلمية والثقافية بشكل دوري إلى مختلف بلدان المشرق العربي . وهذه البعثات إما أن تكون على نمط بعثة اليمن وحضرموت ، بمعنى أن تتولى البحث العلمى التفصيلي ، إلى جانب القيام بمهمة الدعوة الثقافية ؛ وإما أن يقتصر عملها على هذا الجانب الأخير دون سواه . ونقترح مؤقتاً أن يكون نصيب كل قطر عربي بعثة مصرية في كل عامين أو ثلاثة .

٤ - أن تقوم مصر بإيفاد بعثات تعليمية دائمة ، قوامها عدد من المعلمين على نحو ما فعلت مع العراق والحجاز (ولكن على أساس أكثر سخاء من الناحية المادية فيما يختص ببعض البلدان العربية الأخرى) . ونقترح أن تبدأ وزارة المعارف بإيفاد البعثات التعليمية الدائمة إلى جنوب بلاد العرب على النحو الآتي : (أ) معلمان لمدارس عدن ، بالاتفاق مع إدارة التعليم ومدرسة الفلاح الحرة . (ب) ستة مدرسين لليمن (إن أمكن) ، إثنان بصنعاء ، وإثنان بلواء تعز ، وإثنان بلواء الحديدة ، على نحو يتفق عليه مع وزارة المعارف اليمنية . (ج) أربعة مدرسين (أو خمسة) لحضرموت ، إثنان بالملكلا ، على نحو يتفق عليه مع حكومة عظمة السلطان صالح القعيطي ، وإثنان (أو ثلاثة) بداخلية حضرموت ، على نحو يتفق عليه مع القائمين برعاية التعليم هناك من السادة آل الكاف ، والمشرفين على معهد الرباط وجمعية التعاون والأخوة بتريم . ولا شك أنه سيكون لهذه البعثات الدائمة بـعدن واليمن وحضرموت أثر كبير في نشر الثقافة المصرية

(*) يلاحظ أيضاً أن هذه الملاحظة قد أبديت قبل أن تقوم وزارة الثقافة في مصر عام ١٩٣٨ ثم وزارة الأعلام بعد ذلك بأعوام .

الحديثة، خصوصاً إذا أحسن اختيار الأشخاص ، ممن يصلحون لهذه المهمة الخاصة (*) .

٥- أن تدعو وزارة المعارف (التربية والتعليم والثقافة والجامعات المصرية) الحكومات والهيئات باليمن وعدن وحضرموت إلى إيفاد بعثاتها الدراسية إلى المدارس المصرية ، على أن تشجع مصر هذه البعثات من الناحية المادية على نحو ما تفعل العراق مع البعثات اليمنية والعننية التي تدرس بمدارسها الآن . ويلاحظ هنا أن تكاليف الإقامة بمصر من الغلاء النسبي بحيث لا تشجع أولى الشأن بجنوب بلاد العرب على إيفاد بعثاتهم إلى مصر ، إلا إذا قامت هذه الأخيرة بشيء من المساعدة المادية .

٦- أن تعنى المعاهد المصرية العالية ، والجامعة بنوع خاص ، بتشجيع الطلبة العرب الجنوبيين ، ممن يصل تعليمهم إلى مرحلة الدراسة الجامعية . وبعضهم الآن (خصوصاً الحضارمة) قد التحق أو تخرج بالفعل في كلية الآداب بمصر . وهؤلاء بالطبع هم قادة الفكر في المستقبل ، عندما يعودون إلى بلادهم ، وليس عسيراً على الجامعة أن تتدبر وسائل مساعدتهم ، والعناية بهم ، وأن تشجع أمثالهم في المستقبل على اتمام دراساتهم العالية بمصر ، على نحو ما تفعل الآن مع الطلبة العراقيين والسوريين والفلسطينيين وغيرهم .

٧- أن تنظم الدعوة الثقافية العامة بين مصر وبلدان المشرق العربى الجنوبى ، على شكل يقرب مظاهر الثقافة المصرية إلى إخواننا العرب هناك ، ويحببهم فيها من ناحية ، كما يزيد من معرفة الجمهور المصرى المثقف بهذه البلاد ، من ناحية أخرى . ويكون تنظيم هذه الدعوة عن طريقين : (أ) فيما يختص باليمن وعدن وحضرموت تسعى الجامعة لاقناع أولى الأمر هنا بضرورة الاسراع بتقوية محطة الإذاعة المصرية ، على نحو يجعل من الممكن الاستفادة منها في إذاعة برنامج

(*) هذا كلام تحقق فيما بعد في صوره أوسع وأروع كثيراً . وتحدثاً بنعمة الله فإن المؤلف يذكر أنه قد عهد إليه عدة سنوات ، وإبتداءً من عام ١٩٥٠ شرف الإشراف على برامج التعاون المصرى مع المشرق العربى الشقيق (في كل من آسيا وإفريقية) في مجال التعليم والثقافة حتى بلغ عدد أفراد البعثات المصرية في تلك البلاد آلافاً عديدة .

منظم للدعوة الثقافية في تلك البلاد . ولطالما سمعنا الشكايات ونحن بجنوب بلاد العرب (عام ١٩٣٦) من أن برامج الإذاعة المصرية غير مسموعة ، نظراً لضعف المحطة ، ولأنها ، حتى في حالة السماع ، لا تعنى كثيراً بالشئون العربية وأخبار دول الشرق العربي . ولا نكون مبالغين إذا قلنا أن مسألة تقوية محطة الإذاعة المصرية (وجعلها ذات موجة قصيرة) ، وإصلاح البرامج والعناية بها ، ينبغي أن تلقى من ذوى الشأن هنا العناية السريعة الواجبة ، نظراً لأهميتها من الوجهتين القومية والثقافية (*). (ب) فيما يختص بالجمهور المصرى ، تنظم الجامعة ، وكلية الآداب على الخصوص ، بعض المحاضرات الدورية عن المشرق العربى الجنوبى ، وسكانه ، وحالتهم الاجتماعية والثقافية الخ ، ويصحب هذه المحاضرات بعض النشرات إن أمكن ، عن الروابط بين مصر وهذه البلاد ، وأهمية توثيق العلاقات الثقافية بها .

الأقتراحات العملية التى رأينا أن نتقدم بها فى ختام هذا التقرير . تلك بعض وهى بالطبع لا تدخل بعجلها فى إختصاص كلية الآداب ولا فى إختصاص الجامعة ، ولكننى رأيت أن أتقدم بها للتصرف فيها بما ترى الكلية وما ترى الجامعة ، ولعل هذه الأخيرة تستطيع أن تتقدم بما تقره من هذه الاقتراحات إلى أولى الشأن ، فى الهيئات الحكومية ، التى تستطيع أن تساهم فى إداء رسالة مصر الثقافية .

* * *

والآن وقد انتهينا من عرض هذه الخلاصة عن أعمال البعثة ، وما وفقت إليه من الوجهتين العلمية والثقافية ، نرجو أن نكون فيما ذكرنا بعض ما يحقق الأمل فى إنتاج هذه البعثة ، التى حبت الجامعة أعضائها بكل رعاية ، ومنحتهم كل تشجيع ، سواء أكان ذلك بتقرير إيفادهم وتيسير رحلتهم ، أم بتوفير وسائل البحث والدراسة لهم بعد عودتهم . وإذا كانت بعثتنا المتواضعة قد ساهمت فى أداء رسالة الجامعة على وجهها الصحيح - وهى ، كما يتفق الجميع ، رسالة لا تقوم على أساس التعليم ونشر الثقافة العالية فقط ، وإنما تقوم كذلك على المساهمة بأسم مصر فى البحث العلمى ،

(*) لقد تغير هذا الوضع تغيراً كاملاً بعد انشاء وزارة الإعلام المصرية .

والاستكشاف ، والاضافة إلى المعرفة البشرية ، ثم العمل على إشعاع نور العلم الحديث إلى المشرق العربى ، وإحياء روابط الثقافة بين شعوبه ، وإقامة « الريادة » المصرية بين هذه الشعوب على أساس العلم والثقافة والمعرفة . . . إذا كانت بعثتنا قد ساهمت بنصيب متواضع فى هذه السبيل ، فإنما الفضل فى ذلك يرجع أولاً وقبل كل شىء إلى ما أسداه نحونا من قبل أساتذتنا بكليتى الآداب والعلوم من الإرشاد وحسن التوجيه ، وما قدمته إدارة الجامعة من رعاية ومساعدة .

« وعلى الله قصد السبيل » .

رقم الإيداع : ١٩٩٢/٩٣١٣
I.S.B.N. 9777-09-112-1

مطابع الشروق

القامرة : ١٦ شارع جرّاد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨١٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

هذا الكتاب

يحاول صاحب الكتاب أن ينشر فيه على الناس قصة أرض العروبة وأهلها ، لعله بذلك أن يؤدي بعض ما يوجب عليه علمه بنبا هذه الأرض وجغرافيتها خلال التاريخ ، وانقطاعه لدراسة هذا النبا والكشف عن بعض أسرار وخوافيه خلال نصف قرن كامل أو ما يزيد .

ويصدر هذا الكتاب مواكبا لإحدى الأزمات التاريخية الكبرى التي صادفتها الأمة العربية وحركة الوحدة العربية خلال تاريخنا المعاصر ، بعد أن سرنا في هذا القرن الميلادي العشرين على طريق بناء الوحدة العربية وارساء دعائمها ، ملتقية مع الوحدة الإسلامية الشاملة حيناً ، ومتميزة عنها حيناً آخر . ولقد تأرجحت وحدتنا في تماسكها في العقود الأخيرة ، ولكن عقيدة الوحدة العربية بقيت في نفوس أهل العلم والمعرفة والإيمان بالعروبة وحضارتها التاريخية التي صمدت على الأيام ، حتى جاءت الأزمة التي شهدناها مطلع العقد الأخير من هذا القرن في منطقة رأس الخليج العربي ، التي حارب العرب فيها بعضهم بعضاً ، وطمع الجيران في بعضهم البعض بغير حق وعن غير حكمة ، واهتز وجدان الغيورين من العرب على أحلامهم وضح وحدثهم . فرأى صاحب هذا الكتاب أن يبادر إلى جمع أوراقه عن العروبة ووحدتها ، إيماناً منه بأن ما أمر الله به أن يوصل بين العرب لا يمكن أن تهزه أزمة طارئة ، مهما اكفهرت أجواؤها أو اكتوت بلظاها أفئدة الأمة ولقد كان إيمان صاحب الكتاب بتاريخ أمة العرب ووحدتها حافزاً لأن يصدر كتابه في هذا التوقيت بالذات ، لعله بذلك أن يرد الثقة بأمتنا الخالدة ووحدتها الفكرية والروحية والحضارية والإنسانية إلى بني عروبه .

لعل الضارة تكون نافعة . ولعل أزمة الخليج أن تكون بداية مطلع فجر جديد ولعلها أن تكون الحافز لأن يسعى العلماء وأهل الفكر وأهل الإيماء في مقدمة طلائع الشعب العربي الواحد على طريق « ريادة » الناس إلى جادة العربية الواحدة نحو المستقبل الواحد .

« وعلى الله قصد السبيل »

